

فكر وإبداع

أبحاث علمية جامعية متخصصة محكمة
مؤسس الإصدار والمشرّف عليه
أ.د. حسن البنداري

- القراءة النقدية العربية بين أفق التأويل وضوابط المنهج
Arabic Critic Reading between the Interpretation Horizon and the Approach Regulations
- مفهوم الطبع وعناية العرب به عند حازم القرطاجني
- قصيدة ربيع الشقاء للشاعر عبدالله البردوني دراسة تفكيكية
- الحروف التي اختلف فيها القدامى والمحدثون دراسة صوتية تطورية
- دلالة الأوزان الصرفية المزينة عند عبدالقاهر والزمخشري
- هدايات سورة العاديات الترتيب والدلالات
- ولاية طرابلس في إطار الصراع العثماني - الأوروبي
- الاضطرابات الصوتية لدى الطفل الأصم نحو برنامج تكميلي بديل مقارنة نفسية لسانية
- ليبيا ولاية عثمانية
- التشريح النفسي لمحاوّل الانتحار بغزة (دراسة إكلينيكية تحليلية)
- أثر رأس المال الفكري على الأداء التنظيمي بالجامعات



نوفمبر ٢٠١٧



العدد (١١٧)

فكر وإبداع

إصدار علمي جامعي محكم
يعنى بنشر أبحاث علمية جامعية متخصصة محكمة
يصدر عن رابطة الأدب الحديث

القاهرة: ٦ شارع بنك مصر - ت: ٢٣٩٣٤٦٩٥

رئيس مجلس إدارة الرابطة: الأستاذ/ فايز جعفر
مؤسس الإصدار عام (١٩٩٩) والمشرّف عليه (عضو مجلس إدارة الرابطة)

أ.د. حسن البنداري

البريدي الإلكتروني :

a_badawy56@yahoo.com

alaa_samy_1990@yahoo.com

dr_hassan5@yahoo.com

تسعى الرابطة إلى:

- إرساء مفاهيم البحث العلمي.
- الكشف عن الباحثين المتميزين والمغمورين.
- تنمية قدراتهم الفكرية والبحثية.
- المشاركة في تحديد معالم ثقافتنا المعاصرة.
- عقد حوارات متنوعة مع كافة الاتجاهات.
- التوفيق بين الصيغة التراثية والصيغة الحديثة.

لوحة الغلاف: نرمين المصري

جمع وتنسيق : أحمد على محمد بدوى -

محمول : ٠١٢٢٧٥٢٠٥٥٩ - ٠١٢٤٠٨٠٢٥٢

مطبعة المنتصر بالله بالإسكندرية

ت: ٠٣/٥٢٧٢٠٩٩ - ٠١٠٠٦٦٠٨٢٤٤

فكر وإبداع

أبحاث علمية جامعية متخصصة محكمة

الناشر:

مكتبة بورصة الكتب للنشر والتوزيع

بورصة الكتب



مكتبة

بورصة الكتب للنشر والتوزيع

٢٥ شارع شريف- القاهرة

٠٢/٢٣٩٢٠٣٦٩-٠١٥٢١٧٣٢٧٧٧-٠١٠٠١٨٨٩٣٦٣

شبكة كتب الشيعة



رقم الإيداع: ٢٠١٧/٢٤٣٧

الترقيم الدولي:

879-779-6105-86-6

shiabooks.net

رابط بديل < mktba.net

فكر وإبداع

مؤسس الإصدار والمشرف عليه (عضو مجلس إدارة الرابطة)

أ.د حسن البنداري

المشاركون في الإصدار (أعضاء الرابطة)

أ.د. محمد سعيد الورقي	د. محمد سـالمان
أ.د. علي علي صبح	د. محمد رياض العشيري
أ.د. وفاء إبراهيم	د. مهـاسـ لامة
أ.د. كاميليا صبحي	د. أنس عزقـول
أ.د. محمد مصطفى سلام	د. رباب عزقـول
أ.د. سامية عبد الرحمن	د. عصام عزقـول
أ.د. نادية يوسف كمال	د. علياء محمد أحمد
أ.د. أماني فهميم	د. أحمد عبد التواب
د. إلهام سيف الدولة حمدان	د. نادية عبد اللطيف
محمد قطـب	د. زينب عبد الكريم
نبيل عبد الحميد	د. آلاء عبد الغفار
د. إيمان صحصاح	د. نجوى شحاتة
د. ميرفت سليمان	آلاء سامي
د. مصطفى عبد الوارث	آيات شعبان

أمانة الإصدار: د/ علياء محمد أحمد - آلاء سامي - آيات شعبان

التدقيق اللغوي: آمال عثمان

المراسلات: توجه باسم المشرف على الإصدار أ.د حسن البنداري

الجيزة - الهرم - ٤ شارع ابن بطوطة

تليفون: ٣٣٩٣٣٧٠١ - ٣٣٩٣٣٦٥٦

محمول: ٠١٢٢٣٣٢٢٧٢٦

الناشر: مكتبة بورصة الكتب للنشر والتوزيع

٢٥ شارع شريف - القاهرة

٠٢/٢٣٩٢٠٣٦٩ - ٠١٥٢١٧٣٢٧٧٧ - ٠١٠٠١٨٨٩٣٦٣

العدد (١١٧): نوفمبر ٢٠١٧

مستشارو العدد (١١٧)

- | | |
|--------------------------|--------------------------------|
| ١-أ.د. أحمد الشعراوى. | ١٣-أ.د. صبرى إبراهيم السيد. |
| ٢-أ.د. أحمد كشك. | ١٤-أ.د. عائشة عبد العال. |
| ٣-أ.د. أحمد يوسف سليمان. | ١٥-أ.د. ماجدة عبد السميع. |
| ٤-أ.د. آمال حسن. | ١٦-أ.د. محمد رجب الوزير. |
| ٥-أ.د. أميرة أحمد يوسف. | ١٧-أ.د. محمد العبد. |
| ٦-أ.د. أميمة خشبة. | ١٨-أ.د. محمد عبد المطلب. |
| ٧-أ.د. جمال عبد الناصر. | ١٩-أ.د. محمد عناني. |
| ٨-أ.د. حسن الخولى. | ٢٠-أ.د. محمد نادر. |
| ٩-أ.د. حنان الجندي. | ٢١-أ.د. محمد يونس. |
| ١٠-أ.د. رقية شلبى. | ٢٢-أ.د. مصطفى رياض. |
| ١١-أ.د. زين نصار. | ٢٣-أ.د. نبيل غنايم. |
| ١٢-أ.د. سهام هاشم. | ٢٤-أ.د. وفاء عبد القادر مصطفى. |

الصفحة	المحتويات	
٩	د.حسن البنداري	- افتتاحية العدد (١١٧)
		المادة العربية
١١	د/ بوعر عارة طاهر محمد	القراءة النقدية العربية بين أفق التأويل وضوابط المنهج Arabic Critic Reading between the Interpretation Horizon and the Approach Regulations
٣٧	د/ داود امحمد	مفهوم الطبع وعناية العرب به عند حازم القرطاجني
٥٥	علوة حزام مصلح العرياني	قصيدة رباعية الشتاء للشاعر عبدالله البردوني دراسة تفكيكية
٨٥	د/ عزة عبد الفتاح محمد محمود	الحروف التي اختلف فيها القدامى والمحدثون دراسة صوتية تطورية
١٠٩	رابحة محمد سعد	دلالة الأوزان الصرفية المزيدة عند عبدالقاهر والزمخشري
١٥٥	د/ معنوقة بنت محمد الحساناني	هدايات سورة العاديات الترتيب والدلالات
١٨٩	د/ محمد الحراري عبد السلام	ولاية طرابلس في إطار الصراع العثماني - الأوروبي
٢١١	د/ حميداني عيسى	الاضطرابات الصوتية لدى الطفل الأصم نحو برنامج تكميلي بديل مقارنة نفسية لسانية
٢٣٥	د/ محمد الحراري عبد السلام	ليبيا ولاية عثمانية
٢٧١	د/ جميل حسن عطية الطهراوي إلهام حمزة الخواجة	التشريح النفسي لمحاولي الانتحار بغزة (دراسة إكلينيكية تحليلية)
٣٢١	فوزي عبد الكريم مفتاح الصادق	أثر رأس المال الفكري على الأداء التنظيمي بالجامعات الليبية دراسة ميدانية

المادة غير العربية		
1	Grace Paley: A Contemporary Minimalist Writer	Dr. Sherin Abdel Ghaffar Mohammed Ahmed

د. حسنة البنداري

يحرص إصدار **فكر وإبداع** على تواصل مسيرته العلمية والثقافية ببحوث علمية محكمة لباحثين جادين يهدفون إلى إرساء مفهوم البحث العلمي الأصيل، وذلك بالعدد (١١٧) الذي يضم أحد عشر بحثاً باللغة العربية، وبحثاً باللغة الإنجليزية.

أما البحوث العربية فهي:-

القراءة النقدية العربية بين أفق التأويل وضوابط المنهج Arabic Critic Reading between the Interpretation Horizon and the Approach Regulations للدكتور/ بوعرعارة طاهر محمد، ومفهوم الطبع وعناية العرب به عند حازم القرطاجني للدكتور/ داود امحمد، وقصيدة ربيعية الشتاء للشاعر عبدالله البردوني دراسة تفكيكية لـ/ علوة حزام مصلح العرياني، والحروف التي اختلف فيها القدامى والمحدثون دراسة صوتية تطورية للدكتورة/ عزة عبد الفتاح محمد محمود، ودلالة الأوزان الصرفية المزيدة عند عبدالقاهر والزمخشري لـ/ رابحة محمد سعد، وهدايات سورة العاديات الترتيب والدلالات للدكتورة/ معتوقة بنت محمد الحسانى، وولاية طرابلس في إطار الصراع العثماني – الأوروبي للدكتور/ محمد الحراري عبد السلام، والاضطرابات الصوتية لدى الطفل الأصم نحو برنامج تكميلي بديل مقارنة نفسية لسانية للدكتور/ حميداني عيسى ليبيا ولاية عثمانية للدكتور/ محمد الحراري عبد السلام، و التشريح النفسي لمحاوли الانتحار بغزة (دراسة إكلينيكية تحليلية) للدكتور/ جميل حسن عطية الطهراوي و لـ/ إلهام حمزة الخواجة، وأثر رأس المال الفكري على الأداء التنظيمي بالجامعات الليبية دراسة ميدانية لـ/ فوزي عبد الكريم مفتاح الصادق.

وأما البحث الإنجليزى فهو:

❖ Grace Paley: A Contemporary Minimalist Writer

BY: Dr. Sherin Abdel Ghaffar Mohammed Ahmed

المادة العربية

❖ البحث

القراءة النقدية العربية

بين أفق التأويل وضوابط المنهج

*Arabic Critic Reading between the Interpretation
Horizon and the Approach Regulations*

د/ بوعرارة طاهر محمد (*)

ملخص بالعربية:

عرفت الدراسات النقدية العربية المعاصرة تحولاً جذرياً انطلاقاً من المفاهيم النقدية الواردة عن الدراسات الغربية؛ سواء في المفاهيم أو في التصورات، وبصورة أوضح تغير المنهج النقدي تغيراً تاماً، وذلك بسبب اعتبارات علمية واكبت دينامية التغير المجتمعي، ولا يعد ذلك عيباً أو تخلياً عن منهج الدراسة النقدية القديمة؛ بل يعتبر إضافة علمية سائحة للاطلاع على حقل المعرفة الإنسانية.

وبظهور الدراسات اللسانية المعاصرة، زاد التوجه نحو هذا النوع من التحليلات المبنية على نظريات وتطبيقات لنصوص مختلفة تنطلق ابتداءً من اعتمادها على أنماط التحليل النصي الغربي.

ومن ثم صار النقد يقرأ ككتابة، ومن جهة أخرى لم يعد الأثر الأدبي حكراً على لغة ناقد بعينه بسبب رمزيته، وبسبب انفتاح الدراسات اللغوية والأدبية انفتاحاً كلياً.

فهل ما أنتجته المدرسة الغربية؛ تمثلته المدرسة العربية النقدية المعاصرة في تحليلات النصوص العربية أم لا؟! ...

(*) المركز الجامعي أحمد بن يحيى الوشريسي - كيسمسينت - الجزائر

ملخص بالإنجليزية:

Abstract

Modern Arab critic studies have undergone a radical shift starting from the critical concepts of Western studies, whether in concepts or perceptions, and more clearly, the complete change of the critic approach. This is due to scientific considerations which accompanied the societal change dynamics. It is neither a flaw nor an abandonment of the approach of the ancient critic study, but it is considered as an additional scientific opportunity to the field of human knowledge.

With the emergence of contemporary linguistic studies, the trend towards this kind of analysis based on the theories and applications of different texts has increased, starting with their reliance on the Western scriptural analysis patterns.

Hence, criticism is read as written. On the other hand, literary effect is no longer confined to a particular language criticism because of its symbolism, and the whole openness of linguistic and literary studies.

Is what the Western school produced adopted by the Modern Arab Critic School in Arabic text analyses or not?!

..

Keywords: Arab critics, concepts, perceptions, human knowledge, Western school

مهاده:

في أحد تصريحاته للصحافة صرّح الكاتب العالمي الشهير غابريال غارسيا ماركيز أنه يكره الفكرية، بمعنى أن يتم تحويل العالم الواقعي إلى نوع من النظرية الجامدة، فوجه بسؤال واضح من المناقش: هل تكره المنظرين؟ قال: نعم، وأساساً لا أستطيع فهمهم (...). ولذلك يقول عني كثير من النقاد أنني لست شخصاً مثقفاً، فيستدرجه الصحفي إلى سؤال أكثر جرأة، وهو: هل تعتقد أن النقاد يصنفونك بدقة أكثر من اللازم؟ فأجاب: النقاد بالنسبة لي هم المثال الأوضح للفكرية، أولاً: فإن لديهم نظرية حول ما يجب على الكاتب أن يكونه، ويحاولون أن يجعلوا الكاتب ينسجم مع نموذجهم، وإذا لم ينسجم يحاولون دفعه بالقوة (...). إنهم يدعون لأنفسهم صفة الوسيط بين الكاتب والقارئ. لقد حاولت دائماً أن أكون كاتباً واضحاً ودقيقاً، محاولاً أن أصل إلى القارئ مباشرة دون الحاجة للمرور عبر الناقد^(١).

إن هذا التصريح يذكرنا بقصة أخرى تراثية، وقعت بين الناقد اللغوي عبد الله بن أبي إسحاق والشاعر الفرزدق حين قال الأول: علام رفعت؟ فرد الثاني: على ما يسوؤك وينوؤك، علينا أن نقول وعليكم أن تتأولوا^(٢*).

المتأمل في المنتج الثقافي العربي داخل الدراسات النقدية الأدبية، أو على مستوى التفكير الفلسفي الإيديولوجي يكتشف تبلور اتجاهات البحث في

^١- متعة المتخل (حوارات مع كتاب عالميين)، الناشر: دار التلوين، تر/ نايف الياسين، ٢٠٠٩، دمشق، سوريا، ص/١٩٢.

^٢- قراءة التراث النقدي، د. جابر عصفور، مؤسسة عيال للدراسات والنشر، ط١، ١٩٩١، ص/١١.

صورة نمطين، أحدهما يتناول النص أو العمل الأدبي وفق آليات البحث الغربي دونما موارد أو قلق، حيث يأخذ هذا الاتجاه صورة هذا الإجراء بمثابة مسلمة علمية، وحقائق لا ينبغي تجاهلها أو الشك فيها، ويأخذ الاتجاه الثاني - على قلته - صورة البحث في التراث نظريا دونما مباشرة النص عمليا وإجراءيا، فلا نرى أعمالا أدبية كثيرة كتلك التي مارسها النقاد الأوائل، وأكثر ما نجد هذه الأعمال تأخذ صورة مذكرات جامعية ورسائل بحث لا تقارن الإطار الذي أنشأت فيه، ثم هي تكاد تكون متكررة بشكل فاضح.

وظلّ هذان الاتجاهان متلازمين طيلة فترة طويلة أدت إلى تبلور مسألة ثنائية التأسيس أو الإقصاء بين الاتجاهين، على المستوى النظري في شكل جدال معرفي بين النظرة ذات المرجعية الغربية، أي: أن الممارسة النقدية اتجهت ضمن نظرة معرفية موسعة تركز على تقديم ما تم إنتاجه لدى الغرب من نظريات، وبالأخص نظرية القراءة، حيث تمّ حاليّاً تطبيق نتائج تلك النظريات على النصوص الأدبية العربية، مما أفرز سؤالا إشكاليا حول مدى ملائمة تلك القواعد النظرية المؤسسة وفق النمط الغربي على تلك النصوص المختارة؟!

ومن خلال ذلك برز منهج النقد الواسف Metacritisme من حيث "هو تأصيل معرفي للمقولات العقلية التي تنطوي عليها المفاهيم المنهجية والعمليات الإجرائية للنقد (أو القراءة) وتصدر عنها"^(١).

ثم إن النظرة الثانية المؤسسة وفق النمط التراثي؛ والتي تنطلق من كون النص في أساسه نص عربي خالص لا ينبغي ممارسة النقد عليه (القراءة) بنظرية غير عربية، وبالتالي كل ما ينتج سيصير حتما مفارقا

^(١) - قراءة التراث النقدي، د. جابر عصفور، مؤسسة عيال للدراسات والنشر، ط١، ١٩٩١، ص/١١.

لحقيقة إنتاجه، فتوجه البحث حول محاولة قراءة النصوص العربية القديمة، ولكن تلك القراءة المنتجة إنما هي تكرير تدرج في شكل اتخذ مبدأ البداية هو ذاته نهاية النهاية.

وفي مجال الدراسة الأدبية الخالصة تاريخياً نجد تحولاً في مسارات هذا النقد، وهذا التحول ينبني على انقطاع معرفي بين مرحلة وأخرى من الصعب محاولة إدراكها، أو تحديد التخوم الكاشفة لها، وهو ما يؤكد جابر عصفور "كما نعرفه من تاريخ النقد الأدبي [يقول جابر عصفور] بوجه عام هو أن كل تغيير حاسم في مجال المعرفة الأدبية يقترن بعملية انقطاع معرفي، وأن هذا الانقطاع لا يتأسس إلا بانعكاس النقد على نفسه، وازدواج حركته التي يتحول بها من لغة واصفة لموضوع هو غيرها إلى لغة واصفة لموضوع هو إياها، بالمعنى الذي يغدو معه النقد لغة واصفة لموضوعها هو عين ذاتها، وذاتها هي عين موضوعها الذي يدخل عصراً جديداً ومرحلة جديدة بتغير نظرة الذات إليه أو تحديقها فيه"^(١).

ويعتقد الدكتور جابر عصفور أن قراءة التراث لم تكن بريئة، وأن الأسئلة كانت تترى عليه من خلال أصدقائه حول تحديد الموضوعية، ومن ثم الوصول إلى نص بريء من الانتقادات، كان السؤال كيف نحدد معرفياً العلاقة بين المفسر والمفسر؟ أي: هل هناك حدود قصوى للانقراء في النص القديم؟ (...) وهل حضور التراث حضور (هناك) في زمان انقطع؟ أم أنه حضور (هنا) من زمان ممتد؟^(٢).

^١- قراءة التراث النقدي، د. جابر عصفور، مؤسسة عيال للدراسات والنشر، ط١، ١٩٩١، ص/١٦.

^٢- المرجع نفسه، ص/٥٠.

إن هذا السؤال بالنظر إلى الممارسات النقدية النظرية منها والتطبيقية كما أسلفت الذكر يعد سؤالاً مشروعاً، وبالأخص إذا نظرنا إلى تلك الممارسات في حدود موقعها الذي تصدر منه وعنه، فبالنسبة إلى ما يقدم في الدراسات العربية الحديثة نجد أن قراءة التراث هي إجابة مباشرة عند عدد غير قليل ممن مارس النقد على خطأ الدراسات الغربية نتيجة انفتاح فضاء المعرفة على العديد من تلك الدراسات؛ وهي إجابة تقطع الصلة بالمنهجية القديمة وفق منهجية جديدة تقرر إجابات غامضة لكثير من آليات القراءة فضلاً عن إجابة مقنعة وواضحة.

وهذا التحول حول النظرة الغربية، أو بالأحرى التوجه إلى الممارسة الغربية ومحاولة إسقاطها على النصوص العربية لم يكن وليد لحظة مفارقة البتة، بل كانت هناك محاولات عديدة كشفت عن نفسها، "في فترات من تاريخ النقد وبالأخص مع محمد مندور في نظر جابر عصفور حيث تحول النقد إلى قراءة إسقاطية تتسم بعملية تقييم حادة، إذ إنها رفعت من شأن الذوق لتهبط بالنظر، وأعلنت من الطبع على حساب الصنعة، وقرنت النقد بالفن لترقى به على العلم وتسامت بالنقد التطبيقي على حساب النقد النظري، وفي الوقت نفسه رفعت النقد التطبيقي على كاهل البلاغة"^(١) التي لم تكن مطلقاً نظرية في القراءة بقدر ما كانت تمثل آليات قرائية ووسيلة لفهم النصوص.

ولعل ذلك كان في صالح الأدب، بله هو "من حسن حظ الأدب الذي هو أدق وأرهم وأعرق وأغنى من أن نخطط له طريقه، الأدب شيء غير دقيق بطبيعته، ومحاولة أخذه بالمعادلات جنائية عليه، الأدب مفارقات، ونقد الأدب وضع مستمر للمشاكل الجزئية، فقد يكون جماله في تكرار اسم أو نظم

^(١) المرجع نفسه، ص/ ٢٨.

جملة أو كبت إحساس أو خلق صورة أو التأليف بين العناصر الموسيقية في اللغة^(١) ولكن مع دراسة نقدية حديثة للباحث فاروق محمود الحبوبي بعنوان: الفكر النقدي عند محمد مندور نجده يؤكد أن مندور دعا إلى "تطبيق المنهج الفقهي - فقه اللغة - على غرار ما فعل عبد القاهر الجرجاني من المتقدمين وعلماء اللسانيات من المتأخرين، فقال: "الأدب فن لغوي كما قلت، فمنهجه هو المنهج الفقهي الفني كما فهمه عبد القاهر الجرجاني وطبقه في دلائل الإعجاز..^(٢) وقال: "المنهج الذي أدعو إليه هو المنهج الفقهي - منهج فقه اللغة - وسوف نرى ذلك المنهج يبتدئ بالنظر اللغوي لينتهي إلى الذوق الأدبي الذي هو لاشك متحكم في كل ما يمت إلى الأدب بصلة."^(٣)

نعلم إذن أن الذوق الأدبي يتمكن من إدراك خفايا الكلمات وإحياءاتها، في حين يتمكن فقه اللغة من تحليل التراكيب ومنظوماتها^(٤)، ونحن إذا نظرنا إلى الفترة التي يتحدث عنها جابر عصفور نجدها فترة مليئة بالأحداث التي رسمت ملامح التوجه النقدي في تلك الفترة، ولم تستمر هذه الفترة على طولها أمام الأحداث العملية التي سرعت بالتغير نحو وجهة أخرى تعتبر حاسمة في تاريخ الدراسة النقدية الحديثة لارتباطها المباشر بالعولمة، هذه الفترة التي تغيرت نتيجة موجة الحداثة مع ما تحمله من أفكار ثورية في مجالات متعددة لم تقتصر على الدراسات الأدبية فحسب بل تخطت كل الأبعاد بظهور الأشكال المتعددة لوسائل الاتصال والتواصل، نحت بالنقد إلى النظرة العلمية على حساب النظرة الفنية السابقة، مدعمة اتجاهها بالنظر

^١ - في الميزان الجديد، محمد مندور، القاهرة - دار نهضة مصر للطبع والنشر، ١٩٧٣، ص/١٧٧-١٧٨.

^٢ - في الميزان الجديد، ص/١٨٥.

^٣ - المرجع نفسه، ص/١٨٢.

^٤ - <http://www.ahlulbaitonline.com> (٢٠١٥/١٢/٢٠)

العقلي الذي يزن الأمور، ويكشف عن الغوامض من خلال التساؤلات المنطقية^(١).

وإذا نظرنا إلى دراسة الباحث المتأخرة نجد أن مندور قد دعا إلى نفس النزعة التي حاولت أن تخرج الدراسة النقدية من مجال الدراسة الأدبية إلى مجال الدراسة اللغوية، إذ معروف أن منهج فقه اللغة هو منهج لغوي بكل ما تحمله الكلمة مما يجعلنا نعتقد أن محمد مندور تحرك مع الموجة الحداثية وإن لم يكن يصرح بذلك، ففي هذه الفترة التي يتحدث فيها مندور عن ضرورة ربط الدراسة النقدية بالدراسة اللغوية، نجد أن الدراسة اللغوية قد أحكمت قبضتها على المجالات الأدبية لتحولها إلى الدراسة اللغوية عند الغرب؛ وهي الموجة التي تحركت خلالها الأبحاث اللغوية خاصة فعرفت نمواً وتطوراً كبيراً مع دي سوسير ومن بعده من المدارس اللغوية المختلفة التي نشأت مع البنيوية في تلك الفترة، ولم يكن النقد الأدبي بمنأى عن ذلك التحول ومن هنا تجسدت تلك العلاقة بين النقد والمرجعية اللغوية بشكل جلي واضح دونما خفاء.

النقد والمرجعية اللغوية:

لا يمكن أن نفصل الدراسة النقدية عن المرجعية اللغوية، وقد يعتقد البعض أن العنوان الذي صدرت به هذه الفقرة يعتبر تحصيل حاصل، ولكني أزعم بهذا العنوان أن الدراسة النقدية تحولت لتكون أكثر علمية بالاعتماد على القواعد والضوابط المنهجية التي تنتظر للممارسة النقدية بأشكالها المختلفة، خصوصاً إذا علمنا أن علم اللغة بأشكاله هو في الأساس مجموعة تنظيرات، الوعي بها يعد وعياً بالعمل الأدبي، فنحن لا نتحدث عن تراكيب نحوية وتغييرات صرفية مجردة عن طبيعة النص الذي يحملها؛ ولذلك فإن

^١ ينظر: قراءة التراث النقدي، دجابر عصفور، مؤسسة عيال للدراسات والنشر، ط١، ١٩٩١، ص/٢٨.

"النقد الحديث، وهو يتطلع إلى توظيف ثمرات اللسانيات المعاصرة، يجد نفسه أمام إشكالات نوعية ومتطلبات إجرائية (....) فاللسانيات المعاصرة لها ضوابط منهجية إستمولوجية محددة، واستراتيجية دقيقة تضع لغة الأدب نفسه في مكان خاص، ولا تجدي النمذجة التي يقترحها علم اللسانيات معها بصورة شاملة، هذا الأمر يدفع بالضرورة إلى اصطناع فروع من علم اللسانيات، وتوظيفها علوما خاصة للغة خاصة، باسم الشعرية والشكلانية والسيمانيات والأسلوبيات"^(١).

وبهذا الاعتبار تغيرت النظرة الكلية إلى مفهوم العمل الأدبي اعتبارا أو انطلاقا من هذا الوعي الذي يجسد الممارسة اللغوية داخل العمل نفسه، فصار ينظر إلى العمل الأدبي على أنه نصي لغوي، أو خطاب لغوي، أو مهما تعددت التسمية غير أنها في النهاية تصب داخل المفهوم اللغوي، وتتطلق منه، أي: أصبح الحضور اللغوي لازمة من لزوميات الدراسة النقدية، "ومن ثم أصبحنا نجد علم اللغة وفروعه مدخلا من المداخل التي تتيح للدارس والباحث مراجعة النقد وتأريخه والتحقيق فيه والتتظير له [انطلاقا من] مراجعة التراث اللغوي في علاقته بالأدب والنقد، ومحاولة المصالحة بين «النظريات القديمة» و«النظريات الحديثة» والتفريق والتقريب بين النظريات الأدبية اللسانية المعاصرة، [و] تتظير النقد والأدب في ضوء العلاقة اللغوية"^(٢).

وفي هذا السبيل نجد أن نظرية التلقي مثلا ارتبطت بمفاهيم الشكلانية حيث أن "اندراج النص الأدبي في مقام تواصلية هو إحدى أهم نقط هذا

^١- نقد النقد وتنظير النقد العربي المعاصر، محمد الدغمومي، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، المغرب، ط١، ١٩٩٩، ص/١٠٦.

^٢- نقد النقد وتنظير النقد العربي المعاصر، محمد الدغمومي، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، المغرب، ط١، ١٩٩٩، ص/١٠٧.

الارتباط، فيمكن للعالم، حسب حقل التحليل الذي يختاره، أن يربط النص - باعتباره دليلاً - إما بالمرسل وموضوعاته، أو بآساق المعايير، وأفق الانتظار عند القراء المعاصرين، أو من يأتي بعدهم. فبالنظر إلى أن النص هو نفسه موضوع التحليل، فإنه يوجد في سياق التقليد حيال النصوص السابقة عنه أو اللاحقة أو المعاصرة له، ويمكن بالتالي استخلاص ملامح مميزة، وبالنظر إلى أن القارئ هو موضوع التحليل فإنه يلزم اشتراك تخصصات علمية في البحث عن الملامح السوسولوجية أو السيكلوجية المتضمنة في عملية القراءة^(١).

ولكن يبقى مفهوم النص غائبا داخل الإطار النقدي ما لم يكن هناك تحديدا معينا من لدن الناقد لمفهوم النص لديه، وقد يختلف هذا المفهوم عن الأطروحات النقدية الموجودة والسائدة، ولكن في إطار النقد المرتكز على النظرة التأويلية للأشياء يبقى ذلك التصور مقبولا وسائعا، وربما كان هذا هو السبب الذي جعل ممثلي مفهوم النقد الجديد لا يستوعبون إمكانية تفسير النص الأدبي بالمفاهيم العقلية، إذ قد يؤدي الشرح إلى إمكانية تخريب «البنية الجوهرية» في العمل الفني^(٢)؛ ثم إن الإشكال المطروح يتمثل تحديدا في تطبيق العملية النقدية ذاتها، أيكون على القراءة أم يكون على العمل الأدبي. خصوصا وأن وظيفة النقد دراسة العمل الأدبي، وهذا التساؤل فرضته طبيعة الظرف الراهن المتجه نحو الدراسة اللغوية المعتمدة على الفعل التواصل الذي تتعدد اتجاهاته من حيث النظرة إليه، بمعنى هل تتجه الدراسة النقدية في اتجاه القارئ للنص ومن ثم تأويل القراءة (كفاءة القارئ) أم تتجه نحو النص ذاته (ما تفرضه لغة النص).

^١ نظرية الأدب في القرن العشرين، محمد العمري، إفريقيا الشرق، ط ٢، ٢٠٠٤، الدار البيضاء، المغرب، ص/ ٢٠.
^٢ يعتبر دعاة النقد الجديد وهم عبارة عن مجموعة من النقاد الجدد داخل الولايات المتحدة الأمريكية في فترة الستينات من القرن الماضي يستلهمون نقدهم من أعمال ت. = س. إليوت وإ. إ. ريتشاردز قلت يعتبرون العمل الأدبي بمثابة تحفة فنية.

إن القارئ في هذه الصورة ليس سوى ناقد بصورة أعمق وأكثر دلالة، تستبعد كل صور التأويل النهائي للنص الأدبي فمن "المستحيل أن نستنفذ معنى العمل الأدبي، وإن كان بعض مستويات المعاني (تلك التي يبرمجها النص) هي من حيث المبدأ بمتناول جميع القراء فإنه من الصحيح كذلك أن كل قارئ يأتي بمعنى جديد إضافي، وإن كان التحليل الأدبي قادراً على إبراز ما يقرأه كل الناس فإنه عاجز عن الإحاطة بكل ما يُقرأ"^(١).

وهذه الإشكالية التي تواجه الناقد في منطلقاته المنهجية والمعرفية على حد سواء كانت ولا زالت عالقة تبحث لها عن إجابة مقنعة، وهيئات أن تصل؛ لا لأن البحث يستعصي عن الإحاطة بتحديد إجابة مقنعة، وإنما يعود السبب لطبيعة البحث النقدي، ولو لم يكن كذلك لما كانت هناك المتعة النقدية ولا كانت هناك القراءة الحرة، وقد تجسدت أكثر تلك المتعة النقدية في الأعمال التي خلصت إلى ضرورة البحث في العلاقة الوشيعة بين العمل الأدبي واللغة.

اللغة والأثر الأدبي:

إن البحث في العلاقة بين الأثر الأدبي واللغة لم تستهلك البحث كلياً، وإن يوماً ليوم يثبت جدلية وشرعية تلك العلاقة بما لا يدع مجالاً للشك في حتميتها النقدية، وقد بذل العديد من الباحثين جهودهم لإبراز قيمة تلك العلاقة الشرعية وجودها في تحرير العمل الأدبي حيث أكد رولان بارت وتلاميذه من بعده على "أهمية تحليل العلاقة بين لغة الأثر والأثر نفسه على ضوء الحقائق الأنثربولوجية واللغوية، بقصد الكشف عن المعاني الخفية للأثر،

^١ نظريات القراءة والتأويل الأدبي وقضاياها، حسن مصطفى سحلول، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، ٢٠٠١، ص/٩٤.

والتخلي عن الفهم الجمالي المباشر الذي يمارسه السواد الأعظم من النقاد أو الباحثين التقليديين. فالأثر الأدبي فيما يرى بارت يتضمن دلالات ورموزاً متعددة يجب التركيز عليها وإبرازها لنعمق فهمنا له^(١).

ومعلوم أن رولان بارت هو باحث بنيوي، والبنوية إذا نظرنا إليها في إطارها المنهجي فإنها تقصي كل ما هو عرضي من الظواهر ولا تهتم إلا بما هو حقيقي وجوهري وثابت^(٢)، وهو ما يؤكد التحليل الذي تبناه رولان بارت الذي ينطلق في العادة من رسم صورة واضحة حول طريقة تحليله لتسلم له النهايات، حيث يجعل القارئ على بينة من أمره إن هو قارب النص الأدبي الذي يتحدث عنه.

ورولان بارت هو ناقد فرنسي، تابع أبحاثه في ميدان الدراسات النقدية من جهة، وفي ميدان السيميائيات بالخصوص، وقد ظهر له كتاب بعنوان: «الكتابة في الدرجة الصفر» تناول فيه إشكالية الكتابة، وتمثل اللغة بالنسبة إليه البنية التي تَشكّل من خلالها الأثر الذي يمثل جوهر العمل الأدبي، وهذا يعني تقديم ما هو شكلي في الأثر على ما هو مضموني، وليس هناك تناقض بين مبادئ البنيوية وما يدعو إليه، حيث نعود لنقول إن البنيوية تقصي كل ما هو عرضي، وإنما نجد أن بارت يذكرنا في تحليلاته بمنهج نظرية الجشطالت حين قسمت المضمون إلى ما هو شكلي وما هو مضموني في الوقت نفسه، وهو ما يجعلنا دائماً ضمن دائرة المضمون في ذاته وليس خروجاً عنه.

ولم ينطلق بارت من "بعض المشكلات الجزئية المرتبطة بالنزعة البنيوية، بل هو قد مضى إلى صميم ماهية لغة الأثر لمحاولة العمل على

^١ - مناهج النقد الأدبي المعاصر بين النظرية والتطبيق، سمير سعيد حجازي، دار الآفاق العربية، ط١، القاهرة، مصر، ٢٠٠٧ ص/٤٧.

^٢ - ينظر: البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر، عمر مهيبدل، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، ط٢، ٢٠١٠ ص/٢٣.

تأسيس هذا المجال (لغة الأثر) باعتباره علما. مستندا في ذلك إلى نتائج العلوم الإنسانية والأنثروبولوجية عامة واللغوية خاصة، بقصد إلقاء الضوء على الدلالات الخفية التي تكمن وراء بنيات الأثر نفسه^(١)، وقد كان هم بارت هو البحث حول كيف يمكن أن نعبر عن أفكارنا وأهدافنا من خلال النصوص؟، أي: كيف نكتب؟، ثم بأي أداة نتوصل وصولا إلى عالم المعرفة الأدبية؟، وبالتالي لم يكن همه الاهتمام بالمضمون بقدر اهتمامه بالشكل الذي يتبلور من خلال العمل ويحقق نجاحا رائدا يفوق تصورات اللغة العادية.

فبارت قد اهتم بمحاولة التأسيس بالرغم من أنه مارس النقد عمليا على نصوص ترقى أو تفوق مستوى النص الأدبي، كتطبيقه على نصوص الإنجيل مثلا، وكذلك تطبيقه على الرواية، وبالرجوع مثلا إلى التحليل النصي حاول بارت أن يثبت لنا الطريقة المنهجية التي على الناقد أن يسلكها في تحليله للنصوص ومباشرته لها.

وعلى سبيل التمثيل، فإنّ بارت يقدم لنا إجراء عمليا يتم من لدن محلل النص قبل الخوض في تحليله، منه:

- تحديد الوحدات القرائية وفق رؤية وتصور المحلل، وذلك وفق الارتباطات المعينة المتبادلة بين الوحدات، وهدف هذه المرحلة تسهيل المعالجة النصية دون إغفال أن النص يمثل وحدة كلية متكاملة.

- تحديد النسق والإيحاء، ويرتبط بمدى تصورنا للنص في كون معانيه غير متناهية، ويمثل النسق "مجموع الإحالات والاقتراسات وقواعد

^١ مناهج النقد الأدبي المعاصر بين النظرية والتطبيق، سمير سعيد حجازي، دار الآفاق العربية، ط١، القاهرة، مصر، ٢٠٠٧ ص/٤٨.

المقروئية والبناء الرمزي والمناخ الإيديولوجي التي تمنح النص مظهر الانسجام والاتساق^(١).

- التحليل والتحديد، ويقصد به "العمليات الإجرائية التي تهدف إلى تبيان السيرورات الدلالية في النص، ودلاليتها عن التحديد، أي: المحددات الخارجية للنص"^(٢).

وبالنظر إلى هذه الخطوات العامة الكبرى ينظر إلى السمات التي تتحدد على أنها ملامح وإرشادات أمام قارئ النص، وبعض هذه السمات يحقق القراءة الدلالية الأولية ولكنه لا ينهيها، ومن هذه السمات^(٣):

- الارتكاز على البعد البنيوي (الشكل = الدال)؛ أي: البحث عن أشكال لا عن مضمون، ليس الهدف تقديم شرح للنص، بل مواجهة النص مثل باحث يجمع مواداً لتشييد قواعد نحوية إن كان التحليل أدبياً فهو يجمع محكيات، أو متناً من المحكيات ويحاول أن يستنبط منه بنية، وإن كان التحليل لغوياً (بالمعنى الاصطلاحي) يجمع جملاً، متناً من الجمل^(٤).

- القراءة الفردية للنص المشتغل عليه، مما يسمح بتكوين رؤية فردية ذاتية، وبالتالي تحقق هذه القراءة إضافة إيجابية لتحليل النص، ومن ثم لا أحد يفرض رؤية واحدة خاصة بالنص.

- الارتكاز على مبدأ الصورنة (التجريد)، أي: ليس هناك نصاً واحداً يتم الاشتغال عليه، وإنما هناك حقيقة كلية تشمل أجزاء متعددة من

^١- التحليل النصي (تطبيقات على نصوص من التوراة والإنجيل والقصة القصيرة)، رولان بارت، تر/عبد الكريم الشراوي منشورات الزمن، الدار البيضاء، المغرب، ٢٠٠١، ص/١٤.

^٢- التحليل النصي (تطبيقات على نصوص من التوراة والإنجيل والقصة القصيرة)، رولان بارت، ص/١٥.

^٣- تم تحديد هذه السمات بالاعتماد على قراءتي لكتاب التحليل النصي لكتاب رولان بارت: التحليل النصي، مع التصرف، ينظر: ص/ ٢٦ وما بعدها.

^٤- ينظر: المرجع نفسه، ص/ ٢٧.

النصوص، فالنص الذي بين أيدينا هو نص جزئي ضمن نص كلي تحدده مجموعة النصوص التي تتناص معه، وتحكمه الثقافة التي تصنع القارئ والناقد معا.

- الارتكاز على مبدأ الملاءمة، ويراد به الارتكاز على النمط أو السياق الصوتي الذي تشكلت ضمنه بنية النص لتحديد الفروق الصوتية التي تحدث فروقا ظاهرة في المعنى.

- الاعتماد في كل لحظة أثناء عملية التحليل والمناقشة على مبدأ الشك في طبيعة ما يدونه النص، إذ كل ملفوظ مهما بدا تافها وعاديا يجب تقويمه بمصطلحات البنية عن طريق اختيار ذهني.

وكما كان الحال مع الدارسين ممن يحسبون على الدراسات اللغوية - إن صحت التسمية - ممن "اتخذ من الدرس اللساني طريقا لإعادة قراءة التراث ، كما هو الحال في مشروع د. عبد السلام المسدي (المقاييس الأسلوبية في النقد الأدبي من خلال البيان والتبيين) (١٩٧٦) و(الفكر اللساني في الحضارة العربية) (١٩٨١) و(التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس) حمادي صمود (١٩٧٨) و(مظاهر التفكير في الأسلوب عند العرب) الهادي الطرابلسي (١٩٧٨) . و(نحو قراءة جديدة لنظرية النظم عند الجرجاني) لأحمد المتوكل (١٩٧٧) . و(الاتجاه الوظيفي في تحليل اللغة) : د. يحيى أحمد يحيى (١٩٨٩) . و(اللسانيات واللغة العربية) : د. عبد القادر الفاسي الفهري (١٩٨٥)"^(١).

وكما كان الحال مع هؤلاء الدارسين كان الحال مع من تصدوا في دراساتهم للأعمال الأدبية، غير أن الفارق بين الاتجاهين يكمن في استلهم

^١ - الأثر اللساني في الدراسات الأدبية، حسن مسكين، مقال.

هؤلاء النموذج اللساني لمحاولة تطبيقه على " أعمال شعرية وسردية مختلفة (...) [كأعمال مثلاً] حسين الواد (البنية القصصية في رسالة الغفران) (١٩٧٦) حمادي صمود (النور في شعر مصطفى خريف) (١٩٧٦) خالدة سعيد (النهر والموت للسياب : دراسة نصية) (١٩٧٨) ، حيث نلمس بوضوح حضور النموذج اللساني البنيوي الوصفي^(١).

ومع هذه الأعمال المنفتحة على الدراسات الغربية مع ما تحمله من صعوبات وأخطار محدقة بالنص إلا أنه لا يمكن أن نغض الطرف عنها أو أن نتجاهلها لكونها وجهت آفاقنا حول التعرف على تلك النظريات والمناهج التي أفادتنا كثيراً في تعميق الوعي بالآثار الأدبية وطريقة تحليلها؛ إذ كانت "اللسانيات تصف القوانين المتحركة في اللغة ، فإن التحليل في الأدب يستثمر نتائجها لإضاءة النص وكشف القوانين المتحركة فيه"^(٢).

لغة التحليل النصي:

إن بارت صرف أنظارنا عن تلك النظرة التحليلية الممارسة على النصوص في صورتها القديمة، ولا يعني ذلك أن تلك الطريقة معينة بكليتها وإنما هي نتاج مرحلة معرفية معينة تحمل ككل مرحلة مواصفات فترتها التاريخية التي نشأت فيها، وصرنا نتطلع اليوم أكثر من أي وقت إلى معرفة الأدوات الإجرائية التي يحملها الناقد ممثلة في العناصر المعروفة كالمصطلح والمفهوم والخطة مع الرؤية والمنهج النقدي.

وقد تجلت هذه العناصر بوضوح في كتابه التحليل النصي، حيث نجده يتحدث في البداية عن كيفية توظيف المعرفة بالعمل لاستثمارها لاحقاً في التحليل، وتبدأ مقدمته انطلاقاً من قضية جوهرية تتمثل في تحديد المهمة

^١- الأثر اللساني في الدراسات الأدبية حسن مسكين، مقال.

^٢- الأثر اللساني في الدراسات الأدبية، حسن مسكين، مقال.

التي يريد إجرائها، وهذا يعني وضوحاً تاماً لتصور العمل المنوط به (مهمتي هي عرض ما يسمى الآن التحليل البنيوي للسرد) (ص. ٢٢) ونذكر هنا تمام الوعي بالفعالية الفكرية التي تسيّر فكره لمباشرة النص، ولا يتجاوز الباحث هذه الفكرة التي سينطلق منها، بل إننا نراه يقدم لنا تصوره لمنشأ التحليل البنيوي للسرد حتى يضع القارئ أمام الصورة التي سيخرج بها في نهاية بحثه، ويعني أنه يمارس سلطة على القارئ لكنها سلطة ناعمة تشعرك بالانسياب نحوها.

ويتجلى ذلك العمق المعرفي حين يبدأ في رسم صور تلك النشأة عند رومان ياكبسون وليفي ستروس وفلاديمير بروب وغريماس، والأول منهما عالم لسانيات والثاني عالم أنثربولوجيا والثالث عالم فلكلور، والأخير عالم سيميئيات، وهنا يضعنا أمام إمكانية معرفة المرجعية المعرفية والأصول النظرية التي يستمد منها التحليل البنيوي للسرد منطلقاته.

ويبدو بارت موضوعياً في طرحه حين يقول: "لكن هذا البحث [بحث التحليل السردى] يتعرض حالياً لنوع من التشتت هو بمعنى ما. مقوم من مقومات هذا البحث، وعلى أي حال هكذا أنظر إليه. أولاً، يظل هذا البحث فردياً"^(١)، إذ يؤكد هذا الطرح حقيقة أن العمل النقدي هو عمل مفتوح، ولا يمكن لباحث أن يتحدث باسم باحث آخر، ولكل باحث تاريخه الخاص، وقد يلحق التغيير ذلك البحث لسرعة تغير المفاهيم^(٢).

ولا يقصي بارت اهتمامه أثناء البحث والنقد في البحث عن الطرح الإيديولوجي الذي يوطّر العمل، إذ لا يمكن إقصاؤه لارتباطه باللغة؛ لغة الثقافة التي بها يتم تبني العمل.

^١- التحليل النصي، رولان بارت، ص/ ٢٤.

^٢- المرجع نفسه، ص/ ٢٤.

إن هذا التأطير الفكري لمباشرة التحليل لدى بارت في أعماله يعطينا صورة واضحة جدا عن مدى انسجام العقلية النقدية الغربية في تصوراتها لطبيعة الأعمال التي مورس اتجاهها النقد، وهنا تكمن المفارقة في مباشرة الأعمال النقدية بين الدارس العربي والدارس الغربي، إذ الأول منهما يركز على عنصر المعلومات التي تشكل مادة البحث أو الدراسة، بينما يهتم الثاني منهما بكيفية صياغة هذه المادة من الزاوية العلمية للوصول إلى الربط بين مختلف عناصرها^(١) وإحاطتها بسياج مضبوط ودقيق، إنه الاهتمام بالمنهج وبالإطار العلمي الذي يجعل من المعلومات عنصرا ذا قيمة.

وبعد أن يعطينا تعريفا لمعنى التحليل البنوي بأنه الاشتغال على معنى أو معاني النص ينطلق ليضع مبادئ وتصورات منهجية تركز إلى المعرفة النظرية لطبيعة العمل الذي سيقوم به، وهنا يتحول بارت من طبيعته كمارس إلى طبيعته كمنظر، أي: الانتقال من التطبيق إلى التنظير، مما يوجي إلى ضرورة أن يكون الناقد بل يجب عليه أن يمارس التحليل إذا أراد التنظير، وقد وضع بارت تلك المبادئ والترتيبات في صورة عناصر تحكمها الصياغة اللغوية الحاسمة التي تتضبط بصفة العلمية. وقد أشرت إليها في البحث أعلاه.

بعد هذا التقديم النظري من بارت يصل إلى الولوج إلى النص مباشرة، ليعطينا مرة أخرى صورة عن العمل في ذاته، فهو في تقديمه السابق أعطانا صورة عن كيفية إجراء التحليل وطريقته فيه، أما الآن فيقدم لنا صورة عن كيفية نشأة النص في ذاته، الأول معناه يتعلق بطرف متلقي النص وأما الثاني يتعلق بطرف النص وعلاقة منشئه الأول به، يقول: "أصل

^١ - مناهج النقد الأدبي المعاصر بين النظرية والتطبيق، سمير سعيد حجازي، ص/ ٢١.

الآن إلى النص، أعمال الرسل ١١-١٠^(١)، ومن ثم يقدم لنا صورة عن طبيعة هذا النص الذي يتضمن حسب رأيه ثلاث قضايا بنيوية كبرى:

١- قضية الأنساق:

يحدد بارت النسق كمفهوم إلى الإحالة سواء كانت إحالة زمانية أو إحالة مكانية، المهم في هذا. أن النسق هو حضور الغائب الذي تجسده اللغة، تمثل المفتحات منطلقاته (وكان ، في قيصرية، ...) إن هذه الإحالات لها دلالات معينة إحائية أو دلالات مباشرة تكشف عن بنى متراكمة داخل النص، وبالتالي هناك أنساق متعددة يمكن اكتشافها بسهولة تحمل بنية دلالية عامة داخل النص لكنها في حقيقتها تحيل إلى خارج النص، إنه التزاوج بين النمط الثقافي الذي تشكل داخله النص لدى منشئه والنمط الثقافي للناقد الذي يشرح النص، إنها أنساق تاريخية ومكانية وزمانية وحدثية وتفسيرية (المقومات الدلالية) والسكونية (الأسماء) والتواصلية وأنساق اللغة الواصفة.

يمثل نسق الأفعال جوهر هذه الأنساق لأنه الحدث الذي يرتكز حوله العمل، إنه عمل الأفعال التي يقوم بها الفاعلون وتركيز بارت عليها ليس من قبيل العفوية، بل إنه يعي أن هذه الأفعال هي من صميم النص الذي أنتجه صاحبه بمعنى: إنها هي في ذاتها أفعال لكاتب النص، ثم يركز على اللغة الواصفة، وهي اللغة التي تصف اللغة، وهنا يأتي دور الناقد الذي يصف تلك الأعمال المجسدة في الشخصيات السردية داخل العمل، إن هذه الحركة من بارت تعد حركة انطلاق من النص؛ وهي حركة قوية لكنها في النهاية ليست سوى علاقة بين القارئ والكاتب.

^١ التحليل النصي، رولان بارت، ص/٣٥.

وفي تحليله الثاني لسفر التكوين ٣٢.٢٣.٣٣: يتحدث بارت وكأنه ينسب نفسه إلى البنيوية الخالصة، إذ يبدأ جملته بقوله: يتضمن التحليل البنيوي إجمالاً ثلاثة أنماط، وتصدير قوله بهذه الجملة ينافي ما ذهب إليه أحد الباحثين حين قال بأن البنيوية بالنسبة إلى بارت لم تكن موقع مدرسة أو حركة، بل مجرد معجم فقط^(١)، وتلك الأنماط التي يتحدث عنها كان قد حددها في:

- القيام بجرد وتصنيف الصفات «النفسية» و«السيرية» و«المزاجية» و«الاجتماعية» للشخصيات المشاركة في المحكي، وهذا بنيويًا هو ركن القرائن.

- القيام بجرد وتصنيف وظائف الشخصيات.

- القيام بجرد وتصنيف الأفعال.

ويخلص بارت انطلاقاً من هذا التفصيل لمنهجية العمل المنظمة في تحليله إلى القول بأن هذا الجرد يسمح بقراءة ما هو متخفي وراء النص، فركن القرائن الذي يعتبر "إشارات متنوعة التعبير إلى ما لا نهاية، تستخدم لتوصيل مدلول؛ مثلاً: «القلق» «اللطافة»، «القوة»؛ التي يمنحها المحلل اسماً في لغته الواصفة، علماً أن اللفظة اللغوية الواصفة قد لا تكون موجودة مباشرة في النص، الذي لن يستعمل أبداً «القلق» أو «اللطافة»^(٢).

وسيسمح هذا التفصيل لطريقة التحليل وهو تفصيل منهجي أساساً، ولكنه في حقيقته مبني على رؤية تصويرية لنمط بناء النص في شكله العام، إذ إن هذه العناصر التي تحدث عنها هي مرتبطة تمام الارتباط فيما بينها،

^١ البنيوية في علوم اللغة، المصطفى شادلي، تر/سعيد جبار، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط١، ٢٠١٥، ص/٧٧.

^٢ التحليل النصي، رولان بارت، ص/٥٧.

قلت: سيسمح بإعادة بناء نظري يتجسد عمليا في تقسيمات النص إلى ما يسميه بارت: متواليات تتألف من: العبور، والصراع، والتسميات، والعبور هو الذي يسمح في الشروع في مباشرة النص؛ فهو بمثابة الاستهلال من أين نبدأ؟ إنه المطالع ببساطة التحليل القديم، ولكن المفارقة تكمن في القراءة لا في التحديد، وبالتالي التحليل النصي لا يقوم على البنية الموضوعية، وهنا تكمن الحيرة والقلق اتجاه النص ويتحول الناقد إلى قارئ يخرج أفكاره التي تشكلت حول النص، وتبقى هذه الأفكار مرتبطة بإيديولوجية القارئ الفكرية والاجتماعية والثقافية، وهنا مكمن الصراع في فهم النص أو تأويله أو تفسيره أو حتى شرحه. إنه صراع على مستوى الناقد لا على مستوى النص.

وأما فكرة التسمية فهي مرتبطة بالمصطلح وبالمفهوم الذي يتبناه القارئ، وفي تحليل بارت نجده مجرد إملاء من لدن النص ذاته على القارئ، ولكن القارئ يتجاوب معه بشكل لا فت وذكي ليستخرج تلك الأسماء الجديدة التي توحى دلالاتها إلى معاني لها في ثقافة القارئ تفسير معين.

ويحاول بارت أن يؤسس لنمط جديد من التحليل، يقع ضمن دائرة المقابلة وليس ضمن دائرة الموازنة، لأن المقابلة يتخذها الباحث في العادة كتحليل لنصين مختلفان مضمونا بينما الموازنة تكون لنص واحد يختلف بين باحثين، وبارت حاول أن يقابل تحليله بالتحليل العالمي عند غريماس للأسطورة، والتحليل الوظيفي عند بروب، ومع هذين التحليلين وتحليل بارت يظهر التناص في العلاقة بين استخدام نفس مصطلحات التحليل كاستخدام مصطلح الأفعال، والوظائف، والبنية، ...

بعد التأسيس النظري لتحليل بنيوي لنص ديني من التوراة وآخر منهجي من الإنجيل، يصل بارت إلى تحليل نصي لقصة من حكايات إدغار

آلن بو ليقول بأن التحليل البنيوي مرجعيته علم السيميولوجيا أو علم الدلالات.

إن هذه النهاية في تحليل بارت تسمح لي في تقديري الخاص إلى القول بأنها نهاية متممّة، قصد بها بارت هدفاً قد يكون متخفياً، وقد يكون هو الذي قصده بنفسه ليقول لنا بأنه على مستوى التحليل البنيوي للنصوص ليست هناك أي مفارقة بين تقديس النص إذ هي في أثناء التحليل واحدة ومتساوية، ولعل هذا ما كانت تدعو إليه اللسانيات حينما لم تفرّق بين المستويات اللغوية، واعتبرت كل لغات العالم على مستوى التحليل هي واحدة، وبطبيعة الحال سيؤدي هذا الطرح بلا شك إلى الخلط في التمييز بين النصوص، وهو ما لا يمكن في ثقافتنا النقدية العربية تجاوزه.

في ثقافتنا النقدية:

لو أردنا أن نتناول قراءة كثير من الدراسات النقدية المعاصرة الموضوعية لوجدناها تنطلق في تقديمها وتسترشد في بنائها بالنمط النقدي الغربي حيناً، وتستهدي بالنقد العربي القديم حيناً آخر، ومحمد مفتاح مثال على ذلك، ففي كتابه في سيمياء الشعر القديم نجده يصرح أنه اعتمد النمط الغربي في قراءة قصيدة أبي البقاء الرندي على هدي الدراسات الغربية، ولم يؤل جهداً أو يدخر وسعاً في تحليلها على هدي الدراسة العربية القديمة.

ويرى مفتاح أن التراث يفسر بعضه بعضاً، وهو متعدد الأشكال والألوان، ويقول بأن حازم القرطاجني انتهى إلى ما انتهى إليه النقاد العرب في نظرته إلى الشعر على أنه؛ مقطعات وقصائد، وإن القصيدة تتركب من فصول لكل فصل رأس يمثل المطلع، وحسن التخلص، والاختتام.

ويحاول مفتاح الربط بين القديم والحديث، ليقول بأن القصيدة هي بنية كلية، تأتلف من عناصر لكل منها خصوصيتها كأساس الانطلاق إذا في

تشكل البنية الفكرية النقدية لدى مفتاح بأن المنهج البنيوي سيكون حاضرا أثناء التطبيق، إن لم يكن بإجراءاته الحرفية فلا أقل أن يكون حاضرا ببنيته الفلسفية كنمط للتفكير، وهنا يحضر بارت كنمط منهجي في تفكير محمد مفتاح من خلال التقسيم، أي: على مستوى التحديد الوصفي والتركيبى للقصيدة، حيث أن العناصر المشكلة للقصيدة هي:

- المواد الصوتية.

- المعجم الخاص.

- التركيب.

- المقصدية.

ثم يحضر مرة أخرى التأصيل النظري والمنهجي لنمط هذه العناصر بالحديث عن كل عنصر على حدة، مع إيراد كافة التدخلات المختلفة للنقاد البلاغيين واللغويين السابقين كابن جني والمحدثين منهم كابراهيم أنيس، وعلي حلمي موسى، وغيرهم من الغربيين، وهو شبيه بحضور فلايمير بروب وغريماس لدى بارت.

وإذا لم يكن الحضور المنهجي الغربي بارزا في دراسة الباحثين أو القراء التراثيين الذين تقيدوا بضرورة تطبيق المنهج العربي الخالص للأسباب المذكورة آنفا، فإن حضوره بالنسبة إلى الدراسات والأبحاث الحداثية لا يخفى إلا على من فقد بصره وبصيرته وكان على قلبه النقدي قفلا أو أقفالا.

واستخلاصا يمكن أن نسجل:

- عدم تجاهل المنحى البنيوي في الأعمال الأدبية، خاصة في توجيه

- المتلقي والمحال نحو نظريات ومناهج الدرس اللساني، لا سيما تلك التي أنتجت أعمالاً تحليلية أفادت في تعميق الوعي بالآثار الأدبية.
- ضرورة عدم تجاهل الخلفيات المعرفية والمرجعيات النظرية في مباشرة تحليل النصوص الأدبية.
 - استحضار الطبيعة العلمية التي تؤطر العمل النقدي وتوجهه الوجهة النظرية العامة.
 - مراعاة خصوصية النصوص المختارة للنقد، وعدم تحميلها أكثر من مدلولها.
 - عدم فرض نموذج بعينه، ثم إصدار الأحكام على الأعمال كلياً، بل إن الأحكام - في رأبي - لا تصلح أثناء الممارسة النقدية لأن النص لا يمكن أن يعبر إلا عن منتج، وإنما الناقد يقدم قراءة ذاتية خاصة به؛ لذلك لابد من ربط مقومات النص كلها بالسياق والخلفيات المعرفية ومقاصد المنتج ودور المتلقي في استخلاص الدلالات الثابتة خلف الأثر الأدبي.
 - لا يمكن تجاهلنا أثناء أي قراءة نقدية طبيعة العمليات المعرفية الضرورية المتمثلة في التطور الذي يظهر في صورة التحول أو الانتقال، والمثاقفة التي تظهر في صورة التفاعل والتلاقح؛ ومبادلات التأثير والتأثر التي تظهر في صورة التلويحات المختلفة لأشكال النقد.

المراجع والمصادر:

- ١- جابر عصفور، قراءة التراث النقدي، مؤسسة عيال للدراسات والنشر، ط١، ١٩٩١.
- ٢- حسن مسكين، الأثر اللساني في الدراسات الأدبية.
- ٣- حسن مصطفى سحلول، نظريات القراءة والتأويل الأدبي وقضاياها، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، ٢٠٠١.
- ٤- دار التلوين، متعة المتخل (حوارات مع كتاب عالميين)، الناشر: تر/ نايف الياسين، ٢٠٠٩، دمشق، سوريا.
- ٥- رولان بارت، التحليل النصي (تطبيقات على نصوص من التوراة والإنجيل والقصة القصيرة)، تر/ عبد الكريم الشراوي، منشورات الزمن، الدار البيضاء، المغرب، ٢٠٠١.
- ٦- سمير سعيد حجازي، مناهج النقد الأدبي المعاصر بين النظرية والتطبيق، دار الآفاق العربية، ط١، القاهرة، مصر، ٢٠٠٧.
- ٧- عمر مهيبل، البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، ط٣، ٢٠١٠.
- ٨- محمد الدغمومي، نقد النقد وتنظير النقد العربي المعاصر، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، المغرب، ط١، ١٩٩٩.
- ٩- محمد العمري، نظرية الأدب في القرن العشرين، إفريقيا الشرق، ط٢، ٢٠٠٤، الدار البيضاء، المغرب.

١٠- محمد مندور، في الميزان الجديد، القاهرة — دار نهضة مصر للطبع والنشر، ١٩٧٣.

١١- المصطفى شادلي، البنيوية في علوم اللغة، تر/سعيد جبار، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط١، ٢٠١٥.

مفهوم الطبع

وعناية العرب به عند حازم القرطاجني

د/ دود احمد (*)

الطبع والصنعة من القضايا النقدية البارزة في تاريخ النقد الأدبي، وهي «قضية قديمة في الفكر الإنساني، شغل بها الأقدمون ثم انتقلت إلى العرب»^١، ولقد أولاها النقد العربي اهتماما كبيرا، وعالجها على أساس المقابلة بين الطبع أو الموهبة من جهة، وبين الصنعة أو التكلف من جهة أخرى، ومصطلحا الطبع والصنعة من المصطلحات القديمة، فقد عرفهما النقد منذ عصوره الأولى.

والطبع كمصطلح نقدي قديم ارتبط بالشعر والشاعر على حد سواء، فيقولون شاعر مطبوع وشعر مطبوع أيضا، من ذلك ما نجده في كتاب الموازنة إذ يقول الآمدي: «البحثري، أعرابي الشعر مطبوع»^٢، وفي كتاب الموازنة أيضا يصف الشعر بأنه مطبوع فيقول: «وجدت أهل النصفة من أصحاب البحثري ومن يقدم مطبوع الشعر دون مكلفه لا يدفعون أبا تمام عن لطيف المعاني ودقيقها»^٣.

ويقول صاحب المنصف عن الشاعر أبي نواس: «هو مطبوع لا يطيئ في شعره تكرير نظره ولا كد فكره»^٤، ويورد بيت أبي الطيب:

(*) قسم للغة والأدب العربي - كلية الآداب واللغات - جامعة ابن خلدون - تبارت - الجزائر

أَنْى يَكُونُ أَبَا الْبَرِيَّةِ آدَمَ وَأَبُوكَ -وَالثَّقْلَانِ أَنْتَ- مُحَمَّدٌ

ثم يقول معلقاً: «وفي البيت كلفة وليس بلفظ مطبوع، ولا ملتزماً لمسموع»^٦، وفي موضع آخر يذكر قول أبي عيينة^٧:

خَالِدٌ لَوْلَا أَبُوهُ كَانِ وَالْكَأْسُ بَسْوَاءِ
لَوْ كَمَا يَنْقُصُ يَزْدَادُ إِذَا نَالَ السَّامَاءِ

ثم قال: «هذا لفظ مطبوع مليح المطابقة»^٨.

وفي "كتاب الإبانة عن سرقات المتنبي" تختلف اللفظتان: فيقول عن شعيب بن يزيد: هو «شاعر مطبوع»^٩، ويقول عن تميم بن خزيمة التميمي: «هو مطبوع الشعر»^{١٠} وفي العمدة «ومن الشعر مطبوع ومصنوع»^{١١}.

وفي نقدنا القديم هناك تلازم بين مصطلحي الطبع والصناعة، وموضوع بحثي هذا ليس حول ثنائية الطبع والصناعة وإنما يسعى للوقوف عند مفهوم مصطلح الطبع عند حازم القرطاجني وأهمية الطبع عند العرب منذ الجاهلية وكيف أن ضُعف الإبداع الشعري راجع إلى ما آلت إليه الطباعة.

مفهوم الطبع:

قبل البدء لابد من الوقوف عند لفظة الطبع، وبالرجوع إلى المعاجم نجد معناها مرتبطاً بالخلق والنشأة، يقول الخليل بن أحمد: الطبيعة «بمنزلة السجية والخلقية»^{١٢}، وفي تهذيب اللغة: «طبع الله الخلق على الطبائع التي خلقها فأنشأهم عليها، وهي خلائقهم، ويجمع طبع الإنسان طباعاً، وهو ما طبع عليه من طباع الإنسان في مأكله ومشربه وسهولة أخلاقه وحزونه، وعسرهما ويسرها، وشدة ورخاوته وبخله وسخائه»^{١٣}، وفي الصحاح «الطبع السجية التي جبل عليها الإنسان»^{١٤} وفي التعريفات: الطبع «الجبل التي خلق

الله الإنسان عليها»^{١٥}، وفي تاج العروس «طبعه الله على الأمر بطبعه طبعاً: فطره، وطبع الله الخلق على الطبائع التي خلقها فأنشأهم عليها — وهي خلائقهم — يطبعهم طبعاً، خلقهم وهي طبيعته التي طبع عليها»^{١٦}.

فهذه النصوص كلها تتضافر على أن الطبع مرتبط بالخلق والنشأة الأولى والفطرة والسليقة التي يولد عليها الإنسان، وهي تتميز بالثبات فلا تزول عن صاحبها حيث يقول أبو هلال العسكري: «قيل طبع الإنسان لأنه ثابت غير زائل، وقيل طبع فلان على هذا الخلق إذا كان لا يزول عنه»^{١٧}.

وفي لسان العرب «الطباع ما ركب في الإنسان من جميع الأخلاق التي لا يكاد يزولها من الخير والشر»^{١٨}، والطبع من فعل الله وهو «سجية وقريحة مغروزة في خلق الإنسان، ولا يمكن اكتسابه ولكن يجب صفقه وتهذيبه»^{١٩}، والناس كما خلقهم الله يختلفون في الطبع فقد «يكون الرجل له طبيعة في الحساب وليس له طبيعة في الكلام... ويكون له طبع في تأليف الرسائل والخطب والأسجاع ولا يكون له طبع في قرض بيت شعر، ومثل هذا كثير جداً، وكان عبد الحميد الأكبر، وابن المقفع، مع بلاغة أقلامهما وألسنتهما لا يستطيعان من الشعر إلا ما يذكر مثله»^{٢٠}، هذا بين فنيين مختلفين كالشعر والكتابة، وقد يكون الاختلاف والتفاوت في الفن الواحد، فالشعراء منهم من يسهل عليه غرض ويعسر عليه غرض آخر وهو ما أشار إلّيه ابن قتيبة حيث قال: «والشعراء أيضاً في الطبع مختلفون: منهم من يسهل عليه المديح ويعسر عليه الهجاء. ومنهم من يتيسر له المراثي ويتعذر عليه الغزل»^{٢١}.

فالطبع يكون في جانب من جوانب المعرفة أو في مهنة من المهن أو في فرع من فروع الأصل الواحد من الفنون أو العلوم، وعلى الإنسان أن يركز على ما يجد في نفسه ميلاً إليه، بل إن الطبع قد يتجه إلى زاوية خاصة

من الإبداع^{٢٢}، ومما طبع عليه الإنسان الشعر، هذه الموهبة التي إن رزقها كان شاعرا وإن فقدها لم يكن له حظ من الشعر، وهذا ما تنبه له القاضي الجرجاني حين قال: «وأنت تعلم أن العرب مشتركة في اللغة واللسان، وأنها سواء في المنطق والعبارة، وإنما تفضل القبيلة أختها بشيء من الفصاحة، ثم تجد الرجل منها شاعرا مقلقا وابن عمه وجار جنبابه، ولصيق طنبيه بكيبا مفعما، وتجد فيها الشاعر أشعر من الشاعر، والخطيب أبلغ من الخطيب، فهل ذلك إلا من جهة الطبع والذكاء وحدة القريحة والفتنة»^{٢٣}، إذن فهي لغة واحدة ولسان واحد وبيئة واحدة وزمان واحد ولكن؛ ومع ذلك نجد ذلك التفاوت الواضح بين أفراد المجتمع الواحد، فهذا شاعر، وذاك خطيب، وثالث بكيء، وما ذلك إلا لاختلاف ما وهب الله كل واحد منهم، وهذا التفاوت في موهبة الشعر والافتقار عليه معروف عند العرب حيث تحدث ابن سلام عن كثرة الشعر في قبائل وقلته في قبائل أخرى^{٢٤}، وما ذلك إلا لاختلاف في الطبع الذي هو أساس الشعر.

والطبع والذكاء وحدة القريحة والفتنة هي أمور فطرية في الإنسان أو كما قال الجرجاني: «أمور عامة في جنس البشر لا تخصيص لها بالأعصار ولا يتصف بها دهر دون دهر»^{٢٥}، والطبع والقريحة والاستعداد والقابلية كلها ألفاظ تؤدي معنى القدرة على قول الشعر بعفو الخاطر، وهي ضد التكلف^{٢٦}، أو هي استعداد فطري لدى الإنسان للبراعة في فن من الفنون، فيعالجه بلا تكلف ويجيده^{٢٧}.

وحيثما تحدث ابن رشيق عن الطبع ذكر أن «المطبوع هو الأصل الذي وضع أولا»، فالطبع هو تلك الموهبة التي تولد مع الإنسان، فيكون لديه ذلك الاستعداد الفطري للإبداع في فن من الفنون، غير أن هذا الطبع يحتاج إلى مقومات تنمي موهبة الإنسان وتعززها.

والشعر تحديداً يحتاج إلى موهبة خاصة، هذه الموهبة كما يرى شوقي ضيف : «لا تلبث أن تتحول عند صاحبها إلى ممارسة ودراسة طويلة لتقاليد ومصطلحات موروثة في تاريخ الفن»^{٢٨}، وهذه الموهبة الخاصة التي فطر الله الإنسان عليها وخصّ بها أفراداً دون غيرهم تجعل الشاعر «حاضر البديهة قوي الملاحظة سريع التأثر، مرهف الحس، رقيق الشعور، قادراً على الإبداع الأدبي، ولكي تؤتي هذه الموهبة ثمارها، يجب على صاحبها أن يعمل دائماً على تغذيتها وتتميتها من جميع النواحي»^{٢٩}

فالإنسان لكي يكون شاعراً لابد أن تتوفر فيه مواصفات يذكرها علي مصطفى صبح^{٣٠}:

الموهبة الفطرية، وهي شرط أساس.

الذكاء.

حسن التقدير.

الذوق المرهف، يدرك به ما بين الأوزان من قبح وجمال.

الثقافة الأدبية الواسعة.

هذه الثقافة التي يُجمع القدماء والمحدثون على ضرورتها بالنسبة للشاعر حينما يتحدثون عن الدربة والرواية والممارسة، يقول ابن رشيق: «والشاعر مأخوذ بكل علم، مطلوب بكل مكرمة؛ لاتساع الشعر واحتماله كل ما حمل: من نحو، ولغة، وفقه، وخبر، وحساب، وفريضة، واحتياج أكثر هذه العلوم إلى شهادته»^{٣١}، ومما يحتاجه الشاعر كما يذكر ابن رشيق حفظ الشعر والخبر، ومعرفة النسب، وأيام العرب^{٣٢}.

وإذا كان هناك شعراء مطبوعون وآخرون أصحاب صناعة كما يذهب إليه نقادنا القدامى، فإن المقصود «بمذهب الطبع في الأدب أن يرسل المنشئ نفسه على سجيته وفطرتها لينتج عملا فنيا متوافقا مع هذا الطبع العفوي من دون أن يعقب عليه بالتهذيب والتنقيح»^{٣٣}، والأدب المصنوع لا يعني أن صاحبه فاقد للطبع والموهبة، إذ الموهبة ضرورية؛ غير أن هناك من الشعراء من اعتنى بالصناعة، ومنهم من ذهب بمذهب المطبوعين، «أما من لا طبع له، ولا موهبة قادرة على الاكتساب والتهذيب، فالأولى له أن ينصرف عن الأدب إلى صناعة أخرى، تتجاوب معه»^{٣٤}، وهذا ما أشار إليه بشر بن المعتمر في صحيفته، حين قال: «كن في إحدى ثلاث منازل، المنزلة الثالثة أن تتحول عن هذه الصناعة إلى أشهى الصناعات إليك، وأخفها عليك»^{٣٥}، باعتبار أن موهبته ليست في الشعر وقد تكون في غيره.

أهمية الطبع عند حازم القرطاجني:

يتحدث حازم عن الصناعة النظامية فيقول: «النظم صناعة آلتها الطبع. والطبع هو استكمال للنفس في فهم أسرار الكلام، والبصيرة بالمذاهب والأغراض التي من شأن الكلام الشعري أن ينحى به نحوها؛ فإذا أحاطت بذلك علما قويتم على صوغ الكلام بحسبه عملا»^{٣٦}، فالطبع عند حازم بالغ الأهمية بالنسبة للشاعر المبدع، غير أن واقع الشعر كان مختلفا تماما في زمانه، ويذهب أحد الدارسين إلى أن السبب في تردي الشعرية في زمن حازم القرطاجني هو طغيان نظم المسائل العلمية، وبالتالي خبت جذوة الشعرية الحقة، وينبه إلى السبب في «أن المعاني العلمية غير شعرية وذلك لأن محل المعاني العلمية الأذهان؛ يعني هي متعلقة بإدراك الذهن وليس الحسن والقبح من مقاصدها، وإنما الصواب والخطأ وذلك بخلاف المعاني الشعرية فإن الذي يدركها هو الحس وهي التي تدور عليها مقاصد الشعراء

ثم اتجه بجزء من كلامه لمن يوردون المعاني العلمية في كلامهم وأنهم يريدون التموية بأنهم علماء وشعراء وهذا يخرجهم من أن يكونوا علماء أو شعراء فليس العلم في الشعر من الشعر وليس الشعر في العلم من العلم»^{٣٧}.

إن القرطاجني يتحدث في منهاجه عن قضية الشعر، ويقف عند الحال التي آل إليها مركزا على أمر مهم متعلق بالطبع، فهو يرجع الحال التي آل إليها الشعر من تدهور وتراجع وضعف إلى الخلل الذي أصاب الطبع، ففي رأيه أن الطبع العربي مثله مثل اللسان العربي، فإذا كان اللسان قد أصابه اللحن فإن الطبع قد أصابه الخلل والفساد، ومثلما يحتاج اللسان إلى تقويم، فإن الطبع يحتاج إلى تقويم أيضا، يقول حازم: «إن الطباع قد تداخلها من الاختلال والفساد أضعاف ما تداخل الألسنة من اللحن، فهي تستجيد الغث وتستنغيّ الجيد من الكلام، ما لم تقمع بردها إلى اعتبار الكلام بالقوانين البلاغية، فيعلم بذلك ما يحسن وما لا يحسن»^{٣٨}.

ويؤكد حازم القرطاجني على أمر مهم وهو أن الطبع يدخله من الفساد أكثر مما يدخل الألسنة من اللحن، وبالتالي فإن الطباع أحوج إلى التصحيح والتقويم من الألسنة بما أصابها من لحن، حيث أن العرب ومنذ العصر الجاهلي — عصر الطبع وعصر الفصاحة وصحة اللسان — لم يكونوا يستغنون عن تصحيح الطباع وتسديدها وتقويمها، يقول: «ولا شك أن الطباع أحوج إلى التقويم في تصحيح المعاني والعبارات عنها من الألسنة إلى ذلك في تصحيح مجاري أواخر الكلم، إذ لم تكن العرب تستغني بصحة طباعها وجودة أفكارها عن تسديد طباعها وتقويمها باعتبار معاني الكلام بالقوانين المصححة لها»^{٣٩}.

هناك صفات مثلى للأدب المقبول وميزات حقيقية يتوافر عليها الأديب الناجح «وبالرغم من أن تلك الصفات والمميزات لم تكن في العصر الجاهلي مرموقة ينتفعون بها، هم، ونستند نحن عليها في الحديث عنهم، فإنها كانت شروطاً متفقاً عليها عرفاً مجعاً عليه، ونحن لا نتخصر العلم حينما نشير إلى توافرها ، فإننا نستطيع استنباطها من أحاديث الخاصة من شعرائهم، ومما كان يجري بين المتنافسين في أسواق الأدب بينهم، وفيما بينهم وبين المنصتين إليهم من بقية الحضور «^{٤٠} ، فالعرب وإن لم يكن لهم علوم موضوعة إلا أنهم كانوا أصحاب ذوق سليم.

ولو رجعنا إلى التراث الجاهلي لوجدنا الكثير من الأخبار والروايات التي تدل على مدى اهتمام العرب بشعرهم، فهو موضوع أحاديثهم في مجالسهم العامة والخاصة وفي أنديةهم وأسمارهم وحتى في أسواقهم، وقد أشار حازم القرطاجني إلى أن ذلك قد نقله الرواة عنهم وهو موجود في كتبهم، ولو تتبعناه لوجدنا منه الشيء الكثير، كخبر النابغة الذي «كان يضرب له قبة حمراء من أدم بسوق عكاظ فتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها»^{٤١}، وما كان يُعرض على قريش في أنديةها من قصائد، فعن حماد الراوية قال: كانت العرب تعرض أشعارها على قريش فما قبلوا كان مقبولا وما ردوا منه كان مردودا، فقدم عليهم علقمة بن عبدة فأنشدهم قصيدته التي أولها^{٤٢}:

هَلْ مَا عَلِمْتَ وَمَا اسْتُودِعْتَ مَكْتُومٌ أَمْ حَبْلُهَا إِذْ نَأَتْكَ الْيَوْمَ مَصْرُومٌ

فقالوا هذا سمط الدهر، ثم عاد إليهم في العام القابل فأنشدهم قوله^{٤٣}:

طَحَا بِكَ قَلْبٌ فِي الْحِسَانِ طَرُوبٌ بُعِيدَ الشَّبَابِ عَصْرَ حَانَ مَشِيبٌ

فقالوا هذان سمطا الدهر^{٤٤}، وذكر ابن قتيبة أن «النابغة الذبياني وبشر بن أبي حازم كانا يقويان، فأما النابغة فدخل يثرب فغنى شعره ففطن

فلم يعد للإقواء»^{٤٥} وما يذكر من حكومة أم جندب وقد احتكم إليها امرؤ القيس وعلقمة بن عبدة، فحكمت لعلقمة^{٤٦}، وتحاكم كل من علقمة والزبرقان والمخبل إلى ربيعة بن حذار الأسدي^{٤٧}.

ولئن وجدنا بعض النقاد يرون أن صاحب الطبع مستغن بطبعه عن التعلم، في إشارة إلى أن العرب في الجاهلية و الفصحاء في عصور الاحتجاج كانوا بفطرتهم وسليقتهم يدركون الجيد من الرديء وأذواقهم السليمة ترفض كل خلل ونقص، فهذا ابن رشيق مثلاً حينما يتحدث عن الأوزان يقول: «والمطبوع مستغن بطبعه عن معرفة الأوزان، وأسمائها وعللها، لنبو ذوقه عن المزاحف منها والمستكره، والضعيفُ الطبع محتاج إلى معرفة شيء من ذلك يعينه على ما يحاوله من هذا الشأن»^{٤٨}، وقبله قال ابن طباطبا: «من صح طبعه وذوقه لم يحتج إلى الاستعانة على نظم الشعر بالعروض التي هي ميزانه، ومن اضطرب عليه الذوق لم يستغن عن تصحيحه وتقويمه بمعرفة العروض والحدق بها حتى يصير معرفته المستفادة كالطبع الذي لا تكلف معه»^{٤٩}، فمع أن هؤلاء يشيرون إلى أهمية التعلم لغير المطبوع وغنى صاحب الطبع عن التعلم فإن حازماً له رأي مختلف؛ إذ يؤكد على عدم الاستغناء بالطبع الجيد عن التعليم والإرشاد.

غير أن القرطاجني يبدي تعجبه ممن يعتقد أن العرب -الجاهليين- وهم أصحاب الطبع كانوا في غنى عن التعلم والإرشاد، يقول: «وكيف يظن ظان أن العرب، على ما اختصت به من جودة الطباع لنشئهم على الرياضة واستجداد المواضع وانتجاع الرياض العواذب ... كانت تستغني في قولها الشعر -الذي هو بالحقيقة شعر ونظمها القصائد التي كانت تسميها أسماط الدهور- عن التعليم والإرشاد إلى كفايات المباني التي يجب أن يوضع عليها

الكلام، والتعريف بأنحاء التصرف المستحسن في جميع ذلك، والتنبية على الجهات التي منها يداخل الخلل المعاني ويقع الفساد في تأليف الألفاظ والمعاني»^{٥٠}، وما ورد عنهم من أخبار يثبت ذلك.

والشاعر منهم يسعى إلى التفوق على غيره، ولا يتأتى له ذلك إلا بالسعي وراء الأسباب التي تحقق هذا التفوق، يقول ابن رشيق القيرواني: «فقد وجدنا الشاعر من المطبوعين المتقدمين يفضل أصحابه برواية الشعر، ومعرفة الأخبار، والتلمذة بمن فوقه من الشعراء، فيقولون: فلان شاعر راوية، يريدون أنه إذا كان راوية عرف المقاصد، وسهل عليه مأخذ الكلام، ولم يضق به المذهب، وإذا كان مطبوعاً لا علم له ولا رواية ضل واهتدى من حيث لا يعلم، وربما طاب المعنى فلم يصل إليه وهو مائل بين يديه؛ لضعف آله: كالمقعد يجد في نفسه القوة على النهوض فلا تعينه الآلة»^{٥١}، فزيادة على الموهبة المشتركة يتفوق الشاعر على أقرانه بالرواية وسعة الثقافة، أما إن كان فاقدا لهذه العناصر التي تصقل موهبته كان ذلك داعية لتأخره عن أمثاله.

والعرب ورغم صحة طباعهم كانوا ينبهون إلى ما يقع من خلل أو فساد، ويعرّفون بأنحاء المستحسن في جميع ذلك، ويشير حازم إلى أمر مهم منذ الجاهلية، أي عند أصحاب الطباع الحسنة، حيث كان الشاعر يلزم شاعرا آخر بقصد التعلم، يقول: «وأنت لا تجد شاعرا مجيدا منهم إلا وقد لزم شاعرا آخر المدة الطويلة، وتعلم منه قوانين النظم، واستفاد عنه الدربة في أنحاء التصاريف البلاغية»^{٥٢}، فهو يشير إلى تلك العلاقة التي تكون بين المتعلم والمعلم في سياق حديثه عن بعض الشعراء المجيدين ممن كانوا في الجاهلية والإسلام حيث:

يلزم الشاعر منهم شاعرا آخر

ويتعلم منه قوانين النظم

ويستفيد عنه الدربة في أنحاء التصاريح البلاغية

والأخبار تذكر أن عددا من شعراء الجاهلية والإسلام كانوا رواة للشعر وملازمين لشعراء سبقوهم فرَوَوْا عنهم وتعلموا منهم نظم الشعر، إذ يذكر ناصر الدين الأسد «طائفة منهم يتسلسلون في نسق، ويكوّنون مدرسة شعرية... تبدأ بأوس بن حجر وتنتهي بكثير، فقد كان زهير بن أبي سلمى راوية أوس وتلميذه، ثم صار زهير أستاذا لابنه كعب وللحطيئة... ثم جاء هذبة بن خشرم الشاعر وتلمذ للحطيئة وصار راويته، ثم تتلمذ جميل بن معمر لهذبة وروى شعره، ثم كان آخر من اجتمع له الشعر والرواية كثيرا تلميذ جميل وراويته»^{٥٣}.

فهؤلاء شعراء موهوبون وأصحاب طبع جيد؛ غير أنهم اختاروا لأنفسهم طريقا يختلف عن طريق المطبوعين، وقد عرفوا عند الأصمعي بـ "عبيد الشعر"، وتحدث عنهم الجاحظ فقال: «لولا أن الشعر كان قد استعبدهم واستقرغ مجهودهم حتى أدخلهم في باب التكلف وأصحاب الصنعة ومن يلتمس قهر الكلام واغتصاب الألفاظ لذهبوا مذهب المطبوعين الذين تأتت بهم المعاني سهوا رهوا وتثال عليهم الألفاظ انثيالاً»^{٥٤}، فالأصل فيهم هو الطبع، وإشارة حازم القرطاجني إلى أهمية التعلم والإرشاد إنما كانت لأجل تأكيد وجوده، وبين أن ذلك عرف به الشعر العربي منذ القديم، وفي عصور ازدهاره، حتى يبين لنا الأسباب التي أدت إلى ذلك الانهيار الذي عرفه الشعر العربي في زمانه.

فالعرب ورغم ما تميزوا به من جودة الطباع ونشأتهم على الرياضة واستجداد المواضع وانتجاع الرياض العواذب وكان شعرهم شعرا، ثم هو يتعجب من حال الشعر والشعراء في زمانه وما دخل شعرهم من فساد و

خلل، وكيف كان الشعر العربي الذي هو شعر بالحقيقة ومع ذلك لا يستغنون أو لم يكونوا يستغنون عن التعليم والارشاد، إنه يشتكي من الحال التي آل إليها الشعر في زمانه والانشطاط الذي وصلت إليه، وذلك بفقدانهم الاستعداد الذي يؤهلهم لاعتقاد فضل الشاعر بخلاف ما كان عليه الأمر من قبل حيث: «كان الشاعر في القديم يُنزل منزلة النبي فيعتقد قوله ويصدق حكمه ويؤمن بكهنته»^{٥٥}، وهذا الأمر قد صار معدوماً بالجملة، بل أكثر من ذلك يقول حازم القرطاجني: «كثير من أنزال العالم -وما أكثرهم- يعتقد أن الشعر نقص وسفاهة»^{٥٦} والسبب في ذلك عجمة الألسنة واختلال الطباع، والبعد عن المنابع الأصيلة.

إن القرطاجني، وهو يتحدث عن التردّي الذي عرفه الشعر في زمانه والواقع الذي آل إليه، وسوء رأي الناس فيه -أي الشعر- وانصرافهم عنه «يعلل ذلك بعلّة واحدة، أساسها ليس فقط سوء رأي الناس في الشعر، وأنه أكاذيب وأضاليل، وإنما أساسها افتقاد الإحساس بالشعر، وأن عجمة اللسان، واختلال الطبع، أوصداً باب قبول الشعر، وهذا داؤهم، وليس داء الشعر»^{٥٧}، والساقط من الشعر ظنوه شعراً وما هو بشعر، إذ ظنوا أن المعتبر في الشعر ينحصر في الوزن والقافية وللتفريق بين الكلام الموزون المقفى، والذي ليس فيه شيء مما يقوم به الشعر، والشعر الحقيقي، يمثل «بالحصير المنسوج من البردي، والحلة المنسوجة بخيوط من الذهب والحرير، ويقول إنهما يشتركان في النسج، وإذا جمعتهما وحكمت على الحلة بما في الحصير المنسوج من فساد تكون خالفت المعقول، فشعر هؤلاء هو الحصير والشعر الحقيقي هو الحلة المنسوجة من الذهب والحرير»^{٥٨}.

إن الثروة الأدبية الموروثة عن الفحول والفصحاء كانت هي النموذج الأمثل، ولذلك كان من مدلولات مصطلح الطبع -كما يرى مصطفى درواش- احتذاء القدماء والسير على أساليبهم ومأثورهم الشعري، «والشاعر

المحدث مجبر في استبانة طريقه وإرضاء الذوق المتوارث أن يستملي الفكر القديم في مثاله البدوي حتى ينطبق عليه فعل الطبع في أثناء صياغته لقريضه ... وهكذا فإن البعد الرئيس للطبع تمثّل القديم، والتغذي من منابعه الصافية، وإلزامية إتباعه لأنه ثابت غير متحول إلا من حيث الأثر الذي يحدثه»^٩، والشاعر الأصيل «هو الذي تجيء لغته في شعره سليقة وطبعاً، وهو بذلك قريب من البدوي الذي تتدفق اللغة على لسانه بلا تكلف أو تعمل، أما ذلك الذي يجودّ شعره ويصنعه فإن دافعه لذلك -من وجهة نظرهم- هو ضعف سليقته وبعده عن الفطرة السليمة»^{١٠}، ولذلك كان ابن خلدون يرى أنه بالارتياض في أشعار العرب يستفيد المبدع من القالب الكلي المجرد في الذهن من التراكمات المعينة التي ينطبق ذلك القالب على جميعها، ويشبه مؤلف الكلام بالبناء أو النساج والصورة الذهنية بالقالب الذي فيه أو المنوال الذي ينسج عليه، بحيث لا يصح الخروج عن القالب أو المنوال لأنه فساد للعمل، أما القوانين والقواعد فإنها لا تكون كافية لإنتاج نص شعري، ومعرفتها لا تعطي شاعراً جيداً، يقول: «ولا تقولن إن معرفة قوانين البلاغة كافية لذلك»^{١١}. وحينما يتحدث عن صناعة الشعر يبين أن أول شروط هذه الصناعة «الحفظ من جنسه؛ أي من جنس شعر العرب حتى تنشأ في النفس ملكة ينسج على منوالها»^{١٢} أما من قلّ حفظه أو عدم الحفظ لن يكون شاعراً وإنما هو مجرد ناظم ساقط النظم. والأولى به اجتناب الشعر إذ لا محفوظ له. أما من يحفظ فإن الحفظ سبب لشحذ القريحة للنسج على المنوال وبالإقبال على النظم بعد ذلك وبالإكثار منه تستحكم ملكة الشعر وترسخ»^{١٣}.

ويفرق ابن خلدون بين الصناعة والملكة، إذ الصناعة «هي معرفة قوانين هذه الملكة ومقاييسها خاصة، فهو علم بكيفية، لا نفس كيفية، فليست نفس الملكة، وإنما هي بمثابة من يعرف صناعة من الصنائع علماً، ولا

يحكمها عملاً»^{٦٤}، ويشير إلى أمر مهم وهو أنه «على مقدار جودة المحفوظ أو المسموع تكون جودة الاستعمال من بعده ثم إجادة الملكة من بعدهما. فبارتقاء المحفوظ في طبقته من الكلام ترتقي الملكة الحاصلة لأنّ الطّبع إنّما ينسج على منوالها وتتمو قوى الملكة بتغذيتها»^{٦٥}.

وإذا كان الأمر كذلك، فإن التخلي عن ذلك الإرث، وعدم الرجوع إليه كان له الأثر السيء على الشعر في زمن حازم، حيث يقول: «وأنت تجد الآن الحريص على أن يكون من أهل الأدب المتصرفين في صوغ قافية أو فقرة من أهل زماننا يرى وصمة على نفسه أن يحتاج مع طبعه إلى تعليم معلم أو تبصير مبصر، فإذا تأتى له تأليف كلام مقفى موزون، وله القليل الغث منه بالكثير من الصعوبة، بأى وشمخ، وظن أنه قد سامى الفحول وشاركهم، رعونة منه وجهلا من حيث ظن أن كل كلام مقفى موزون شعر»^{٦٦}، ويشبه هذا الشاعر بالأعمى الذي يلتقط الحصباء ويظنها درا معتمدا في ذلك حاسة اللمس وهو لا يدرك أن ميزة الجوهر وشرفه إنما هو بصفة أخرى غير التي أدرك، وهذا حال من ظن أن «الشعرية في الشعر إنما هي نظم أي لفظ اتفق كيف اتفق نظمه وتضمنه أي غرض اتفق على أي صفة اتفق، لا يعتبر عنده في ذلك قانون ولا رسم موضوع. وإنما المعتبر عنده إجراء الكلام على الوزن والنفاد به إلى قافية، فلا يزيد بما يصنعه من ذلك على أن يبدي عن عواره، ويعرب عن قبح مذاهبه في الكلام وسوء اختياره»^{٦٧}.

وفي الختام أقول إنه مما أرق القرطاجني -وهو العارف بحقيقة الشعر- الحال التي آل إليها ورأى أن الداء الذي أصاب الحياة الشعرية إنما هو راجع إلى اختلالات أصابت الطبع الذي هو أساس الشعر ولا دواء يكون إلا بإصلاحه، ولا صلاح له إلا بالسير على طريقة الفحول في تعهدهم الشعر واهتمامهم به، وإنزاله المنزلة التي يستحق.

الهوامش

- ١- الشيخ بوقرية، الشعر وقضايه عند أبي علي الحسن بن رشيق المسيلي، دار الأدب للنشر والتوزيع، وهران، ٢٠٠٥، ص: ٦٥.
- ٢- الأمدي الحسن بن بشر، الموازنة بين أبي تمام والبحتري، تح: السيد أحمد صقر، ط٤، ١٩٩٢، دار المعارف، القاهرة، ٤/١.
- ٣- الأمدي، الموازنة، ٤٢٠/١.
- ٤- ابن وكيع الحسن بن علي التنيسي، المنصف للسارق والمسروق منه، تح: عمر خليفة بن ادريس، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، ط١، ١٩٩٤، ٢٣٩/١.
- ٥- المتنبي، ديوان أبي الطيب المتنبي، تصحيح عبد الوهاب عزام، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ص: ٤٥.
- ٦- ابن وكيع، المنصف للسارق والمسروق منه، ٣٥٨/١.
- ٧- ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تح: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، ٨٧٦-٨٧٥.
- ٨- ابن وكيع، المنصف للسارق والمسروق منه، ٣٩٨/١.
- ٩- العميدي محمد بن أحمد، الإبانة عن سرقات المتنبي، تح: إبراهيم الدسوقي البساطي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦١، ١٢٢/١.
- ١٠- العميدي، الإبانة عن سرقات المتنبي، ١٢٢/١.
- ١١- ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط٥، ١٩٨١، ١٢٢/١.
- ١٢- الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تح: مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، ٢٣/٢.
- ١٣- تهذيب اللغة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١١٠/٢ ٢٠٠١.
- ١٤- الجوهري أبونصر، الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية)، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٩، ص: ٦٩١.
- ١٥- ينظر الفيروز آبادي، القاموس المحيط، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٢، ٢٠٠٧، ص: ٧٦٢.
- ١٦- الشريف الجرجاني، التعريفات، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٢، ٢٠٠٣، ص: ١٤٣.
- ١٧- محمد مرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تح: عبد العليم الطحاوي، مطبعة حكومة الكويت، ٤٣٨/١٩٨٤، ٢١.
- ١٨- أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، تح: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ص: ٧٣، وقد فرق بين الطبع والختم، إذ أن الطبع أثر يثبت في المطبوع ويلزمه فهو يُفيد من معاني الثبّات واللزوم ما لا يفيدُه الختم.
- ١٩- ابن منظور، لسان العرب، مادة (طبع)، دار المعارف، القاهرة، ص: ٢٦٣٥.
- ٢٠- محمد إبراهيم شادي، ثنائيات النقد العربي، دار اليقين للنشر والتوزيع، مصر، ط١، ٢٠١٦، ص: ٢٧٧.
- ٢١- الجاحظ، البيان والتبيين، ٢٠٨/١، ويقول أيضاً: "وفي الشعراء من لا يستطيع مجاوزة القصيد إلى الرجز، ومنهم من لا يستطيع مجاوزة الرجز إلى القصيد، ومنهم من يجمعها كجبريل وعمر بن لجأ، وأبي النجم، وحמיד الأرقط، والعماني. وليس الفرزدق في طوالة بأشعر منه في قصاره، وفي الشعراء من يخطب وفهم من لا يستطيع الخطابة، وكذلك حال الخطباء في قريض الشعر. والشاعر نفسه قد تختلف حالته" البيان والتبيين، ٢٠٩/١.
- ٢٢- ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ٩٣-٩٤.
- ٢٣- ينظر محمد إبراهيم شادي، ثنائيات النقد العربي، ص: ٢٧٦.
- ٢٤- القاضي الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد الجاوي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٦، ص: ٢٤.
- ٢٥- يقول ابن سلام الجمحي: "وأشعرهن قرينة المنيعة" وذكر شعراءها ثم قال: "أشعرهم حسان بن ثابت" ٢١٥/١ وقال: "وبالطائف شعر ولئيم بالكثير" ٢٥٩/١ وقال: "وفي البحرين شعر كثير جيد" ٢٧١/١، وقال: "ولنا أعرف باليَمامة شاعراً مذكوراً" ٢٧٧/١، ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، تح: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة.

- ٢٥- القاضي الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، ٢٤.
- ٢٦- ينظر، تكملة المعاجم العربية، رينهار بيتر آن دوزي، تر: محمد سليم النعيمي، وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، بغداد ١٩٩٩، ١٦/٧ و ٢١٩/٨.
- ٢٧- ينظر أحمد مختار عبد الحميد عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، ط١، ٢٠٠٦، ٢٥٠٠/٣.
- وينظر إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، حرف الطاء (طبع)، ص: ٥٧٦.
- ٢٨- شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في الشعر، دار المعارف، مصر، ط١١، ص: ٨.
- ٢٩- علي الجندي، في تاريخ الأدب الجاهلي، مكتبة دار التراث، ط١، ١٩٩١، ص: ٢٥٣.
- ٣٠- ينظر علي علي مصطفى صبح، في النقد الأدبي، ص: ٦٥.
- ٣١- ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ١٩٦/١.
- ٣٢- ينظر ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ١٩٦/١.
- ٣٣- محمد بن سليمان بن ناصر الصقيل، البحث البلاغي والنقدي عند ابن رشيق القيرواني في كتابه العمدة، ص ٥٠٤.
- ٣٤- علي مصطفى صبح، في النقد الأدبي، ١١١.
- ٣٥- ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ٢١٣/١.
- ٣٦- حازم القرطاجني، منهاج البلغاء، تح: محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٩٨٦، ص: ١٩٩.
- ٣٧- محمد محمد أبو موسى، تقريب منهاج البلغاء، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦، ص: ٥٠.
- ٣٨- حازم القرطاجني، منهاج البلغاء، ص: ٢٦.
- ٣٩- حازم القرطاجني، منهاج البلغاء، ص: ٢٦.
- ٤٠- جعفر الكتاني، من قضايا النقد الأدبي الحديث، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، ط١، ٢٠٠٢، ص: ٣٣-٣٢.
- ٤١- ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ١٦٨/١.
- ٤٢- المفضل الضبي، المفضليات، تح: أحمد محمد شاكر و عبد السلام محمد هارون، دار المعارف - القاهرة، ط٦، ص: ٣٩٧.
- ٤٣- المفضل الضبي، المفضليات، ص: ٣٩٧.
- ٤٤- ينظر أبو الفتح العباسي، معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، عالم الكتب، بيروت، ١٧٧/١.
- ٤٥- ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ٩٥/١.
- ٤٦- ينظر ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ٢١٨/١.
- ٤٧- ينظر المرزباتي، الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، تح: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٥، ص: ١٧٧.
- ٤٨- ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ١٣٤/١.
- ٤٩- ابن طباطبا العلوي، عيار الشعر، تح: عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٢، ص: ٩.
- ٥٠- حازم القرطاجني، منهاج البلغاء، ص: ٢٧.
- ٥١- ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ١٩٦/١.
- ٥٢- حازم القرطاجني، منهاج البلغاء، ص: ٢٧.
- ٥٣- ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي، دار المعارف، القاهرة، ط٧، ١٩٨٨، ص: ٢٢٣.
- ٥٤- الجاحظ، البيان والتبيين، تح: محمد عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٧، ١٩٩٨، ١٤/٢.
- ٥٥- حازم القرطاجني، منهاج البلغاء، ص: ١٢٤.
- ٥٦- حازم القرطاجني، منهاج البلغاء، ص: ١٢٤.
- ٥٧- محمد محمد أبو موسى، تقريب منهاج البلغاء، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦، ص: ١٠٢.
- ٥٨- محمد محمد أبو موسى، تقريب منهاج البلغاء، ص: ١٠٢.
- ٥٩- مصطفى درواش، خطاب الطبع والصناعة، رؤية نقدية في المنهج والأصول، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ٢٠٠٥، ص: ٤٨.
- ٦٠- محمد عيد، الاستشهاد والاحتجاج باللغة، ص: ٣١.

- ٦١- ابن خلدون، المقدمة، تح: علي عبد الواحد وافي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٦، ص: ١١٦١.
- ٦٢- ابن خلدون، المقدمة، ص: ١١٦٣.
- ٦٣- ينظر ابن خلدون، المقدمة، ص: ١١٦٣.
- ٦٤- ينظر ابن خلدون، المقدمة، ص: ١١٤٧.
- ٦٥- ابن خلدون، المقدمة، ص: ١١٦٩.
- ٦٦- حازم القرطاجني، منهاج البلغاء، ص: ٢٧.
- ٦٧- حازم القرطاجني، منهاج البلغاء، ص: ٢٨.

قصيدة ربيعة الشنّاء للشاعر عبدالله البردوني دراسة تفكيكية

علوة حزام مصطلح العرياني (*)

المقدمة

الحمد لله الذي جعل البيان العربي، والإعجاز الأدبي، آخر آيات النبوات وذاقمة معجزات الرسل و الرسائل، وسلام الله وصلاته، وتحياته، على من تنزلت عليه آيات الكتاب المستبين بلسان عربي مبين، وبعد.

فلاشك إن العلوم تتطور يوماً بعد يوم، فلا شيء في الوجود يبقى على حاله الذي اعتاد عليه وهذه سنة الحياة الكونية، التغيير والتبدل والتقدم من حال إلى حال، فنجد العلوم مثلاً تختلف عما كانت عليه قديماً، منها ما تتطور ومنها ما أستهلك ومنها ما تشعبت منها علوم ومعارف أخرى، كذلك الحال في مناهج البحث العلمي، والنقد الأدبي، فلم تقتصر العلوم على المناهج التقليدية فحسب، بل تطورت وأخذت نظريات أخرى، رغم ما احتوت من مأخذ ومخاطر وُجد مقابل ذلك إيجابيات ومحاسن، فالمناهج التقليدية، كالمناهج التاريخية، والمنهج الاجتماعي والمنهج النفسي وغيرها

(*) باحثة ماجستير بقسم اللغة العربية وآدابها - كلية الآداب والعلوم الإنسانية فرع الفيصلية - جامعة الملك عبدالعزيز - المملكة العربية السعودية

من المناهج القديمة لم تعد تكفي (وحدها) في وقتنا الحالي دون منهج منافس آخر من المناهج الحديثة وذلك تبعاً لمواكبة العلم ومتغيراته، ونظرياته، فيؤخذ من هذه النظريات ما يفيدنا ويتفق مع أيديولوجيتنا، تاركين ما هو مخالف لنظرتنا العقيدية، والاجتماعية، وعرفنا المتعارف عليه.

ولعل من أبرز المناهج التي لها الجدل الأكبر حول نظرياتها هي (التفكيكية) وما تبع هذا المنهج من مصطلحات و آليات، فالمنهج التفكيكي لا يفك النص ويعيد تركيبه ليبين المعنى الكامل في النص (كما هو الحال في المناهج التقليدية)، فهو يحاول أن يكشف التوترات والتناقضات داخل النص، ومن ثم تعداد المعنى ، بحيث يفقد النص حدوده الثابتة.

ومن النصوص المختارة لهذا المنهج نص للشاعر اليمني الجنسية: عبدالله البردوني (ربيعية الشتاء) مع ملاحظة تغيرات في لعب الدوال، و اختفاء الثنائيات، ومحاولة إخفاء الشاعر في التحليل التفكيكي، وموته، والخروج عن فكرته الأساسية.

وبناء على ما سبق تم عنوانة هذا الموضوع بـ قصيدة ربيعية الشتاء للشاعر عبدالله البردوني دراسة تفكيكية وهي قصيدة ضمنها في ديوانه جسر العصور.

أسباب اختيار الموضوع:

- ١- التعرف على النظرية التفكيكية وتطبيقاتها.
- ٢- تطبيق النظرية التفكيكية على قصيدة الشاعر عبدالله البردوني.
- ٣- إثراء البحوث التطبيقية في مجال اللغويات الحديثة.
- ٤- قلة الأبحاث الأدبية التي تدور حول أعمال الشاعر عبدالله البردوني الإبداعية.

مشكلة البحث:

يحاول البحث الكشف عن أسس النظرية التفكيكية، ومعرفة طريقة التحليل التفكيكي وذلك من خلال تطبيق النظرية على قصيدة لشاعر اليميني: عبدالله البردوني.

أهداف البحث :

- ١- التعريف بالنظرية التفكيكية، وأبعادها النظرية والفنية.
- ٢- تطبيق النظرية التفكيكية على قصيدة ربيعية الشتاء للشاعر عبدالله البردوني.

أهمية البحث:

تكمن أهمية البحث في محاولة توضيح مفهوم (التفكيكية)، من خلال تحليل النظرية على أبيات عربية.

الدراسات السابقة :

كثيرة الكتب التي تناولت مفهوم التفكيكية، كذلك الرسائل العلمية، منها:

- ١- رسالة ماجستير (تلقي التفكيكية في النقد العربي الحديث)، علي حرب (نموذجاً)، إعداد الطالب: أحمد العزري، ٢٠١٢م

تناولت هذه الدراسة أصول التفكيكية وآلياتها، و التلقي التفكيكي في النقد العربي الحديث، تحليل الخطاب التفكيكي عند علي حرب.

- ٢- رسالة ماجستير عن (فلسفة الحضور والغياب عند جاك دريدا)، إعداد الطالبة: حبيبية دباش، ٢٠٠٩م.

فرضيات البحث:

- ١- ما كيفية تحليل قصيدة ربيعية الشتاء تحليلًا تفكيكيًا؟
- ٢- النظرية التفكيكية من النظريات الحديثة المعينة في إنتاج النصوص وقراءتها من زوايا مختلفة.

منهج البحث :

يعتمد هذا البحث على المنهج الوصفي التحليلي وهو المنهج المعين على تتبع مواطن الشفرات اللغوية وتحليلها تحليلًا لغويًا.

الهيكل العام للبحث:

اشتملت على التعريف بموضوع البحث ، وأسباب اختياره، ومشكلته وفروض البحث، وأهدافه وأهميته، والدراسات السابقة، ومنهجه، ومدخل ثم مبحثين، كل منها يحتوي على أربعة مطالب.

• المدخل: التعريف بالشاعر

• المبحث الأول:

(الجزء النظري) يشمل: مفهوم النظرية التفكيكية، من حيث:

- مقدمة عن التفكيكية ثم التعريف بها.
- التعريف بمؤسس النظرية و أبرز كتبه.
- حدود النظرية التفكيكية، بالإضافة لمصطلحات النظرية.
- مميزات النظرية التفكيكية، وما أخذها.

• المبحث الثاني:

(الجزء التطبيقي) يشمل على قصيدة ربيعۃ الشتاء التي تم تقسيمها إلى الآتي:

- المقطوعة الأولى.
- المقطوعة الثانية.
- المقطوعة الثالثة.
- المقطوعة الرابعة.

مدخل:

التعريف بالشاعر:

ولد الشاعر عبدالله البردوني عام ١٩٢٩م، أو ١٩٣٠م في اليمن في قرية (البردون) من قبيلة (بنى حسن) كان كفيفاً، يملك إبداع أدبي لم يلق هذا الإبداع الضوء الكافي على تجاربه الفكرية والأدبية، كان مهتماً لقضايا أمته، حيث اتصف بشاعر كل العصور.^١

البردوني كان مخلصاً لوطنه، متشرباً معاناة شعبه، غيورا على بلده وأمه، أصيب بالجذري عند الخامسة من عمره وعلى إثره فقد بصره.

أعماله الحكومية.^٢

- ١- كان رئيساً لجنة النصوص في إذاعة صنعاء.
 - ٢- كما كان يستعان به في أي التباس لغوي وفني في الإذاعة.
 - ٣- عمل مشرفاً ثقافياً على مجلة الجيش.
 - ٤- كان مع الأوائل ممن سعوا لتأسيس اتحاد الأدباء والكتاب في اليمن.
- له اثنا عشر ديواناً في الشعر منها.^٣

١- من أرض بلقيس.

٢- في طريق الفجر.

٣- مدينة الغد.

(١) عبدالله البردوني، بين يدي البردوني، ط ١ (اليمن : إصدارات الهيئة العامة للكتاب، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م)

ص ١٣

(٢) البردوني، المرجع نفسه، ص ٢٦

(٣) البردوني، المرجع نفسه، ص ٢٧

- ٤- لعيني أم بلقيس.
- ٥- زمان لا نوعية.
- ٦- جواب العصور.
- ٧- رواغ المصابيح.
- ٨- السفر إلى الأيام الخضر.

المبحث الأول

(الجزء النظري) يشمل: مفهوم النظرية التفكيرية، من حيث:

- مقدمة عن التفكيرية ثم التعريف بها.
- التعريف بمؤسس النظرية و أبرز كتبه.
- حدود النظرية التفكيرية، بالإضافة لمصطلحات النظرية.
- مميزات النظرية، ومآخذها.

أولاً: مقدمة عن التفكيرية ثم التعريف بها.^١

تعتمد استراتيجية التفكيرية على التحديد السلبي، ولا تستمد قيمتها إلا في سياق معين تحل فيه محل كلمات أخرى، أو تسمح لكلمات أخرى بأن تحددتها مثل: الكتابة، الأثر، التشتت وغيرها.^٢

تهدف هذه النظرية إلى قراءة الفكر الغربي قراءة شاملة و إعادة النظر في المفاهيم التي تأسست عليها كالخطاب الميتافيزيقي، وفلسفة الحضور وغيرها.

ثانياً: مؤسس النظرية.

جاك دريدا هو المؤسس للنظرية التفكيرية كمقاربة فلسفية للنصوص، وضرب نموذجاً لها في كتابه الأساسي وهو الكتابة والاختلاف.^٣ فهو يعتمد على تقجير البعد الفلسفي في تناوله للخطاب، فقراءته للنصوص المختلفة ونصوصه تشكل استكشافاً لمركزية اللفظة الغربية وميتافيزيقيا الحضور^٤

(١) جاك دريدا، استراتيجية تفكير الميتافيزيقا، ترجمة وتقديم: عز الدين الخطابي، (تونس: دار الجنوب للنشر، ٢٠٠١م) ص٦

(٢) الخطابي، المرجع نفسه، ص٦

(٣) صلاح فضل، مناهج النقد المعاصر، ط ٦، (القاهرة: أطلس للنشر والتوزيع، ٢٠١٢م) ص٨٩

(٤) صلاح فضل، مرجع نفسه، ص٩٠

كتبه

ألف جاك دريدا الكثير من الكتب منها:

١- أحادية اللغة.

٢- علم الكتابة.

٣- الكتابة والاختلاف.

وأبرزها هو كتاب أحادية الآخر اللغوية، فهو كتاب ينتقل فيه دريدا من وسط اللغة بمحاولاتها الحاضرة ودلالاتها الكامنة إلى البحث في الهوية بمسمياتها المتفردة.^١

فهذا الكتاب وضع فيه دريدا على محك البحث الهرمينوطيقي، ومحاولة إدخاله مملكة المعنى والمرجع، ومن ثم إخراج هذا المعنى والدلالة من وسط اللغة الباحثة عن انسجامها داخل غرائبية الألفاظ، اتصفت بأنها متعبة توشك أن تحول الإنسان إلى رمزا ضمن قائمة المرموزات المتعددة.^٢ وهذا الكتاب يمثل لحظة مميزة في ميراث دريدا الفلسفي، والابداعي بعامة وهي اللحظة النونستالجية.

علم الكتابة.

مفهوم الكتابة عند دريد توضح نوع من القراءة الغائبة، الظاهر أو الخفي المقروء، وهي قراءة غير متاحة إلا بواسطة ازدواج الرؤية أو ما يسمى (الجلسة المزدوجة)^٣

(١) جاك دريدا، أحادية الآخر اللغوية، ترجمة وتقديم: عمر مهيبل، (الجزائر، دار العربية للعلوم، ٢٠٠٨م) ص٧

(٢) مهيبل، المرجع نفسه، ص٧

(٣) محمد علي الكردي، مفهوم الكتابة عند جاك دريدا، فصول مجلة النقد الأدبي، المجلد الرابع عشر، العدد الثاني (مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥م) ص٢٢٩

أيضا يتضح النص بظاهرة تعليق النص، وهذا يتضح من خلال تأمل وظيفية العنوان في الشعر ومفهوم الكتابة عند دريدا يذهب بها لتاريخ يهتم عليه عرض الأفكار والمشاعر والبحث عن الحقائق تبعا لمبدأ المحاكاة عند أرسطو، وهو الذي يجعل من الفن صورة معبرة ومؤثرة للحياة بمعنى أن الشعر ما هو الا انعكاس للحياة^١

ثالثا: حدود التفكيكية.^٢

١- ليس من السهولة الوصول إلى التفكيكية ثم صرعا ودحضها لمجرد تردها، وإنما هي موقف صلب ثابت تدعمه الحجج.

٢- الصدق والمعنى لا يمكن اغفالها أو التغاضي عنهما، فدريدا يعترف بقوة تأثيرهما في المعنى.

٣- ترتبط التفكيكية بالموقف الطبيعي (المعنى المشترك) أو بتلك العلاقة الغامضة.

٤- تؤمن التفكيكية بأن اللغة توجد لتوصيل الدلالة، و تؤمن به وتعلق الرأي.^٣

٥- تؤمن هذه النظرية بفلسفة الحضور، وهو عند دريدا اعتراف الوعي بما يحضر لديه فقط ويرى ضرورة وعي حضور الغياب، الغياب الذي يمكن الإشارة إليه أو الكلام عنه^٤

مصطلحات النظرية:

التفكيكية Deconstruction

(١) الكردي، مرجع سابق، ص ٢٢٩

(٢) كريستوفر لورين، التفكيكية بين النظرية والممارسة، ترجمة: صبري محمد حسن، (الرياض: دار المريخ للنشر، ١٤١٠هـ) ص ٢٢٥

(٣) كريستوفر لورين، المرجع السابق، ص ٢٢٥

(٤) عادل عبدالله، التفكيكية إرادة الاختلاف وسلطة العقل، (سوريا: دار الحصاد للنشر والتوزيع، ٢٠٠٠م) ص ١٥

الأثر الأصل.... Trace

الاختلاف.... Difference

الانتشار أو التشتيت Dissemination

التكرارية Iterability

الملحق أو الإضافة.... supplement

ميتافيزيقا الحضور Metaphysics of presence

رابعاً: مميزات النظرية، وماآخذها

مميزات النظرية التفكيكية.^١

١- القراءة التفكيكية قراءة إيجابية، لأنها تعد قراءة مزدوجة تسعى إلى دراسة النص مهما كانت الدراسة تقليدية أو لا ، وذلك لإثبات دلالاته الصريحة.

٢- تسعى النظرية إلى تقويض ما تتوصل إليه من نتائج وذلك من خلال قراءة معاكسة اعتماداً على ما ينطوي عليه النص من معانٍ تتناقض مع ما يصرح به.^٢

٣- تهدف القراءة التقويضية إلى إيجاد شروحات بين ما يصرح به النص وما يخفيه من دلالات.

٤- النظرية التفكيكية تقوم بقلب كل ما كان منتشرًا في الفلسفة الماورائية.

(١) ميجان الرويلي، سعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، ط ٥، (المغرب: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٧م)

ص ١٠٨

(٢) الرويلي، البازعي، المرجع نفسه، ص ١٠٨

مآخذ النظرية التفكيكية^١

- ١- إن معظم التعابير والأقوال الأساسية المطروحة للتيار التفكيكي كانت موجودة عند النقاد الجدد ومنها فكرة إحالة المعنى التي وجدت عند دريدا تعبير آخر وهو ميتافيزيقيا الحضور.
- ٢- إنكار دريدا لثبات المعنى عند القراءة الأولى للنص، فهذا يعتبر تحويلا لمقولة المغالطة القصدية التي تحدث عنها ويمرات وبيرسلي.
- ٣- شغف التفكيكية في استخدام كلمات و تعابير غير واضحة عمدا منها لإدهاش القارئ و إقناعه بأن ما يقال له استثنائي وغير عادي.^٢
- ٤- أعادت معظم الأفكار الفلسفية المعاصرة، ولا سيما فلسفتي: الظاهرانية والتأويل.

(١) إبراهيم محمود خليل، النقد الأدبي الحديث من المحاكاة إلى التفكيك، ط ٣ (عمان: دار الميسرة للنشر و

التوزيع، ١٤١٣هـ) ص ١١٦

(٢) خليل، مرجع نفسه، ص ١١٦

المبحث الثاني

(الجزء التطبيقي) يشمل على قصيدة ربيعية الشتاء حيث تم تقسيمها إلى:

- المقطوعة الأولى.
- المقطوعة الثانية.
- المقطوعة الثالثة.
- المقطوعة الرابعة.

مدخل

قال الشاعر البردوني قصيدة ربيعية الشتاء في ديوان جواب العصور^(١)، فالشاعر في هذه القصيدة يشجع الأمة اليمنية على الدفاع والنهوض ضد الأعداء ويحذر من التكاثر والتفكك، وذلك بعد تنبأته السياسية الحساسة على مصير بلاده ووطنه رحمه الله.

قصيدة ربيعية الشتاء

هذا الذي سمَّيته منزلي

كان انتظاراً قبل أن تدخلني

كان سؤال القلب عن قلبه

يشتاق عن قلبه أن تسألني

أن ترجعي مثل الربيع الذي

يغيب في الأعواد كي ينجلي

أن تصبحي مثل نثيث الندى

مثل نجوم الصيف أن تُلَيَّلي

(١) البردوني، مرجع سابق، ص ١٤٣

أن تـومئـي واعددة ليـلة
 وليـلة تتسـين كي تبـلي
 كيما تتادي الأرض: أجنيت يا
 حدائقـي أينعت ياسـنبلي
 أقبل سكر الوعد، قالوا صحت؟
 أي هوى أرغى بها: عجلي؟
 هذا زمان مـذهـل ذاهـل
 عنه فمن حاولت أن تـذهـلي؟
 ذا جمر صنعا خفت إذ أـحـرقوا
 فيه بخور الشيخ أن تسـعلي
 أن تصرخي: هل رامنـي موئـلاً
 من غاب عن حسابـه موئـلي
 أظن ماأسـرعت كي تـدهـشي
 هل قال داعي القلب أن تقـبـلي؟
 سألت ذات الودع ماطـالعي؟
 أفضت برئتـين: عليّ ولي
 لأي أزواجـي جنـى عـشـرتـي
 خذي سواهم قبل أن تحـمـلي
 جمال هـذي الحـقبـة استـتـوقت
 والآن يا إنسانـة اسـتـرجـلي
 وغـيـري) يحيى بيفنى كي
 تـبـدلي عن جوفـاك اسـتـبـدلي

واحتنَّيْ مُسْتَقْبَلِي قَبْلَ أَنْ

أَعْدَّ رَمَّانِي وَلَا حَنْظَلِي

قُولِي: أَيُّدُو مَنْزَلِي غَيْرَ مَا

عَهْدَتِهِ مَنْ قَبْلَ أَنْ تَنْزَلِي

تَحْنَحْتُ مِثْلَ الْخَطِيبِ الَّذِي

أَنْسَاهُ شَيْءٌ، صَوْتَهُ الْمُحْفَلِي

كَانَ كَوَجَرِ الضَّبِّ ذَا الْبَيْتِ لَوْ

أُتِيتَ قَبْلًا خَفْتُ أَنْ تَجْفَلِي

وَالآنَ مَنْ بَعْدَ التَّصَابِي صَبَا

وَقَامَ بَعْدَ الْعَرِيِّ كِي يَحْتَلِي

أَحْضَانُهُ امْتَدَّتْ وَجَدْرَانُهُ

سَكْرِي عَلَى قَامَاتِهَا تَعْتَلِي

المطلب الأول: المقطوعة الأولى:

هذا الذي سَمَّيْتُهُ مَنْزَلِي كَانَ

انتظاراً قَبْلَ أَنْ تَدْخُلِي

كَانَ سُؤَالَ الْقَلْبِ عَنْ قَلْبِهِ

يَشْتَاقُ عَنْ قَلْبِيهِ أَنْ تَسْأَلِي

أَنْ تَرْجِعِي مِثْلَ الرَّبِيعِ الَّذِي

يَغِيبُ فِي الْأَعْوَادِ كِي يَنْجَلِي

أَنْ تَصْبِحِي مِثْلَ نَثِثِ النَّدَى

مِثْلَ نَجُومِ الصَّيْفِ أَنْ تُلْيَلِي

أَنْ تَوُمِّي وَاعْدَةَ لَيْلَةٍ

وَلَيْلَةٍ تَتَسَيْنُ كِي تَبْتَلِي

كَيْمَا تَتَادِي الْأَرْضَ: أَجْنِبِي

يَا حَدَائِقِي أَيْنَعْتَ يَا سُنْبُلِي

التحليل التفكيكي للمقطوعة الأولى:

هنا النص كأنه يجسد صورة حسية في عنوان قصيدته فيتمثل

(الشتاء) الرجل بما يحمله الشتاء من دلالات البرود والعطاء، والمحبة هي

((ربيعية)) بما يحمل الربيع من جمال وخضار الطبيعة، واعتدال المناخ ونسبتهما لبعض في العنوان كنسبة ((كثير عزة)) و((جميل بثينة))

فربما عمد النص إلى التظابق البلاغي في الدالين ((الشتاء+ الربيع)) لأنه لا يتم الاكتمال عادة إلا بالاختلاف والتضاد والتناقض .

ثم يبدأ النص بنفس بناء بداية القصيدة العربية ، حيث يتمثل الشتاء وهو (الرجل) بأنه يستعيد الماضي بوقوفه على الأطلال، وكأنه ينزف دماً على فراق محبوبته حيث بدأ قصيدته بتحسر شديد، وألماً أشد، و كأنه يقف على الديار الماضية التي كانت تجمعها مع محبوبته التي كنى بها بـ(منزلي). أسلوب التشبيه (تشبيه المحبوبة بالمنزل الذي هو دلالة المكوث والاستقرار والملاذ الآمن) ثم تتجه الدالات مجرى الاسئلة، فيتساءل (الشتاء) أمام نفسه وقلبه وعقله ، أين رحل قلبه وهجر؟

وهنا النص كأنه يتفق مع مقولة عبدالله الغدامي في كتابه ((تشریح النص)) ضرورة الشعور بالانفعال القلبي مع التدارك العقلي ،أي ضرورة ربطهما ببعض في النص قدر المستطاع .

وسرعان ما يطلب من الأيام أن ترجع مثل قبل ، وربما أفضل مما كانت عليه ،حيث شبه غياب محبوبته بالربيع الذي يغيب كل تسعة أشهر ثم لا بد أن يعود تارة أخرى حاملاً كل البشر والنور والنقاء ووجه الشبه هو الجلاء والبشارة والظهور بعد طول الغياب و عذاب الفراق وأنين العشاق.

هنا تشبيه ابداعى حيث شبه القلب بالإنسان الذي يسأل ،حيث ذكر المشبه ، وحذف المشبه به وهو الإنسان وأتى بشيء من صفاته وهي (التساؤل) على سبيل الاستعارة المكنية التشخيصية.

بعد ذلك بدأ النص بتعدد دالات مواصفات المحبوبة، وذكر مزاياها، والتغني بخصالها كما تغنت القصائد من قبل وتغزلوا بأصحابهم، فها هو النص يعدد بعض من خصال تلك المحبوبة كالرقة والنعومة و الاشراق والإضاءة تشبيها بالنجوم ليلا، في عتمة الظلام وسواد دجى الليالي بعد ذلك تطلب دلالات النص من المحبوبة أن تؤمن وتعد الشتاء وهو محبوبها على ليلة للقاء والسمر والحديث، وكيفما كانت حالة الأرض من مطر ومن رطوبة أو تقلبات جوية طلب منها ألا تبدي له بالأعذار ثم سرعان ما يشبهها بالثمرة عندما يأتي حصادها، أو يستوي لونها الطبيعي، فهي كالسنبلة في وسط الحقائق المثمرة، الخضراء ذات بهجة تسر الناظرين.

كثرة استخدام الدلالة بصيغة المؤنث. (أن +مصحوبة بالفعل المضارع) (أن تدخل + أن تسأل + أن ترجعي + أن تصبح + أن تلبي + أن تؤمن) ربما دالة على الالم الشديد والتحسر على الأيام الماضية.

يلاحظ يكثر هنا أسلوب التكرار (مثل الربيع + مثل نثيث الندى + مثل نجوم) بعث هنا التكرار في (مثل) نوعا من الإيقاع الموسيقي الذي يطرب السامع ويمتع القارئ.

كثرة استخدام التشبيهات التي تحمل دلالات الطبيعة الخلابة كالنجوم الدالة على اللعان والبراقة، والربيع الدال على الجمال والصفاء، والندى الدال على الرقة والنقاء، والسنبلة بعد الينوع والاكتمال الدالة على النضوج والاستواء جميعها دلالات ايجابية وإحباءات لغوية جيدة تستخدم عادة للمديح والغزل والثناء.

تكرار حرف القاء، أضاف نوعا من الفخامة والقوة يستدعي الطرب في الأذن واللذة.

المطلب الثاني: المقطوعة الثانية .

كان سؤال القلب عن قلبه
أقبل سكر الوعد، قالوا صحت؟
هذا زمان مذهب داهل
ذا جمر صنعا خفت إذ أحرقوا
أن تصرخي: هل رامي موئلاً
أظن ما أسرع كي تدهشي
التحليل التفكيكي للمقطوعة الثانية.

هنا تبدأ دالات النص بالتخيل وسرد هيئة المحبوبة عند اللقاء، بعد الوعد و الاتفاق، فيبدأ النص بوصفها سكرا، حيث شبه المحبوبة في الجمال بالسكر فحذف المشبه وهي المحبوبة، وذكر المشبه به (السكر) وجه الشبه ما يتمتعان به من حلوة المنظر وجمال الشكل، وصفاء اللون.

ثم يستغرب الشتاء ويستعجب كيف لمحبوبته أن تصحو باكرا لمقابلته؟! حيث كان في القدم يمتدحون المحبوبة بـ(نؤوم الضحى) كناية عن الترف، فهنا شخصية الشتاء بدأ يتحسر على ما بدر منه في سرعة تحديد الوعد المبكر.

بعد ما بدأ بالتساؤل مع نفسه وندمه، يطلب منها أن تعجل في القدوم حتى يعتذر من صنيعه ويحدد معها يوماً آخرًا بديلاً.

بعد ما أقبلت تلك المحبوبة ،وذهل بجمالها ومواصفاتها، ردد في نفسه حقا أن الزمن ذاهل مذهب راحل عجيب، حيث يتساءل معها بصيغة التعجب بقول ما أسرعك بدهشتي و اعجابي وشد انتباهي؟!

حتى قبل أن أبادر بذكر ما كنت سأقوله من اعتذار فهل أحسست بسؤلي في قلبي هذا الذي جعلك تقبلي عذري دون سماعه فجعلك تستعجلي في القدوم بهذا الدهول؟؟؟

تكثر في هذه المقطوعة الأساليب الإنشائية، وأبرزها الاستفهام، وذلك للإثارة والمتعة والتعجب والتشويق مثل:

قالوا صحت؟، أي هوى أرغى بها عجلي؟ ، عنه فمن حاولت أن
تذهلي؟، هل قال داعي القلب أن تقبلي؟

السؤال الذي يطرح نفسه إن الأبيات تدور حول ثورة وحرب ستقام، وليس من الطبيعي كتابة في هذه الأجواء مثل هذه الجمل الإنشائية وتنوعها، فالمقام مقام تقرير وتأكيد، والغرض هو الرثاء والحزن، فما السبب في الإنشاء والاستثارة وتنوع الأساليب والتشبيهات؟!

كثرة استخدام المشتق (اسم الفاعل والمفعول) في المقطوعة الدالة على الاستمرار مثل: مذهب، ذاهل، حاولت، موئل، غاب، داعي.

ذكر مدلولات الشوق والاحترق الداخلي المعنوي بدالات حسية مثل (الشوق، الجمر، الحرق البخور)

هذا زمان مذهب ذاهل عنه فمن حاولت أن تذهلي؟

تكرار حرف الذال أضاف نوعاً من الموسيقى والإيقاع الممنع الرقيق

أن تصرخي: هل رامي موئلاً من غاب عن حسابنه موئلي
هذا زمان مذهب ذاهل عنه فمن حاولت أن تذهلي؟

تكرار الأسلوب البلاغي (رد العجز عن الصدر) في لفظتي تذهلي،

موئلي

أن تصرخي: هل رامي موئلاً من غاب عن حسابنه موئلي
هذا زمان مذهب ذاهل عنه فمن حاولت أن تذهلي؟

أسلوب التشبيه ، حيث شبه المحبوبة بطفل يصرخ، حيث حذف المشبه به الطفل وذكر شيء من صفاته (الصراخ) على سبيل الاستعارة المكنية التشخيصية .

المطلب الثالث: المقطوعة الثالثة .

سألت ذات الودع ما طالعي؟
لأي أزواجي جنى عِشرتي
جمال هذي الحقة استنوقت
وغيري يحيى بيفنى وكى
واحتشني مُستقبلي قبل أن
أفصت بردن: عليّ ولي
خذي سواهم قبل أن تحلمي
والآن يا إنسانة استرجلي
تبدلي عن جوفك استبدلي
أعدّ رماني ولا حنظلي

التحليل التفكيكي للمقطوعة الثالثة:

هنا إشارات كأن الشتاء بدأ يعاتب محبوبته، ويلحظ عليها بعض التغيرات التي تستدعي فراقهما فسامها ذات الودع كناية عن انتهاء العهد الذي بينهما، إذا أفصت إليه بردين لا ثالث لهما عندما سمعته يلقي عليها لقب الودع فالأول كان ردا له، والآخر ردا عليه وذلك بعد الغضب الذي ظهر جليا عليها بعد طرح السؤال عليها، بما يحمله من دلالات ذات إحياءات سلبية جمة

لأي أزواجي جنى عِشرتي خذي سواهم قبل أن تحلمي
ثم يصف ويعمم على أن جمال الزمن والحقة استنوقت، كأنه يقول مهما بلغ الخارج والشكل من الجمال والحلاوة، لابد تكشف لنا الحقب والأيام ما إذا كان هذا الجمال زائلا بفتح مضمونه أم هذا الجمال ثابتا صامدا لا تغيره الظروف والأحوال والحقب المديدة.

ربما لشدة انفعاله وغضبه ذكر الجمال، ولأن الجمل حيوان متعارف عليه بالصبر، فكأنه يشبه نفسه بالجمال الصابرة على حملها حتى استنوقت، كناية عن مدى تحمله، وطول صبره.

بعد ذلك بدأ يهجوها ويشبهها بالرجال، ويشبهه رجال عشيرته الذين طعنوه بالنساء، كناية عن غضبه وفوران دمه ودلالة على جبن رجال عشيرته وخيانتهم، وقلة وفائهم.

وكانه يصرح باسمه الحقيقي وهو (يحيى) بدلا من الشاء، ثم يطلب معشوقه بتغييره واستبداله بيفنى وهنا دلالة في الأسماء ربما سمي نفسه يحيى لحياء بأنه مهما صدم و تقاجاً من نهايتك، إلا أنه يحيى من جديد ويتقوى أكثر مما كان عليه، ويستفيد من تجربته معك التي تكلفت بالفشل بعكس (يفنى) وهي الشخصية البديلة التي تحمل دلالة الزوال والفناء.

وكانه يشكر الأيام والحب التي علمته التجارب رغم ما أحل به من ألم و أسى، قبل أن يعد العدة للمخاطرة بنفسه برمانه، وحفظه.

(رماني) قد تكون دلالة عن كل ما صدر عنه من خير قولا كان أم فعلا.

(حنظلي) قد تكون دلالة عن كل ما صدر عنه من شر قولا كان أم فعلا.

كثرة استخدام المطابقة والتعاكس والتضاد، في الألفاظ المتمثلة في العنوان وفي بعض الأبيات لانعكاس نفسيته وانعكاس حاله من حب إلى كره، ومن خيره إلى شره التي دلت عليه (رمانه وحفظه) والألفاظ المتضادة مثل: عليّ ولي، يحيى بيفنى، رماني، حنظلي

تحديد الحضور والدلالات الزمنية بدقة المتمثلة في:

(قبل، الآن، حقبة، مستقبلي، الشاء الربيع)

لأي أزواجي جنى عشريني خذي سواهم قبل أن تحلمي
جمال هذي الحقبة استتوتت والآن يا إنسانة استرجلي

واحتتتني مُستقبلي قبل أن أعدّ رمّاني ولا حظلي
قولي: أبدو منزلي غير ما عهته من قبل أن تنزلي
كان كوجر الضبّ ذا البيت لو أتيت قبلاً خفت أن تجفلي
والآن من بعد التصابي صبا وقام بعد العري كي يحتلي

عشرتي: لا يقصد بها الجماعة أبناء جنسه و قومه، بل مأخوذه من
عشرته والأيام التي مكثت معه قبل الفراق

استرجلي: لا يقصد بها قدمي رجلك في المشي، بل خذي من صفات
الرجال ما يليق بك من قسوة وقوة وخشونة في التعامل كناية عن غضبه
ورسمها بصورة غير محبذه نتيجة قبح صنيعها، وفحش عملها.

المطلب الرابع: المقطوعة الرابعة .

قولي: أبدو منزلي غير ما عهته من قبل أن تنزلي
تتحنت مثل الخطيب الذي أنساه شيء، صوته المحفلي
كان كوجر الضبّ ذا البيت لو أتيت قبلاً خفت أن تجفلي
والآن من بعد التصابي صبا وقام بعد العري كي يحتلي
أحضانها امتدت وجدرانها سكرى على قاماتها تعتلي؟

التحليلي التفكيكي التشرحي لهذه المقطوعة الشريحة الرابعة

يعود هنا ليسألها سؤالاً ولكن غرض السؤال هنا بلا شك يختلف عن
باقي الأغراض التي مرت بنا، إذ يقول:

قولي: أبدو منزلي غير ما عهته من قبل أن تنزلي

الغرض هنا التحقير، فكأنه يطلب منها نسيان هذا المنزل بما فيه من
ذكريات، وعبر مرت بهم ولا تعجبي في يوم إن رأيته على غير الذي

تعهدينه من قبل، ويطلب منها التتحنح قبل الدخول إن راودتها فكرة الدخول مرة أخرى، كناية عن الاستئذان قبل الدخول وتحويل المعاملة ألي معاملة الغريب، أو عابر سبيل، فليس هذا المنزل الذي بدأ في القصيدة بوصفه هذا الذي سمّيته منزلي كان انتظاراً قبل أن تدخل

ثم يبدأ بنعتها وهجائها، فيشبه صوتها في التتحنح بصوت المغني في المحافل كناية عن ارتفاع الصوت وغلظة.

وكأن الشاعر ينخفض بقصيدته من الاتجاه العلوي حيث في قمة الهرم يقف على الأطلال ويتذكر ماضيه، ثم يبدأ بالوصف عند اللقاء، والمديح والثناء الحسن، ثم سرعان ما ينخفض رويدا رويدا فيتحول هذا المديح إلى هجاء، وتعدد مواصفات القبح والرداءة ونكران وجود المعروف.

فيعود مرة أخرى بتشبيه محبوبة بكوجر الضب، ويقول بأنها بعد العرى والمقصود هنا بالعرى كناية عن فقرها وعوزتها، فعليها أن تعود له مرة أخرى لتتزين وتطلب منه العطايا التي اعتادت عليها من قبل.

هذا السبب الذي جعلها تدخل منزله، ربما يقصد كناية عن فقرها بعد فراقه، ثم عادت له لحاجتها، وليس شوقاً له وندماً، وإنما الحاجة ألحت عليها أن تدخل البيت الذي كانت تأوي إليه برفقه محبوبها الشتاء.

رغم ذلك لم يقصر (بحيى) في التكرم والعطف على تلك المحبوبة فبدأ يصف أحضانه، وأركان بيته بدأت تمتد وتتسع لكل طالب له، ولكل داخل لبيته، كناية عن كرمه وسخائه وكثرة عطائه .

فمهما يكن من أمر فإن هذا المكان قد عهدته تلك المرأة وليس بالسهولة نسيانه، وهو كذلك ليس بالسهولة طرد المرأة كسيرة الخاطر، فقيرة الملابس، رغم قبح صنيعها، ونقض عهدها .

الملاحظ هنا سير الافعال (بدأت تتجه إلى فعل الأمر)) دلالة على سلطته، وغناه.

خذي، استرجلي، وغيّري، استبدلي، واحتنّتي، قولي

الاضداد

قبلاً+ بعد + تنزلي+ تعتلي، العري+ الحلي

أضافت الأضداد دلالة التغير و التقلب من حال لحال ،من حالة حب الشاعر إلى كرهه، أيضاً من حالة غنى المحبوبة إلى فقرها وحاجتها. يلحظ (تتحنّحت التي تستعمل عادة للمفرد المذكر ،حيث قلب استخدامها للمؤنث المفردة)

الضمائر

تنوعت بين الظاهرة والمستترة ربما لتتذبذب مشاعره في بداية صدمته بعكس بداية قصيدته كان الخطاب للمؤنث.(قولي، تتحنّحت، صوته، أتيت) لكن سرعان ما يتجه للخطاب بصيغة المذكر للمؤنث، تحقيرا واستهزاء مثل كلمتي (قام، يحتلي) الدقة في التصوير .

(كمدخل ضب) كناية عن الفقر والعوز وهو الخروج من المعنى الحقيقي للفظة إلى معنى آخر وذلك لأغراض متعددة ولكن هنا للتحقير والاستهزاء الألفاظ الاشتقاقية (منزلي ، تنزلي) (التصابي ،الصبا) إضافة موسيقى لطيفة وإيقاع لافت وتناسق لفظي.

التكرار

في حرف النون مما أوحى لنا بدلالات معينة فكرر الشاعر في هذه المقطوعة صوت (النون) ثلاثة عشر مرة لغاية يقصدها في نفسه وليؤكد المعنى الدلالي في النص، وهو احساسه الداخلي بالأسى والحزن، إذ إن تراكم صوت (النون) أضفى جرساً إيقاعياً محزناً في النص، فانسجم مع تجربة الشاعر الشعورية مما أكد المعنى الصوتي والدلالي.

التحليل اللغوي للقصيدة بشكل عام

طبيعة الجمل في القصيدة

غلبت الجمل الاسمية في بداية القصيدة لدلالة على تقرير حبه وتأكيد، وعلى سبيل المثال كالآتي:

انتظاراً قبل أن تدخل	هذا الذي سميت منزلي كان
كان سؤال القلب عن قلبه أن ترجعي	أن تصبحي مثل نثيث الندي
عنه فمن حاولت أن تذهلي؟	هذا زمان مذهب داهل
فيه بخور الشيخ أن تسلي	ذا جمر صنعا خفت إذ أحرقوا
من غاب عن حسبانته موئلي	أن تصرخي: هل رامي موئلاً
هل قال داعي القلب أن تقبلي؟	أظن ما أسرعت كي تهشي

ثم في المقطوعة الثانية تبدأ تكثر الجمل الفعلية، ربما رمزا للتغيير الأحداث والاستمرارية مع وصف المحبوبة بالتغير وبداية الفراق وتتحصر عدد الجمل الفعلية جزء كبيراً في هذا الموضع (موضع العتب) مثل:

أفضت بردين: عليّ ولي	سألت ذات الودع ما طالعي
وغيري يحيى بيفنى	خذي سواهم قبل أن تحملي

واحتشني مُستقبلي قبل أن
أعدّ رمّاني ولا حنظلي
قولي: أبدو منزلي غير ما
عهّدته مَنْ قبل أن تنزلي
تحنّنتُ مثل الخطيب الذي
أنساه شيء، صوته المحفلي
أتيت قبلاً خفتُ أن تجفلي
وقام بعد العري كي يحتلي

التكرارات

(الآن) تكررت في النص، ولا شك إنها لم تتكرر عبثاً بل كان وراء ذلك دلالة الحضور والتوكيد على تحديد الزمن بدقة، ودلالة ذلك التكرار على النص، هو التعجب من تسارع الحياة وتناقضها فالمحوبة التي بنى الشاء عليها كل قصيدته وعنوانها بذلك، لم تكن بالحقيقة محبوبة بالقدر والوصف الذي وصفها.

كذلك تكررت لفظة (أن تومني، أن تصبحي، أن تليلي) ثلاث مرات، أن+ الفعل المضارع ولا يمكن اغفال هذا التكرار ودلالته في النص، فلفظة أن مصحوبة بالفعل المضارع تدل على تتابع المشاعر والأوصاف التي يعيشها العاشق وكما يُعلم أن الاحساس الداخلي، لا يظهر أثره على العاشق مهما تكرر من الالفاظ لذلك؛ عمد للتكرار للفت الانتباه .

فهو إيقاع داخلي : وهو إيقاع خاص بالنص ، له ارتباط وثيق بالواقع النفسي الذي حل بالعاشق.

الموازنة بين (كي ينجلي، كي تبلي، كي يحتلي)، ويجب على المتلقي عدم إغفال هذا التوازن صرفياً وموسيقياً ودلالياً.

فالانجلاء هو الظهور والكشف، والابتلاء هو الامتحان والاختبار، و الاحتلاء من الحلي هو التزيين والتجمل.

الأساليب

تنوعت ما بين خبرية للإقناع والتأكيد، وأخرى إنشائية للإثارة والانفعال الداخلي العقلي، وتبعاً لأغراض النص وطبيعته فاضطر النص للتوزيع حسب ما يقتضي السياق والمقام والموقف.

الإنشائية

كان سؤال القلب عن قلبه
أقبل سكر الوعد، قالوا صحت
عنه فمن حاولت أن تذهلي؟
سألت ذات الودع ما طالعي؟
أفضت بردتين: عليّ ولي
جمال هذي الحقة استنوقت
وغيري (يحيى بيفنى) وكى
يشتاق عن قلبه أن تسألي؟
أي هوى أرغى بها عجلي؟
هل قال داعي القلب أن تقبلي؟
لأي أزواجي جنى ع شررتي
خذي سواهم قبل أن تحلمي
والآن يا إنسانة استرجلي
تبدلي عن جوفك استبدلي

القافية

كان للقافية دوراً في تحديد الدلالة، وتتابع الموسيقى، وتناغم اللحن، فالقافية هو صوت الياء المكسور ما قبلها، وبلا شك أن صوتاً الياء له ستة صفات متنوعة بين القوة، والضعف، والمتوسطة.^١

فالصفة القوية في صوت الياء هو: الجهر.

الصفة المتوسطة في صوت الياء: الإصمات.

الصفات الضعيفة في صوت الياء: الرخاوة، الاستقال، الانفتاح، اللين.

(١) محمد أحمد معبد، الملخص المفيد في علم التجويد، (المدينة المنورة: دار الخضير، ١٤٢٣هـ) ص ٩٠

النتائج:

- ١- ربيعية الشتاء من القصائد التي أبدع فيها الشاعر عبدالله البردوني، حيث تحمل في طياتها معان سامية راقية، وتتنبأت سياسية مصيرية.
- ٢- احتوت قصيدة ربيعية الشتاء على عدد من الرموز والدوال، ساعدت في تحويل دلالات النص وتفكيكه.
- ٣- كثرت التناقضات، والتشبيهات بأنواعها من الأمور، التي أدت إلى سهولة تشريح النص وتحويل معانيه.
- ٤- احتوت المقطوعة الأولى على كثرة الدلالات بصيغ المؤنث، مما ساهمت في تغير معان النص.
- ٥- كثر في المقطوعة الثانية الأساليب الانشائية الدالة على التشويق والاثارة.
- ٦- في المقطوعة الثالثة وُجدت الدوال المتناقضة بكثرة.
- ٧- في المقطوعة الرابعة اتضح المعنى الجديد للنص، و القراءة التفكيكية ظهرت من خلال تنوع الأفعال والتشبيهات.

التوصيات

- ١- اللجوء للنظريات الحديثة، وتطبيقها على النتاج الأدبي.
- ٢- دمج النظريات الحديثة مع القديمة، حصولاً على المعان الدقيقة، والمضامين المكنونة.

المراجع:

- ١- البردوني، بالله، بين يدي البردوني، ط ١ (اليمن : إصدارات الهيئة العامة للكتاب، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م)
- ٢- خليل، إبراهيم محمود، النقد الأدبي الحديث من المحاكاة إلى التفكيك، ط ٣ (عمان: دار الميسرة للنشر و التوزيع، ١٤١٣هـ)
- ٣- دريدا، جاك: أستراتيجية تفكيك الميتافيزيقا، ترجمة وتقديم: عز الدين الخطابي، (تونس: دار الجنوب للنشر، ٢٠٠١م)
- ٤- أحادية الآخر اللغوية، ترجمة وتقديم: عمر مهيل، (الجزائر، دار العربية للعلوم، ٢٠٠٨م)
- ٥- الرويلي، ميجان، وآخرون ، دليل الناقد الأدبي، ط ٥، (المغرب: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٧م)
- ٦- بالله، عادل، التفكيكية إرادة الاختلاف وسلطة العقل، (سوريا: دار الحصاد للنشر والتوزيع، ٢٠٠٠م)
- ٧- فضل، صلاح فضل، مناهج النقد المعاصر، ط ٦، (القاهرة: أطلس للنشر والتوزيع، ٢٠١٢م)
- ٨- الكردي، محمد علي، مفهوم الكتابة عند جاك دريدا، فصول مجلة النقد الأدبي، المجلد الرابع عشر، العدد الثاني (مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥م)
- ٩- لوري كريستوفر، التفكيكية بين النظرية والممارسة، ترجمة: صبري محمد حسن، (الرياض: دار المريخ للنشر، ١٤١٠هـ)
- ١٠- معبد، محمد أحمد، الملخص المفيد في علم التجويد، (المدينة المنورة: دار الخضير، ١٤٢٣هـ).

من بحوث اللسانيات الحديثة: الحروف التي اختلف فيها القدماء والمحدثون دراسة صوتية تطورية

د/ عزة عبد الفتاح محمد محمود (*)

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله وبعد.
فهذا بحث مهم لم نمتلكه العربى حتى يعرف خط سير التطور فى
الأصوات؛ فيتلافى عوامل التعبير التى تتنافى مع الأصول الموروثة عن
العرب الفصحاء ويشخص ظاهرة التطور التى اعترت الأصوات العربية فى
تاريخها الطويل، وهى تطورات قليلة بالنسبة لما جرى فى اللغات الأخرى.
فاللغات الأخرى كالإنجليزية والفرنسية تموت كل مائة سنة تقريباً وتتسأ
لغة أخرى لا علاقة لها بوضعها السابق، حتى إن قواميس اللغات الأجنبية تتغير
كل عشر سنوات، ويحتاج القارئ فيها إلى تحديث معلوماته وإلا فإن المعجم الذى
عنده لا يفيد فى اللغة الإنجليزية أو الفرنسية أو الشرقية كالروسية وغيرها.
أما العربية فتقررت دون هذه اللغات بثبات أصواتها على مدى أكثر
من ستة عشر قرناً، ونحن نستطيع الآن قراءة أى نص عربى قديم ونفهم
معناه بسهولة لأن العربية بقواعدها وبأصواتها وبمفرداتها وتراكيبها ثابتة،
وقد منحها الله سبحانه وتعالى هذا الثبات وهذه القوة بنزول القرآن الكريم،
وقد دأب العلماء على العناية باللغة العربية بوازع دينى فلم يفرطوا فيها
ووضعوا القواعد والأصول وألفوا المعجمات اللغوية حتى تبقى اللغة

(*) أستاذ مساعد العلوم اللغوية بكلية الآداب - جامعة ببشة - للمملكة العربية السعودية

محفوظة على مر الأجيال، وهذا سر بقائها سليمة على لسان المتحدثين بالفصحى حتى الآن، وهى تمد اللهجات العامية بزاد وافر بحيث يستطيع العرب، فى كل مكان أن يتفاهم بعضهم مع بعض من غير مترجم بعكس اللغات الأوروبية فهى أصلاً من أصل واحد هو اللاتينية أو الجرمانية. ومع ذلك انفصل حاضرها عن ماضيها وانشعبت إلى لهجات أصبحت لغات بحيث لا يستطيع أوروبى إنجليزى أن يتفاهم مع فرنسى إلا بمترجم.

واللغة العربية لغة التراث الإسلامى والحضارى والحفاظ على هذا التراث يقتضى الحفاظ على اللغة العربية فبقاؤها حية منطوقة نطقاً سليماً يجعل هذا التراث واضح اللغة مفهوماً للأجيال ولا قدر الله لو ضعفت العربية أو تغيرت تغيراً كبيراً ينفصل العرب بعضهم عن بعض فلا يستطيعون التفاهم، وينفصل العربى عن تراثه فلا يفهمه، وهنا تكون كارثة الانفصال بين المسلم وتراثه وأهم ذلك القرآن.

ومن هنا فنحن حريصون على بقاء اللغة العربية سليمة وأخطر شىء فيها هى الأصوات ونحرص عل أن تبقى التغيرات محدودة بإلحاحنا على تعلم الأصوات وطريقة نطقها العربى الصحيح وإذا وجدنا بعض الانحرافات نعالجها حتى نقضى على هذا الداء الذى هو التغير، وحتى نحرس العربية حراسة دائمة.

ومن هنا أقدمت على كتابة هذا البحث بعنوان (الحروف التى تختلف فيها القدامى والمحدثون دراسة صوتية تطورية).

حاولت أن أتبع خط سير كل صوت بخروجه من مخرجه، وتكون الصفات التى يتصف بها وما جرى لبعضها من تطور أو تغير لا يخل بالصوت الأصلى للحرف لكننى كنت حريصة على إبراز ما حدث من تطورات فى مخارج الحروف العربية وصفاتها لأنطلق منها إلى بيان أوجه الاختلاف الذى جرى بينها، وأرجعت ذلك إلى تطور الأصوات على المدى الطويل.

وقد وضعت خطة لهذا البحث تقوم على الآتى:

١- عرض مخارج الحروف وترتيبها بنوعيتها الصامت والصائت لأبين طبيعة المخرج لكل حرف فى كتب العربية الأصيلة، وفيما حدث من تطورات وتتبع نوعى الأصوات المذكورين وأنا أشرح مخارج الحروف.

٢- ذكر إطالة على صفات الحروف لأبين للقارئ الكريم طبيعة الصفة فى أصلها الفصح ثم أبين ما اعترى بعض الصفات من تغيرات فى بعض الحروف.

٣- اقتضى هذا أن أذكر بعض النظريات الحديثة كنظرية دانيال جونز فى مقاييس أصوات اللين المعيارية وحاولت تطبيقها على العربية لأبين ما جرى لبعض الحروف من تغيرات فى المخرج أو الصفة.

٤- بيان حروف العربية التى اختلفت بين القدامى والمحدثين فى المخارج أو الصفات.

٥- تفسير تطور هذه الحروف وكيفية التطور كما ظهر فى كتابات القدامى والمحدثين.

٦- توجيه الاختلاف بين القدامى والمحدثين فى أصوات اللين.

٧- الحروف المتطورة الصامته وأهمها: الهمزة - الجيم - الضاد - الطاء - القاف - اللام - الميم - الراء - العين - الواو - الياء.

وخلصت إلى نتائج ترسم خط سير التطور والسبب فيه سواء كان هذا السبب اجتماعياً أم لغوياً، وهذا التشخيص الذى وضعته أمام الباحثين والعلماء العلل والأسباب التى أدت إلى التطور حتى نستطيع أن نضع علاجاً لهذه التطورات وأن نعيد العربية إلى فصاحتها الكاملة على لسان المحدثين بها.

أولاً: عدد مخارج الحروف وترتيبها

الحروف العربية تسعة وعشرون حرفاً في الرأي الراجح وهي تتنوع إلى:

أ- صوامت وهي ما عدا أصوات المد وهي ستة وعشرون حرفاً.

ب- حركات وهي أصوات المد ويزيد عليها المحدثون من علماء اللغة الحركات القصيرة الفتحة - الضمة - الكسرة.

والقدماء عادة يذكرون النوعين معاً مع أن لأصوات المد نطقاً خاصاً لحظه بعض علماء اللغة والتجويد.

واهتم بعض علماء اللغة بأصوات المد وأطلقوا عليها اسم المصوتات أو المصوتة^(١).

وقال ابن جنى إن الألف حركة حين تقع في تركيب الكلمات وإن الحركة لا يمكن تحريكها لأن الحركات لا تحتل الحركات^(٢) ولذلك جاءت نظرة اللغويين وعلماء التجويد إلى الصنفين الصوامت والحركات على الإجمال لا على التفصيل فذكروا مخارج الحروف للصنفين معاً دون فصل بينهما.

وجعل الخليل المخارج سبعة عشر وجعلها سبويه ستة عشر فأسقط مخرج الجوف عند الخليل وفرق حروفه على المخارج الأخرى وجعلها بعض العلماء -منهم الفراء وابن دريد- أربعة عشر مخرجاً.

والذى جعلهم يقللون عدد المخارج أن لبعض الحروف مخارج كلية ولبعضها مخارج جزئية فمخرج كلى يشمل عدة أصوات ويمكن تقسيمه إلى

(١) الخصائص لابن جنى ٣١٩/٢.

(٢) ينظر المصدر السابق نفسه.

مخارج جزئية خاصة بحروفه، فالذين عدوا المخارج سبعة عشر اعتمدوا على تقريق الحروف في بعضها إلى مخارج جزئية كثيرة والذين قللوا المخارج أدمجوا بعض المخارج الجزئية في مخرج كلى واحد، والذين جعلوا المخارج أربعة عشر أدمجوا الراء واللام والنون في مخرج كلى واحد على حين أن الذين زادوا المخارج عدوا كل حرف من هذه الأحرف الثلاثة في مخرج جزئى مستقل على أساس أنه في رأيهم محدد ويتميز عن غيره، والمقللون يرون أن هذه المخارج الجزئية للأصوات الثلاثة متداخلة لا يمكن التمييز بينها بسهولة فاللام والراء والنون وإن ضمها حيز واحد من حيث العرض فإنها تختلف من حيث الطول فمخرج اللام أوسع من أخويه من جهة طول اللثة الذى يشمل كل واحد من الأحرف الثلاثة.

وأدق تحديد للمخارج عند اللغويين هو ما ذكره سيبويه ونقله عنه أبو الفتح عثمان بن جنى ويمكن أن نجد من خلال عرض ترتيب سيبويه خلافاً بين المخارج في بعض الحروف على حسب ما جد من تغيير في دراسة علماء اللغة المحدثين تبعاً لتطور الأصوات في النطق في الحديث عنها في القديم على لسان العرب الفصحاء الذى درست اللغة على أساسه قديماً وعلى أساس النطق الحديث على لسان المجيدين للعربية في عصرنا الحاضر واصطلح المحدثون على أن الصوت من مخرجه الأصلي يسمى (الفونيم) وهو الحرف الواحد وحينما ينطق على حسب البيئات يختلف نطقه على عدة صور دون أن يتغير المعنى ويطلق على كل صورة من هذه الصور مصطلح الصوت الفرعى (فون) وكل حرف يضم عائلة من الفونات.

- فالقاف مثلاً عند وضعها في تركيب كلمة أو عبارة من العبارات تأخذ صوراً متعددة في نطقها ففى (قال) تنطق قربية من الفصحى وتنطق في عامية مصر (آل) في القاهرة وبعض المحافظات وفى

بعضها تتطوق (جيمًا) مثل (جال) و(جلت) فالحرف الواحد يتداوله المتكلمون على حسب اختلاف المناطق بطرق مختلفة صوتيات. ونأتى إلى ما ذكره سيبويه ونقله عنه ابن جنى فى ترتيب المخارج وهى ستة عشر مخرجاً وننظر ما يعلق به المحدثون عليها على حسب علم الأصوات التجريبي.

قال سيبويه: المخارج ستة عشر ثلاثة منها فى الحلق.

١- وأولها من أسفله وأقصاه مخرج الهمزة والألف والهاء.

٢- ومن وسط الحلق مخرج العين والحاء.

٣- وما فوق ذلك من أول الفم مخرج الغين والحاء.

٤- ومما فوق ذلك من أقصى اللسان مخرج القاف.

٥- ومن أسفل من ذلك من أقصى اللسان مخرج الكاف.

٦- ومن وسط اللسان بينه وبين وسط الحنك الأعلى مخرج الجيم والشين والياء.

٧- ومن أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس مخرج الضاد إلا أنك إن شئت تكلفتها من الجانب الأيمن وإن شئت من الجانب الأيسر.

٨- ومن حافة اللسان من أدناها إلى منتهى طرف اللسان من بينها وبين ما يليها من الحنك الأعلى مما فوق الضاجك والنايب والرباعية والثنية مخرج اللام.

٩- ومن طرف اللسان بينه وبين ما فوق الثنايا مخرج النون.

١٠- ومن مخرج النون غير أنه أدخل فى ظهر اللسان قليلاً لانحرافه إلى اللام مخرج الراء.

١١- ومما بين طرف اللسان وأصول الثنايا مخرج الطاء والذال والتاء.

١٢- ومما بين الثنايا وطرف اللسان مخرج الضاد والزاي والسين.

١٣- ومما بين طرف اللسان وأطراف الثنايا مخرج الظاء والثاء والذال.

١٤- ومن باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العلى مخرج الفاء.

١٥- ومن بين الشفتين مخرج الباء والميم والواو.

١٦- ومن الخياشيم مخرج النون الخفية ويقال الخفيفة أى الساكنة.

وهذه المخارج حددت تحديدات جديدة فى رأى المحدثين بناء على ملحوظاتهم على النطق السائد فى العصر الحديث.

فما ذكره سيبويه من أقصى اللسان مخرج القاف وأدنى منه إلى مقدم الفم مخرج الكاف.

يقول المحدثون إنهما يعدان من أصوات أقصى الحنك هذا تبعاً لاختلاف النطق بين القديم والحديث.

وقول سيبويه عن مخرج الضاد العربية من أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس ورد عند بعض علماء اللغة القدامى كابن يعين أنها من شجر الفم من حيز الجيم والياء وهى تقترب من أول حافة اللسان^(١) ويشرح ذلك المحدثون من علماء اللغة بأن مخرجها قريب من وسط الحنك أو لثوية حنكية واختلف مخرجها فى الحديث عنه فى القديم كالضاد المصرية ونطقها كالطاء فى بعض البلاد العربية.

ومخرج اللام عبر عنه المحدثون بأنه صوت أسنانى لثوى أو لثوى فحسب والصوت الحنكى هو الذى تكون فيه صلة بين مقدم اللسان وبين الحنك الصلب الذى يقع بعد اللثة، والصوت الأسنانى اللثوى هو الذى يلتقى فيه طرف اللسان مع لثة الأسنان العليا.

(١) شرح المفصل لابن يعين.

ومخرج الصاد والزاي والسين بتعبير المحدثين تعد أصواتاً سنية وهكذا تختلف هذه الأصوات على الألسنة حديثاً وقد حدث تطور فأصبحت القاف تنطق من اللهاة قبل الحلق والصاد والزاي والسين أصبحت سابقة في المخرج للطاء والذال والتاء فصارت أصواتاً لثوية.

وهذا تبعاً لتطور النطق عبر مرور الزمن الطويل.

وهذه الأصوات على قسمين:

١- صامتة.

٢- صائتة.

فالصوت الصامت: هو الذى ينحبس معه الهواء فى إحدى مناطق النطق انحباساً كلياً مثل التاء والذال والطاء أو انحباساً جزئياً كالسين والزاي والصاد.

وما توصل إليه علم الأصوات الحديث سبق إليه القدماء وقد أشار إلى ذلك ابن جنى فى كتابه سر صناعة الإعراب فيقول: إنك تجد بعض الحروف أشد حصرًا للصوت من بعضها الآخر تقول فى الذال والطاء اد - اظ. ولا تجد للصوت (الهواء) منفذاً هناك ثم تقول: اص - اس - از فتجد الصوت يتبع الحروف هذا إذا وقفت عليها، قال: وهكذا هذه الحروف ونحوها فإنك تحس معها (احتكاك الهواء) كما تحسه معها حين الوقف غير أنه قليل فى الوصل^(١).

والنوع الثانى: الصوت الصائت وهو الذى يمر معه الهواء دون أن ينحبس فى أى مكان من أمكنة النطق ويشمل حروف المد والحركات.

وللخليل كلام عن هذه الحروف (الألف والواو والياء) وأنها هوائية ليس لها حيز تنسب إليه إلا الجوف وهى لا تقع فى مدرجة من مدارج اللسان ولا من مدارج الحلق ولا من مدارج اللهاة وهى هوائية فى الهواء.

(١) سر صناعة الإعراب لابن جنى ٦/١ بتصرف.

ويقول ابن جنى: "الحروف التي اتسعت مخارجها ثلاثة (الألف ثم الياء ثم الواو وأوسعها وألينها الألف)"^(١).

ويذكر المحدثون خصائص هذا النوع من الأصوات وهى:

- ١- الوضوح التام فهى لا تخفى عند النطق بها فتسمع بوضوح كامل.
- ٢- الشيوع فى اللغات ولذلك يكثر فيها التغير والخطأ ومن هنا وجدت طرائق متعددة فى نطق هذه الأصوات وانظر إلى وقوعها فى اللهجات فى الأقطار -العربية تجد أنه يعترئها تغيرات كثيرة ومن هنا وضع لها علماء التجويد قواعد وصفات تضبطها ضبطاً دقيقاً.
- ٣- الجهر فالصوائت تهز الأوتار الصوتية أما الأصوات الصامتة فمنها ما يحرك الأوتار الصوتية ومنها ما لا يحركها فمنها المجهور والمهموس^(٢).

وكذلك الحركات القصيرة وكان المتقدمون من النحاة العرب يسمون الفتحة الألف الصغيرة والكسرة الياء الصغيرة والضمة الواو الصغيرة ويسمونها أبعاض حروف المد ويجرى فيها التغير والانحراف كثيراً لتغير مواقعها من جهاز النطق.

ونظرية دانيال جونز فى أصوات اللغة المعيارية تشهد بذلك وهذه الصوائت تدخل فى بناء الصيغ التى تتنوع بتنوعها ولذلك لم يهتمها العرب بل نظروا إليها بعين الاعتبار وإن لم يتحدث بعضهم عنها على استقلال.

وجاء المحدثون فحددوا مخارجها تحديداً معيارياً وعلى رأس هؤلاء دانيال جونز الأستاذ بجامعة لندن وبناء على دراسة عميقة وتجارب عملية

(١) سر الصناعة ٦/١.

(٢) الصوتيات اللغوية للدكتور هلال ص ٢ وما بعدها.

صوتية حدد مقاييس لهذه الأصوات، ويقوم هذا التحديد على نظريته إلى اللسان والشفيتين حال النطق، فاللسان يرتفع ويهبط في الفم وله ملاحظات على اتصاله بالحنك الأعلى، والشفتان تنضمان أو تنفرجان أو تأخذان وضعاً محايداً.

وعلى ذلك وجدت حالات:

١- ارتفاع أول اللسان إلى الحنك الأعلى إلى أقصى ارتفاع بحيث يترك فراغاً يمر منه الهواء دون حدوث حفيف والشفتان حينئذ منفرجتان انفراجاً تاماً.

في هذا الوضع يخرج الصوت المعياري الذي يرمز له في اللغات الأجنبية بالصوت (i) مثل كلمة قلمي في العربية (si) بمعنى إذا في الفرنسية وهذا هو الصوت الأول من أصوات اللين المعيارية.

٢- عند هبوط أول اللسان في قاع الفم إلى أقصى انخفاض بحيث يكون منبسطاً تماماً، والشفتان تكونان حينئذ في غاية الانفراج وهنا يظهر المقياس الثاني ويرمز له بالحرف (a) ومن ذلك في اللغة العربية الفتحات المرفقة في جلس وجالس سواء من ذلك الفتحة القصيرة والفتحة الطويلة وهي الألف، ويقابله كلمة (La) أداة التعريف المثبت في اللغة الفرنسية.

وبينهما وضعان لمقدم اللسان حال الصعود وحال الهبوط فاللسان يكون أقل ارتفاعاً على مرحلتين إحداهما أقل من الأخرى فينتج صوتان أحدهما أقل ارتفاعاً من وضع (i) ويرمز له بالرمز (e) والثاني أقل ارتفاعاً من (e) يرمز له بالرمز (ع) ويمثل الأول في الكلمة الفرنسية the بمعنى شاي ويمثل الثاني بالكلمة الفرنسية meme بمعنى نفس الشيء.

٣- إذا ارتفع أقصى اللسان بحيث يترك مسافة تسمح بمرور الهواء دون احتكاك أى إصدار خفيف يتكون الصوت الذى يرمز إليه فى اللغات الأجنبية بالرمز (u) وتتضم عند خروجه الشفتان مستديرتين تماماً ويمثل له فى الكلمة الألمانية (gut) ويقابله فى اللغة العربية الضمة المرفقة قصيرة وطويلة مثل الفعل الماضى المبني للمجهول (كتب) والفعل الماضى كذلك (كوتب).

٤- إذا انخفض أقصى اللسان فى قاع الفم بحيث يكون مستوياً تماماً كالوضع الطبيعى للسان فى الفم يتكون الصوت المعيارى الذى يرمز إليه فى اللغات الأجنبية بالرمز (a) ويمثل له بالكلمة الفرنسية (pas) وهى جزء أداة النفى فى الفرنسية بمعنى لا يوجد، ويقابله فى العربية الفتحة المفخمة قصيرة وطويلة مثل (طَلَب) و(طالِب).

وبين المرحلتين من ارتفاع أقصى اللسان وانخفاضه يتكون مقياسان معياريان هما (c) و(o) من أسفل إلى أعلى ويتمثل المقياس الأول (c) فى الكلمة الألمانية (sonne) بمعنى الشمس ويشبه فى اللغة العربية الفتحة الطويلة المنطوقة بسرعة فى العامية المصرية (قال لى): (قللى) ويمثله فى العربية الفصحى الضمة القصيرة المفخمة ويتمثل المقياس الثانى فى اللغة الفرنسية فى كلمة (rose) بمعنى ورد، ويمثله فى العربية الفصحى الفتحة الممالاة نحو الضمة عند ابن جنى ونطق (نوم وصوم) فى العامية المصرية ومن المسلم به أن أصوات اللين فى العربية كما هى فى اللغات الأخرى مرت بتطورات على مر الأزمان المتعاقبة وقد اختلف الأجيال بعضها عن بعض فى نطقها.

ولكننا يمكن أن نتعرف عليها من خلال نطق القراء المجيدين للقراءات المتواترة وقد درست هذه الأصوات من خلال نطق القراء.

ويثبت بالتجارب المعملية أن أصوات اللين في العربية لا تنطبق تمام الانطباق على مقاييس أصوات اللين المعيارية، فالكسرة العربية يكون ارتفاع مقدم اللسان معها أقل من ارتفاعه مع المقياس (i)^(١).

- فإذا تأثرت بأصوات التقخيم (خص ضغط فظ) تشبه المقياس (e) والفتحة العربية تشبه الرمز (a) فاللسان يرتفع وسطه قليلاً مع الفتحة العربية ويكون مستوياً في قاع الفم وهذا عند عدم التأثر بأصوات التقخيم وإلا انتقلت إلى المقياس (a) من مؤخر اللسان.

والضمة العربية يكون ارتفاع مؤخر اللسان معها أقل من ارتفاعه مع الحركة المعيارية التي يرمز لها بالرمز (u) وقيل إن بعض التجارب أثبتت انطباقهما.

هذا في الحركات الأصلية أما الحركات الفرعية فمن الصعب حصرها لاختلافها باختلاف القبائل في القديم والحديث ويمكن أن يعتبر منها ألف الإمالة التي ينطق بها القراء في مثل (موسى) في الإمالة الخفيفة أو الشديدة فالخفيفة تشبه المعيارية (e) والشديدة شبه المعيارية (ع).

أشباه أصوات اللين أو أشباه السواكن (الصوائت):

ينطبق هذا على الياء والواو غير المدينيتين في مثل بيت وصوم بالنطق العربى الفصيح ووصف الياء هذه وفق نظرية دانيال جونز يبين أن اللسان يرتفع مقدمة معها أكثر من ارتفاعه مع الرمز المعيارى () ويكون الفراغ بين اللسان ووسط الحنك الأعلى أقل ما يكون بحيث يصدر لونا من الحفيف الضعيف.

والواو هذه تنشأ بارتفاع مؤخر اللسان إلى وضع أعلى من الرمز المعيارى (u) ويصدر معها لون من الحفيف الضعيف ولذلك قال فندريس

(١) انظر علم اللغة العام الأصوات دكتور كمال بشر انظر أيضاً الصوتيات اللغوية دكتور هلال

(يمكن أن نسميها بالعبارة المعكوسة شبه السواكن لأن المسألة مسألة حركات مشوبة بعناصر سكونية أكثر منها سواكن مزودة بالجهر)^(١).

وعلى هذا فأصوات اللين عرضة لكثير من التغيرات ويظهر ذلك كثيراً في اللهجات العربية قديمها وحديثها.

وسأذكر بعد ذلك ما جرى ويجرى من تغيرات في الأصوات الصامتة ويحسم الخلاف بين القدامى والمحدثين على أساسها.

(١) اللغة لفندريس ص ٥١.

ثانياً: صفات الحروف

للأصوات صفات متعددة يلزم الإشارة إليها لوقوع الاختلاف بين القدامى والمحدثين في وصف بعض الحروف بها على حسب التطور الذي اعتري الأصوات العربية في تاريخها الطويل الذي عبر أكثر من ستة عشر قرناً.

١- الجهر والهمس:

عرف سيبويه ومن تبعه المجهور بأنه حرف أشبع الاعتماد من موضعه ومنع النفس أن يجرى معه حتى ينقضى الاعتماد ويجرى الصوت^(١).

وعرف المهموس بأنه حرف أضعف الاعتماد من موضعه حتى جرى معه النفس.

والحروف المجهورة سبعة عشر وهي ماعدا حروف الهمس المجموعة في قولهم (سكت فتحة شخص) والحروف المهموسة هي هذه المشار إليها.

فالحرق المشبع واضح وقوى وهذا معنى الاعتماد في الموضع بضغط الهواء المندفع من الرئتين حتى يصل إلى مكان خروج الحرف فيتكون، والموضع الذي يمع منه هو المصدر ومجرى الهواء.

وموضع خروج الصوت المهموس هو مخرجه والذي يتكون بالتقاء عضوى النطق.

وقد اكتشف المحدثون دقة كلام سيبويه وكأنه يحس بأن شيئاً يهتز عند مرور الصوت المجهور وعرف فيما بعد أنع الوتران الصوتيان.

(١) الكتاب ٤/٣٤ وسر صناعة الإعراب ص ٩/٤.

وتحديد سيبويه أن المجهورات يخرج صوتهن من الصدر يعطى دقة فائقة وإن لم يكن علم التشريح والأجهزة العملية قد ظهر بعد فالصدر قريب من الحنجرة وهو يشملها وقد أدرك ذلك سيبويه بحسه المرهف. وأحس أن المهموس لا يحدث معه ذلك وأن شيئاً لا يهتز معها وقد وجد أن الوترين الصوتيين لا يهتزان مع المهموس.

ولذلك عرف المحدثون المجهور بأنه الصوت الذى يهتز معه الوتران الصوتيان فى الحنجرة، والصوت المهموس هو الذى لا يهتز معه الوتران الصوتيان، واكتشفوا أن الهمزة يسكن معها الوتران الصوتيان ولذلك وصف فى الرجح أنه لا هو مجهور ولا مهموس.

٢- الشديد والرخو والمتوسط

عند علمائنا القدامى الشديد هو الحرف الذى يمنع الصوت (الهواء) من أن يجرى فيه كالجيم والذال، والصوت الرخو هو الذى يجرى فيه الصوت (الهواء) وقد جمع القدامى الشديد فى قولهم (أجذك قطبت) وما عداها يتوزع بين الرخو والمتوسط.

المتوسط هو الذى بين الشدة والرخاوة وحروفه مجموعة فى قولهم (لن عمر)^(١) وما عداها وعدا الشديد هو الرخو.

ويطلق المحدثون تسميات جديدة على هذه الأنواع الثلاثة وهى:

أ- الانفجارى وهو الذى يلتقى فيه عضوا النطق التقاء محكماً يمنع الهواء من المرور ثم ينفصل العضوان فجأة فيحدث دوى وانفجار وهو ما يقابل الشديد.

(١) يرى ابن جنى أن المتوسطة مجموعة فى قولهم (لم يرونا) فزاد الألف والواو والياء، والواقع أن رأيه فى الواو والياء إلى حد ما صحيح، أما الألف فهو حرف انطلاق لا يقال عنه متوسط وإنما يقال عنه انطلاقى، وهذه الأحرف الثلاثة تدرس أصلاً مع الصوت اللين وأشباه أصوات اللين وقد درستها فى عرض نظرية دانيال جونز.

ب- الاحتكاكى وهو الصوت الذى يلتقى معه العضوان التقاء غير محكم فيمر الهواء بينهما محدثاً نوعاً من الحفيف أو الاحتكاك وهو ما يقابل الرخو.

ج- المائع: هو الصوت الذى يلتقى فيه عضوا النطق التقاء غير محكم يسمح بمرور الهواء بينهما دون إصدار حفيف أو احتكاك وهو ما يقابل المتوسط.

٣- المطبق والمنفتح:

المطبق هو الذى يرتفع معه اللسان إلى سقف الحنك الأعلى بحيث يكون كالمطبق وحروفه (الصاد - الضاد - الطاء - الظاء).
المنفتح: ما ليس كذلك وهو بقية الحروف.

٤- المستعلى والمستقل:

- المستعلى: هو الذى يرتفع معه اللسان إلى الحنك الأعلى.
والمستقل: هو الذى لا يرتفع معه اللسان كالموضع السابق والحروف المستعلية مجموعة فى قولهم (خص ضغط قط) وما عداها مستقل.
- ٥- المنحرف: هو ما ينحرف فيه اللسان مع الصوت وهو يعترض الهواء من جانبيين وهو اللام.
- ٦- المكرر: وهو الصوت الذى إذا وقفت عليه يتعثر طرف اللسان معه لما فيه من التكرير وهو الراء.
- ٧- المشرب: وهو الحروف التى تحفز فى الوقف وهى حروف القلقة وهى مجموعة فى قولهم (قطب جد).
- ٨- المهتوت: وهو الهاء لضعفه وخفائه.

٩- المذلق والمصمت:

المذلق: هو الذى يعتمد فى نطقه على ذلق اللسان وهو طرفه وحروفه مجموعة فى قولهم (مر بنفل).

المصمت: ما صمت عنه أن تبنى منه كلمة رباعية أو خماسية مجردة خالية من حروف الذلاقة وهو ما عدا الحروف المذلفة وكل كلمة رباعية أو خماسية مجردة تشتمل على حرف أو أكثر من حروف الذلاقة وإلا اعتبرت أعجية أو مولدة إلا ما نص على عريته.

ومن أمثلة ما اشتمل على بعض حروف الذلاقة من الأسماء الرباعية والخماسية المجردة جعفر وسفرجل.

ومثال الخالى منها مهندس وصولجان التى أوردتها الخليل فى العين^(١).

وقد تأتى قليلاً كلمات عربية خلت منها مثل العسجد والزهرقة شدة الضحك وترقيص الأم للصبي.

والصفات الخمس الأول متضادة ويجب أن يتصف كل حرف بواحدة من المتضادين أما الصفات الأخرى غير المتضادة فيمكن أن يتصف الصوت بواحدة أو أكثر منها وقد لا يتصف بشيء منها، وإذا كثرت صفات الشدة كان الصوت قوياً وإذا كثرت صفات الضعف كان ضعيفاً وقد يكون متوسطاً^(٢).

(١) العين ٥٧/١ - ٥٩.

(٢) القول المفيد لمكى نصر ٦٢-٦٤ وانظر الصوتيات اللغوية دكتور هلال ص ٢٠١.

ثالثاً: التطورات التي اعتدت الأصوات الصامتة مع عرض الاختلاف بين القدامى والمحدثين فيها

أولاً: الهمزة:

مخرجها عند القدامى من أقصى الحلق، ومخرجها عند المحدثين من المزمار يعنى من الحنجرة، فلسان المزمار ينطبق انطباقاً تاماً عند النطق بها ثم ينفتح فجأة فيخرج صوت الهمزة محدثاً فرقة وانفجاراً.

وهى عند القدماء صوت مجهور فليست من المهموسات العشرة المجموعة فى قولهم (سكت فحثة شخص) وباقى الحروف مجهورة كما يقول ابن جنى (إن الهمزة حرف مجهور)^(١).

والجهر عندهم منع النفس من الجريان فى أثناء نطق الحرف وبعد تكوين الحرف يجرى الهواء كما يقول سيبويه^(٢).

ويرى بعض المحدثين أن الهمز صوت مهموس وبعضهم يرى أنها صوت لا هو بالمجهور ولا بالمهموس.

وبنى القائلون بالهمس رأيهم على أن الوترين الصوتيين فى الحنجرة لهما حالتان: الذنبية مع الأصوات المجهورة وعدم الذنبية مع الأصوات المهموسة وبنى القائلون بأنها لا مجهورة ولا مهموسة رأيهم على أن الأوتار فى الحنجرة لها ثلاث حالات:

١- سكون الوترين نتيجة احتباس الهواء فى الحنجرة وعدم اهتزاز الوترين فينتج صوت الهمزة وحدها.

٢- سكون الوترين (عدم الذنبية) وانفتاح مجرى الهواء فيمر الهواء دون عائق ودون أن يؤثر على الوترين بالاهتزاز وهذا يكون مع الأصوات المهموسات.

(١) سر صناعة الإعراب ١-٦٩.

(٢) الكتاب ٤٠٥/٢.

٣-ذبذبة الوترين وانفتاح مجرى الهواء من الحنجرة وهذا يكون في الأصوات المجهورات^(١).

ويرجح بعض المحدثين أن الهمزة لا مجهورة ولا مهموسة تبعاً لسكوت الوترين في الحالات التي أثبتتها الأجهزة العملية وبعض المحدثين يأخذ بالرأى القديم ويرى أن الهمزة من أقصى الحلق وأنها صوت مجهور^(٢).

ثانياً: القاف:

يتفق القدماء والمحدثون من علماء اللغة على مخرجها وأنها من أقصى اللسان مع ما يقابله من الحنك الأعلى^(٣).

وتوصف بأنها صوت لهوى نسبة إلى اللهاء، وتوصف عند القدماء بالشدة والجهر وعند المحدثين بالهمس ويتحدثون عن أن نطق القاف تطور فقديماً كان يشبه النطق عند بعض القبائل في العراق والسودان قريباً من الغين، أو كان شبيهاً بالجيم القاهرية ولكن هذا مجرد تخمين لا يقوم عليه الدليل.

لكن نطق القراء للقاف مهموسة يدل على حدوث تطور في نطقها على الألسنة العربية.

والتطور سنة الحياة كما يقول الدكتور هلال، ويذكر أننا نشاهد تطورها في اللهجات العامية ففي مصر والشام تنطق همزة وفي لسان جنوب مصر ولهجات البدو تنطق كالجيم القاهرية.

(١) الصوتيات اللغوية د. عبد الغفار هلال ص ٢٠٣-٢٠٥ والتجويد والأصوات د. إبراهيم نجا ص ٥٧.

(٢) الكتاب لسبويه ٤٠٥/٢ وسر صناعة الإعراب لابن جني ٩٦/٢، التجويد والأصوات د. إبراهيم نجا ص ٥١ والأصوات اللغوية د. إبراهيم أنيس ص ٩٦.

(٣) الصوتيات اللغوية د. هلال ص ٢٠٦ وانظر التجويد والأصوات د. إبراهيم نجا ص ٥١ ومناهج البحث في اللغة د. تمام حسان ص ١٠٤-١٠٣.

وتطورها إلى صوت الهمزة تطور طبيعي وهى شديدة مثلها.

وتطورها إلى صوت الجيم لقرب مخرج الجيم القاهرية من مخرج القاف فالاثتان من أقصى اللسان مع ما يقابله من الحنك الأعلى، وبينها شبه فى صفة الجهر فالجيم القاهرية مجهورة والقاف العربية الأصلية كانت مجهورة^(١).

ثالثاً: الجيم:

مخرج هذا الصوت وسط اللسان من ما يقابله مع الحنك الأعلى، وهذا موضع اتفاق بين علماء اللغة القدامى والمحدثين.

والقدماء يرون أن الجيم العربية الأصلية صوت شديد وهو الصوت الذى يحبس الهواء حبساً تاماً فى عضوى النطق ثم ينفصل العضوان فجأة فيصدر ما يشبه الانفجار ولذلك يسمى المحدثون الصوت الشديد بالانفجارى.

ويرى بعض المحدثين أن الجيم صوت قليل الشدة لأن انفصال عضوى النطق يتم ببطء وليس كما يحدث مع الصوت الشديد فينفصل العضوان معه انفصالاً بطيئاً فيحنك الهواء الخارج من الرئتين بعضوى النطق ولذلك يسمى قليل الشدة عندهم.

ويرى الدكتور هلال أن الجيم صوت شديد لا قليل الشدة، ويستدل بأنه سمع هذا الصوت من أفواء القراء المجيدين للقراءات^(٢).

ويؤيد ذلك بما ذكره المستشرق الألمانى برجشتراسر من أن الجيم العربية معطشة وهى تشبه القاف التركية فى مثل كلمة (كاه) فهى كانت مشجرة^(٣).

(١) انظر الصوتيات اللغوية د. هلال ص ٢٠٧.

(٢) الصوتيات اللغوية د. هلال ص ٢٠٨.

(٣) التطور النحوى: برجشتراسر ص ٩.

وحدث للجيم تطور في اللهجات الدارجة فأهل القاهرة ينطقونها خالية من التعطيش والسوريون يزيدون الجيم تعطيشاً وينطقها بعض البدو بشيء قليل من التعطيش أقل من نطق الجيم العربية الأصلية.

وخط سير التطور في الجيم يرينا أن المصريين أرجعوا مخرجها إلى أقصى اللسان فازدادت شدة وخلت من التعطيش، هذا ما يلحظه علماء اللغة المحدثون.

رابعاً الطاء:

مخرج هذا الصوت من طرف اللسان مع أصول الثايات العليا وهذا باتفاق القدماء والمحدثين^(١).

ويختلف وصفها بين الدارسين فالقدماء يصفونها بالجهر والمحدثون يصفونها بالهمس وكل واحد من الفريقين وصف الطاء التي في عصره فالقدماء الذين عاصروا الفصاحة وسمعوها من العرب الفصحاء وصفوها بالجهر ولذلك لا نجدها بين الأصوات التي عدوها مهموسة (سكت فحثة شخص).

والوصف الذي وصل إلينا عن القدماء يرينا أنها تنطق كالضاد المصرية الحديثة التي تنطق الآن.

وبدل لذلك قول ابن الجزرى: المصريون ينطقون بالضاد المعجمة طاء مهملة^(٢).

وليست الضاد المصرية هي الصاد العربية بل هي مختلفة عنها تماماً فمخرج الضاد العربية من جانب اللسان أو من كلا الجانبين أما الضاد المصرية فمن طرف اللسان مع أصول الثايات العليا، ويقول سيبويه: (لولا

(١) سر صناعة الإعراب ٥٣/١ والتجويد والأصوات ص ٤٠.

(٢) القول المفيد في علم التجويد محمد مكى نصر ص ٧٥.

الإطباق لصارت الطاء دالا^(١) وأنت إذا رفعت الإطباق من الطاء التى تنطق الآن صارت تاء، فهى مختلفة عنها، فلو كانت هى الطاء التى تنق الآن لقال سيبيويه: (لولا الإطباق لصارت الطاء تاء وهو لم يقل ذلك).

ويذكر أستاذنا الدكتور هلال أنه سمع أهل صنعاء ينطقون الطاء المجهورة شبيهة بنطق الضاد المصرية وسجل ذلك تسجيلاً صوتياً يحتفظ به وذكره فى بحث له بمجلة كلية اللغة العربية بالرياض بالمملكة العربية السعودية العدد السابع^(٢).

وحاول الدكتور تمام حسان أن يخطئ سيبيويه فقال إن سيبيويه قد (أخطأ) فى وصفه الطاء بالجهر وقال: (لست أظن سيبيويه فيه إلا مخطئاً فكل طاء تنطقها العرب فى أيامنا هذه مهموسة ولو كان لجيل سيبيويه من العرب طاء مخالفة لبقيت ولو فى لهجة غريبة منعزلة غير هامة^(٣)).

ورد الدكتور هلال هذا النقد بأنه مبنى على التسرع فى الحكم دون استقراء واسع للهجات العربية الحديثة فالواقع اللهجى يشهد بخلاف ما قال الدكتور تمام فللهجة صنعاء تحمل النطق العربى الأصيل وتتفى رأى الذى ذهب إليه.

فالطاء التى ينطق بها اليوم مهموسة وهى مخالفة لما كانت عليه الطاء العربية الأصيلة^(٤).

خامساً: الضاد:

مخرج الضاد العربية كما وصفها القدماء على صفة ما قال سيبيويه تخرج من أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس إلا أنك إذا شئت تكلفتها من الجانب الأيمن وإن شئت من الجانب الأيسر أو من كلا الجانبين.

(١) الكتاب ٤٠٦/٢.

(٢) الصوتيات اللغوية: د. إبراهيم، ص ٢٢١.

(٣) مقال بمجلة الأزهر عدد شوال ١٤٢٨ هـ ص ١٠٨١.

(٤) الصوتيات اللغوية ص ٢١١.

وقد تعددت التصورات حول هذا الصوت كيف كان ينطق فيذكر برجشتراسر أنها كانت تشبه في مخرجها مخرج اللام لأنها مثلها من جانب اللسان واستدل لذلك بنطق بعض العرب فكان بعضهم يقول الطجع مكان اضطجع ومثل ذلك في حضرموت وفي أسبانيا تنطق مثل (ld) في كلمة مثل القاضي alcalde.

والضاد تنطق قريبة من الظاء في اللهجات الحديثة عند بعض البدو وفي العراق أيضاً فانتقلت من جانب اللسان إلى طرفه.

والضاد المصرية تختلف عن الضاد العربية فمخرج المصرية من طرف اللسان مع أصول الثنايا العليا وتتصف بالشدة لأن الهواء معها ينحبس في النطق انحباساً تاماً ثم ينفرج العضوان فجأة فيخرج الهواء محدثاً دويماً وانفجاراً وتطورها حدث بالانتقال من جانب اللسان أو الجانبين إلى الأمام من طرف اللسان وهذا هو السبب في اختلاف صفة الضاد المصرية عن الضاد العربية التي هي قليلة الشدة وعند بعض البدو وفي العراق رخوة.

وبذلك يثبت أنه لا تعارض بين الرأي القديم والرأي الحديث في هذه الأصوات مخرجاً وصفة لأن تغيير الزمن كان عاملاً قوياً في هذه التطورات.

وقد أوضحت ذلك بالأدلة والبراهين اللغوية والعلمية والاجتماعية التي مرت بها الأجيال العربية المتعاقبة.

المصادر والمراجع:

- ١- التجويد والصوات، د. إبراهيم نجا. ط السعادة.
- ٢- التطور النحوى. برابستراسر، ط ١٩٢٩.
- ٣- الخصائص لأبى الفتح عثمان بن جنى، ط دار الكتب، ١٣٧١هـ - ١٣٧٦هـ.
- ٤- سر صناعة الإعراب لابن جنى، ط ١٣٧٥هـ.
- ٥- الصوتيات اللغوية، د. عبد الغفار حامد هلال، ط دار الكتاب الحديث ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م
- ٦- علم اللغة العام الأصوات، د. كمال بشر، ط ١٩٧٠م.
- ٧- العين الخليل بن أحمد الفراهيدى، ج ١، تح: د. عبد الله درويش، ط بغداد، ١٣٨٦هـ - ١٩٦٢م.
- ٨- الكتاب عمرو بن عثمان بن قنبر (سيبويه)، ط بولاق، تح: عبدالسلام هارون، ط دار القلم ودار الكتاب العربى.
- ٩- اللغة لفندريس تعريب الدواخلى والقصاص، ط ١٣٧٠هـ - ١٩٥٠م.
- ١٠- مجلة كلية اللغة العربية فى الرياض المملكة العربية السعودية العدد السابع، مقال للدكتور/ عبد الغفار هلال بعنوان: الأصوات اللغوية فى لهجة صنعاء وصلتها بالعربية الفصحى.
- ١١- مناهج البحث فى اللغة، د. تمام حسان. ط ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م.
- ١٢- نهاية القول المفيد فى علم التجويد، محمد مكى نصر، ط الحلبي، ١٣٤٩هـ .

دلالة الأوزان الصرفية المزيدة عند عبدالقاهر والزمخشري

رابحة محمد سعد (*)

ملخص البحث:

يهدف البحث إلى دراسة دلالة الأوزان الصرفية المزيدة عند عبدالقاهر والزمخشري، وما قد قامت فيه الدلالة بدور مهم في التقعيد الصرفي عند هذين العالمين الجليلين في هذا الصدد، وهذا البحث كان جزءاً من أطروحتي لذلك توراها التي كان عنوانها "دور الدلالة والسباق في التقعيد عند عبدالقاهر والزمخشري، ولتحقيق هذا الهدف اعتمد البحث على المنهج الوصفي، وتم من أجل ذلك بيان معنى الدلالة الصرفية، وقد تم تقسيم البحث إلى محورين: الأول دلالة الأفعال الثلاثية المزيدة عند عبدالقاهر والزمخشري، والثاني دلالة الزوائد اللاحقة لبنات الثلاثية من غير أن تكون على وزن بنات الأربعة.

الكلمات المفتاحية: الدلالة الصرفية، المجرد، المزيد.

(*) باحثة دكتوراه

مقدمة البحث:

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين.

أما بعد؛ فإن الزيادة تعرف على أنها الإضافة إلى حروف الكلمة الأصلية مما لا يسقط في بعض التصاريف لغير علة تصريفية^(١)، فالحروف الزوائد هي "الَّتِي يَجُوزُ أَنْ تَزَادَ فِي بَعْضِ الْمَوَاضِعِ، فَيَقْطَعُ عَلَيْهَا هُنَاكَ بِالزِّيَادَةِ إِذَا قَامَتْ عَلَيْهَا الدَّلَالَةُ"^(٢)، وقيل: هي إلحاق الكلمة ما ليس فيها لإفادة معنى أو لضرب من التوسّع في اللغة^(٣).

فالغاية إذاً من الزيادة هي الحصول على معنى جديد لم يكن في المجرد، وفي هذا قال ابن جني بأنهم "يُعَبَّرُونَ عَنِ الْمَعْنَى الْوَاحِدِ بِالْأَلْفَافِ الْكَثِيرَةِ، وَهَذَا يَضْطَرُّ إِلَى الْإِتْسَاعِ، فَمِنْ هَاهُنَا احْتِيجَ إِلَى الزَّوَادِ الْمُكْثَرَةِ لِلْكَلَامِ"^(٤)؛ فهي زيادة على حروف الكلمة الاصول من أجل متطلبات دلالية أخرى تضاف إلى اللغة^(٥).

فصيغ المزيادات في العربية هي اصل المشتقات التي تعمل على تنويع المعنى أو تكسيه خواصّ تختلف في دلالتها بين مبالغة وتعدية ومطاوعة ومشاركة وغيرها^(٦).

وهذه الزيادة خاصة بالابنية القابلة للتطور والتغيير أو ما يطلق عليها (العناصر ذات الصيغ الاستضافية)^(٧)، أما الأبنية التي تلازم بناء واحداً فلا

(١) ينظر: دروس التصريف: ٣٣.

(٢) التصريف الملوكي: ١٢.

(٣) ينظر: شرح المفصل: ١٥٤ / ٧، وشرح الشافية: ٨٣ / ١، والصرف الوافي: ٥١، وأبنية الصرف: ٩٤.

(٤) المنصف: ١٥ / ١.

(٥) ينظر: شرح الملوكي: ١٠، وشرح المفصل: ١٤٣ / ٧.

(٦) ينظر: الفلسفة اللغوية: ٨٦.

(٧) التحول الداخلي في الصيغة الصرفية: ٣٩.

تخضع لمبدأ الصياغة الاشتقاقية، ولا تتولد عنها صيغ أخرى ذات دلالات جديدة^(١).

والزيادة عند عبدالقاهر الجرجاني "ضَرَبٌ مِنَ التَّصَرُّفِ يُحْتَاجُ إِلَيْهَا لِمَعَانٍ نَحْوُ: اسْتَخْرَجَ فِي الْفِعْلِ، وَاسْتَخْرَاجٌ، أَلَا تَرَى أَنَّ دُخُولَ الزِّيَادَةِ يَدُلُّ عَلَى مَعْنَى، وَالْخُمَاسِيُّ لَا يَكُونُ فِيهِ هَذَا مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ مَقْصُورٌ عَلَى الْاسْمِ"^(٢).

فهو يخص بالزيادة ما يؤدي فيها إلى معنى، فالزيادة إذا هي "زِيَادَةٌ لِمَعْنَى، كَالْفِ (ضَارِبٍ)، لِأَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى الْفَاعِلِيَّةِ، وَكَذَا مِيمُ (مَضْرُوبٍ)، لِأَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى الْمَفْعُولِيَّةِ وَالْهَمْزَةُ فِي نَحْوِ: أَخْرَجْتُ زَيْدًا، لِأَنَّهُا تُقَيِّدُ التَّعْدِيَّ"^(٣).

ثم يعرج الجرجاني ليبين الغاية من الزيادة وأهميتها، فيذكر أن الزيادة تأتي لإضافة معانٍ جديدة لا يمكن أن توجد إلا بها؛ وذلك لأن زيادة المعنى تأتي تبعاً لزيادة المبنى^(٤)، ففصل القول في ذلك، وضرب الأمثلة المتعددة لتقوية ما ذهب إليه، فقال: إن جميع ما ذكر من زيادة الألف والميم والهمزة "تُقَيِّدُ مَعَانِي، لَا تُوجَدُ إِلَّا بِهَا، أَلَا تَرَى أَنَّكَ لَوْ أَسْقَطْتَ الْهَمْزَةَ مِنْ (أَخْرَجْتُ) بَطَلَ التَّعْدِي، وَلَوْ حَذَفْتَ الْمِيمَ وَالْألفَ فِي (مَضْرُوبٍ) وَ(ضَارِبٍ) بَطَلَ الْمَفْعُولِيَّةُ وَالْفَاعِلِيَّةُ"^(٥).

كما ذكر أن الزيادة هي ألا يكون قد وضع عليه التركيب في الأصل، ف(خَرَجَ) يدل على أن التركيب وقع من الثلاثة التي هي الخاء والراء والجيم دون غيرها^(٦).

(١) ينظر: الصرف الوافي: ٥١.

(٢) المقصد في شرح التكملة: ٢١١.

(٣) المصدر نفسه: ٢١٤.

(٤) ينظر: الخصائص: ٣/ ٢٦٤، واللمع في العربية: ٣٠٩، والمثل السائر: ٢/ ٢٥٠.

(٥) المقصد في شرح التكملة: ٢١٤.

(٦) ينظر: المقصد في شرح التكملة: ٢١٣.

ثم عرج ليضع حدًّا للزائد، فقال: "إِنَّ الزَّائِدَ مَا سَقَطَ فِي بَعْضِ تَصَارِيفِ الْكَلِمَةِ كَوَاوٍ (فُعُودٍ) فَقَدَ فِي (فَعَدَ)، وَكَأَلَفٍ (ضَارِبٍ) فَقَدَ فِي (ضَرَبَ)، وَمَا ثَبَتَ فَهُوَ أَصْلِيٌّ، وَعَيْنُ (قُلْتُ) وَ(بَعْتُ) ثَابِتٌ تَقْدِيرًا"^(١).

كما عرفه في مواضع أخرى، وضرب له الأمثلة المتعددة فقال: "إِنَّ الزَّائِدَ هُوَ الَّذِي لَا يَكُونُ فَاءً وَلَا عَيْنًا وَلَا لَامًا، نَحْوُ أَنْ تَقُولَ: كِتَابٌ وَقَضِيبٌ وَعَجُوزٌ، فَتَكُونُ الْأَلِفُ وَالْيَاءُ وَالْوَاوُ زَوَائِدَ، لِأَجْلِ أَنْ وَاحِدًا مِنْهَا لَيْسَ مِنَ الْحُرُوفِ الَّتِي ذَكَرْنَا، يَدُلُّكَ عَلَى ذَلِكَ أَنَّكَ تَقُولُ: كَتَبَ وَقَضَبَ وَعَجَرَ"^(٢).

وبهذا تكون الزيادة عند الجرجاني غير داخلة ضمن تركيب الكلمة الأصلي وحروفها الأصول التي وضع الميزان الصرفي عليها، وهي (الفاء والعين واللام)، وما زاد عن هذه الأحرف - مما يحذف في بعض تصاريف الكلمة - هو الزائد.

أما الزمخشري فقد كان الحديث عن الصيغة الصرفية عنده امتدادًا لدعوة معتزلية منه تمسك بها بعد موافقتها لما تبناه ابن جني في محاولة منه لتوجيه الصيغ بالاتجاه العقلي المقتن؛ لأن ابن جني جهد في أن يرجع فروعاً مشتركة في الجذر إلى معنى واحد، وهو ما يوحي بأنه يجمع الأصول في مجموعات، ويوحدتها، ويضمها إلى بعض، وهو ما عني به تقارب الأصول لتقارب الألفاظ - الفروع^(٣).

وإلى جانب هذا الاتجاه العقلي فإن هناك اتجاهًا دلاليًا للصيغة عند الزمخشري يتم اكتسابه من هذه الزيادة؛ وهو ما عناه بأن الزيادة في البناء تكون لزيادة المعنى^(٤)، وما يهمننا هنا هي الزيادة التي تؤدي إلى معنى لا

(١) المفتاح في الصرف: ٤٤.

(٢) المقصد في شرح التكملة: ط ٢١٣.

(٣) ينظر: الخصائص: ١٤٨/٢، والمنصف: ٤/١.

(٤) ينظر: الكشف: ١٦/١.

يقوم إلاّ بها، فإذا حذفت هذه الحروف المزيدة في هذه الألفاظ فإنها تتجرّد من الدلالات التي قد تخرج إليها مع هذه الحروف وترجع إلى حالتها الفعلية مجردة من الاسمية، وقد أشار عبدالقاهر والزمخشري إلى معاني الأوزان المزيدة، ذاكرين كلّ وزن وما يخرج إليه من معان وهي ما سيتناوله محوراً البحث^(١).

موضوع البحث:

تأسيساً على ما سبق، وبما أن أحدًا من الدارسين - على حد علم الباحثة - لم يتناول بالدراسة موضوع دلالة الأوزان الصرفية المجردة والمزيدة عند عبدالقاهر والزمخشري، فإن موضوع هذا البحث يتحدّد في:

((دلالة الأوزان الصرفية المجردة والمزيدة عند عبدالقاهر والزمخشري))

ولتحقيق هذا يجيب البحث عن الأسئلة التالية:

(١) ما معنى الدلالة الصرفية ؟

(٢) كيف كانت نظرة عبدالقاهر والزمخشري للأوزان الثلاثية المزيدة ؟

(٣) كيف كانت نظرة عبدالقاهر والزمخشري للزوائد اللاحقة لبنات الثلاثية من غير أن تكون على وزن بنات الأربعة ؟

أهمية البحث:

تكمن أهمية البحث في الدخول إلى الإنتاج اللغوي القواعدي لعالمين جليلين من علماء العربية الأوائل بإحدى أدوات الدرس اللغوي المعاصر، وهي أداة الدلالة، وكيف وظفها هذان العالمان في تعديدهما للغة العربية (القواعد الصرفية).

(١) هذا التقسيم هو ما وضعه أبو علي الفارسي وتابعة فيه الجرجاني، ينظر: التكملة: ٥١٤-٥١٨، المقصد في شرح التكملة: ١٨٦ و ٢٠٠.

مصطلحات البحث:

يشتمل البحث على المصطلحات التالية:

(١) الدلالة الصرفية:

إن للدلالة أنواعاً متعددة ووجوهاً، ومنها الدلالة الصرفية أو دلالة الصيغ الصرفية التي يتناولها هذا البحث، وأعني بذلك المعاني المختلفة المتعلقة بجهة الهيئات والصيغ الواردة على المفردات^(١)، وأستطيع أن أسميها بـ(الدلالة الصرفية)^(٢)، ومعرفة الصيغ مما تكفل به علم الصرف؛ ففيه تعرف الأبنية، ويفرق بين وزن وآخر، لذا قالوا في تعريفه: "إنَّه عِلْمٌ يُعَرَّفُ مِنْ أَنْوَاعِ الْمُفْرَدَاتِ الْمَوْضُوعَةِ بِالْوَضْعِ النَّوعِيِّ وَمَدْلُولَاتِهَا"^(٣)، ومعرفة تصريف الكلمة وإرجاعها إلى أصلها يعين في بيان المعنى الراجح من الأقوال الواردة فيه^(٤)، ومن هنا جاء اهتمام العرب بصيغ الألفاظ وما تدل عليه كل صيغة^(٥)، وأعني بالصيغة هنا ورود الكلمة على حالة معينة من بين الصيغ التي توجد في تصريف الكلمة^(٦)، والتي تكون ضمن قالب صرفي توضع فيه هذه المادة اللغوية^(٧)، وهذه الصيغة لها دور في إضفاء الدلالات المختلفة على التعبير؛ فقد تهيمن الصيغة على البناء العام للنص، سواء على مستوى الجملة أو النص بأكمله، وتحدث التأثير المطلوب^(٨).

كما أن الكلمة المفردة واحدة من أهم الوحدات الدلالية، حتى عدها بعضهم الوحدة الدلالية الصغرى^(٩)؛ إذ لو خلت الكلمة المفردة من أية دلالة

(١) ينظر: البرهان في علوم القرآن: ١٩٠ / ٢.

(٢) دلالة الألفاظ: ٤٧.

(٣) ينظر: أبجد العلوم ٢ / ٣٤٥، وأثر الدلالة اللغوية والنحوية في استنباط الأحكام الفقهية: ٩٩.

(٤) ينظر: قواعد التفسير: ٢٣٧ / ١.

(٥) ينظر: الصاحبى: ٢٢٠-٢٢٥، ومعاني الأبنية: ٥، والتعبير القرآني: ٢٤.

(٦) ينظر: جماليات المفردة القرآنية: ٢٤١.

(٧) ينظر: أثر أقسام الكلم في الجملة العربية، محمد عبدالدايم الرفاعي، منشورات كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ١٩٩٣م، ص ٩١.

(٨) ينظر: مستويات النظم في التركيب القرآني: ٤١.

(٩) ينظر: علم الدلالة لأحمد مختار عمر: ٣٣.

لبطلت وظيفتها في السياق^(١)، وربما يكون للكلمة الواحدة أكثر من دلالة، وفي ذلك ذكرت الدكتورة خديجة الحمداني حقيقة في غاية الأهمية، وهي "أنَّ التَّعَدُّدَ في أُنْبِيَةِ الصَّرْفِ لَمْ يَكُنْ اعْتِبَاطًا بِقَدْرِ مَا يَنْدَرِجُ تَحْتَ هَذِهِ الْبَنَى مِنْ مَعَانٍ مُتَعَدِّدَةٍ، تَأْخُذُ حَيَازًا فِي الْكَلَامِ، وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ أُنْبَاءَ اللُّغَةِ الْوَاحِدَةِ يَتَعَارَفُونَ وَيَرِثُونَ النِّظَامَ اللُّغَوِيَّ مِمَّا يَجْعَلُ لِلتَّغْيِيرِ دَلَالَةً وَاضِحَةً، فَلَوْ قُلْتَ لِعَرَبِيٍّ: حَضَرَ، فَإِنَّهُ يَفْهَمُ أَنَّ شَخْصًا أَوْ شَيْئًا قَدْ حَضَرَ، وَإِنْ قُلْتَ: أَحْضَرَ، فَإِنَّكَ تَحْسُ أَنَّ شَخْصًا مَا قَامَ بِإِحْضَارِ شَيْءٍ"^(٢)، وهكذا فإن القيمة الدلالية للكلمة تكمن في معناها، وأي تغيير في الصيغة هو تغيير في المعنى^(٣).

منهج البحث:

اتبعت الباحثة المنهج الوصفي الذي يعتمد هنا على تقعيد عبدالقاهر والزمخشري لتألف الأصوات وتغيراتها.

ويتكوّن البحث من محورين على النحو التالي:

المحور الأول

دلالة الأفعال الثلاثية المزيدة عند عبدالقاهر والزمخشري

الناظر في كتب التصريف واللغة قديمها وحديثها على اختلافها، يجد أنها قد أطبقت على ذكر عدة معانٍ لكثير من الصيغ، بما يشبه الاتفاق التام أو الإجماع على صحة وقوع هذه الظاهرة، التي اطلق عليها المحدثون اسم (ظاهرة تعدد المعنى الوظيفي للصيغة الواحدة)^(٤)، ومثال ذلك ما سنفصله من أوزان وما تخرج إليه من دلالات مختلفة، وهي:

(١) ينظر: اللغة والإبداع: ١٢٩.

(٢) المصادر والمشتقات في معجم لسان العرب دراسة صرفية دلالية: ٢١٢.

(٣) ينظر: علم الدلالة لجيرو: ١٦.

(٤) اتجاهات البحث الأسلوبية: ٣٧، وينظر: اللغة العربية معناها ومبناها: ١٦٣، وأقسام الكلام العربي: ٢٩٦.

١ - صيغة (أفعل): تأتي لأغراض ودلالات بلغ بها أبو حيان عشرين ونيفاً، أشهرها: التعدية، والصيرورة، والسلب، والتمكين، والتعريض، وغير ذلك^(١).

وقد ذكر الجرجاني والزمخشري من دلالات هذه الصيغة:

التعدية: فنجد أن الهمزة التي دخلت على صيغة (أفعل) جاءت لنقل الفعل غير المتعدي إلى المتعدي، نحو: خَرَجَ وأَخْرَجْتُهُ^(٢)، وذكر الجرجاني والزمخشري أن (أفعل) "يَجِيءُ لِلتَّعْدِي فِي الْغَالِبِ، نَحْوُ: ذَهَبَ وَأَذْهَبْتُهُ، وَقَامَ وَأَقَمْتُهُ"^(٣)، وَجَلَسَ وَأَجْلَسْتُهُ"^(٤)، فهي إذاً من الأسباب التي تنقل الفعل من غير المتعدي إلى المتعدي ففي قولك: ذَهَبَ زَيْدٌ، وَأَذْهَبْتُ زَيْدًا أو أَذْهَبَ زَيْدٌ عَمْرًا^(٥) جاءت الهمزة لتتعدى بالفعل (ذَهَبَ) فتقول: أَذْهَبْتُ زَيْدًا^(٦).

الدخول في الشيء، أي: دخول الفاعل في المكان أو الزمان المشتق منه الفعل، نحو: أُنْجِدَ وَأَغَارَ، وَأَصْبَحْنَا وَأَمْسَيْنَا^(٧)، أي: أنك عندما "تَقُولُ: أَصْبَحْنَا وَأَمْسَيْنَا، وَأَسْحَرْنَا، وَأَفْجَرْنَا، وَذَلِكَ إِذَا حَدَّثَ فِي حِينِ صُبْحٍ وَمَسَاءٍ وَسَحَرٍ"^(٨)، أي: صرنا في هذه الأوقات^(٩).

ومن دلالاته على الدخول في المكان قول الجرجاني: "وَمِنْ هَذَا الضَّرْبِ: أَجَبْنَا: دَخَلْنَا فِي الْجُنُوبِ، وَأَذْبَرْنَا: فِي الدَّبُورِ، وَأَصْبَيْنَا، وَأَشْبَاهُهُ..."^(١٠).

(١) ينظر: البحر المحيط: ٢٦ / ١.

(٢) ينظر: التكملة: ٥١٧، الخصائص: ٢ / ٢١٤-٢١٥، أدب الكاتب: ٣٥٣، شرح الشافية: ٨٣ / ١، دروس في علم الصرف: ٦٠، أوزان الفعل ومعانيها: ٥٦-٥٧، الإعجاز الصرفي: ٥٨.

(٣) المقصد في شرح التكملة: ١٩١، والمفصل: ٢٨٢.

(٤) المفتاح في الصرف: ٤٩.

(٥) ينظر: المقصد في شرح الإيضاح: ١ / ٣٤٦-٣٤٧.

(٦) ينظر: المصدر نفسه: ١ / ٥٩٢.

(٧) ينظر: المخصص: ١٤ / ١٦٩، شرح البناء: ١٢، البحر المحيط: ٨٣ / ٣، شرح الشافية: ٨٧ / ١، تكملة على التصريف: ٢ / ٦٠١، ديوان الهذليين: ١ / ١٢٤، تصريف الفعل: ٦٨، أوزان الفعل ومعانيها: ٧١.

(٨) الكتاب: ٤ / ٦٢-٦٣، وينظر: شرح الأشموني: ٢ / ٥٢١، شرح الشافية: ٨٧ / ١.

(٩) ينظر: التكملة: ٥١٧.

(١٠) المقصد في شرح التكملة: ١٩١.

وقد جاءت تسمية دلالة الصيرورة عند الزمخشري^(١) من قول ابن جني: "أَمَّا أَرِئِنْتَ، فَمَعْنَاهُ صَارَتْ إِلَى الزَّيْنَةِ، وَأَجْدَعُ الْمَهْرُ صَارَ إِلَى الإِجْدَاعِ، وَأَجَزَّ النَّخْلُ صَارَ إِلَى الْجُزَازِ، وَأَحْصَدَ الزَّرْعُ، أَيُّ: صَارَ إِلَى الْحَصَادِ"^(٢).

وهذا ما ذهب إليه الجرجاني في قوله: "أَنْ يَكُونَ بِمَعْنَى صَارَ ذَا كَذَا، كَقَوْلِكَ: أَغَدَّ الْبَعِيرُ، إِذَا صَارَ ذَا غُدَّةٍ، وَإِلَى هَذَا يَعُودُ نَحْوُ قَوْلِكَ: أَصْبَحْنَا وَأُمْسَيْنَا دَخَلْنَا فِي الصَّبَاحِ وَالْمَسَاءِ، لِأَنَّهُ بِمَنْزِلَةِ صِرْنَا ذَوِي صَبَاحٍ وَمَسَاءٍ، وَكَذَا: أَفَجَرْنَا دَخَلْنَا فِي الْفَجْرِ"^(٣).

ومنه قولهم: أَحْصَدَ الزَّرْعُ، وَأَصْرَمَ النَّخْلُ، وذاك أنه صار ذا حصاد، وذا صرام، وذا كأنه لما قارب أن يحصد واكتسى هيئته صار كأنه شيء يملكه حتى كان ذلك الفعل قد وجد^(٤).

ولكي تكتمل هذه الدلالة والغرض الذي خرجت إليه صيغة (أفعل) فقد عرج إلى توضيح الشرط الذي تكون فيه (أصبح وأمسى) دالتين على الصيرورة والدخول في الشيء، وهو أن أصبح وأمسى، إذا لم يكونا تامين لم يكن فيهما معنى الصباح والمساء، وكانا بمنزلة صار كقولك: كان زيد فقيراً فأصبح غنياً، وأمسى زيد أخاك^(٥)، وقال أيضاً بأن "الأصل أن يكون دالاً عليه، ثم لما كان المساء والصباح ينتقل أحدهما إلى صاحبه خلع منهما الدلالة على وقت البياض والسواد، وجعلا للانتقال الصريح ك(صار)، وعلى

(١) ينظر: المفصل: ٢٨٢، والتكملة: ٥١٧، شرح الشافية: ١/ ٨٦، الإعجاز الصرفي: ٥٨.

(٢) المحتسب ١/ ٣١١-٣١٢.

(٣) المقصد في شرح التكملة: ١٩١.

(٤) ينظر: المفتاح في الصرف: ٤٩.

(٥) ينظر: المقصد في شرح الإيضاح: ١/ ٤٠١-٤٠٢، المقصد في شرح التكملة: ظ ١٩١.

ذلك يجري ما شاكله نحو: غدا وراح وأضحى، والأصل في الجميع أن يدل على الوقت المعلوم، ثم إن الانتقال لما اعتوره استعمل بمعنى (صار)^(١).

وفي التوجيه الصرفي لكلمة (مشرقين) في قوله تعالى: ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مَشْرِيقِينَ﴾^(٢)، يقول الزمخشري: "مشرقين: داخلين في وقت الشروق، من شرقت الشمس شروقا إذا طلعت"^(٣).

ومن الجدير بالذكر أن هذه الأفعال لم تستعمل إلا مزيدة، ولم يسمع من العرب استعمال مجرداتها حتى تتم تعديتها بالهمزة، إن كانت لازمة؛ لذلك كانت زيادتها هنا لإفادة معنى آخر، وهو الدلالة على الدخول في الوقت^(٤).

وجود الشيء على صفته (الوجدان)، أي: وجدناه مستحقاً للفعل^(٥)،
فمعنى "حمدته، أي: جزيته وقضيته حقه، فأما (أحمدته) فنقول: وجدته مستحقاً للحمد مني، فإنما تريد أنك استبنته محموداً..^(٦)، وقد تناول الجرجاني والزمخشري دلالة (أفعل) على الوجدان مستشهدين على ذلك بمجموعة من الأمثلة تؤكد ما ذهباً إليه، نحو "قولك: أحمدته، أي: وجدته محموداً، وأفحمته، أي: وجدته مفحمًا، وأجبنته: وجدته جبانًا، وأحييت الأرض: وجدتها حية النبات، ومثله كثير"^(٧)، ف(أفعل) جاءت هنا للدلالة على وجودك مفعوله على صفة^(٨).

(١) المقصد في شرح التكملة: ط ١٩١.

(٢) الشعراء: ٦٠.

(٣) الكشف ٣/٣١٥.

(٤) ينظر: الصيغ الثلاثية مجردة وفريدة اشتقاقاً ودلالة: ٢١٨.

(٥) ينظر: أدب الكاتب: ٣٤٣، شرح المفصل: ١٥٩/٧، شرح الشافية: ٩١/١، دروس في علم الصرف: ٦١، أبنية الفعل ودلالاتها علاقاتها: ٢٢.

(٦) الكتاب: ٦٠/٤.

(٧) المقصد في شرح التكملة: ط ١٩١، وينظر: المفاتيح في الصرف: ٤٩، والمفصل: ٢٨٢.

(٨) ينظر: أقسام الكلام العربي: ٢٩١-٢٩٢، الإعجاز الصرفي: ٥٩.

(أَفْعَلْ) بمعنى (فَعْلَ): فقد يجيء (فَعَلْتُ) و(أَفْعَلْتُ) بمعنى واحد، كما أنه يجيء الشيء على (أَفْعَلْتُ) لا يستعمل غيره، وذلك: قلت البيع وأقلته، وشغله وأشغله، وصرَّ أذنيه وأصرَّ أذنيه^(١)، ومنه قولهم: أقشع الغيمُ وقشَعَت الغيمُ الريحُ، وأنسلَّ ريشه الطائرُ وسلَّته^(٢)، وقد ذكر الجرجاني أن الهمزة قد تأتي وليس لها أي دلالة فتكون بمنزلة ما حذفت منه الهمزة، أي: (فَعْلَ) المجرد، أي: "الَّا يَكُونُ لِلْهَمْزَةِ تَأْثِيرٌ، وَيَكُونُ بِمَنْزِلَةِ (فَعَلْتُ) وَذَلِكَ: قُلْتُ الْبَيْعَ وَأَقْلَلْتُهُ"^(٣).

ثم يعرج الجرجاني إلى مسألة مهمة تنص على أن أي تغيير في الصيغة يقتضي تغييراً في المعنى، مبيناً أن دلالة (أَفْعَلْ) على (فَعْلَ) هو شيءٌ محصور وقليل إذا ما قارناه بدخول الهمزة ودلالاتها، فقال: إن أَفْعَلَ بمعنى فعل "هو محصور قليل، بالإضافة إلى ما يفيد الهمزة فيه تغيير معنى (فعلت)، وذلك هو الأصل، لأن تغيير اللفظ يقتضي تغيير المعنى"^(٤).

كما بين أن ذلك هو نوع من الاستكثار في اللغة كقعد وجلس، غير أن هذا تغيير بزيادة، وذلك تغيير باستئناف بناء، وعلى هذا يدور في الأعراف^(٥).

ففي قعد معنى ليس في جلس^(٦)، و"قعدت خوفاً وجلست فرقا، فإن هذين التركيبين ليسا مترادفين لأن الترادف من خواص المفردات"^(٧)، فإذا

(١) ينظر: الكتاب: ٤/ ٦١، ديوان الأدب: ٢/ ٣٣٦-٣٣٧، الصاحبي: ٣٦٩، المفصل: ٢٨٣، ديوان الهذليين: ٢/ ١٠، ١٧، دروس التصريف: ٧٢، دروس في علم الصرف: ٦٢.

(٢) ينظر: الخصائص: ٢/ ٢١٥.

(٣) المقصد في شرح التكملة: ط ١٩١١، وينظر: المفتاح في الصرف: ٤٩.

(٤) المقصد في شرح التكملة: ط ١٩١١.

(٥) ينظر: المصدر نفسه: ط ١٩١١.

(٦) ينظر: الصاحبي: ٩٦-٩٧، المزهر: ١/ ٤٠٤، الإقناع في علوم القرآن: ١/ ١٩٥.

(٧) نهاية السؤل في شرح مناهج الأصول: ٢/ ١٠٧.

تبين بدليل قوي أن العربي كان حقاً يفهم من كلمة جلس شيئاً لا يستقيده من كلمة قعد قلناً حينئذ بأنه ليس بينهما ترادف^(١).

ولم يرغب هذا المعنى عن الزمخشري؛ فقال: "فَإِنْ قُلْتَ: أَيُّ فَرْقٍ بَيْنَ مَطَرَ وَأَمْطَرَ؟ قُلْتَ: يُقَالُ: مَطَرْتُهُمُ السَّمَاءُ، وَوَادٍ مَمْطُورٌ.. وَيُقَالُ: أَمْطَرْتُ عَلَيْهِمْ كَذَا بِمَعْنَى أَرْسَلْتُهُ عَلَيْهِمْ إِرْسَالَ الْمَطَرِ"^(٢)، وكأنه فهم أن (مطر) تكون في الخير، و(أمطر) تكون في غيره.

السلب، أي: أن تأتي الهمزة في (أفعل) لسلب معنى الاستبهام وليس لإثباته، وذلك نحو قولك: أعجمت الكتاب، إذا بينته، وأوضحته^(٣)، وقد ذكر الجرجاني هذه الدلالة مصطلحاً عليها بقوله (همزة السلب)، فقال: "فالهمزة التي في أعجمت بمعنى أزلت عجمته، وأشكيت الرجل، أي: أزلت شكايته، تسمى همزة السلب"^(٤)، ومثله: أعتبته، أرضيته.

ولكي تتضح هذه الدلالة فقد ذكر الجرجاني أن هذه الهمزة كما تأتي للدلالة على السلب فإنها تأتي للإثبات أيضاً، نحو: أعجمت الشيء بمعنى أبهمته، وأشكيته بمعنى إثبات الشكاية^(٥)، فهو من الأضداد في اللغة.

التعريض: انفردت صيغة (أفعل) من بين صيغ الفعل الثلاثي المزيد بالدلالة على معنى التعريض، ويراد به: جعل ما كان مفعولاً للثلاثي معرضاً لأن يكون مفعولاً لأصل الحدث، كقولهم: أسقيته بمعنى: وفرت له ما يشربه، أو عرضت له الشراب، ومثله: أقبرته، أي: جعلت له قبراً، وأقتلته، أي: عرضته للقتل^(٦).

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن: ٩٤، درة الغواص في أوهام الخواص: ٨٨، لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة: ١١٥، لحن العامة والتطور اللغوي: ٢١١، الترادف في اللغة: ٢٣٢-٢٣٥.

(٢) الكشف: ٥٥٩/١.

(٣) ينظر: الخصائص: ٧٦/٣، سر صناعة الإعراب: ٤٣/١، المفصل: ٢٨٣، شرح الشافية: ٩١/١.

(٤) المقصد في شرح الإيضاح: ٩٨/١.

(٥) ينظر المقصد في شرح التكملة: ١٩٢.

(٦) ينظر: الكتاب: ٥٩/٤، أدب الكاتب: ٤٤٦، المفصل: ٢٨٣، شرح الشافية: ٨٣/١، أبنية الأفعال دراسة لغوية قرآنية: ٣٥-٣٦، الإعجاز الصرفي: ١٢٢، أوزان الفعل ومعانيها: ٦١.

وقد تتبعت الباحثة مواطن هذه الدلالة في مؤلفات الجرجاني فوجدته قد فصل فيها القول مبيناً أن من دلالات (أفعل) التعريض نحو: أُبِعْتُ^(١). ثم يعرض سؤالاً افتراضياً، فيقول بأنه لو قيل: أُبِعْتُ الفرس، أي: عرضته للبيع، وأقتلته، أي: عرضته للقتل، فإن الهمزة داخلية على فعل المفعول، فكيف تنكر ذلك إن كان ذلك على معنى جعلته مما يباع ومما يقتل؟^(٢)، ثم يذكر الجواب على ذلك، بأن الهمزة الداخلة على هذا الفعل هي ليست همزة النقل للتعدية، وإنما هي همزة نقل بها الفعل من معنى إلى معنى، مبيناً أن التعريض للفعل هو شطر من الفعل، فأقتلت بمنزلة (قَتَلْتُ) كما أن الأمر بالفعل يصير به الأمر فاعلاً كقولك: بنى الأمير القصر، وضرب الدينار^(٣).

ثم يعزو السبب في ذلك ويرجعه إلى ميل العرب إلى التوسع في الألفاظ وتكثير اللغة، وكذلك استخدامهم للمعنى الواحد لفظين وربما أكثر، وهو ما يُعرّف في فقه اللغة بالترادف^(٤)، فقال مفصلاً ذلك: "إلا أنهم على عادة توسّعهم يعبرون عن المعنى الواحد بلفظين، اعتباراً لاختلاف الحال والموضع، فينزلون الشيء الواحد إذا وقع على حدين منزلة الشيئين كقولهم: لطمت للضرب إذا كان على الخد وباليد^(٥).. فكذاك فرقوا بين قصد الفعل تعريضاً وبينه تصريحاً"^(٦).

(١) ينظر: المفتاح في الصرف: ٤٩.

(٢) ينظر المقتصد في شرح الإيضاح: ٣٨٤-٣٨٥ / ١.

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ٣٨٥ / ١.

(٤) ينظر تعريفه في: ما اتفق لفظه واختلف معناه: ٢-٣، مقدمة كتاب البئر لابن الأعرابي: ٥، أخبار الزجاجي: ١٤٦، المرصع: ٣٥٢، الإحكام في أصول الأحكام: ٣٠-٣١، المستقصى من علم الأصول: ٣١-٣٢، إرشاد الفحول: ١٨-١٩، رسائل البلغاء: ٣٨٥، علم الأدب في علم الإنشاء والعروض: ٢٦.

(٥) فإنهم ينقلون المعنى الواحد من اسم إلى اسم ولفظ إلى لفظ لاختلاف الحال به وزيادة لغة فيه كقولهم: الضرب، للفعل المعلوم، ثم اللطم، لهذا الفعل بعينه إذا كان على الخد، وينظر: المقتصد في شرح الإيضاح: ١٠١ / ١.

(٦) المقتصد في شرح الإيضاح: ٣٨٥ / ١.

فهم ينزلون الاسم الواحد الذي يقع على حدين منزلة الشئيين، فهذا تقريقر بينهما في الدلالة على نحو ما ذكر في جَلَسَ وَقَعَدَ، ثم يحمل ذلك قياساً على الفعل إذا قُصِدَ به التعريض أو أُريد به التصريح.

٢- صيغة (فَعَلَّ):

وقد جاءت هذه الصيغة عند الجرجاني والزمخشري للدلالة على عدد من المعاني، منها:

التعدية، ومعناها: نقل غير المتعدي إلى المتعدي، فصيغة (فَعَلَّ) تشارك (أَفْعَلَ) في الدلالة على التعدية، وذلك نحو قولك: فَرَحَ وفَرَحَتْهُ وأَفْرَحَتْهُ، وَخَرَجَ وأَخْرَجَتْهُ^(١)، وقد حظيت هذه الدلالة باهتمام كبير في مؤلفات الجرجاني المتعددة بصور مختلفة فمنها ما ذكر له أمثلة، وأخرى بذكر أمثلة يردفها بالتعليل والتفسير.

فمن الأول، قوله: إن (فَعَلَّ) يكون للتعدية نحو: فَرَحَ وفَرَحَتْهُ، وهو كثير^(٢).

ومن الثاني: تفسيره لكيفية دلالة هذه الصيغة على التعدية، فبيّن أن من أسباب تعدية الفعل هو التضعيف، ففي قولك: فرح زيد وفرحته، فهذا بمنزلة الهمزة التي للتعدية لفظاً ومعنى، لأن فرح كان غير نافذ إلى مفعول به فلما ضعفت العين تعدى ونصب فقلت: فرحت زيداً، كما قلت: أذهبت زيداً^(٣)، فإننا لا نذكر صيغة من الصيغ والزيادة فيها إلا ونجم عن هذه الزيادات معانٍ جديدة لم تكن موجودة قبلها.

(١) ينظر: الكتاب: ٥٥ / ٤، ديوان الأدب: ٢ / ٣٨٠، التكملة: ٥١٧، شرح التصريف العربي: ٧٣، المفصل: ٢٨٣، الممتع: ١ / ١٨٩، أوزان الفعل ومعانيها: ٧٨، دروس التصريف: ٧٣، دروس في علم الصرف: ٦٤.
(٢) ينظر: المقتصد في شرح التكملة: ١٩٢، المفتاح في الصرف: ٤٩.
(٣) ينظر: المقتصد في شرح الإيضاح: ١ / ٣٤٧، ٥٩٥.

التكثير والمبالغة: وذلك أن (فَعَلْتُ) تدخل على (فَعَلْتُ) إذا أردنا

كثرة العمل، فعند تكرير عين الفعل تحصل على تكرير الفعل أو الشدة فيه نحو: كسرتَه، وقطعته، وفتحت الأبواب^(١)، ومنه قوله تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾^(٢)، وقد تصور أبو زيد أن هذا الوزن لا يرد إلا لهذا المعنى، لأنها الدلالة الغالبة عليه، وذلك أنك لا تقول: غَلَقْتُ إلا على أن تكون قد أكثرت إغلاقه^(٣).

لكنَّ الجرجاني تناول هذه الدلالة بإدراك تام لطبيعة هذا التشديد في الصيغة حيث ربط هذا المعنى بالغالب الذي انتزعه من ملاحظاته واستقرائه لكثرة ورودها عن العرب في كلامهم، فيفهم من كلامه أن (فَعَلَ) بابه التكثير، وكأنَّ هذه الدلالة قد اقتصرَت على هذه الصيغة، لأنها الدلالة الغالبة عليها، فقال: أما (فَعَلَ) فبابه التكثير، نحو: قطع - قَطَعَ، وقتل - قَتَلَ، وكذلك نحو: غلقت وجولت، وطوقت، فهو للتكثير غالباً^(٤)، ليدل بذلك على كثرة الأسماء أو كثرة الفعل^(٥)؛ وذلك أن التضعيف يفيد استغراق وقت أطول من (قَطَعَ) فمن مقتضيات التكثير والمبالغة في الحدث استغراق وقت أطول كما أنه يفيد في (فعل) تلبثاً ومكثاً^(٦)، وليس التضعيف فقط يفيد استغراق وقت أطول وإنما كل ما زيد على البناء يحتاج إلى وقت أطول.

(١) ينظر: الكتاب: ٤/ ٦٤، المقضب: ١/ ٣٥٧، ديوان الأدب: ٣/ ٣٨١، التكملة: ٥١٨، المنصف: ١/ ٩١، الصاحبى: ٣٦٩، أدب الكاتب: ٣٥٤، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: ١/ ٢١٢، بحوث ومقالات في اللغة: ٢٠.

(٢) القمر: ١٢.

(٣) ينظر: النوادر في اللغة: ٢٠٢.

(٤) ينظر: المقتصد في شرح التكملة: ١٩٢، المفتاح في الصرف: ٤٩.

(٥) ينظر: المفصل: ٢٨٣، شرح الشافية: ١/ ٩٢، الدر المصون: ٤/ ١٦٧، أبنية الفعل ودلالاتها وعلاقاتها: ٢٦.

(٦) ينظر: بلاغة الكلمة في التعبير القرآني: ٦٢، الدلالة الصوتية في القرآن الكريم: ٧٥.

ثم يلتفت إلى مسألة في غاية الأهمية، وهي أن (فَعَلَ) المخفف قد يأتي مراداً به التكرير دون (فَعَّلَ) المضعف، واستشهد لذلك بقول الشاعر:

فقتلاً بتقتيل، وضرباً بضربكم ** جراء العطاس، لا ينام من علة

وعزا السبب في ذلك بقوله: إن الأمر سهل وذلك "لأن لفظ الفعل مبهم يصلح للجنس كله، ألا تراك تقول: قتل الخلق، فتعم الأفعال كلها"^(١).

غير أنه أكد أن التضعيف في الصيغة يراد به تقوية الفعل، والتقوية هي ملمح دلالي تناوله الجرجاني، فكان الفعل المجرد يحتاج إلى من يُقوِّيه فقامت الزيادة بهذه المهمة، وشرط دلالة التكرير لا على الصيغة، وإنما ربطها بالحال الذي يدل عليها^(٢).

ثم يعرج الجرجاني ليوضح العلاقة بين دلالة (فَعَّلَ) على التكرير ودلالاتها على التعدية، وقد دار كلامه في هذه المسألة على محورين اثنين هما:

الأول: أن ما يفيد التكرير لم يفد التعدية؛ فـ(قطع) وإن كان متعدياً غير أنه لم يفد إلا التكرير^(٣)، وأن ما يفيد التعدية لم يفد التكرير؛ فـ(فرحت) قد جاء للتعدية لا للتكرير^(٤).

الثاني: العلاقة بين صيغة (فَعَّلَ) وصيغة (أَفْعَلَ) حيث إن الصيغة الأولى هي أقوى وأشد مبالغة في الدلالة من الصيغة الثانية^(٥)، وهو هنا يعطي قيمة وشحنة دلالية للصوت المزيد.

^(١) المقتصد في شرح التكملة: ١٩٢.

^(٢) ينظر: المصدر نفسه: ١٩٢.

^(٣) ينظر: المصدر نفسه: ١٩٢.

^(٤) ينظر: المقتصد في شرح التكملة: ١٩٢.

^(٥) ينظر: المصدر نفسه: ١٩٢.

ثم بين أن الحكمة في جعل تكرير حرف من نفس الكلمة علماً للتكرير "أن الفعل كما دخله القوة في نفسه من جهة المعنى، والتكرار فيه وجد ولم يكن في غيره، كذلك يجب أن يقع التكرير في لفظه ولو أتى بزيادة أخرى لم يكن قد روعي مشاكلة المعنى للفظ في التكرير"^(١)، ليخرج من ذلك بأنهم قد فعلوا ذلك في الاسم نحو: قتال، وضراب، بأن ذلك أوسع مما لا يكون فيه تكرير بعض حروف التركيب علم للتكرير نحو: مفعال، ومفعيل^(٢).

الدلالة على النسبة، أي: نسبة المفعول إلى صفة من الصفات قد حدثت، فقد قالوا: فسقته وزنيته، أي: استقبلته بالزناء والفسق^(٣)، وقد أضاف الجرجاني على ذلك بأن "سقيته وحييته، أي: استقبلته بالتحية، وقلت: حياك الله، وفسقته: تلقيته بالفسق، وكذا كفرته، وهو عائد إلى التعدية من حيث إنك إذا قلت: فسقته فالمعنى أثبت الفسق له، وصيرته فاسقا"^(٤)، كما أنه لم يقتصر على ذكر الأمثلة وتعدادها وإنما يمضي إلى شرح سبب هذه العلاقة بين الداليتين، بأنك وإن لم تحدث فسقة ولم تحمله عليه على نحو ما تجده في (أذهبت) من حملك له على الذهاب فإنك في الحكم قد أحدثت فسقه من حيث كان مجهولاً غير متقرر، فعندما قررت وأثبتت فيه الصفة، صرت كأنك أحدثت فيه شيئاً لم يكن^(٥).

الدعاء، أي: أن صيغة (فعل) تأتي للدعاء، إما له أو عليه، فبركته دعوت له بالبركة، وعقرته دعوت عليه بالعقر، أي: الهلاك، وسقيته: قلت له: سقياً لك^(٦).

(١) ينظر: المصدر نفسه: ط ١٩٢.

(٢) ينظر المصدر نفسه: ط ١٩٢.

(٣) ينظر: الكتاب ٤/ ٥٨، ديوان الأدب: ٣٨١/ ٢، التكملة: ٥١٧، الصاحبي: ٣٦٩، فقه اللغة للعلبي: ٥٥٠، أدب الكاتب: ٤٩٠، ٤٨٩، شرح الشافية: ١/ ١٠٤، شرح التصريف العربي: ٧٣، تصريف الفعل: ٦٩.

(٤) المقصد في شرح التكملة: ط ١٩٢.

(٥) ينظر: المصدر نفسه: ط ١٩٢.

(٦) ينظر: الكتاب ٤/ ٨٥، التكملة: ٢١٦، الصاحبي: ٣٦٩، الممتع ١/ ١٨٧، شرح البناء/ ١٣، أوزان الفعل ومعانيها: ٨٢.

أما الجرجاني فقد ذكر أن هذا يكون عنده للتعدي، ولما أردت المبالغة على قوة الرجاء بالله جعلتها للدعاء، وفصل ذلك بقوله: "وأما نحو: حييته، أي: استقبلته بالتحية، فهو عندي في التحقيق للتعدي، وذلك أن الدعاء لما كان يثبت التحية وأريد المبالغة والدلالة على قوة الرجاء وحسن الظن بالله - عزت قدرته ووسعت رحمته - فعل ذلك، كأنه قد حصل من الداعي من حيث كان سببه، فقيل: حييتك كقولك: أطلت عمرك"^(١).

ولكي تكتمل هذه الدلالة وضوحاً فقد عرج ليبين الفرق بين دلالة قولنا: أطال الله بقاءك، ومعناها للدعاء، بأنها قد خرجت مخرج الخبر، أي: أن الله قد أطال بقاءك على الحقيقة، وبين قولك، حييته إذ يقول فيه: "كذلك يجيء حييته، والمعنى قلت له: حياك الله، وأسأل الله أن يحييك وكذا سقيته، كأنه إذا دعا له بالسقيا جعل ذلك مثبّثاً له من جهة نفسه إغراقاً ومبالغة"^(٢).

السلب: ومن أوضح إشارات القدامى إلى مجيء بناء (فعل) للدلالة على السلب هي إشارة الخليل بن أحمد في تعليقه على قول أوس بن حجر:

لدى كل أخنود يغادرن دارعا * * * يجر كما جر الفصيل المقرع

إذ يقول: "وهذا على السلب، لأنه ينزع قرعه بذلك، كما يقال: قذبت العين، أي: نزعت قذاها، قردت البعير"^(٣)، ومنه قولهم: مرضت الرجل، أي: داويته ليزول مرضه^(٤).

والجرجاني قد ناقش هذه الدلالة التي خرجت إليها صيغة (فعل) وذكر عليه بعض الأمثلة، مفسراً كل لفظة ومبيناً معناها، فيقول: "أن تكون

(١) المقصد في شرح التكملة: ١٩٣.

(٢) المصدر نفسه: ١٩٣.

(٣) العين: ١٥٥/١، وينظر: الكتاب: ٦٢/٤، المفصل: ٢٨٣، الممتع: ٨٩/١.

(٤) ينظر: الخصائص: ٧٥/٣، ٨٠، سر صناعة الإعراب: ٤٤/١، التنبيه على شرح مشكلات الحماسة: ١٣٦-١٣٧.

للتعديّة على معنى السلب كقولك، مَرَضَ الرجل ومرَضْتُهُ، أي: عالجتَه وأزلت مرضه، وقذيت العين تقذية إذا أخرجت منها القذى.. وقالوا: جلدت البعير بمعنى نزعته جلده، وقربته بمعنى نزعته القراد منه^(١).

وذكر أيضًا أن مما يأتي ضمن هذه المسألة قولهم: عذبتَه بمعنى السلب والإثبات، وهو ما يمكن أن يدخل في باب الأضداد، فقال: "ومن هذا عندي قولهم: عذبتَه، كأنه سلبته عذوبة العيش، وأزلتها، وإن شئت جعلته للإثبات، وجعلت العذاب جنسا برأسه غير مشتق"^(٢).

وهو لا يكتفي بهذه النماذج، وإنما يعرج إلى موازنة الصيغ وما ينجم عنها من دلالات فيرى أن (فعلت) قد يأتي على الضد من دلالة (أفعل) فإن كان (قذبت) بمعنى إزالة القذى، فإن (أقذيت) بمعنى ألقيت فيها القذى، وهذا مما جاء (فعلت) فيه بمعنى لم يرد في (أفعل)^(٣)، وهو إذ يذكر كل هذا فإنه لا ينسى العلل في توجيه هذه الصيغ؛ فذكر أن السبب في عدم استمرار اشتراكهما على نحو ما رأينا في أفرحته وفرحته هو "لأجل أنه لا يجب أن يعدى كل فعل بثلاثة أشياء، وإنما الذي يحتاج إليه أن يعدى مرة فما فوق ذلك استكثارًا من اللفظ ولا يستمر كون اللفظيين لمعنى في كل شيء"^(٤)، فإنك لو قلت: أفرحته وفرحته، كانك تقول، جلس وقعد، أما قذيت وأقذيت فهو كقعد وخرج لما بينهما من اختلاف الدلالة^(٥) على نحو ما رأينا.

استواء الدلالة بين فَعَلَ وأفْعَلَ: صيغة (فَعَلَ) قد تفيد معنى (أفعل)^(٦)، يقول الجرجاني: "يكون مجيء أسقيته بمعنى سقيته، لأجل أن المعنى على

(١) المقصد في شرح التكملة: ط ١٩٣، وينظر: المفتاح في الصرف: ٤٩.

(٢) المقصد في شرح التكملة: ط ١٩٣.

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ط ١٩٣.

(٤) المصدر نفسه: ط ١٩٣.

(٥) ينظر: المصدر نفسه: ط ١٩٣.

(٦) الكتاب ٤/ ٦٢، ديوان الأدب: ٣٣٨/ ٢، البيان في غريب القرآن: ١/ ١٢٤، المفصل: ٢٨٣، دروس التصريف: ٦٦، دروس في علم الصرف: ١٧-١٨٧.

التعديّة من سقى يسقى، فكأنه قيل: سقيته على الحقيقة^(١)، ولم يقف عند هذا الحد وإنما علق عليه وذكر علله، وذلك أن العلة الصرفية نجدها في أغلب نصوصه ليوضح بها ما يذكره، فيرد على من يظن أن ذلك يكون في الجميع نحو: أفسقته وأزنيته فيقول بأن من يظن ذلك فقد وقع بالوهم؛ وذلك أن هذا المثال (سقى) إنما ورد على هذا المعنى لتوسع مختص بهذا المثال^(٢)، حتى إذا ما قارب على شرح مادته نراه يستدرك عليها بضابط يقيد فيه فيقول: وهذا ليس في كل موضع يجيء فيه فعلته مشاركاً أفعلته، وضرب مثالا على ذلك بأنك تقول: قومت الرمح، وهو من قام يقوم ولا تقول: قومت زيدا، بمعنى جعلته قائما، وإن كنت تقول: أقمته^(٣).

فَعَلَ بِمَعْنَى فَعَّلَ، أي: أن التضعيف فيها لم يفد شيئا كما لم تفد الهمزة في قلته وأقلته^(٤)، يقول الجرجاني بأن هذه الصيغة قد تشترك في دلالتها مع (فعل) المجرد، فهو لم ينظر إلى الصيغة وحدها، وإنما استعان بالسياق وإيحاءاته فقال: "أن يكون بمعنى فَعَّلْتُ، كقولهم: عَاضَهُ وَعَوَّضَهُ، وماز الشيء وميّزه، وزال الشيء يزيله وزيله.. فعوضت ليس يفيد التعديّة بتضعيفه"^(٥)، فدلالته بمنزلة ما كان مجردا من التضعيف.

٣) صيغة فاعل:

ومن الدلالات التي جاءت فيما زاد ألف فيه بين الفاء والعين:

المشاركة، ويعني بها الدلالة على التشارك بين اثنين فصاعداً، فإذا قلت، فاعلته فقد كان من غيرك إليك مثل ما كان إليه حين قلت: فاعلته،

(١) المقصد في شرح التكملة: ١٩٣.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ١٩٣.

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ١٩٣.

(٤) ينظر: إصلاح المنطق: ١٤٥، الصاحبى: ٣٦٩.

(٥) المقصد في شرح التكملة: ظ ١٩٣، وينظر: المفاتيح في الصرف: ٤٩، والمفصل: ٢٨٣.

ومثل ذلك نحو: ضاربته وخاصمته وكارمته وفارقتة^(١)، وقد وقف الجرجاني عند هذا المعنى موضحا ومعللا، يقول: "وأما فاعل لنسبة أصله إلى أحد الأمرين متعلقا بالآخر للمشاركة صريحا، فيجيء العكس ضمنا نحو: ضاربته، وشاركتة"^(٢)، فهو يقتضي فاعلين يكون أحدهما منصوبا في اللفظ والآخر مرفوعا نحو قولك: قاتلت زيدا وضاربته، فلما كان كل واحد منها فاعلا رفعوا أحدهما ونصبوا الآخر، وهذا من الأفعال التي يجوز فيها جعل أي واحد شئت من الشيئين فاعلا، والآخر مفعولا^(٣)، وفي هذا تأكيد منه على الصلة الوثيقة بين علم النحو وعلم الصرف فكل منهما يكمل الآخر ومفتاح لمعرفة أحدهما بالآخر.

التعديّة، تأتي (فاعل) لتتعدى بالفعل اللازم إلى المفعول المغاير للفاعل والمخالف لجنسه، يقول الجرجاني: "ومن ثم جاء غير المعتدي متعديا نحو: كارمته، وشاعرتة، والمتعدي إلى واحد مغايرا للمفاعل إلى اثنين نحو: جاذبته الثوب، بخلاف شاتمته"^(٤)، أي: أن يكون الفعل اللازم في (فاعل) متعديا إلى واحد، والمتعدي إلى واحد غير مشارك متعديا إلى اثنين^(٥)، أي: الفعل (كرم) مثلا اللازم قد تعدى إلى المفعول عند وضعه على صيغة (فاعل)، أما جذب المتعدي إلى مفعول، فقد تعدى إلى مفعول آخر غير أنه مغاير للأول ومختلف عنه فتقول: جاذبته الثوب.

(١) ينظر: الكتاب: ٦٨/٤، إصلاح المنطق: ١٤٤، المقتضب: ٧٢/١، ديوان الأدب: ٣٩٣/٢، التكملة: ٢١٦، المنصف: ٩٢/١، الصاحبي: ٣٦٩، المفصل: ٢٨٣، البيان في غريب إعراب القرآن: ٨٢/١، أدب الكاتب: ٣٥٧، شرح الشافية: ٩٦/١، أوزان الفعل ومعانيها: ٨٤.

(٢) المفتاح في الصرف: ٤٩.

(٣) ينظر: المقتصد في شرح التكملة: ١٩٣.

(٤) المفتاح في الصرف: ٤٩، وينظر: المفصل: ٢٨٣.

(٥) ينظر: شرح الشافية: ٩٦/١، أبنية الفعل دلالاتها وعلاقتها: ٣٤.

فاعل بمعنى فَعَلَ: جاء في كتاب سيبويه أنه "كما قالوا: جزته وجاوزته، وهو يريد شيئاً واحداً"^(١)، وتابعة الجرجاني والزمخشري في دلالة فاعل على فَعَلَ المجرد من الزيادة، ولكنهما ذكرا أمثلة غير ما ذكرها سيبويه، نحو: سافرت^(٢)، بمعنى سفر، ولابد في سافرت من المبالغة^(٣)، فكل زيادة في المبنى هي زيادة في المعنى ومبالغة فيه.

فاعل بمعنى فَعَلَ^(٤): يؤكد الجرجاني والزمخشري هنا دلالة هذه الزيادة الصرفية كما هي الحال في التضعيف فيقرنان الصيغتين لتعمق الإيحاء الدلالي لهما فذكرًا أن فاعل يأتي "بمعنى فَعَلَ، نحو: ضاعفت"^(٥)، بمعنى ضَعَّفت، أي: أن فاعلت وفعلت قد جاءتا بمعنى واحد فقد قالوا: ضَعَّفت وضاعفت، وبعَدَت وباعدت، ونَعَّمت وناعمت، كما يقول: امرأة منعمة ومناعمة^(٦).

فاعل بمعنى أَفْعَلَ، حيث تجيء فاعلت لا يراد بها عمل اثنين ولكنهم بنوا عليه الفعل كما بنوه على أفعلت نحو: عافاه الله، وعاقبت اللص وطارقت نعلي^(٧)، وقد ذكر الجرجاني والزمخشري هذه الدلالة، ويتقدم الجرجاني خطوة ليُقيِّمَ وزنا للصواب في استعمال الصيغة فيقول: وليس أطرقتُ بفصيح مفصلاً القول في ذلك^(٨)، وهو إذ يكثر من أمثلة هذا الباب إنما يؤكد حقيقة الدلالة عندما تستوي بين الصيغتين، وذلك نحو قوله: داينت الرجل: إذا أعطيته الدين، بمعنى أدنته، وشارفت بمعنى أشرفت، وباعدته بمعنى أبعدته، وعاليت وأعليت^(٩).

(١) الكتاب ٧٢/٤، وينظر: ديوان الأدب: ٣٩٩/٢، المفصل: ٢٨٣، شرح الشافية: ١٩٩/١.

(٢) ينظر: المقتصد في شرح التكملة: ظ ١٩٣، المفتاح في الصرف: ٤٩، المفصل: ٢٨٣.

(٣) ينظر: شرح الشافية: ١٩٩/١، أبنية الفعل ودلالاتها: ٤٩.

(٤) ينظر: الكتاب ٦٨/٤، ديوان الأدب: ٣٤٩/٢، شرح المفصل: ١٥٩/٧، شرح الشافية: ٩٩/١، دروس التصريف: ٧٥.

(٥) المفتاح في الصرف: ٤٩، وينظر: المفصل: ٢٨٣.

(٦) ينظر: أدب الكاتب: ٤٩٣، الكشف: ٦٠٨/١، أبنية الفعل ودلالاتها: ٨٧.

(٧) ينظر: الكتاب ٦٨/٤، إصلاح المنطق: ١٤٤، المقضب: ٧٣/١، ١٠٠/٢، التكملة: ٥١٨، أدب الكاتب: ٣٥٧.

(٨) ينظر: المقتصد في شرح التكملة: ظ ١٩٣، والمفصل: ٢٨٣.

(٩) ينظر: أدب الكاتب: ٤٩٢-٤٩٣، أبنية الفعل ودلالاتها وعلاقاتها: ٨٥.

المحور الثاني

دلالة الزوائد اللاحقة لبنات الثلاثية

من غير أن تكون على وزن بنات الأربعة

لقد قسم الجرجاني هذه الأمثلة اللاحقة أوائلها همزة الوصل إلى قسمين^(١):

الأول: المزيدة بحرفين، وهي: انفعَل، وافتعَل، وافعلَّ.

الثاني: المزيدة بثلاثة أحرف، وهي: استفعَل، وافعلَّ، وافعوَعَل

وافعلول، وافعنل وافعنلى.

وتفصيل القول في كل صيغة هو على النحو الآتي:

(١) انْفَعَلَ - مطاوعة (انفعَل) - (فَعَلَ): تأتي (انفعَل) لمعنى واحد

هو المطاوعة، والمطاوعة أن تريد من الشيء أمرًا ما، فتبلغه إما بأن يفعل ما تريده إذا كان مما يصح منه الفعل، وإما أن يصير إلى مثل حال الفاعل الذي يصح منه الفعل، وإن كان مما لا يصح منه الفعل، أو هي قبول الأثر وذلك يظهر للعيون كالكسر والقطع والجنب^(٢)، وقد عقد سيبويه له بابًا منفردًا أسماه "باب ما طاعه الذي فعله على (فَعَلَ)، وهو يكون على (انْفَعَلَ) و(افْتَعَلَ) وذلك قولك، كسرتة فانكسر، وحطمتة فانحطم وحسرتة فانحسر، وشويتة فانشوى، وبعضهم يقول: فاشتوى"^(٣).

وقد وضع الجرجاني اصطلاحًا محددًا للمطاوعة فذكر أن "معنى

المطاوع له أنه قَبِلَ الفعلَ ولم يمتنع، ولا يكون إلا حيث يتصور علاج وتأثير

(١) ينظر: المقتصد في شرح التكملة: ١٨٦-٢٠٠.

(٢) ينظر: المنصف: ٧١/١، المفصل: ٢٨١، شرح الشافية: ١/١٠٨، أوزان الفعل ومعانيها: ٨٧، الإعجاز الصرفي: ١٢٩، أبنية الفعل ودلالاتها وعلاقاتها: ٤٣، دروس التصريف: ٧٦.

(٣) الكتاب: ٤/٦٥، وينظر: المقتضب: ٧٦/١، ديوان الأدب: ٢/٤٢٧، التكملة: ٥١٨.

نحو: كسرتَه وقطعته، وكذا قَسَتَه فانقاس، لأنه بمنزلة أجرِيته فجرى^(١)، ولكي تكتمل الدلالة الاصطلاحية للمطاوعة في (انفعل) فقد عرج ليبين أن لـ(انفعل) بابًا واحدًا وضعته العرب في كلامها، وهو أن يكون مطاوعَ (فَعَلَ) ممثلًا لذلك بقولهم: كسرتَه فانكسر^(٢).

(٢) (انْفَعَلَ) - مطاوعة (انفعل) لـ(أَفْعَلَ): يقول صاحب الكتاب بأن انْفَعَلَ قد يكون "ليس مما طاع فَعَلْتُ"^(٣)، وذلك نحو (انطلق) فهي لا يقال فيها (طَلَّقْتُه فانْطَلَقَ)، فهي بمنزلة ذهب ومضى^(٤)، أما الجرجاني فقد كانت له وقفه ورأي في هذه المسألة قد يكون مخالفًا فيه لسيبويه، فبين أن (انفعل) قد يأتي مطاوعًا لصيغة (أَفْعَلَ) غير أنه قد التزم في رأيه هذا فربط هذا بالغالب الذي انتزعه واستقرأه من ملاحظاته وكثرة ورودها عن العرب في كلامها واطرادها في لغتهم، فبين أن ذلك يحدث قليلًا وليس باطراد فقال: "وجاز نحو: أزعجته فانزعج قليلًا"^(٥)، كما قالوا: "أقلته فانقال لأن المعنى أجرِيت به لساني فجرى، وأخرجته من في مخرج"^(٦).

وكما عودنا الجرجاني فهو لم يترك هذه المسألة دون تحليل وتعليل وشرح مردفاً ذلك بضربه لعدد من الأمثلة التي توضح ما ذهب إليه، فبين أن السبب في قلة مجيء (انْفَعَلَ) من غير اللزوم، وأنه إذا ما جاء "انفعل" مع (أَفْعَلَ) فهو على سبيل النيابة لفصل القول في ذلك بأنه، "إذا جاء (انْفَعَلَ) مع (أَفْعَلَ) فعلى سبيل النيابة، وذلك قولك: أطلقته فانطلق، وأزعجته فانزعج،

(١) المقصد في شرح التكملة: ط ١٩٤، وينظر: المفتاح في الصرف: ٥٠.

(٢) ينظر: المقصد في شرح التكملة: ط ١٩٤.

(٣) الكتاب: ٧٦ / ٤.

(٤) ينظر: الكتاب: ٧٧ / ٤، ديوان الأدب: ٢ / ٤٢٨، التسهيل: ٢٠٠، شرح الشافية: ١ / ١٠٨، أبنية الفعل ودلالاتها وعلاقاتها: ٤٤، دروس التصريف: ٧٦.

(٥) المقصد في شرح التكملة: ط ١٩٥.

(٦) المصدر نفسه: ط ١٩٥.

أقاموا: أطلقت وأزعت مقام، طلقته وزعجته، كما أقاموا (ترك) مقام (ودع)^(١).

ثم يعزو السبب في ذلك بأن موضوع (انفعل) هو أن يكون مطاوع (فعل) لا (أفعل) وذلك لأن (أفعل) منقول بالهمزة للتعدي أما (انفعل) فاعلم بأنه لا يكون متعديا قط، وإنما هو للمطاوعة فقط فهو بمنزلة بناء الفعل للمفعول به، فالمفعول فيه يصير فاعلا، ألا ترى أنك تقول: انكسر القلم، فهو مرفوع بعد أن كان منصوبا في قولك: كسرت القلم^(٢).

وقد وافق الزمخشري الجرجاني في عدم مخالفة مَنْ سَبَقَهُمَا في عدم مطاوعة (انفعل) لـ (أفعل) غير أنهما ذكرا أن ذلك يحدث قليلا وليس على القياس المطرد^(٣).

(٣) أَفْعَلٌ: للدلالة على الألوان والعيوب، نحو: احمرت، وأبيضضت، وهو إذا لم يدغم بزنة (انفعلت، وافتعلت) في أنه لا يتعدى إلى مفعول به كما لم يتعد انفعلت^(٤)، وقد وقف الجرجاني عند دلالة هذه الصيغة، فبين أنها تأتي للدلالة على الألوان والعيوب نحو: احمرت وأبيضضت، وهو لا يكون متعديا أبدا كما رأينا في (انفعل)^(٥) التي لا تأتي إلا للمطاوعة.

وقد فسر الجرجاني ما قصده أبو علي بقوله: وهو إذا لم يدغم بزنة انفعلت وافتلعت فقال بأن هذا "يعني به أن أسود وأبيض، لا يكون على وزن (انفعل) للإدغام، فإذا فك.. صار على مثاله نحو: ابيضضت، وهو في

(١) المقتصد في شرح التكملة: ط ١٩٥.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ط ١٩٥.

(٣) ينظر: المفصل: ٢٨٣.

(٤) ينظر: التكملة: ٥٢٠، المنصف: ٨٠-٨١.

(٥) ينظر: المقتصد في شرح التكملة: و ١٩٧.

الأصل مثله، ألا ترى أنك إذا قلت، اببيض، كان مثل انفعّل، سواء، ومما جاء فيه (افعل) قولهم: ازور بمعنى مال، وكذا ارعوى الأصل: ارعوى^(١)؛ وذلك أن الأصل في ارعوى، أن يكون من باب احمر واشهب، إلا أن الإدغام لم يلحقه لانقلاب حرف اللين ألفاً للفتحة التي قبله^(٢).

(٤) افْتَعَلَ: من المعاني التي تناولها الجرجاني والزمخشري في هذه الصيغة:

المطاوعة، ويأتي هذا الوزن لمعنى المطاوعة غالباً، أي: أنه يكون قائماً مقام (انفعل) مطاوع (فعل) نحو: جمعته فاجتمع، مزجته فامتزج^(٣)، وغمّمته فاغتم^(٤)، ثم نبه الجرجاني إلى قيام صيغة أخرى فذكر أن صيغة (افتعل) تقوم مقام (انفعل) فجسد قوله هذا على اتجاهين وضرب أمثلة لكل اتجاه منهما:

الأول: أن يكون مصاحباً له نحو: غمم واغتم، وانغم، واشتوى، وانشوى^(٥)، واستتر وانستر.

الثاني: أن يقوم مقام (انفعل) وينوب عنه نيابة لازمة كقولك: طردته فاطرد، ولا يقال: انطرد^(٦).

وهو بقوله هذا يخالف سيبويه، فيما ذكره من أن العرب تقول: في طردته فذهب، أي: انهم يستغنون عن لفظه بلفظ غيره إذا كان يحمل نفس

(١) المصدر نفسه: ١٩٧.

(٢) ينظر: الاستدراك على سيبويه: ٣٩، المنصف: ٢/ ٢٠٧، الأبنية الصرفية: ٣٢٨.

(٣) ينظر: التكملة: ٢١٧، المنصف: ٧٣/ ١، المفصل: ٢٨٣، شرح الشافعية: ١/ ١٠٨، الممتع: ١/ ١٩٢، نزهة الطرف: ١٥٠، أبنية الفعل ودلالاتها: ٤٤-٤٥.

(٤) ينظر: المفتاح في الصرف: ٥٠.

(٥) ينظر: الكتاب: ٤/ ٦٥، المقضب: ٢/ ١٠٤، ويقول ابن قتيبة: "وقال غيره: لا يقال: اشتوى لأن المشتوى هو الشاري، واشتوى فعله"، أدب الكاتب: ٢٨٥، والمفصل: ٢٨٤، وقال الرضي: إنه يقال: غمّمه فاغتم، ولا تقول: فانغم، ينظر: شرح الشافعية: ١/ ١٠٨، أبنية الفعل ودلالاتها: ٩٢-٩٣.

(٦) ينظر: المقصد في شرح التكملة: ١٩٦.

معناه، وأنهم لا يقولون طردته فانطرد، ولا فاطرد^(١)، أما الجرجاني كما رأينا فقد ذهب إلى أن مطاوع طردته فاطرد، ولا يقولون: انطرد، فذهب إلى استعمال (اطرد) دون (انطرد) خلافاً لسيبويه الذي ذهب إلى أن كليهما لم تستعمله العرب بل يستعملون لفظاً يحمل معناه.

الاتخاذ: تناول الجرجاني والزمخشري دلالة صيغة (افتعل) على الاتخاذ، وضرباً لذلك عدداً من الأمثلة، فذكروا أن معاني افتعل "أن يكون بمعنى اتخذ، كقولك: اذبح القوم، أي: اتخذوا ذبيحة، واصطب الماء، كأنه اتخذها ليصيبه بالاستعمال واشتوى اتخذ شواء"^(٢).

التصرف: أي: أن تفيد معنى الطلب^(٣)، وقد ذكر سيبويه هذا المعنى تحت اصطلاح (التصرف والطلب) فقال: "وأما (كسب) فإنه يقول: أصاب، وأما (اكتسب) فهو: التصرف والطلب"^(٤)، وقد اختار الجرجاني لهذه الدلالة تسمية (التصرف) مستشهداً على ذلك بمثال واحد كما فعل سيبويه، وهو (اكتسب)^(٥). وتبعهما في هذه التسمية ابن الحاجب فجعلها (التصرف) أخذاً منهما^(٦).

أن يجيء للمفاعلة: أي: أن يفيد معنى المشاركة، وذلك أن يكون بمعنى تفاعل فيكون له فاعلان، نحو: اختصم زيد وعمرو، واصطاح الخصمان المعني تخاصماً وتصالحاً^(٧)، وقد ذكر سيبويه أن تفاعل الذي من

(١) ينظر: الكتاب: ٦٦ / ٤.

(٢) المقصد في شرح التكملة: ١٩٦، وينظر: المفصل: ٢٨٤.

(٣) ينظر: الخصائص: ٢٦٤ / ٣، المفصل: ٢٨٤، الممتع: ١٩٣ / ١، شرح الشافية: ١٠٨ / ١، أوزان الفعل ومعانيها: ٩٠.

(٤) الكتاب: ٧٤ / ٤، وينظر: ديوان الأدب: ٤٢٠ / ٢.

(٥) ينظر: المفتاح في الصرف: ٥٠.

(٦) ينظر: شرح الشافية: ١٠٨ / ١.

(٧) ينظر: السابق: ١٠٨-١٠٩، أبنية الفعل ودلالاتها: ٤٥، أوزان الفعل ومعانيها: ٩٠.

اثنين أو أكثر يكون بمعنى (افتعلت) وذلك مثل قولك: تضاربنا بمعنى اضطرربنا وتقاتلنا بمعنى اقتتلنا، وتجاوزنا بمعنى اجتورنا، وتلاقينا بمعنى التقينا، وتخاصمنا بمعنى اختصمنا^(١).

وكذلك فقد نبّه الجرجاني والزمخشري إلى قيام الصيغة مقام أخرى فذكروا أن (افتعل) قد تأتي بمعنى (تفاعل) وضرب لذلك أمثلة نحو قولك: اعتوروا وتعاوروا، واجتوروا وتجاوزوا، وزدوجوا وتزاجوا^(٢)، وقد بيّن الجرجاني أن هذا التعاقب بين الصيغ ليس أصلاً بنفسه فيستمر في كل افتعل هذا^(٣)، فليس كل ما كان على تفاعل يلزم بالضرورة أن يكون بمعنى (افتعل).

أن يكون بمعنى فَعَلَ، فقد وقف الجرجاني عند دلالة (افتعل) على معنى (فعل)، المجرّد: فذكر أنه يكون بمعنى (فعل) برأسه غير مقصور على نوع واحد، كما يجيء سائر الأفعال نحو: فَعَلَ وفَعَلَّ، وهو عائد إلى ما معنى من قيامه مقام (فعل) وضرب مثالا على ذلك بقولهم: استلمت الحجر^(٤)، ثم جمع الجرجاني بين ما قاله سيبويه من أن (اشتد) قام مقام (شد) الذي عليه جاء شديد، وذلك "أن العرب لم يقولوا: فقر، كما لم يقولوا: في الشديد، شدد، استغنوا، باشتد وافقر"^(٥)، وبين ما ذكره أبو علي في كلمة: اشتد مع استلم^(٦)، كما ضرب له أمثلة أخرى للدلالة على قيام (افتعل) مقام (فعل)، وذلك نحو: "ارتفع، وافقر، مقام فقر ورفع"^(٧).

(١) ينظر: الكتاب: ٦٩/٤، المنصف: ٧٥/١، المفصل: ٢٨٤، الممتع: ١٩٣/١، شرح الشافية: ١١٠/١، لسان

العرب ٢٩١/١٤، دروس التصريف: ٧٧، أوزان الفعل ومعانيها: ١٠١.

(٢) ينظر: المقتصد في شرح التكملة: ٢٦٢، المفصل: ٢٨٤، المفتاح في الصرف: ٥٠.

(٣) ينظر: المقتصد في شرح التكملة: ٢٦٢.

(٤) ينظر: المقتصد في شرح التكملة: ١٩٦.

(٥) الكتاب: ٣٣/٤، وينظر: المنصف: ١٦/١.

(٦) ينظر: المقتصد في شرح التكملة: ١٩٧.

(٧) ينظر: السابق: ١٩٧.

(٥) أَفْعَالٌ: وهي تجيء في الأمر العام للدلالة على الألوان^(١)، وذلك قولهم: "أشهابيت، واسوددت، وادهامت، وابياضت، وقد قالوا: املاسّ واضرابّ، وليسا من اللون، وغير ذلك"^(٢)، وقد ذكر الجرجاني أن صيغة (أفعال) هي أصل لصيغة (افعل)؛ فكلا منهما دال على لون أو عيب فقال: "إن أفعاللت هو أصل (أفعللت) نحو: احمرارت وبابه الألوان والعيوب"^(٣)، وذلك أن أفعاللت إنما هي مقصورة من (أفعللت) لطول الكلمة، معناها كمعناها، فليس شيء يقال فيه: (أفعللت) إلا يقال فيه: أفعاللت، إلا أنه قد تقل إحدى اللغتين في الشيء وتكثر في الأخرى^(٤).

(٦) اسْتَفْعَلَ: لهذه الصيغة عدد من المعاني التي تخرج إليها:

السؤال والطلب، فقد ضمن الجرجاني والزمخشري في مؤلفاتهما هذا المعنى الذي خرجت إليه صيغة (استفعل) ففصلاً القول في ذلك، بأن استفعل "يكون لاستدعاء الفعل وطلبه نحو قولك: استنطقه فنطق، واستفتيته فأفتى"^(٥)، فهو يأتي للسؤال غالباً، ويكون تضمنه له إما صريحا، نحو: استكتبته، وإما أن يكون تقديرا نحو: استخرجته^(٦).

التعديّة، وذلك نحو: استحسنّت الشيء واستقبحتّه، ويكون (فعل) منه متعديا، نحو: علم واستعلم، وعصم واستعصم^(٧)، وقد تناول الجرجاني هذا المعنى له ضمنا ولم يصرح بها بكلامه غير أنه عبر عن تلك الدلالة بأنها

(١) ينظر: التكملة: ٥٢٠.

(٢) ينظر: المنصف: ٧٨ / ١.

(٣) المقصد في شرح التكملة: ١٩٧.

(٤) ينظر: المنصف: ٨٠ / ١.

(٥) المقصد في شرح التكملة: ١٥٧، المفصل: ٢٨٤.

(٦) ينظر: المفتاح في الصرف: ٥١.

(٧) ينظر: المنصف: ٧٧ / ١.

توجد فيها معنى المفعولية فقال في العلاقة التي تربط (استفعل) و(أفعل) من جهة التعدي وال لزوم مستدلا على ذلك بالأمثلة، فقال بأن استفعل "هو بمنزلة (أفعلت) في أنه يريد مفعولا، ألا ترى أن (نَطَقَ) لا يتعدى و(استنطقت) يتعدى إلى مفعول ك(أنطق) وإذا عبرت عن كل واحد منهما وجدت معنى المفعولية"^(١). فكلامه هذا يعني أن المفعولية في (استفعل) تدلُّ على التعدية.

الإصابة على صفة (الوجدان)، فنقول: استفجته، أي: أصبته جيدا، واستكرمته، أي: أصبته كريما، واستعظمته، أي: أصبته عظيما، واستسمنته، أي: أصبته سمينا^(٢)، وقد بين الجرجاني والزمخشري أن (استفعل) تكون بمعنى الإصابة أو الوجدان، فهو "يكون بمعنى وجدته كذا، نحو: استعظمته واستحسنته واستضعفته، فهذا أيضا من الأصول، لا طراداه فيه"^(٣)، فهو لم يعبر عنها بالإصابة بل الوجود على شيء، وهو لكثرة اطراده في كلام العرب قد جعله من الأصول التي تكون ثابته في كلامهم.

الانتقال والتحول، أي: أنها تفيد معنى التحول والانتقال من حال إلى حال^(٤)، وذلك نحو: قولك: استنوق الجمل، واستتيست الشاة^(٥)، وقد ذكر الجرجاني والزمخشري أن (استفعل) تدل على الانتقال من شيء إلى شيء أو الخروج من شيء إلى شيء فصلا القول في ذلك وضربا الأمثلة له، يقول الجرجاني: "يكون بمعنى الانتقال من شيء إلى شيء كقولهم: استحجر الطين، واستتيست الشاة، واستنوق الجمل، فهذا معناه الخروج من شيء إلى

(١) المقصد في شرح التكملة: ١٩٧.

(٢) ينظر: الكتاب: ٧٠ / ٤، المنصف: ٧٧ / ١، المفصل: ٢٨٤، أوزان الفعل ومعانيها: ١٠٩، أبنية الفعل ودلالاتها: ٥٠.

(٣) المقصد في شرح التكملة: ١٩٧، وينظر: المفصل: ٢٨٤.

(٤) ينظر: الكتاب: ٧٠ / ٤، المفصل: ٢٨٤، أدب الكاتب: ٣٦٠، شرح الشافية: ١١٠ / ١، أوزان الفعل ومعانيها: ١٠٩، دروس في علم الصرف: ٧٣، أبنية الفعل ودلالاتها: ٤٧-٤٨، دروس التصريف: ٨٢.

(٥) ينظر: الكتاب: ٧٠ / ٤، ديوان الأدب: ٤٣٦ / ٢، المنصف: ٧٨ / ١، الخصائص: ١١٨ / ١، أدب الكاتب: ٣٦٠، الممتع: ١٩٥ / ١.

شيء، نحو: أن يصير الطين حجراً^(١)، ولكي يُقَوَّى هذه الدلالة فقد أُرِدَها بمثال يدل عليه، وهو قولهم: "إن البغاث بأرضنا يستتسر"^(٢)، وبين أنه يدل على معنى التحول.

المطوعة، وقد انفرد الجرجاني بذكر هذه الدلالة التي خرجت إليها (استقل)، فبين أنها قد تكون بمنزلة المطاوع كقولهم: أبهمته فاستبهم، وعلى هذا قولهم: استلقى، جاء على ألقية، ويكون اختصاصه بالهيئة المعلومة دون أن يكون بمنزلة سقط على كل حال من تغير المعنى بتغيير اللفظ كما ذكرنا في (استخرج)^(٣)، كما ذكر عن شيخه أبي الحسين وجهاً آخر، وهو أن (استلقى) يكون من (ألقى)، كأنه يطلب أن يرى وجهه من حيث لا يردي نفسه^(٤).

أن يكون بمعنى (أفعل)، أي: أن يقوم مقامه، وهذا ما ذكره الجرجاني ممثلاً على ذلك بقولهم: أجبته واستجبته، وقولهم: أسرَّ الشيء واستسره، واستشعر الخوف وأشعره، وكذلك: أخرجته واستخرجته^(٥)، أي: أن المعنى في كليهما واحد، ولكنه في صيغة (استقل) يكون أقوى وأشدّ مبالغة؛ وذلك أن كل زيادة في الصيغة هي زيادة في المعنى، وإن كانا بمعنى واحد في الظاهر.

أن يكون بمعنى (فعل) المجرد، وذلك قولهم: قرَّ في مكانه واستقر، وأما علا قرنه واستعلاه فإنه مثل: قرَّ واستقر^(٦)، وقد حكى أبو زيد (استعلى)

(١) المقصد في شرح التكملة: ط ١٩٨، ينظر: المفتاح في الصرف: ٥١، المفصل: ٢٨٤.

(٢) وهو يضرب للضعيف الذي يصير قوياً، ينظر: مجمع الأمثال: ١/ ١٠، المفتاح في الصرف: ٥١.

(٣) المقصد في شرح التكملة: ط ١٩٨.

(٤) ينظر: السابق: ط ١٩٨.

(٥) ينظر: السابق: ط ١٩٧، وأدب الكاتب: ٤٩٧، أبنية الفعل ودلالاتها: ٥١.

(٦) ينظر: الكتاب: ٤/ ٧٠، ديوان الأدب: ٢/ ٤٣٦، المنصف: ١/ ٧٧، أدب الكاتب: ٤٩٧، الممتع: ١/ ١٩٢،

شرح الشافية: ١/ ١١٠، ديوان الهذليين: ١/ ١٥٠، دروس التصريف: ٨٣.

عليه، وقال: إن معنى (يستسخرون) في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾^(١)، أي: يسخرون، كما أن معنى يستهزئون: يهزؤون^(٢).

وقد وقف الجرجاني عند هذه الدلالة وقفاً متفحصاً وبإدراك واضح حيث بيّن قيام (استفعل) مقام (فعل) المجرد فقال: "أن يكون بمعنى (فعل) نحو: يستهزئون ويستسخرون، لأن المعنى: يسخرون ويهزؤون"^(٣).

ثم يفصل القول في كيفية قيام صيغة (استفعل) مقام (فعل) اللازم والمتعدي فمن اللازم قوله: وكذا "قر واستقر، وعلا قرنه واستعلاه، وأما استعلى عليه فعلى المعنى نحو: غلب عليه، وقد يجيء ذلك في علا، ومن ذلك: قام واستقام، ومر واستمر"^(٤).

أما قيام (استفعل) مقام (فعل) المتعدي فقولهم: قلعه واستقلعه، ومثله استأصلته^(٥).

وبإدراك واضح من الجرجاني لما توحىه الصيغ من ملامح دلالية تختلف من صيغة إلى أخرى، قد التفت ليوضح أن الدلالة التي تعطيها صيغة (استفعل) أقوى مما هي عليه في صيغة (فعل) المجرد، وإن كان كل منهما يعطي نفس المعنى، يقول: "ألا ترى أن (استقر واستمر واستعلى) أقوى من (قر ومر وعلا)، كما رأينا في أن (اقتطع) أقوى من (قطع)"^(٦).

وضرب مثالا آخر على ذلك لفظة (استبشر) مستشهدا عليه بقوله تعالى: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَصْلٍ﴾^(٧)، فيبين أن المعنى في يستبشرون أنهم يفرحون به كالمبشر نفسه^(٨).

(١) الصافات: ١٤.

(٢) ينظر: التكملة: ٥٢٠-٥٢١.

(٣) المقصد في شرح التكملة: ط ١٩٧٧.

(٤) المقصد في شرح التكملة: ط ١٩٧٧، وينظر: المفتاح في الصرف: ٥١.

(٥) ينظر: المقصد في شرح التكملة: ط ١٩٧٧، المفتاح: ٥١.

(٦) ينظر: المقصد في شرح التكملة: ١٩٧.

(٧) آل عمران: ١٧١.

(٨) ينظر: المقصد في شرح التكملة: ١٩٧.

أما الزمخشري فكانت إشارته سريعة، ومن خلال أمثله التي ضربها تبين أن (استفعل) قد تكون بمعنى (فعل) اللزوم وقد تكون من المتعدي^(١)، وكان من أمثله على دلالة هذه الصيغة (استفعل) على معنى (فعل) قوله تعالى: ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ وَلَقَدْ زودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاَسْتَعَصَمَ﴾^(٢)؛ حيث يقول: "الاستعصام بناء مبالغة يدل على الامتناع البليغ والتحفظ الشديد، كأنه في عصمة وهو مجتهد في الاستزادة منها، ونحوه: استمسك، واستوسع الفتن، واستجمع الرأي، واستفحل الخطب"^(٣)، لكنه رأى أن الزيادة (الألف، السين، التاء) تفيد معنى زائداً على معنى (عصم)، ومثاله (استياسوا)^(٤).

(٧) افْعَوْعَلْ، وهو الثلاثي المزيد بهمزة وصل وتكرار العين وزيادة واو بين العينين، وتأتي لتفيد الدلالات الآتية:

المبالغة والتوكيد، أي: أنها تفيد معنى المبالغة وزيادة المعنى مما اشتقت منه فقولهم: اعشوشبت الأرض أبلغ من قولهم: أعشبت، وكذا قولهم: اخشوشن أبلغ من خشن، واخشوشن الرجل أشد من قولنا: خشن الرجل؛ ففي هذه الصيغة مبالغة في حدوث الفعل^(٥).

التعديّة، كما تجيء صيغة (افْعَوْعَلْ) لتفيد معنى التعديّة، فقد ذكر الخليل ذلك مصطلحاً على مصطلح (التعديّة) بـ(المجاوز)، فقال: "اعروريت الفرس ولم يجيء (افْعَوْعَلْ) مجاوزاً غير هذا"^(٦)، وقد جاء في الكتاب أيضاً

(١) ينظر: المفصل: ٢٨٥.

(٢) يوسف: ٣٢.

(٣) الكشاف: ٤٤٠ / ٢.

(٤) يوسف: ٨٠.

(٥) ينظر: الكتاب: ٧٥ / ٤، ٧٧، الخصائص: ٢٦٤ / ٣، المنصف: ٨١ / ١، الصاحبي: ٢٢١، المفصل: ٢٨٥، نزهة الطرف: ١٧، دروس في علم الصرف: ٧٤، أوزان الفعل ومعانيها: ١١٢، أبنية الفعل ودلالاتها: ٥٢.

(٦) العين: ٢٣٣ / ٢.

قوله: "أما (افعول) فقد تعدى.. وقالوا: اعروريت الفل، واعروريت مني أمراً قبيحاً كما قالوا: اطلولى"^(١)، وتابعه ابن جني في دلالتها على التعدية^(٢). وقد بين الجرجاني أن (افعول) يأتي ليفيد معنى الفعل "المتعدي كقولك: اعروريت الفرس، فهذا من (العرى) والراء التي بعد الواو عين مكررة، والياء لام، وكذلك، اطلوليت الشيء بمعنى استحليته"^(٣)، فتقهم من كلامه هذا الدقة في التعبير وذكر مواطن الزيادة والأصل في لفظة (اعروريت) هو (عرى).

(٨) افعول، وتأتي صيغة (افعول) للمبالغة، أي: أنك تصف فيه المبالغة في حصول الفعل ففي جملة: اعلوط الغلام الجمل، مبالغة وخروج عن المألوف لأن العرف يقضي بعدم ركوب الجمل من عنقه^(٤)، كما ذكر أبو علي أن من أمثلة صيغة (افعول) هي نحو: اعلوط، وهو ركوب العنق، والتقحيم على الشيء^(٥)، أما ابن جني فقد ذكر أن (افعولت) يكون متعد نحو: اعلوطت المهر، وغير متعد نحو: اخروط السفر، إذا امتد، واجلوز^(٦).

وقد ذكر الجرجاني أن لفظة (اعلوط) هي لفظة سيبويه في نص جمع فيه بين قول أبي علي في هذه اللفظة، وبين أن تكون اللفظة هي لفظة سيبويه وما هي مواطن الزيادة فيها، فقال: "افْعَوْلَ نَحْوُ: مَا ذَكَرَهُ مِنْ قَوْلِهِمْ: اَعْلَوَطَ، وَتَفْسِيرُهُ مَا أوردَهُ - يقصد أبا علي النحوي - مِنْ قَوْلِهِ: وَهُوَ رُكُوبُ الْعُنُقِ، وَالتَّقْحِيمُ عَلَى الشَّيْءِ، وَهُوَ لَفْظُ صَاحِبِ الْكِتَابِ - يقصد به سيبويه - فَهُوَ مِنْ تَرْكِيبِ عَلَطَ وَالْوَاوَانِ فَرِيدَتَانِ"^(٧).

(١) الكتاب: ٧٧-٧٨، ينظر: أبنية الفعل ودلالاتها: ٥٣.

(٢) ينظر: المنصف: ٨١-٨٢.

(٣) المقصد في شرح التكملة: ١٩٨.

(٤) ينظر: الكتاب: ٢٨٥/٤، شرح المفصل: ١٦٢/٧.

(٥) ينظر: التكملة: ٥٢١.

(٦) ينظر: المنصف: ٨٢/١.

(٧) المقصد في شرح التكملة: ١٩٨.

ثم ينتقل ليوضح دلالة صيغة (افعلول) على المبالغة، فالجرجاني يقف عند هذه الصيغة ويرى فيها أصالة وزيادة على خلاف من يرى أنها بناء مرتجل غير منقول، فذكر أن (افعلول) هو مثل (افعول) في الدلالة على معنى المبالغة، ومنه نحو: اعلوط، واخروط، واجلود^(١)، على حين ذكر بعضهم أن هذه الصيغة ما هي إلا بناء مرتجل غير منقول من فعل ثلاثي فهي بناء فحسب، نحو: اعلوط، أي: علا^(٢)، في الوقت الذي ذكر فيه الجرجاني أن هذه اللفظ من تركيب (عَلَطَ) الثلاثي وأن الواوين مزيدتان.

٩) افعَلَلْ، ذكر سيبويه أن هذا الوزن يأتي للدلالة على المبالغة والتوكيد، فقال: "فأما قعس واقعنسس فنحو: حلى واحلولى"^(٣)، أي: من حيث الدلالة على المبالغة وأن زيادة المعنى في اقعنسس أزيد من المعنى من قعس^(٤)، أما الجرجاني فقد ذهب إلى أن وزن (افعَلَلْ) لا يأتي إلا ليفيد معنى الإلحاق باحترنجم، فقال: "وافعَلَلْ، نحو: اقعنسس فهو من قعس، إلا أن اللام كرر للإلحاق باحترنجم، وزيد فيه نون كما كان في (احرنجم) فلم يدغم، لأجل أن الإلحاق يمنع منه من حيث إنك إذا قلت: اقعنسس لم يكن على وزن (احرنجم)، وشبهه بجليب من حيث إن المثلين يجب إظهارهما ليكون على وزن (دحرج)"^(٥)، كما ذكر أن وزن (جليب) في إظهار المثلين وعدم الإدغام قد انفرد بالإلحاق^(٦).

(١) ينظر: المفتاح في الصرف: ٥١.

(٢) ينظر: شرح الشافية: ١١٣/١، دروس في علم الصرف: ٧٤.

(٣) الكتاب: ٧٦/٤.

(٤) ينظر: المبدع في التصريف: ١١٠، نزهة الطرف: ١٥٨، أبنية الفعل ودلالاتها: ٥٤.

(٥) المقصد في شرح التكملة: ظ ١٩٨.

(٦) ينظر: السائق: ظ ١٩٨.

فوزن (افعلل) قد زيدت فيه اللام والنون من أجل الإلحاق بوزن آخر، ولا يمكن أن تدغم اللامان لأنها ستخالف وزن (احرنجم) كما أن إظهار المثليين واجب في هذه الصيغة ولا يجوز الإدغام بينها.

(١٠) افْعَلَى، وتجيء هذه الصيغة المزيدة لتدل على معنى المطاوعة، نحو قولك: سلقيته فاسلنقى، بمعنى: صرعته فانصرع^(١)، وقد ذكر الجرجاني أن وزن (افعللى) هو في حكم المطاوع، وأن الياء ألحقت فيه لتلحق بوزن احرنجم، فقال: "وهو (اسلنقى) فكانه في حكم المطاوع لسلقَيْتُ، وقد ألحق بالياء باحرنجم، كما ألحقَ سلقيتَ بدحرجت"^(٢)، وقد نفى الجرجاني دلالة التعدية في وزن (افعللى)، و(افعلل)؛ وذلك أن هذين الصيغتين لا يرد فيهما إلا معنى المطاوعة كما رأينا في (انفعل)، وهذا هو نوع من المقابلة والموازنة بين الصيغ المختلفة، ففصل القول في ذلك بقوله: "إن التعدي فيها ليس في هذه شيء إذا جاوزتهما، وذلك أنهما لا يتعديان إلى مفعول به، لأنهما مثل وزن (انفعل) وكذلك الرباعي الذي هو (احرنجم)"^(٣)، فوزن انفعل لا يتعدى أبدا ولا يأتي إلا للمطاوعة.

(١١) افْعَلْ، وَاَفْعَالٌ، وقد تناول الجرجاني في مؤلفاته دلالة (افعل)، و(افعال) فذكر أنهما:

أ- تأنيان غالبا لمعنى قوة اللون أو العيب^(٤)، ففي (افعل) يذكر بأنها تأتي للكلوان والعيوب، نحو: ابيض واعور^(٥)، كما ذكر أن (افعل) منقوص من (افعال)^(٦).

(١) ينظر: نزهة الطرف: ١٧، دروس في علم الصرف: ٧٥.

(٢) المقصد في شرح التكملة: ظ ١٩٨.

(٣) ينظر: السابق: ظ ١٩٨.

(٤) ينظر: الكتاب: ٢٦/٤، شرح الشافية: ١١٣/١، دروس التصريف: ٧٧.

(٥) ينظر: المفتاح في الصرف: ٥١، والمقصد في شرح التكملة: ٢٦٣، والمقصد في شرح الإيضاح: ١/

٣٨٠، ٩٨١-٩٨٢.

(٦) ينظر: نزهة الطرف: ١٥٧-١٥٨.

ب-يأتي (افعل) بمعنى (افعال^(١))، فجمع الجرجاني بينهما في الدلالة على اللون أو العيب، كما ذكر أن (افعال^(٢)) أبلغ من (افعل) بقوله: "وافعل وافعال^(٣)، للألوان والعيوب، نحو: أبيض وأبيض^(٤)، وأور وأور^(٥)، وافعال^(٦) أبلغ^(٧)؛ فالأصل افعال^(٨) وافعل^(٩) منقوص منه، وافعال^(١٠) أبلغ في المعنى من افعال^(١١)، وهذا ما ذكره ابن عصفور من قوله بأن (افعل) "مقصور من (افعال^(١٢)) لطول الكلمة ومعناها بدليل أنه ليس شيء من افعال إلا يقال فيه افعال^(١٣)، إلا أنه قد نقل إحدى اللغتين في شيء وتكثر الأخرى^(١٤)."

ج-تأتي (افعل^(١٥)) لمعنى مرتجل غير مشتق من فعل ثلاثي، وهذا نادر مثل: اقطر النبت، أي: أخذ في الجفاف، واقطار النبت لا يستعمل في الكلام إلا على بناء فيه زيادة^(١٦)، وقد ذكر الجرجاني أن (افعل وافعال^(١٧)) قد تأتي غير دالة على لون أو عيب كقولهم: اقطار النبت^(١٨)؛ فاقطار ليس لها فعل ثلاثي وإنما هي لا تجيء في الكلام إلا زائدة ولكن الزيادة هنا أدت المعاني الزائدة على الأصل.

١١) تفاعل، ومن دلالاتها:

المشاركة بين اثنين فصاعداً، نحو: تشامًا وتقاتلاً، حيث يكون الفعل

لازمًا^(١٩)، وقد تناول الجرجاني هذه الدلالة فقال بأن تفاعل تأتي لمشاركة أمرين فصاعداً في أصله صريحًا، وذلك نحو: تشارك^(٢٠).

(١) ينظر: الكتاب: ٢٦ / ٤، المقضب: ٧٦ / ١.

(٢) المفتاح في الصرف: ٥١.

(٣) ينظر: نزهة الطرف: ١٥٧-١٥٨.

(٤) الممتع في التصريف: ١٩٦ / ١.

(٥) ينظر: الكتاب: ٧٦ / ٤، التكملة: ٥٢٠، المنصف: ١٧ / ١، شرح الشافية: ١١٣ / ١، الممتع في التصريف:

١٩٦ / ١، دروس في علم التصريف: ٦٩.

(٦) ينظر: المقصد في شرح التكملة: ١٩٧.

(٧) ينظر: الكتاب: ٦٩ / ٤، المقضب: ٨٧ / ١، ديوان الأدب: ٤٧٣ / ٢، الممتع في التصريف: ١٨٢ / ١.

(٨) ينظر: المقصد في شرح التكملة: ١٩٩.

مطاوعة تفاعل لفاعلتها، وقد تناول سيبويه هذه الدلالة في باب (ما طأوع)، فقال: "وفي فاعلتها ففَاعَلْ، وَذَلِكَ نَحْوُ: نَاولَتْهُ فَتَناولَ، وَفُتِحَتْ النَّاءُ لِأَنَّ مَعْنَاهُ مَعْنَى الانْفِعَالِ وَالْاِفْتِعَالِ"^(١)، أي: أن الناء إنما لحقت فَعَلَ وْفَاعَلَ للمطاوعة^(٢)، وقد وقف الجرجاني عند هذه الصيغة مفسراً ومعللاً، مؤكداً على أن كل هذا التغيير في الصيغة يجب أن يتبعه تغيير في الدلالة فجسد ذلك كله فقال: "وَمِنْهُ (تَفَاعَلَ) وَهُوَ مُطَاوَعٌ فَاعَلْتُهُ نَحْوُ: قَاتَلْتُهُ وَتَقَاتَلْنَا، وَضَارَبْتُهُ وَتَضَرَّبْنَا"^(٣).

ثم بين أن ما كان مفعولاً قبل هذه الصيغة يصبح فاعلاً، كما رأينا في: كسرتَه فانكسر ثم يكون له فاعلان، كما كان لفاعلت فاعلين، إلا أن فاعلي تفاعل يكونان لفظيين أو معنويين، أما فاعلتها فيكون أحد الشريكين فيه منصوباً^(٤).

ادعاء الشيء أو التكلف، أي: أن يظهر الفاعل لك ما ليس فيه بل مخالفاً عنه^(٥)، أي: أن تأتي بمعنى إظهارك ما لست عليه^(٦)، والتظاهر في إظهار ما لم يكن، كتعارج إذا أظهر العرج^(٧)، وقد ذكر الجرجاني هذه الدلالة بقوله: "يكون بمعنى ادعاء الشيء على غير حقيقة نحو قولك: هو يتمارض، ويتباله ويتجان، وكذا الباب المعنى أنه يتكلف ذلك"^(٨)، أي: أنه يدل على أن الفاعل يظهر أن أصله قد حصل له، وهو مخالف له ومنقلب عنه نحو: تجاهلت وتعاقلت^(٩).

(١) الكتاب: ٦٦/٤.
(٢) ينظر: المقضب: ٧٨/١، شرح الشافعية: ١٠٣/١، ديوان الهذليين: ٣٨/١، ٢١٥/٢، دروس التصريف: ٨٠، دروس في علم التصريف: ٧١.
(٣) المقصد في شرح التكملة: ط ١٩٩، كما ذكر أن الناء التي زيدت على صيغة (فاعل) "إنما جيء بها لتدل على المطاوعة، وقد أطلق عليها تسمية ناء المطاوعة"، وينظر: المقصد في شرح التكملة: و ٣٠٤.
(٤) ينظر: المقصد في شرح التكملة: ط ١٩٩.
(٥) ينظر: الكتاب: ٦٩/٤، المقضب: ٧٩-٧٨/١، مجالس ثعلب: ٥٩١/٢، ديوان الأدب: ٤٧٣/٢، شرح المفصل: ١٥٩/٧.
(٦) ينظر: أدب الكاتب: ٣٥٨، أوزان الفعل ومعانيها: ١٠٢، أبنية الفعل ودلالاتها: ٣٥.
(٧) ينظر: شروح التلخيص: ٤٥٦/١.
(٨) المقصد في شرح التكملة: و ١٩٩.
(٩) ينظر: المفتاح في الصرف: ٥٠.

التعديّة، وقد انفرد الجرجاني في ذكر هذه الدلالة بصورة مستقلة موضحاً أن تفاعل، يكون متعدياً كفعل المتعدي نحو: ضرب، ولكنه ليس بقياس مستمر، ومن ذلك نحو: تعاطيته وتلاقيته، فتلاقيت هذا مبني على التعدي وليس بمطاوع (الفعل) يتعدى إلى مفعولين^(١)، ثم ذكر أن دلالة (تفاعلت) على التعدي هو ليس بأصل مطرد، وأن الأصل فيه هو المطاوعة، فلا يجوز لك أن تقول: تهاجرته، وتفارقت، لأن تفاعلت ليس أصل التعدي^(٢). ثم التفت الجرجاني ليكمل المعنى الدلالي لصيغة (تفاعل) ليبين العلاقة بين ما قالته العرب في لفظة (تعاوره) ولفظة (اعتوره) من قرب في المعنى وحملها على ظاهر (تفاعل) فقال بأن اعتوره هو بمعنى (تعاوره) غير أن الأكثر فيهما أن يحملا على ظاهر (تفاعل) وذلك كقولك: تعتوره الحركات وقد يكون فاعله واحداً، فقولنا: هذه كلمة يعتورها التغيير يريد بها أن يكون فيها تغيير بعد تغيير^(٣).

(١٣) تفعل، ومن الدلالات التي جاءت عليها:

المطاوعة، وتأتي على ضربين:

الأول: مطاوعة (فعلت) للتكثير: فقد جاء في الكتاب قوله: "ونظير هذا فعلته فتفعل نحو: كسرتَه فتكسر، وعشيتَه فتعشى، وغديته فتغدى"^(٤)، أي: أن وزن (تفعل) يكون "على المطاوعة من فعل فلا يتعدى، نحو قولك: قطعته فقطع، وكسرتَه فتكسر، فهذا للمطاوعة"^(٥)، وقال الجرجاني في دلالة تفعل على

(١) ينظر: المقصد في شرح التكملة: ١٩٩.

(٢) ينظر: السابق: ١٩٩.

(٣) ينظر: السابق: ١٩٩.

(٤) الكتاب: ٦٦/٤، وينظر: ديوان الأدب: ٤٤٦/٢، المنصف: ٩١/١، شرح المفصل: ١٥٨/٧، الممتع: ١/٨٣.

(٥) المقترض: ٧٨/١، وينظر: شرح الشافية: ١/١٠٤، الإعجاز الصرفي: ١٨١-١٨٢، أوزان الفعل ومعانيها: ٩٧، أبنية الفعل ٣٨، ويرى بعضهم أن صياغتها لا تكون إلا من الأفعال العلاجية أو الأفعال المعنوية، نحو: فهمته فتفهم، وعلمته فتعلم، ينظر: دروس في علم الصرف: ٧٨.

مطاوعة فعل وذلك "نحو: قطعه فقطع، وكسرتَه فتكسر، ويكون فيه معنى القوة كما يكون في فعل"^(١)، فهو قد جمع بين دلالية المطاوعة والتكثير، فإننا قد عرفنا أن (فعل) تأتي للتكثير والقوة في الفعل غالباً، وبناء عليه فإن مطاوعة (تفعل) له نفس الدلالة على القوة وهذا ما قصدت بمطاوع فعلت للتكثير.

الثاني: مطاوعة فعلت لغير التكثير، وجاء فيه قول الجرجاني في تفعل مطاوع فعل دون أن يحمل معه معنى التكثير مثل القسم الأول، وقد ضرب على ذلك عدداً من الأمثلة نحو: "تعممت وتأزرت، وتقمصت من المطاوع، لأنه على عممته وقمصته غير أن فعلت فيه لغير التكثير"^(٢)، فلا تؤدي لفظة (عمم) من المبالغة ما تؤديه لفظة (كسر) لذلك فقد جاءت للمطاوعة والتكثير في القسم الأول، ولم تأت إلا للمطاوعة في القسم الثاني.

التعديّة، وقد انفرد الجرجاني في ذكر دلالة (تفعل) على التعديّة، إذ وجدت بعض الباحثين ممن استشهد بقول سيبويه: تخوفه، بمعنى أن يوقع أمراً يقع بك فلا تأمنه في حاله^(٣)، أي: تحت تسمية دلالة التوقع في تفعل^(٤)، أما الجرجاني فهو لم يذكر هذه الدلالة بل استعمل لفظة (تخوّفته) تحت تسمية دلالة أخرى، وهي دلالة التعديّة، وقد ضرب على ذلك أمثلة كثيرة، كما بين أيضاً أنه مع كثرة هذه الدلالة بالنسبة إلى (تفاعل) غير أنه ليس بقياس مطرد في جميع ألفاظ (تفعل) ففصل القول في ذلك، فقال: "أن يكون متعدياً، نحو: تنقصته وتخوّفته، وتخونته وتعهدته، وتفقدته، وتحملته، وتقصيته، وهو أكثر من تفاعله، وليس بمقيس مع ذلك، فلا تقل: تهجرت، وتكسرتة"^(٥)، فلفظة (تكسرتة) لا تأتي في الكلام إلا للمطاوعة، ولا تدل على معنى التعديّة.

(١) المقصد في شرح التكملة: ٢٠٠، المفتاح في الصرف: ٥٠.

(٢) المقصد في شرح التكملة: ٢٠٠.

(٣) ينظر: الكتاب: ٧٣/٤، المبدع في التصريف: ١١٠.

(٤) ينظر: أبنية الفعل ودلالاتها: ٤١.

(٥) المقصد في شرح التكملة: ٢٠٠.

الاتخاذ، ويراد به اتخاذ الفاعل المفعول أصلاً للفعل نحو: تؤسدت، أي: اتخذته وسادة^(١)، وقد بين الجرجاني هذه الدلالة ووضحها في مؤلفاته، إذ بين أن (تفعل) تكون بمعنى اتخاذ الشيء، وذلك نحو: تديرّت المكان إذا اتخذته داراً، وهو من لفظ الدير على الحقيقة، وكذا تؤسدت التراب إذا اتخذته وسادة، وتبناه ابناً، وتسرى اتخذ سرية^(٢).

التجنب، أي: أن يكون الفاعل قد جانب الفعل، فتقيد معنى السلب وتجنب الفعل، وذلك نحو: تأثم وتحوب، أي: تجنب الاثم والحوب^(٣)، وقد وقف الجرجاني عند هذه الدلالة فبين أن (تفعل) تأتي لتدل على معنى "التجنب: كتحرج وتهجل"^(٤)، فقد اكتفى في هذا الموضع بذكر الأمثلة دون أن يبيّن معنى تحرج، أي: تجنب ما يحرج، وتهجل، أي: تجنب الهجل، وربما كان ذلك إيماناً منه ببيان هذه الدلالة، دون الحاجة إلى الشرح المطول، وقد يكون ذلك هو لميل الجرجاني أحياناً للاختصار، لأنه قد ذكره في كتابه المختصر (المفتاح) الذي مال فيه إلى الاختصار، ثم عاد ليذكر في موضع آخر من كتبه أن صيغة (تفعل) قد انفردت في صياغتها من فعل ليس منه أحياناً ممثلاً على ذلك بقولهم: تهجدّ بمعنى نفى الهجود وتجنبه، وتأثم: تجنب الإثم، ولم يقل: جحدوا، ثم بمعنى السلب على هذا^(٥).

فتأثم مثلاً لم تُصغ من الفعل (أثم)، وإنما من عبارة (تجنب الإثم) لأنها في هذه الحالة ستدل على معنى آخر غير ما أدته من (سلب الإثم

(١) ينظر: شرح التصريف العربي: ٧٤، المفصل: ٢٨٠، لسان العرب: مادة (أ.خ.ذ): ٢/ ٦٠٠، ٣/ ٢٧٢، ١٤/ ٩، ١٤/ ٤٦، أوزان الفعل ومعانيها: ٩٥، دروس التصريف: ٧٨.

(٢) ينظر: المقتصد في شرح التكملة: ٢٠٠، المفتاح في الصرف: ٥٠.

(٣) ينظر: سر صناعة الإعراب: ١/ ٤٤، شرح التصريف العربي: ٧٤، المفصل: ٢٨٠، شرح الشافية: ١/ ١٠٤، الإعجاز الصرفي: ١٨١-١٨٢، أوزان الفعل ومعانيها: ٩٧، أبنية الفعل ودلالاتها: ٣٩.

(٤) المفتاح في الصرف: ٥٠.

(٥) ينظر: المقتصد في شرح التكملة: ٢٠٠.

وتجنبه)، فيلمح من هذه الصيغ المعاني التي يتوخاها في ضرب أمثله والتتويه على طائفة منها شرحا وتفصيلا وتعليلًا كما رأينا.

تكلف الشيء، وهو حمل النفس على أمر فيه مشقة نحو: تحلم، أي: تكلف الحلم^(١)، وقد ذكر سيبويه أن (تفعل) تأتي أحيانا للتكلف، وهو: "إذا أراد الرجل أن يدخل نفسه في أمر حتى يضاف إليه، ويكون من أهله، فانك تقول: تفعل، وذلك: تشجع وتبصر"^(٢)، فهو الخروج من هيئة إلى هيئة^(٣)، وقد جاء الجرجاني ليبين أن من معاني (تفعل) هو أن يكون "بمعنى تكلف الشيء نحو: تصنع، وتملق وتجل"^(٤).

ولم يكتف الجرجاني بهذه النماذج من الأمثلة وإنما عرج إلى موازنة الصيغ وما ينجم عنها من دلالات، وهو إذ يذكر ذلك فإنه لا ينسى التعليل والتفسير في توجيه هذه الصيغ، فقد بين الجرجاني أن دلالة (تفاعل) على التكلف في الشيء أقوى منها في (تفعل)، وقد عزا السبب في ذلك إلى أن العربي حين يقول: أتأسف عليه، وأتلفه وأتخزن، فإن ذلك لا يكون فيه معنى ادعاء الأسف كذا، بل أن المعنى يكون فيه تحمل ذلك وقلة التعرض لكشفه، فالحزن موجود أما قوله: تمارض، وتحازن، فمعناه أن يظهر ذلك من نفسه من غير أن يكون ملابسا لشيء منه في الحقيقة^(٥)، ليستنتج من ذلك أيضًا على أن (تفعل) لا يجيء في ذا المعنى، أي: بمعنى (تفاعل) في التكلف، وذلك أنك لا تقول: تمرض وتعمى وتبلى، بمعنى تمارض، وتعامى، وتبال^(٦)، فما جاء على تفاعل في التكلف لا يأتي دائما على تفعل في دلالة التكلف.

(١) ينظر: أوزان الفعل ومعانيها: ٩٤.

(٢) الكتاب: ٧١/٤، وينظر: ديوان الأدب: ٢/٤٦٠، الصالحى: ٣٧٠، أدب الكاتب: ٣٥٩، شرح الشافية: ١/

١٠٤، الإعجاز الصرفي: ١٣٤، دروس التصريف: ٧٨، أبنية الفعل ودلالاتها: ٣٩.

(٣) ينظر: المقتضب: ١/٧٨، شرح المفصل: ١٥٨/٧.

(٤) المقتصد في شرح التكملة: ٢٠٠، المفتاح في الصرف: ٥٠.

(٥) ينظر: المقتصد في شرح التكملة: ٢٠٠.

(٦) ينظر: السابق: ٢٠٠.

تَفَعَّلَ بمعنى **تَفَاعَلَ**، ومن دلالتها التكاثر، وذلك "أنك تقول: تعاطينا وتعطينا، فتعاطينا من اثنين، وتعطينا بمنزلة غَلَّقَت الأبواب، أراد أن يكثر العمل"^(١)، ومنه قولهم: تعهد وتعاهد، وتعطيت وتعاطيت، وتجاوزت وتجاوزت، وتذأبت الريح وتذاعبت، وتقاسحوا وتقسحوا^(٢)، أما الجرجاني فقد ذكر أن صيغة (تفعل) تقوم مقام صيغة (تفاعل) في الدلالة على المطاوعة، كما قام مقام (انفعل)، وذلك نحو قولك: اقتتلوا، وتقاتلوا، واختصوا وتخاصموا واصطلحوا، وتصالحو، واجتورا وتجاوزوا^(٣)، غير أنه قد ذكر أن قيامها مقام (تفاعل) غير مطرد في جميع ما جاء على (تفاعل) لذلك فقد جعله على سبيل النيابة^(٤).

تَفَعَّلَ بمعنى **انْفَعَلَ**، ذكر الجرجاني أن صيغة (تفعل) تقوم مقام صيغة (انفعل) من غير أن تكون موضوعةً للمطاوعة، ولكن على سبيل وضع الشيء موضع آخر^(٥)، ومنه قولهم: تفرَّدت بكذا: انفردت به^(٦).

تَفَعَّلَ بمعنى **اسْتَفْعَلَ**، في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتُوبُكُمْ مَلِكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾^(٧)؛ ذهب الزمخشري إلى أن (توفى) بمعنى (استوفى) فقال: "والتوفى: استيفاء النفس، وهي الروح.. وهو أن يقبض - أي: الأنفس - كلها لا يترك منها شيء، من قولك توفيتُ حقِّي من فلان، واستوفيته إذا أخذته وافيا كاملا من غير نقصان، والتفعل والاستفعال يلتقيان في مواضع منها: تقصيته واستقصيته، وتجلته واستعجلته"^(٨).

(١) الكتاب: ٦٩/٤.

(٢) ينظر: أدب الكاتب: ٣٥٩.

(٣) ينظر: المقصد في شرح التكملة: و ٢٠٠.

(٤) ينظر: السابق: و ٢٠٠.

(٥) ينظر: السابق: و ٢٠٠.

(٦) ينظر: لسان العرب: ٣/٣٣٣، وأوزان الفعل ومعانيها: ١٣٧.

(٧) السجدة: ١١.

(٨) الكشف: ٣/٥٠٩.

خاتمة البحث:

من خلال دراسة دلالة الأوزان الصرفية المزيدة عند عبدالقاهر والزمخشري، يمكن للباحثة أن تذكر النتائج التالية:-

(١) الزيادة عند عبدالقاهر والزمخشري تأتي لإضافة معانٍ جديدةٍ لا يمكن أن توجد إلا بها؛ وذلك لأن زيادة المعنى تأتي تبعاً لزيادة المبنى.

(٢) اهتم عبدالقاهر والزمخشري ببيان أثر الزيادة في الأوزان الصرفية لإضافة معانٍ جديدةٍ لم تكن موجودة على الأصل اللغوي لجذر المادة الأصلي.

(٣) كان الحديث عن الصيغة الصرفية عموماً عند الزمخشري امتداداً لدعوة معتزلية منه تمسك بها بعد موافقتها لما نبأه ابن جني في محاولة منه لتوجيه الصيغ بالاتجاه العقلي المقنن.

المصادر والمراجع:

- (١) القرآن الكريم
- (٢) أبنية الصرف في كتاب سيبويه، خديجة الحديثي، منشورات مكتبة النهضة، بغداد، ١٩٦٥م.
- (٣) أثر أقسام الكلم في الجملة العربية، محمد عبدالدايم الرفاعي، منشورات كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ١٩٩٣م.
- (٤) الأصول في النحو، ابن السراج، تحقيق: عبدالحسين الفتلي، مطبعة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٨٧م.
- (٥) التبيان في تصريف الأسماء، أحمد كحيل، دن، ط٦، د.ت.
- (٦) تصريف الأسماء، عبدالرحمن شاهين، مكتبة الشباب، القاهرة، د.ط، ١٩٧٧م.
- (٧) التوجيه اللغوي والنحوي للقراءات القرآنية في تفسير الزمخشري، الباحث: عبدالله سليمان أديب، رسالة ماجستير بكلية الآداب جامعة الموصل، ٢٠٠٢م.
- (٨) حاشية الصبان على الأشموني، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ١٩٤٧م.
- (٩) الدراسات النحوية واللغوية عند الزمخشري، فاضل السامرائي، مطبعة الإرشاد، بغداد، ط١، ١٩٧١م.
- (١٠) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، تحقيق: محمد محي الدين عبدالحميد، مطبعة السعادة، القاهرة، ط٢، ١٩٦٧م.
- (١١) الصرف الوافي (دراسة وصفية، وتطبيقية في الصرف وبعض المسائل الصوتية)، هادي نهر، مطبعة التعليم العالي، الموصل، ١٩٨٩م.

- ١٢) الظواهر الصوتية والصرفية والنحوية في قراءة الجحدري البصري، عادل حمادي العبيدي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٥م.
- ١٣) عنوان الظرف في علم الصرف، هارون عبدالرازق، شرح: محمد هارون وأبو الفضل هارون، طبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط٣، ١٩٥٠م.
- ١٤) فقه اللغة، علي عبدالواحد وافي، دار النهضة، القاهرة، ط٦، د.ت.
- ١٥) المزهري في علوم اللغة، السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم وآخرين، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي، مصر، د.ت.
- ١٦) المصطلح الصرفي في العين والكتاب ودقائق التصريف، الباحث: علي جميل السامرائي، رسالة دكتوراه بكلية الآداب جامعة الموصل، ١٩٩٠م.
- ١٧) المغني في تصريف الأفعال، محمد عبدالخالق عضيمة، دار الحديث، القاهرة، د.ت.
- ١٨) المفتاح في الصرف، عبدالقاهر الجرجاني، تحقيق: علي توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٧م.
- ١٩) المقتضب، المبرد، تحقيق: محمد عبدالخالق عضيمة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ط٣، ١٩٩٤م.
- ٢٠) الممتع في التصريف، ابن عصفور، تحقيق: فخر الدين قباوة، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، د.ت.
- ٢١) المنصف، شرح ابن جني لكتاب التصريف للمازني، تحقيق: إبراهيم مصطفى وعبدالله أمين، وزارة المعارف العمومية، مصر، د.ط، ١٩٦٠م.

هدايات سورة العاديات الترتيب والدلالات



د/ معنوقة بنت محمد الحسناني (*)

مقدمة:

أحمد الله -تعالى- أستعينه، وأصلى وأسلم على نبيه -صلى الله عليه وسلم- أشهد أن لا إله إلا الله وحده، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله لا نبي بعده، بلغ رسالة ربه، وأدى أمانته، ونصح لأمره، وجاهد في الله - تعالى- حق جهاده حتى جاء به من مشهود وغيب، فالجميع صدق يجب الإيمان به.

وبعد فإنه قد شغلني سور القرآن وما وراءه من حكم لا تبدى إلا لدى نظر مدقق وسليم، وقد أعجبنى فيما ورد عنه من كل صحيح مسند مما نص عليه من قبل علمائنا الأتبات أهل الفهم والدراسة مما لا تختلف فيه الفهوم أو تنكره.

واخترت سورة العاديات لأطبق ما جاء من أقوالهم عليها من حيث ترتيبها وما تدل عليه ألفاظ آياتها على قصر آياتها وتقارب فواصل تلك الآيات.

(*) الأستاذ المساعد بقسم الكتاب والسنة - كلية الدعوة وأصول الدين - جامعة أم القرى - المملكة العربية السعودية

وأما السبب الذى دفعنى للدراسة فما وجدته من حرص عندى لخدمة التخصص الذى شرفت بالانتساب إليه، وأن الخبر قد جاء بأن خيرنا من تعلم القرآن وعلمه، وأن سورة العاديات على سبيل الخصوص متعددة الميزات كثيرة الفوائد.

فعزمت أن أجمعها وأستشهد لها منها على هيئة أقياس من السورة يجب أن يتدبرها القارئ حتى يقف منها على الأسرار، ولم تكن بعيدة عن مبرر مشروع مستساغ، وأملت أنه تند عن التناول لكثرتها، ويأتى هذا كما سيتضح من الدراسة الفعلية، واختلاف حال المخاطب بالنص سبب مهم فى إبراز مقصود الدراسة.

وحتى تأتى الدراسة محققة هدفها الذى أعدت له، فقد قسمتها إلى مقمة، وتمهيد، ومطالب ثمانية قامت الدراسة، وجاءت المطالب الثمانية على النحو الآتى:

- | | |
|---------------|---|
| المطلب الأول | : أسماء سورة العاديات |
| المطلب الثانى | : تصنيف السورة من حيث مكيتها أو مدنيتهما. |
| المطلب الثالث | : أسباب نزول سورة العاديات. |
| المطلب الرابع | : أهداف سورة العاديات. |
| المطلب الخامس | : ارتباط سورة العاديات بما قبلها. |
| المطلب السادس | : هدايات من سورة العاديات. |
| الأول | : العزيمة والإرادة. |
| الثانية | : القوة فى الطاعة بكل أنواعها. |

الثالثة : الاهتمام بالوقت.

الرابعة : التفاعل والقيادة وأثرها.

المطلب السابع : من معوقات مقومات الحياة.

أولاً : الجحود وكفران النعمة.

ثانياً : حب المال

المطلب الثامن : علاج المعوقات.

ثم قسمت كل مطلب منها إلى ما يعين درسه على استيعاب أساس الموضوع، ويجلى عن فكرته ويوضحها، وجاءت خاتمة سجلت فيها النتائج التى توصلت إليها كما نيلتها بفهرس للمصادر والمراجع التى أفدت منها فى الدراسة، وفهرس آخر للموضوعات التى درست، لتسهيل الوصول إلى الجزئيات التى حوتها، وأخيراً فإن دراستى هذه تمثل وسعى، وهو أحسن ما قدرت عليه، وأرجو أن يكون صواباً فم قصدت إلا توخيه، وما جاء منه فمن الله -تعالى- وتوفيقه يمن به على من يشاء من خلقه ويعطيه، كما أرجو ألا يكون خطأ وقعت فيها فما قصدت إلا توقيه، وما جاء منه فمنى ومن الشيطان، وأستعر الله بعده وفيه كما أرجو أن يتقبلها ربي، ويتجاوز بها عني، ويغفر لى خطئى إنه ولى ذلك والقادر عليه، وآخر الدعوى أن الحمد لله رب العالمين.

تمهيد:

العاديات هي السورة المائة حسب ترتيب المصحف التوقيفى أنت بعج سورة الزلزلة على النبى -صلى الله عليه وسلم- كما دل التاريخ التشريعى فتعد الرابعة عشرة ف ترتيب نزول السور عند جابر بن زيد بناء على أنها مكية نزلت بعد سورة العصر وقبل سورة الكوثر^(١).

وليس بعيب وما ينبغى أن يغيب موضعها بهذا الترتيب العجيب الذى لا يحتاج إلى إعمال فكر، وإنما يقر به كل مؤمن مصدق.

المطلب الأول: أسماء سورة العاديات.

جاء فى أقوال العلماء اسمان للسورة يظنهما المتعجل اسماً واحداً:

١- الأول: سور "العاديات"، قال: "ابن عاشور، سميت فى المصاحف الفيروانية العتيقة والتونسية والمشرقية "سورة العاديات" بدون واو، وكذلك فى بعض التفاسير فهى تسمية لما ذكر فيها دون حكاية لفظه^(٢).

٢- الاسم الثانى: سورة "والعاديات"^(٣).

فأسماء السور جعلت لها من عهد نزول الوحي، والمقصود من تسميتها تيسير المراجعة والذاكرة، ولتميز السورة عن غيرها، وأسماء السور إما أن تكون بأوصافها وإما أن تكون لشيء اختصت به ذكر فيها دون غيرها من السور، وإما بالإضافة لما كان ذكره فيها أو فى وإما بالإضافة لكلمات تقع فيها.

(١) انظر: الزمخشري، الكشاف: ٤١٧/٦، ومحمد الكلبى، التسهيل: ٥٠٥/٢، وابن عاشور، التحرير والتنوير: ٤٩٧/٣٠، والمخللاتى، القول الوجيز: ٣٥٤.

(٢) انظر: الفراء، معانى القرآن: ٢٨٤/٣، وأبو عبيدة، مجاز القرآن: ٣٠٧/٢، والتحرير والتنوير: ٤٧٩/٣٠.

(٣) انظر: الصنعاني، تفسير عبد الرازق الصنعاني، ٣٩٠/٢٠، والطبري/ جامع البيان: ٥٧٠/٢٤، والزجاج، معانى القرآن: ٣٥٣/٥.

وسميت هذه السورة بالعاديات، لورود ذكرها في مستهلها، وقد جرى العرف على تسمية بعض السور باسم مفتحتها.

المطلب الثاني: تصنيف السورة من حيث المكي والمدني:

ذكرت في مستهل دراستي هذه أن الإجماع منعقد على اعتبار السور الثلاثة مكية غير أن الأمانة العلمية تقتضي أن أذكر أن العلماء قد اختلفوا في مكية السورة ومدنيتهما^(١).

وأن أكثرهم على القول: إن السورة مكية^(٢)، لأن العرب الذين خطبوا بهذا حينما أقسم الله -عزوجل- بها كانوا يعرفون الخيل، قد فرض، كما طولوبا أن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ولم تكن فرضت، وإنما طلبت على ما كان موجوداً معروفاً.

ثم إن هذه الخل تعدو في سبيل الله لا يشترط أن يكون ذلك منها في المرحلة المكية، بل كان قد حصل للأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وأتباعهم، فالله يقسم بها وهم يعرفون دورها وأثرها، كذلك يمكن أن يقال: 'ن هذا فيه إشارة لما سيكون من أمر الجهاد الذي فرض بعد الهجرة في المدينة، فالله -تبارك وتعالى- أقسم بالخيال العاديات صباحاً، فليس فيه فرض الجهاد، فما المانع أن يقسم بالخيال فهي هكذا قبل فرض الجهاد، فالقسم بالخيال بهذه المثابة وبهذه الصفة التي هي من أكمل أوصافها لا إشكال ولا حاجة لأن يلجأ إلى القول بأن السورة مدنية؛ لأنها تحدثت عن الخيل العادية في سبيل الله.

ثم إن ما ورد عند جابر بن زيد أنها نزلت بعد سورة العصر وقبل سورة الكوثر يؤكد ترجيح القول إنها سورة مكية، والقسم بإحدى وسائل الجهاد مع

(١) انظر: الداني، البيان: ٢٨٤، وعطية الأندلسي، المحرر الوجيز ٦٧٢/٣٠.

(٢) انظر: معاني القرآن ٣٥٣/٥، والناسخ والمنسوخ لابن حزم ٦٧، الثعلبي، الكشف والبيان ٢٦٨/١٠.

تأخر فرضه لا يقوم دليلاً على القول بمدنية السورة أو يغير فى ترتيب نزولها خاصة وأن نسق الآيات فى السورة يتحقق فيها ما جاء من أوصاف تميز القرآن المكي عن القرآن المدني كما هو معلوم معروف.

المطلب الثالث: أسباب نزول سورة العاديات.

نزلت الآيات والصور على النبي صلى الله عليه وسلم - بسبب عام هو الدعوة إلى الله - تعالى - ولم يمنع ذلك أن تكون ملابسات تسبق نزول بعض الأي ليسهل على الناس أن يعقلوا المراد منها بإعمال الظرف الخاص لفهم التنزيل الذى قد يكون عاماً، وهذا هو السبب الخاص الذى كان البعض يسوقونه باعتباره سبباً لنزول الآية أو الآيات، وربما يعدونه سبباً لنزول السورة، وهذا الكلام تنقصه الدقة خاصة وأن كثيراً من أى القرآن نزل فى أشياء سبقت زمن الدعوة، فليس يصح أن تكون سبباً فى نزول المتأخر منها.

ومن خلال الوقوف على ملابسات نزول السورة "سورة العاديات" يستطيع الواقف على ذلك أن يقطع بالقول: إن السورة نزلت فى الخيل التى تستخدم فى الجهاد، وإن تليت وقت إرسال الرسول صلى الله عليه وسلم - رسله إلى الأمصار.

فقد روى عن مقاتل أنه قال: بعث النبي صلى الله عليه وسلم - سرية إلى حى من كنانة، واستعمل عليهم المنذر بن عمرو الأنصارى، فتأخر خبرهم، فقال بعض المنافقين: قتلوا جميعاً فأخبر الله - تعالى - عنها فأنزل سبحانه وتعالى مطلع السورة: (والعاديات صباحاً) ضبحت بمناخرها إلى آخر السورة^(١).

فبإمعان النظر فى آيات السورة يلاحظ واقع المسلمين وحث الآيات الكريمة على الاستعداد لخوض منحنى آخر للدعوة فى سبيل الله وتجهيز العدة

(١) انظر: الواحدى، أسباب النزول، ٢١٩.

له والمل على تغيير ما بالنفس من قعود وحب للدنيا والسعى لما فى الآخرة من جزاء باق لا نهاية له.

المطلب الرابع: أهداف سورة العاديات.

لم تقتصر آيات هذه السورة على الحديث فى شأن الدنيا فحسب، ولا فى شأن الآخرة، بل أتت السورة الكريمة بمشاهد دنيوية سريعة، ثم أتت فى خاتمتها على شىء فى شأن آخر الدنيا الفانية ومآلها ومال من فيها إلى الخير، فصورت الخيل التى تعد للجهد، وتستخدم فى دفع الأعداء، ثم وصفت الإنسان الجحود المنكر الذى ركن إلى الدنيا وشهواتها، وجعلت نصب عينيه حب المال وجمعه.

ثم جرى سياق الآيات ليعطى هذا الإنسان الكنود وصفات علاجية سريعة ونافعة لما آل إليه حاله من حب الركون للدنيا وملذاتها وشهواتها خاصة شهوة حب المال، وذلك يهلكه ويفنيه إن لم يكن له زاد وعلاج يتقوى بهما.

ثم بينت الآيات أن الآخرة لله -تعالى- وأن مرد الناس جميعاً لرب العالمين -سبحانه وتعالى- الذى سيحاسبهم على أعمالهم فى الدنيا، ولن ينفعهم يوم لقائه إلا التقوى والعمل الصالح.

فبتدبر هذه السورة الكريمة يستخلص الإنسان أن هدف وجوده فى الحياة هو العمل للأخرة، وأنه يلزمه أن يتجنب كل ما يؤخره عن العمل لها من أعمال وصفات، كما أنه يجب عليه أن يعى معنى اسم الله -تعالى- الخير، فيجد ويجتهد فى الدنيا على أساس هذا الاسم العظيم الذى يحمل كثيراً من المعانى التى تغرس القيم فى نفس العبد المتدبر الواعى اليقظ^(١).

(١) انظر: جعفر شرف الدين، تحقيق: عبد العزيز التويجى، الموسوعة القرآنية، خصائص السور، (١٠٩/١٢). بتصرف.

فالإنسان ماضٍ فى هذه الحياة يعيش فيها ما شاء الله -تعالى- له أن يعيش، ثم مرده إلى رب عليم خبير لا يخدعه قول كذاب؛ لأنه شهيد على عباده، ومطلع على قلوبهم، يعلم سرهم ونجواهم، فواجب على كل إنسان أن يحكم ميزانه فى تعاطى محبوباته فى الدنيا فلا ينهم منها ليفوز بالنجاح فى الآخرة.

المطلب الخامس: ارتباط السورة بما قبلها.

يوقن كل من كان له قلب واع، وفهم ثاقب يتدبر معهما القرآن أن سورة وما فيها من آيات إن لم تؤخذ ببصيرة، فإنها ستمر على قارئها غير المتأمل مروراً عابراً، وأنه لن ينتفع بها لتعطيله أدوات الفهم عن آيات القرآن الكونية والنفسية.

فالتأمل لآيات الله وسور القرآن الكريم يجد ارتباطاً وثيقاً بينها سواء ظهر ذلك مباشرة أم لم يظهر، وله -سبحانه- حكمته البالغة فى ترتيب هذه السور القرآنية بهذه الشاكلة التى لا يغيب عنها الإعجاز المتمثل فى عدم صلاحية غير هذا الترتيب فى محله.

فهناك علاقة بين السور، ينتج عنها تناسب بارز ليس يخفى على ذى اللب المسلم قبلية كانت أم بعدية.

وفى الكلام عن كمناسبة سورة العاديات وصلتها يقول البقاعى "لما ختم الزلزلة بالجزاء لأعمال الشر يوم الفصل، افتتح هذه ببيان ما يجر إلى تلك الأعمال من الطبع، وما ينجر إليه ذلك الطبع مما يتخيله من النفع، موبخاً من لا يستعد لذلك اليوم بالاحتراز التام من تلك الأعمال، معنفاً من أثر دنياه على أخراه، مقسماً بما لا يكون إلا عند أهل النعم الكبار الموجبة للشكر، فمن غلب عليه الروح شكر، ومن غلب عليه الطبع -وهم الأكثر- كفر"^(١)، ولم يخرج المراغى كثيراً عما سبقه به البقاعى، فعمم القول بدل أن قصره سابقه.

(١) انظر: نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور، (٢٢/٢١٠-٢١١).

قال المراغى "وجه المناسبة بينها وبين ما قبلها -أنه لما ذكر هناك الجزاء على الخير والشر أتبعه تعنيف الذين يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة، ولا يستعدون لحياتهم الثانية، بتعويد أنفسهم فعل الخير"^(١).

المطلب السادس: هدايات من سورة العاديات.

خلق الله -تعالى- الخلق لعبادته ولم يخلقهم عبثاً، وإنما خلقهم للاختبار والابتلاء؛ ليتبين المطيع ممن سواه، وليتبين المؤمن من الكافر، وليميز الله الخبيث من الطيب قال -تعالى-: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ مَّا أَرِيدُ مِنْهُمْ مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ ﴿٥٧﴾ الذرايات.

وأمرنا أن نسير فى الأرض، وأن نضرب فى مناكبها باحثين عن مخبأاتها وكنوزها، وننال من البركات التى تخرج منها، أو ما ينتزل من ذلك عليها، وأن نتعلم العلوم النافعة بحسب ما يتيسر لنا، قال -تعالى-: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَلْبُكَ عِندَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ الزمر.

وأمرنا التشريع أن نكد ونكدح فى طلب الرزق، قال -تعالى-: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ الملك.

فصعود الأمم وحضارتها تسبقها تغيرات جذرية صاحبها الجد والاجتهاد وترك الكسل والنهوض إلى الكسب بكل الصنائع وأنواع الأسباب المشروعة، فالحياة جهاد وكفاح، اعمل لدنياك كأنك تعيش ابداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً، قال ابن الوردى:

(١) انظر: تفسير المراغى، (٢٢١/٣٠).

أطلب العلم ولا تكسل فما أبعد الخير على أهل الكسل^(١)

يبين الله - تعالى - فى كثير من الآيات أن سبب الفشل فى الحياة هو ضعف الإرادة، وقلة العزيمة، وترقب النتائج دون القيام بالمقدمات اللازمة قال - تعالى -: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ أَبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ البقرة.

فإرادة القتال لم تقو بداخلهم، والرغبة لم تكن حقيقية فى نفوسهم، فكان انهيار البعض منهم بداية لهذا الأمر، وفى هذا ومثله يقول - تعالى -: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُّلْكُوا اللَّهَ كَمِ مِّنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةٌ كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٦﴾﴾ البقرة.

وما إن تجاوز المجاهدون النهر حتى انكسرت إرادة الجهاد فى نفوس البعض منهم خوفاً ورعباً من هول عدد عدوهم وكثرتهم، فخارت عزائمهم، وتهاوت قواهم، وزلزلت قلوبهم حينما حكموا على الأمور بظواهرها، هذه بعض المواقف القرآنية تكشف لنا أن أهم مكونات النجاح هى العزيمة والإرادة بمقوماتها:

(١) عمر بن مظفر بن أبو الفوارس بن الوردى، من أئمة القرن السابع والثامن هجرى (٦٨٩هـ) ت (٧٤٩هـ)، الزركلى، الاعلام.

الأولى: العزيمة والإرادة.

إن الله أنزل هذا القرآن لتدبره والعمل به، فقال -تعالى:- ﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ۝﴾ ص، وسورة العاديات من السور القصيرة تتكرر على أسماعنا كثيراً، ويتأكد فهم معناها وما تضمنه من الحكم العظيمة، وقد تأخذ منحى آخر من وراء تدبر كتاب الله فى معانى هذه السورة العظيمة، وقد ألمحت إلى صفات الخيل، وأشارت إليها، وتحتم وجودها فى من أراد النهوض لأمر عظيم، ولا أعظم من الجهاد فى سبيل الله قال - تعالى:- ﴿وَالْعَدِيدِ صَبَحًا ۝۱ قَالُمُورِيَّتٍ قَدَحًا ۝۲﴾ العاديات.

فهذه الخيل المسرعات فى سيرها، تغدو، وهى تحمم^(١)، لتكسب نهاية المعركة الحياة معركة بين الخير والشر فالفالح من كسب فيها خيراً يعده لآخرته.

فلنكن فى طاعة الخالق مسرعين فالؤمن ينبغى عليه أن يسارع فى الخيرات والطاعات ويتسابق إليها، وهذا ما دلت عليه الآيتان فى سورة آل عمران قال تعالى:- ﴿وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ۝﴾ وقال تعالى:- ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۝﴾، وقال تعالى عن نبيه موسى -عليه السلام ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ۝﴾ طه، وقال تعالى عن نبي الله زكريا: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَاهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ ۝﴾ الأنبياء..

(١) انظر: ابن جرير الطبرى، جامع البيان فى تفسير أى القرآن ٥٥٤/٢٤٠.

وكان -لى الله عليه سلم- يحث أمته على المسارعة إلى الأعمال الصالحة "بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم؛ يصبح الرجل مؤمناً ويمسى كافراً، أو يمسى مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بغرض من الدنيا"^(١) فالحديث يعطى لنا معنى وهو المبادرة والمسارة إلى الأعمال الصالحة قبل تعذرها والاشتغال عنها بما يحدث من الفتن الشاغلة المتكاثرة المتراكمة كتراكم ظلام الليل المظلم لا المقمر^(٢) هذه صورة لمقوم واحد من مقومات النجاح فى الحياة الدنيا النجاح النبوى الحقيقى الذى يبتغيه المؤمن الحق حتى يلقى وجه الله وهو راض عنه.

وروى أن النبى -صلى الله عليه وسلم- قال: "التؤدة فى كل شىء إلا فى عمل الآخرة"^٣، وقد كان الصحابة -رضى الله عنهم- يأخذون بهذا التوجيه النبوى الكريم فيتسابقون ويسارعون إلى الأعمال الصالحة، ويتنافسون فى أعمال الآخرة، كما أرشدت إليه الآية فى قوله -تعالى-: ﴿خِتَمُهُ مِسْكَ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ المطففين.

يقول ابن القتييب: "إن المقبل على الله المطيع له، يسير بجملته أعماله، وكلما زادت طاعته وأعماله، ازداد كسبه بها وظم، وهو بمنزلة من سافر فكسب عشرة أضعاف رأس ماله، فسافر ثانياً برأس ماله الأول وكسبه، فكسب عشرة أضعافه أيضاً، فسافر ثالثاً أيضاً بهذا المال كله، وكان ربحه كذلك، وهلم جراً، فإذا فتر عن السفر فى آخر أمره، مرة واحدة، فاتته ن الربح بقدر جميع ما ربح أو أكثر منه"^(٤) والسابقون هم المبادرون إلى فعل الخيرات فى الدنيا، والسابقون إلى الجنات فى الآخرة، فإن سبق هناك على قدر سبق فى الدنيا والجزاء من

(١) الحديث صحيح أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب الحث على المبادرة قبل تظاهر الفتن. ٣٠١ برقم ١١٨.

(٢) انظر: شرح صحيح مسلم، حاشية (١)، ٣٠١.

(٣) سنن أبى داود، ٥٢٤، برقم ٤٨١٠. وصححه الألبانى، فى "صحيح الجامع الصغير (١/٥٧٨)، برقم ٣٠٠٩.

(٤) انظر: مدارج السالكين، ٣٠٥/١.

فكر وإبداع

جنس العمل؛ قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ (٦٠) الرحمن. وقال - تعالى: - ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُؤْتِي اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ (٣٦) فاطر.

قال ابن كثير فى تفسير قوله -تعالى-: ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ وهو الفاعل للواجبات والمستحبات، التارك للمحرمات والمكروهات، وبعض المباحات.

الثانية: القوة فى الطاعة بكل أنواعها.

قال تعالى: ﴿فَالْمُورِيَّتِ قَدْحًا﴾ (٢٠) ، تقدح الخيل بحوافرها الحجارة عندما تغير وما كان القدح إلا بعد قوة وصلابة ضرب حوافرها بالحجارة فأشتعلت به ناراً لإرادة الجهاد فى سبيل الله تعالى^(١)، فمجاهدة النفس وإخضاعها للسير على صراط الله المستقيم، وكبح جماحها من أن تشذ عن طاعته تحتاج لقوة ومجالات هذه المجاهدة تأتى من خلال تقوية صلة هذه النفس بخالقها وإلهها، ومحاسبتها ومخالفتها، ومن أعظم ما يعين البعد على مجاهدة نفسه، علمه بأدوائها، وبأعوانها على الشر، وعلمه بما يعالج به تلك الأدواء ويدفع بقوة تلك الأعوان من الكتاب والسنة، وما فيهما من الهدى، ونور الوحى.

فقوة الإيمان بالله، والعلم به، والطاعة له، وقوة الرأى والنفس والإرادة، إذا استعملت فيما يحبه الله تعالى ويرضاه من الأعمال والطاعات، تكون سبباً فى الفلاح والنجاح. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: - "المؤمن القوى

(١) انظر: ابن جرير الطبرى، جامع البيان فى تفسير أى القرآن، ٥٥٤/٢٤، والبقاعى، نظم الدرر فى تناسب الأي والسور، ٢١٢/٢٢٠.

خيرٌ وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز وإن أصابك شيء فلا تقل لو أنى فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان»^(١).

فالمؤمن القوى فى إيمانه، والقوى فى بدنه وعمله خير من المؤمن الضعيف فى إيمانه أو الضعيف فى بدنه وعمله، لأن المؤمن القوى ينتج ويعمل وينتفع بقوته البدنية وقوته الإيمانية وقوته العملية المسلمون فينتفعون من ذلك نفعاً عظيماً لتحقيق مصالح المسلمين، وفى الدفاع عن الإسلام والمسلمين، وإدلال الأعداء والوقوف فى وجوههم، وهذا ما لا يملكه المؤمن الضعيف، فمن هذا الوجه كان المؤمن القوى خيراً من المؤمن الضعيف فهذا الحديث فيه الحث على القوة، ودين الإسلام هو دين القوة دين العزة قال - تعالى:- ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْحَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ الأنفال. ﴿يَقُولُونَ لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ المنافقون.

فالقوة مطلوبة فى الإسلام: القوة فى الإيمان والعقيدة، والقوة فى العمل، والقوة فى الأبدان؛ لأن هذا يقتضى خيراً.

من هذا المنطلق فإن القوة هى قوة العقيدة والخلق، القوة فى العبادة والسلوك والجسم والعلم والصناعة والتجارة، وتلك القوة التى تتجه بجهد إلى الخير وتقوده إلى الرحمة، وتجعل منه أداة يحق الله بها الحق ويبطل الباطل،

(١) الحديث صحيح أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب القدر، باب فى الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض الله، رقم ٢٦٦٤.

فاعلى أنواع القوة قوة العقيدة وقوة رسوخ الإيمان، فصاحب العقيدة القوية يؤمن بالله ويتوكل عليه، وتأتيك قوة أنه لا يستطيع إنسان كائناً من كان أن يمنعك من رزق كتبه الله لك، ولا أن يعطيك ما لم يكتبه الله لك، بهذا ينقطع حبل اللجوء إلى غير الله، ويصل ويقوى بحبل الله المتين، فهو المانع والرازق ذو القوة المتين، فبقوة العقيدة والإيمان جعل الله لرسوله من الضعف قوة، ومن القلة كثرة، ومن الفقر غنى، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَكَأْوًى ۖ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۖ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۖ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۖ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۖ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝﴾ الضحى.

والقوة فى العبادة تكون بالمحافظة عليها وتأديتها بالصفة المخصوصة فى الأخلاق، وثباتها، فلقد فتح الأوائل من المسلمين الأمصار بقوتها دون تجهيز جيوش، فزلزلوا بها العروش، وبكفينا فخرا قوة العدل الذى ساد الأرجاء فى الشدة والحزن مع الصديق والعدو والغنى والفقر ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ءَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝﴾ المائدة.

والقوى يتمثل أعلاها فى ضبط النفس، قال صلى الله عليه وسلم:- "ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب"^(١)، فكظم الغيظ قوة، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ۝﴾ آل عمران.

كذلك اعتبرت الشريعة تحصيل القوة البدنية من مقاصدها، وقد اختار الله قائداً رانياً لبسطة وعلمه، قال تعالى:- ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ

(١) الحديث صحيح أخرجه البخارى فى صحيحه - كتاب الأدب - بابا الحذر من الغضب، ٥٣٦/رقم ٥٧٦.

لَكُمْ طَالُوتٌ مَلِكًا قَالُوا أَأَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٧﴾ البقرة.

فمن عقل هذه القوة وعمل بها نهض، وأنهض الأمة لتتصدر المجالات كلها، فتكون خلافة الله في الأرض، وتكون القوة في العبادة وفي العمل وفي التجارة والزراعة والصناعة، وينتبه الغافل عن نصوص كتاب الله وسلنة رسوله ويرجع المتعسف في تأويله ووصفه للأمة أنها أمة تخلف وتأخر وجهل، ولن تتجلى قوة المسلم إلا في أخذ أوامر الله بقوة وعدم التقصير فيها قال تعالى حكاية عن موسى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَا حِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُوْرِيكُمْ دَارَ الْفَلْسِقِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ الأعراف.

ونكر الله بنى إسرائيل على لسان نبينا بما أخذ عليهم قال -تعالى:- ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَادْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾﴾ البقرة.

فهذه القوة تحمل على كل مناحى الحياة فيعمل العبد فيما يحقق به مصالحه ومصالح أمته من غير تكاسل ولا تراخ، وحتى لا نكون فتنة بضعفنا وهواننا وتنداعى الأمم علينا.

الثالثة: الاهتمام بالوقت.

قال تعالى: ﴿فَالْمُغِيرَتِ صُبْحًا ﴿٢﴾﴾ ورد في تفسيرها أن المراد هو الدفع والإغارة صباحاً^(١)، وهذا دلالة وإشارة على التذكير بالأعمال والاهتمام بالوقت، إذا أدرك العبد قيمة وقته وأهميته، كان أكثر حرصاً على حفظه واغتنامه فيما يقربه من ربه، وقد جاءت السنة لتؤكد على أهمية الوقت وقيمة الزمن، وتقرر

(١) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢٤٩٠/٣٠).

أن الإنسان مسئولٌ عنه يوم القيامة، فعن معاذ بن جبل أن ربول الله صلى الله عليه وسلم:- "لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيما أفناه وعن علمه فيما فعل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه وعن جسمه فيما أبلاه"^(١).

فينبغي للعبد أن يحرص على وقته فيما ينفعه في دينه ودنياه، وما يعود عليه بالخير ولقد كان سلفنا الصالح حريثين على أوقاتهم فيغتنمونها، ويتزودون منها بعلم نافع، أو عمل صالح أو مجاهدة للنفس، أو إسداء نفع إلى الغير، فالوقت حياتنا على هذه الأرض لكي نقدم فيها ما يوصلنا إلى الغاية التي لأجلها خلقنا، قال صلى الله عليه وسلم:- "تعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ"^(٢)، فينبغي العناية بالوقت وملئه بالعمل، فالفراغ داع إلى الفساد، والنفوس إن لم تشغلها بالطاعة شغلتك بالمعصية، وقد أشار كتاب الله في مواطن كثيرة إلى أهمية الوقت وبالألفاظ مختلفة، منها الدهر والحين والآن والأجل والأمد والسرمدة والعصر وغيرها وأقسم سبحانه بالوقت في مواطن كثيرة من كتابه العزيز قال -تعالى:- ﴿وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكُسْرٍ ۝﴾ العصر.

وارتبطت العبادات بمواعيد وأوقات محددة مما يرفع من أهمية الوقت في حياتنا قال -تعالى:- ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَرُكُوعًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ۚ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ۝﴾ النساء.

(١) الحديث أورده الترمذي، في سننه، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن الرسول، رقم ٢٤١٧، والدرامي ١٤٤/١، وقال الترمذي هذا حديث حسن صحيح، وصححه الألباني كما في صحيح سنن الترمذي.

(٢) الحديث صحيح أخرجه البخاري - كتاب الرقاق - باب ما جاء في الرقاق وأن لا يعيش إلا عيش الآخرة، برقم ٦٤١٢.

وارتبط التقويم الإسلامى بالأشهر القمرية والتي تبدأ من ظهور الهلال إلى أن تنتهى باختفائه ليعلن ميلاد شهر جديد ، ويعرف من خلالها مواعيد الصلاة والصيام والإفطار والحج وهى مواقيت دقيقة يستعين بها العبد قال - تعالى:- ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ البقرة؛ لذا كان من الأهمية بمكان من الأهمية بمكان، أن يبين -تعالى- أن الحياة ما كانت عبثاً فقال:- ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّ مَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ فطول الأمل والجهل بقيمة الوقت وضعف الإرادة أمور تحول دون العمارة الذى أمر العزيز الكريم بها، فالعاقل من ندم اليوم حيث ينفعه الندم، واستقبل لحظات عمره، فعملها قبل أن تأتى اليوم الذى لا ينفع فيه الندم ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَحْسَرْتُنِي عَلَى مَا قَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ﴾ الزمر.

الرابعة: التفاعل مع القيادة وأثرها.

﴿فَأُتْرِنَ بِهِ نَقْعًا ۚ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾

ورد فى تفسير الآيتين ما يأتى: أثارت الخيول الغبار وتوسطن المكان^(١)، وما كان هذا إلا باجتماعها عملها فأنج هذا الغبار أثره على العدو. وقد أشارت الآيتان إلى أن المراد إظهار قيمة التفاعل والعمل على سياق واحد ووتيرة واحدة يحقق ما لا يحقق الفرد فالتفاعل هو الأساس فى قيام نوع من المؤثرات والاستجابات ينتج عنها تغيير فى المجتمع بتحقيق أهدافه بتنظيم علاقاته والعمل على وحدة الهدف ويتجلى بهذا التفاعل بروز القيادات الفاعلة والمهارات الفردية وتقارب الأفراد المتفاعلين.

(١) انظر: الطبرى، جامع البيان فى تفسير أى القرآن، (٤٥٤/٢٤-٤٥٧)، الجزوى، زاد المسير، (٢٠٦/٩).

ففى عصر النبوة قام المجتمع المسلم بالتفاعل بين الأفراد بين القائد واتباعه -محمد صلى الله عليه وسلم- وأصحابه كمجموعة أشربوا الأفراد صغاراً وكباراً قيماً ومثلاً ومبادئ أعلوا بها المجتمع ورفعوا ذكره، فأجتمعت القلوب وتآلفت وتفاعلت على قلب رجل واحد هو محمد صلى الله عليه وسلم- فكان الإيمان به مدعاة للائتلاف والانتصار، وظهرت الصور والنماذج والوقائع المضيفة الناطقة للمجتمع المتألف المتحاب تحت ظل رسالة الإسلام والقيادة المحمدية.

من صور التفاعل الكثيرة على سبيل المثال: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ التوبة، كان أول عمل قام به صلى الله عليه وسلم- فى الإصلاح والتأسيس اشترك المسلمون جميعاً فى البناء وعلى رأسهم إمامهم محمد صلى الله عليه وسلم- وكان أول عمل تعاونى تفاعلى، عام وحد وقارب وتحابت قلوب الفرقاء وصارت الفرقة وحدة.

ثم كانت صورة التفاعل الأخرى المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ليشد من أواصر المجتمع ويقوم عليه بنيانه قال تعالى:- ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتُ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ الأنفال، يقول الطبرى: "وجمع بين قلوب المؤمنين من الأوس والخزرج، بعد التفريق والتشتت، على دينه الحق، فصيرهم به جميعاً بعد أن كانوا أشتاتاً، وإخواناً بعد أن كانوا أعداء، (لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم)، يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: "لو أنفقت يا محمد، ما فى الأرض جميعاً من ذهب وورق وعرض، ما جمعت أنت

بين قلوبهم بحيلك، ولكن الله جمعها على الهدى فالتفت واجتمعت، تقوية من الله لك وتأيداً منه ومعونة على عدوك.

يقول: والذى فعل ذلك وسببه لك حتى صاروا لك أعواناً وأنصاراً ويداً واحدة على من بغاك بسوءٍ هو الذى إن رام عدو منك مراماً يكفيك كيده وينصرك عليه، فثق به وامض لأمره وتوكل عليه^(١). "كان ذلك بحق النموذج الرائع لتطبيق الأخوة بين أفراد الأمة بشكل عملي، وهو أمر لم يتحقق للناس ولن يتحقق إلا فى ظل الإسلام؛ وقد أدرك صلى الله عليه وسلم- أهمية التفاعل فبنى مجتمعاً ناجحاً معطاء قوياً، فحقق رسالته التى أرسله الله بها فكان قائداً أيقظ وغرس فى نفوس أصحابه حب الإيمان؛ ليعملوا لدنياهم وآخرتهم، وعلمهم كيف يكون التوازن بين هذه المقومات، لتصبح الحياة بطابع الوسطية والاستمرار، ففضل الأنظمة الأخرى، وما كان إلا لصعود مقوم آخر فطغى عليه، فالإسلام المنهج المرتضى للخلق يحمل فى تعاليمه مقومات الحياة الكريمة.

المطالب السابع: من معوقات مقومات الحياة.

أولاً: الجحود وكفران النعمة.

الجحود والنكران أحد أهم المعوقات التى تعيق بل تعطل مقومات الحياة كما نرى فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿١﴾ العاديات، "فقد طبع الإنسان على كفران النعمة، قال ابن عباس لكنو لكفور جحود لنعم الله، وكذلك قال الحين وقال: يذكر المصائب وينسى النعم"^(٢)، وقال ابن كثير: "ظاهر ذلك عليه فى أقواله وأفعاله"^(٣).

(١) انظر: الطبرى، جامع البيان فى تفسير أى القرآن، (٣٦/١٤).

(٢) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (١٤٣/٢٠).

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، (٤٦٦/٨).

إن العبد ليجدد نعمة ربه، وينكر جزيل فضله، ويتمثل كنوده وجوده في مظاهر شتى تبدو منه أفعالاً وأقوالاً، فتقوم عليه مقام الشاهد الذى يقرر هذه الحقيقة، أو كأنه يشهد على نفسه بها، أو لعله يشهد على نفسه يوم القيامة بذلك ﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ يوم ينطق بالحق على نفسه فقلاً جدال. وهنا تعظم المصيبة حينما تقابل النعم بنوع من الإنكار الذى تنتوع صورته، وأشكاله، فشكر النعم حافظ للنعم وجالب للنعم المفقودة، فإن النعمة إذا شكرت قرت وإذا كفرت فرت قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ إبراهيم، وقد حذر تبارك وتعالى فى مواطن من كتابه من تبديل النعمة كفرًا وعدم استعمالها فى طاعة المنعم، وملاقاتها بالأشر والبطر وجحود الإنعام والإكرام؛ قال الله تعالى: ﴿سَلِّ بَيْنَ إِسْرَءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَهُم مِّنْ ءَايَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ البقرة، وقال تعالى: - ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ۖ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ إبراهيم.

وقال: ﴿لَهُ مُعَقِّبَتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ ءَالٍ﴾ الرعد ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ أى من نعمة وفضل وإحسان ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ بالفسوق وكفران النعم والعصيان، وقد ذكرت الآيات أخبار أقوام أهلكهم الله وأمم عذبهم الله بسبب كفران النعم، والأمثلة عديدة لحال هؤلاء ليعتبر من أراد الاعتبار ويتعظ من أراد الاعتاض قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَبَلَكَ مَسَكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ القصص، قال تعالى: - ﴿يُنْثِثُ لَكُمْ بِهِ

الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالْخَيْلَ وَالْأَعْنَبَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ النحل. فمنهج الله -تعالى- فى كتابه الحرص أن تكون هناك لوازم لرفع عوائق مقومات الحياة فكان الشكر من أول هذه اللوازم، فالثناء على من يقدم الخير والإحسان جميل، وأجل من يستحق الشكر والثناء رب العالمين؛ لما له من عظيم النعم والمنن على عباده فى الدين والدنيا، قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ البقرة، قال الشيخ عبد الرحمن السعدى: "الواجب على الخلق إضافة النعم إلى الله قولاً، واعترافاً يتم التوحيد، فمن أنكر نعمة بقلبه أو لسانه فذلك كافر، ليس معه من الدين شىء" (١).

ثانياً: حب المال.

لقد عمت غالب الخلق حتى فتنوا به، وصارت غاية قصدهم لها يطلبون وبها يرضون، ومن أجلها يغضبون، وبسببها يوالون، ويعادون قطعت أرحام فى سبيلها، وسفكت دماء أمم بسببها، ووقعت فواحش من أجلها، فحلت البغضاء وفرق بين الإخوان، وتعادى الأصحاب والخلان، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ العاديات.

وبين -صلى الله عليه وسلم- هذا المصير لحالنا المؤلم فى قوله: "كيف أنتم إذا فتحت عليكم خزائن فارس والروم؟ أى قوم أنتم؟"، قال عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه: نقول كما أمرنا الله. قال: "أو غير ذلك؟" تتنافسون، ثم تتحاسدون، ثم تتدابرون ثم تتباغضون أو نحو ذلك، ثم تتطلقون فى مساكين المهاجرين، فتجعلون بعضهم على رقاب بعض (٢).

(١) انظر: القول السديد فى مقاصد التوحيد، ص ١٤٠.

(٢) الحديث صحيح فقد أخرجه مسلم، فى صحيحه، كتاب الزهد والرفائق، (٣٩٧/٤) رقم (٢٩٦٦).

وهذا ما استشفه عمر -رضي الله عنه- فقد أورد ابن حجر أنه -رضي الله عنه- أتى بمال من المشرق يقال له نفل كسرى، فأمر به فصب وغطى، ثم دعا الناس فاجتمعوا، ثم أمر فكشف عنه، فإذا حلى كثير وجوهر ومتاع، فبكى، وحمد الله عز وجل، فقالوا له: ما يبكيك يا أمير المؤمنين؟! هذه غنائم غنمها الله لنا ونزعها من أهلها، فقال: "ما فتح من هذا على قوم إلا سفكوا دماءهم واستحلوا حرماتهم" (١).

فالعبد إذا لم يستغن بالله، فلن يغنيه نعيم الدنيا وإن حازه بل يشعر بان الفقر ملازماً له كما روى في الأثر: "من كانت الدنيا همه فرق الله عليه شمله وجعل فقره بين عينيه، ولم يأت من الدنيا إلا ما كتب له، ومن كانت الآخرة همه، جمع الله عليه شمله وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة" (٢)، جلبت النفوس على حب المال، قال تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ الفجر.

وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم - قال فيما صحت روايته عنه: "لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثاً، ولا يملأ جوف آدم إلا التراب" (٣).

وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم - أمته من فتنة المال وحبه روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال لأصحابه: "قأبشروا وأملوا ما يسركم كما بسطت على من كان قبلكم فتتافسوها كما تتافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم" (٤).

وجاء ذم عبد المال الذي إذا أعطى رضى، وإن لم يعط سخط، قال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ

(١) انظر: ابن حجر، فتح الباري شرح البخاري، (٦٥٨ ص).

(٢) انظر: الدماطى، المتجر الرابع فى ثواب العمل الصالح، (٣٣٤) حكم المحدث، اسناده صحيح.

(٣) الحديث صحيح فقد أخرجه مسلم، فى صحيحه (١٠٢، برقم ١٠٤٢).

(٤) الحديث صحيح فقد أخرجه مسلم، ص (١١٨٨، برقم ٢٩٦١).

الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾ التوبة، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ الأنفال، إن المال عرض زائل ومتاع مفارق، قال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوْ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ الْغُرُورِ ﴿٥٧﴾﴾ الحديد. يعتقد البعض، ويظن أن من رزق مالا كثيرا، فإنه قد وفق، وهو دليل على محبة الله له والأمر ليس كذلك، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿٥٨﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴿٥٩﴾﴾ فإن الجنيا يعطيها الله من يحب ومن لا يحب قال تعالى ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُثَبِّتُ لَهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٦٠﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦١﴾﴾ المؤمنون.

المطلب الثامن: علاج المعوقات.

العبد شديد الحب لماله، هذه فطرته، وهذه طبعه، ما لم يرسخ الإيمان قلبه، فيغير من تصوراتهِ وقيمة وموازِينهِ ومبادئهِ ويجعل مكان كنوده وجوده اعترافاً بفضل الله، وينسخ ويمحو شحه وبخله عطاء ورحمة. وتتجلى أمامه القيم التي تستحق الحرص والتنافس عليها. وهى قيم أعلى من المال والسلطة وأعراض الحياة الدنيا.

فالعبد بغير إيمان ضعيف أمام المطامع، سجين أهوانه وشهواته لن يرفعه عن ذلك إلا الاتصال بالخالق الذى إليه المرجع والمصير وتسمو روحه إلى العلياء لينطلق بتحطيم قيد نفسه من حب الشهوات فعندما تعرض له الآخرة ومشاهدها فى صورة حسية ينتبه ويستقيظ من غفلته.

قال تعالى:- ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۖ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ بعثرت المتاع وجعل أعلاها أسفلها وأسفلها أعلاها مشهد قوى يجمع بين إحصاء وإظهار ما فى النفوس من ضمائر وأخلاق وبيان على وجوه الخلق نتيجة أعمالهم^(١).

إن الله عزوجل خلق الإنسان وجعله محل الأنبياء، فطبعه على بعض الصفات الذميمة، وكلفه بالمجاهدة على التخلص منها وتهذيب نفسه من أواصرها، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ الشمس.

فنعمة المال عظيمة وهى زينة الحياة الدنيا قال تعالى:- ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ الكهف. وهى من الفتن العظيمة التى يبتلى بها المؤمن، والقليل من الناس من يصبر عليها، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ التغابن. فالمطلوب أن تكون الدنيا فى اليد لا فى القلب، وأن نملكها لا أن تملكنا ونطلب الآخرة بالدنيا لا أن نطلب الدنيا بالآخرة.

فمشهد البعث والحشر جاء فى صورة تنسى حب المال، وتوقظ الغافل من بطره وغطرسته وترده إلى المنهج السوى والصراط المستقيم، فالتذكير الدائم بالآخرة من أنجع الوسائل فى الرجوع إلى الله، ومعالجة النفس من كل داء، فلا تكاد سورة من سور القرآن تخلو من ذكر الآخرة والحساب والعرض، لتتجلى الغفلى عن ما خلقنا لأجله الإقبال على الله تعالى بطاعته، ومحبه، والانقياد لأمره، والعمل بما يرضيه، والحرص على كل ما يقربنا إليه، هى الحياة التى

(١) انظر: بتصرف، الطبرى، جامع البيان فى تفسير أى القرآن، (٥٥٧/٢٤)، والبغوى، معالم التنزيل، (٥٠٩/٨)، والسعدى تفسير العزيز الرحمن فى تفسير أى القرآن، (١٩٨٩/٨).

أشارت إليه الآية الكريمة فى قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ۚ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (١١) الأنفال.

وتذكر هذه المشاهد بصورة مستمرة يرفع عن الإنسان حجاب الغفلة عن الآخرة وهو المبضع الذى يستأصل حب المال المسيطر على قلب العبد.

وفى قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ خَبِيرٌ﴾ (١١) الخبير الذى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا السماء، ولا تتحرك حركة إلا يعلم مستقرها ومستودعها. الخبير سبحانه بكنه الأمور، المطلع على دقائق الأمور الذى انتهى علمه إلى الإحاطة ببواطن الأشياء وخفاياها كما أحاط بظواهرها^(١)، فلا يخفى عليه شىء من الأشياء، يعلم ويجازى أوفر الجزاء فى نل اليوم العظيم يوم القيامة. فالدنيا بما تحتويها من فتن ومال وشهوات عائق من المعوقات التى تعوق العبد عن فعل الصالحات والطاعات، فالمال والحرص عليه، وعلى جمعه وتحصيله يمنع الإنسان عن فعل كثير من الطاعات من إنفاق وصدقة، فحب المال خاصة يعوق عن الطاعات غالباً فهو رأس الفتنة، وباب كل شر، إذا كان هم العبد جمع المال والعمل للدنيا وحدها، قال تعالى: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِصَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْأَرْحِطِ ۚ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۗ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَبَاقِ﴾ (١٢) آل عمران.

إن المنهج الربانى لا يمنع الإنسان من حب الشهوات ولكن لا تكن هى الشغل الشاغل بل أمرنا تعالى بالاستخلاف فى الأرض والسعى فيها بكل ما

(١) انظر: ابن القيم، الصواعق المرسله، (٤٩٢/٢).

يخدم البشرية جمعاء، فالمقصود أن نجعل الدنيا مزرعة تحصد ثمارها في الآخرة، يصرف الدنيا في طاعة الله تعالى، والعمل الصالح، وعمارتها حسب ما أمر الحق تبارك وتعالى من الاستخلاف فيها، بما ينفع الدين والدنيا. قال تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَةُ الصَّالِحَةُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ الكهف، فالطاعات فهي الباقية، والنفع الحقيقي، وما عداه من متاع وزينتها زائل لا نفع فيه.

ويكفيها في ذم الدنيا وحب متاعها أنها سبب من أسباب الغفلة والتناقل الأرض، ونسبان اليوم الآخر قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتَقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ التوبة.

ولا شك أن التنازل عن متاع الدنيا وملذاتها طاعة لله والتزاماً بأمره يعوض عنه في الآخرة متاعاً أعلى وأخلد وأبقى، في جنة عرضها السموات والأرض، فهي المتاع الحقيقي، الذي ينبغي على العاقل الحرص عليه قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ فاطر؛ لذا وصف القرآن الكريم الحياة الدنيا في أكثر من آية وموضع أنها متاع الغرور وطريق إلى الشهوات قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَاقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَّعُ الْغُرُورِ﴾ آل عمران، وأبان القرآن موقف الناس بأنهم يفرحون بها، مع أنها حقيقتها لا تستدعي، كونها مجرد متاع يفنى موقف وببلى، قال تعالى: - ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَّعٌ﴾ الرعد.

وحذر عباده من اللهث وراء مفاتن الدنيا الزائفة، والانكباب على زخارفها الفانية، يقول سبحانه: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ ١٥. هود. والمراد أن من كان طالباً لمنافع الحياة ولاهتاً وراء زينتها، فإن الله يمد له فيه، ويعطيه منه استدراجاً، ثم تكون عاقبته الخسران فى الآخرة.

ويحذر القرآن الناس عموماً، والمؤمنين خصوصاً من مغبات الحياة الدنيا وشهواتها ويذم ويشنع على من يؤثر الدنيا الفانية وشهواتها، على الآخرة الباقية الخالدة، يقول سبحانه: ﴿أُولَئِكَ مَاؤُهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ١٦. يونس.

ويخبر سبحانه عن مصير الطغاة الذين آثروا الحياة الدنيا عن الآخرة فيقول: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى ۖ وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۖ فَإِنَّ الْحَجِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ۖ﴾ ١٧. النازعات.

فالدنيا مقر مؤقت للعمل ودارٌ للابتلاء لتمييز الصالح من الطالح، والمصلح من المفسد قال تعالى: ﴿الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ ٢٠. الملك، فالتذكير الدائم بالآخرة من أنجع الوسائل فى الرجوع إلى الله، ومعالجة النفس من أدوائها التى تنقلها عن وظيفتها.

خاتمة:

الحمد لله الذى بنعمته تتم الطيبات، والصلاة والسلام على من ختمت به النبوات وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، يهدى الخير ويعين عليه، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وخيرته من خلقه وحبيبه، بلغ وأدى ونصح وجاهد فى الله حق جهاده صلى الله وسلم عليه، وعلى آله وصحبه، ون أتبع هديع، واستن بسنته.

وبعد فقد صحبت دراسة التفسير زمناً، وحاولت أن أقف على أنواع التفسير ومدارسه المختلفة، وقد بان لى أن كثيراً منها وضعية اجتهادية، وليست كلها توفيقية دل على ذلك إكتار بعض من الأقوال، وإقلال بعض من ذلك. اختلف العلماء فى اسم سورة العاديات وأنه جاء بواو القسم فى أوله، وعرى عنها فى قول بعضهم.

مع إجماع العلماء فى قولهم بمكية سورة العاديات لم نجد قطعاً عندهم فى شأن تعدد مرات النزول، وهل قراءة ما نزل من القرآن فى ظرف مستجد يطلق عليه سبب نزول لما قرأ أم لا؟.

لكل نص شرعى هدف ومقصود يقف عنده بعض ويغيب ذلك عن بعض، وقد كان لهذه السورة العظيمة هدفها ومقصودها الذى سجلته الدراسة وأبرزته.

يمكن للباحث وغيره إذا دقق أحدهم فى قراءة السورة ليقف على ما فيها من هدايات أن يرتب تلك الهدايات بحسب أهميتها وأثرها إلى هذه الأربعة: العزيمة والإرادة، ثم القوة فى الطاعة بكل أنواعها، ثم الاهتمام بالوقت، ثم التفاعل والقيادة وأثرها.

ويعيق النفس ويبعدها عن تحقيق ما يناط بها من أعمال الجود وكفران النعمة وحب المال، وإن جاء المنهج التشريعى بما ينهى هذه المعوقات.

المصادر والمراجع:

- أحكام أهل الذمة
- لابن القيم - تحقيق: طه عبد الرؤوف - الكتب العلمية - بيروت - ط ٢ - ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
- أسباب النزول
- عميرات - الكتب العلمية - بيروت - لبنان - ط ١: ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.
- الأشباه والنظائر
- لتاج الدين السبكي ت: ٧٧١هـ - دار الكتب العلمية - ط ١: ١٤١١هـ - ١٩٩١م.
- الأشباه والنظائر
- لجلال الدين السيوطى ت: ٩١١هـ - دار الكتب العلمية - ط ١: ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.
- الأشباه والنظائر على مذهب أبى حنيفة النعمان
- لابن نجيم - تحشية: عميرات - الكتب العلمية - بيروت - لبنان - ط ١: ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.
- الأعلام للزركلى
- البرهان فى أصول الفقه
- للجوينى - الوفاء - المنصورة - مصر - ط ٤، ١٤١٨ - تحقيق: د.عبدالعظيم الديب
- التبصرة
- للخمى - تحقيق: الدكتور أحمد نجيب - وزارة الأوقاف - قطر - ط ١: ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.

- جواهر العقود ومعين القضاء والموقعين والشهود
للسيوطي تحقيق: مسعد السعدنى - الكتب العلمية - بيروت - لبنان - ط ١:
١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.
- سبل السلام
للصنعانى ت: ١١٨٢هـ - دار الحديث - د. ت أو ط.
- الشبهات وأثرها فى العقوبة الجنائية.
لمنصور الحفناوى - مكتبة الأمانة - ط ١، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- شرح ابن ناجى التتوخى على متن الرسالة
للتتوخى ت: ٨٣٧هـ - تحقيق: أحمد المزيدي - ط ١: ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م -
دار الكتب العلمية.
- عقد الجواهر الثمينة فى مذهب عالم المدينة
لابن شاس - تحقيق: د. حميد لحر - ط ١ - ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م - طبعة
دار الغرب الإسلامى.
- عمدة الرعاية بتحشية شرح الوقاية
للكنوى - تحقيق: الدكتور صلاح أبو الحاج - مركز العلماء - ط ١ - بدون
تاريخ.
- فتاوى السبكي
لابن الحسن تقى الدين على بن عبد الكافى السبكي ت: ٧٥٦هـ - دار
المعارف.
- فتح القدير
لابن الهمام ت: ٨٦١هـ - دار الفكر - بيروت - بدون طبعة - وبدون تاريخ.

- الفروق أو أنوار البروق فى أنواء الفروق
- للقرافى - تحقيق: خليل المنصور - دار الكتب العلمية - ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م - بيروت
- فصول البدائع فى أصول الشرائع
- للفنرى - المحقق: محمد إسماعيل - دار الكتب العلمية - لبنان - ط١، ٢٠٠٦م - ١٤٢٧هـ.
- الفقه الإسلامى وأدلته
- د. وهبه الزحيلي - دار الفكر - سورية - دمشق - ط٥ - ١٩٩٩م.
- الفواكه الدوانى على رسالة ابن أبى زيد القيروانى
- لشهاب الدين النفراوى ت: ١١٢٦هـ - دار الفكر - بدون طبعة - ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
- فيض القدير شرح الجامع الصغير
- لزين الدين المناوى ت: ١٠١٣هـ - المكتبة التجارية الكبرى - مصر - ط١، ١٣٥٦هـ.
- قواطع الأدلة فى الأصول
- للمسمانى - المحقق: محمد حسن - دار الكتب - بيروت - لبنان - ط١: ١٤١٨هـ/ ١٩٩٩م.
- القواعد فى الفقه الإسلامى
- لابن رجب - المحقق: طه عبد الرؤوف - مكتبة الكليات الأزهرية - ط١: ١٣٩١هـ - ١٩٧١م.

- الكافي في فقه الإمام أحمد لابن قدامة المقدسى ت: ٦٢٠ هـ - دار الكتب العلمية - ط ١، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م.
- المنثور في القواعد للزركشى - وزارة الأوقاف - الكويت - ط ٢ - ١٤٠٥ هـ - تحقيق: د. تيسير فائق أحمد محمود
- منح الجليل شرح مختصر خليل لمحمد عليش المالكي ت: ١٢٩٩ هـ - دار الفكر - بيروت - بدون طبعة - ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م.
- الموافقات لإبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي ت: ٧٩٠ هـ - المحقق: أبو عبيدة مشهو بن حسن آل سلمان - دار ابن عفان - ط ١ - ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م.
- نظم الدرر في تناسب الآيات السور للبقاعي
- موسوعة القواعد الفقهية لمحمد صدقي بن أحمد بن محمد آل بورنو أبو الحارث الغزي - مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان - ط ١ - ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.

ولاية طرابلس في إطار الصراع العثماني - الأوروبي

د/ محمد الحراري عبد السلام (*)

المقدمة:

بسيطرة القوات العثمانية على طرابلس تمكنوا من الاستحواذ على قاعدة إستراتيجية جديدة في وسط الحوض المتوسطي، وشكلت هذه السيطرة انقلاباً في موازين القوى لفائدة الإمبراطورية الشرقية بما مدّته من ضربة موجهة ضد مناطق النفوذ الأسبانية، ليس على صعيد مراكزها في أفريقيا الشمالية فحسب، وإنما أيضاً في ما يتعلق بسيطرتها على الملاحة الرابطة بين إيبيريا وأوروبا الجنوبية ومذوجات إفريقيا، وبالتالي زاد تحكم الأتراك في عمق العلاقات الاقتصادية بين شرق وجنوب البحر الأبيض المتوسط، ولهذا السبب ارتقت أهمية طرابلس، وجعلت القسطنطينية تضعها تحت إشراف الدايالري، بمهمة مساندة القبودان باشا كلما تطب الأمر ذلك¹.

أمام هذا الوضع المتغير لقائدة القوات الإسلامية وضغوطها المباشرة على مناطق النفوذ الإسباني بتونس، سارع فيليب الثاني إلى إخلاء المهديّة

(*) أساذ التاريخ الحديث - كلية الآداب - جامعة طرابلس

¹ - Fernand Braudel: " La méditerranée et le monde méditerranéen au temps de philippe II" - T II - 5e ed.- A. Colin - Paris 1982 - p37

بعد تدمير تحصيناتها ونقل حاميتها خشية تعرضها لنفس مصير طرابلس، لاسيما وأن قيادة هذه الأخيرة قد أسندت منذ سنة ١٥٥٣م إلى الشخصية الجريئة: درغوت باشا، الذي كانت لعملياته البحرية آثار سلبية على الملاحة الأوروبية بالبحر الأبيض المتوسط^١، هذا التعيين الذي تشير المصادر إلى أنه لم يتم من قبل السلطان إلا بناء على النتائج الباهرة التي حققها على حساب السفن الأوروبية، واستجابة لمتطلبات الوضع في طرابلس بضرورة وجود شخص قوي بمقدوره إقرار الوضع والحفاظ على سلامة السواحل^٢.

إن شهرة درغوت قد فاقت حدود الإمبراطورية لتشكل أرقا للإمبراطورية الأسبانية، وخصوصا في مناطقها القريبة من طرابلس الأمر الذي جعل نائب الملك على صقيلة، **الدوق دو ميدينا سيلبي** وسيد مالط الأكبر **جان دو لافاليتا**، يهتمان بالمجاهد الطرابلسي الخطير الذي كانت عملياته تتخذ المياه الإقليمية لمنطقتيهما مسرحا لنشاطه الكثيف^٣، فضلا على أنه نجح في سنة ١٥٥٨م في السيطرة على جزيرة جربة، ونقلها من نفوذ ملك القيروان الذي انحاز إلى القوات الأوروبية خوفا من ضياع عرشه تحت تهديد النفوذ التركي المحاصر له انطلاقا من الجزائر وطرابلس^٤.

لقد كان الاهتمام الأوروبي عامة والأسباني على وجه الخصوص يتعاظم سنة بعد أخرى منذ اكتساح خير الدين بارباروس ورياسه البحريين في غرب الحوض المتوسطي، وزادت الوضعية استقحالا لدى سقوط

^١ - شارل فيرو: "الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي، ترجمة محمد عبد الكريم الوافي، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان - طرابلس ١٩٨٣م - ص ١٢١

^٢ - الطاهر الزاوي: "ولاة طرابلس من بداية الفتح العربي حتى نهاية العهد التركي" الطبعة الأولى دار الفتح للنشر والطباعة - بيروت - سنة ١٩٧٠م - ص ٣٩٩

^٣ - Braudel - Op. cit - p 285

^٤ - كوسنانزيو برنيا: "طرابلس من ١٥١٠ إلى ١٨٥٠ م" تعريب خليفة محمد التليسي - دار النشر الفرحاني - طرابلس ١٩٦٩م - ص ٧٣

طرابلس، مما جعل الملاحة الأسبانية تواجه أخطارا متعددة منها ما هو متعلق بالصراع المباشر بين الإمبراطوريتين ومنها ما هو غير مباشر وأشد خطورة، ويتمثل في انتشار القواعد البحرية من سلا في المحيط الأطلسيكي حتى طرابلس في ظل حركة مجموعات من الرياس المجريين، تنعم كل واحدة منها بإستقلال شبه ذاتي، متفرقة خلال فصل الشتاء ومتوحدة مع بعضها البعض خلال الفصل الملائم للملاحة، جاعلة من الواجهة المتوسطية الغربية واجهة لنقل الثروات من الخزائن الأوروبية إلى الخزائن العثمانية^١.

وقد صارت طرابلس إحدى قواعد انطلاق السفن وورود المغنم قبل تصريفها في أسواق العالم الإسلامي، وأصبحت تمثل للأنتراك عمليا وموقعا ما تمثله مالطا بالنسبة للعالم المسيحي خصوصا وأن درغوت وطائفته قد نشطوا في تكثيف الحملات والتجوال على الشواطئ الإيطالية، عائدين عند متم كل موسم إلى طرابلس بالوفير من المغنم وبالأعداد الهائلة من الأسرى، وهو ما كان يزرع القلق والرعب في الأوساط الأوروبية، وفي بلاط الإمبراطور الأسباني نفسه^٢.

لقد كان من مهام باشا طرابلس الإشراف على الأسطول، والاهتمام بالعمليات البحرية وببتمية مردوديتها^٣، لاسيما وأن تمويل الجهاز الإداري وتسديد مرتبات الإنكشارية كان يفرض الحصول على الأموال الوفيرة التي لم تكن مردودية طرابلس الجبائية تكفي بها ولذلك استدار الباشوات نحو البحر، وأصبحت كافة الثروات تأتي من هذه الجهة، وأساسا من ناحية

^١ - Braudel - Op. cit - p 283

^٢ - فيرو - ص ١٢٦

^٣ - ابن غليون "التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من أخبار" - نشر وتعليق الطاهر الزاوي - المطبعة السلفية - القاهرة ١٣٤٩ هـ، ص ٩٩

صقلية، وأحياناً كان المجاهدون يلاحقون الثروات في الحوض المتوسطي الغربي وعلى سواحل إيبيريا في كاتالانيا وبلنسيا اللتين على حد تعبير الدوق دو ميدينا دو سيلى أصبحتا تتضوران جوعاً^١.

لقد أصبحت طرابلس مع إستقرار السلطة العثمانية بها تعتمد في نفقاتها على غنائم المواسم البحرية التي يأتي بها الأسطول في غزواته "وكان يتحصل على مقدار كبير منها"^٢، بل لم تكن الثروات المادية هي المستخلصة من السفن والسواحل الأوروبية، وإنما - إلى جانب ذلك - كانت الحاجة ملحة إلى القوة العضلية سواء منها المتخصصة صناعياً أو المحركة للمجاذيف على متن السفن، مما جعل الرياس يجاهدون من أجل الحصول على الكفاية منها.

وقد كان ذلك منذ عهد مراد أغا الذي تشير المصادر إلى أعتمادها في تأسيس منشأته بتاجوراء على الأسرى، كما حصل في عهد درغوت الذي قام بنفس الإستفادة في طرابلس، إذ على أكتاف ثلاثمائة أسير أعاد بناء المدينة، وحصن قلعتها، وشيد الأبراج الجديدة^٣.

أولاً: البحرية الطرابلسية:

رغم أن موسم النشاط البحري لرياس طرابلس مواسمه كانت محدودة ارتباطاً بظروف الملاحة في البحر الأبيض المتوسط، التي لم تكن تسمح بالإبحار إلا خلال الفصل الملائم، الذي يمتد عادة من منتصف أبريل إلى أواسط نوفمبر^٤، ارتقى الأسطول البحري الطرابلسي بسرعة إلى مصاف

^١ - Ibid - p 284

^٢ - الزاوي - ص ٤٠٠

^٣ - فيرو - ص ١٢٢ - ١٢٣

^٤ - عزيز سامح: "الأثر العثمانيون في إفريقيا لشمالية" - ترجمة عبد السلام أدهم - درا لبنان - بيروت ١٩٦٩ - ص ٩٢ - ٩٣، وأيضاً رسائل سلطانية نقلا عن الوثائق العثمانية لدى الأسطى - ص ٦٣

الأساطيل الإسلامية الشهيرة مثل الجزائر، لاسيما خلال عهد درغوت باشا، الذي كانت لعملياته الناجحة في موسم ١٥٥٢م أثر كبير في خلافته لمراد أغا على رأس الولاية في السنة الموالية^١.

وبمجرد استقراره في الباشوية منح العمليات البحرية شحنة قوية، وهاجمت سفنه السواحل الأوروبية وعرضتها للنهب المتواصل عائدة في نهاية كل موسم إلى القاعدة الطرابلسية محملة بالمغانم الوفيرة، الشيء الذي جعل النشاط البحري يبلغ أوجه، ويكفل للبشوية تغطية مصاريف الولاية وتعمير عاصمة الحكم^٢.

ولتحقيق هذه الغايات كان على الباشا بناء على الأوامر الصادرة من القسطنطينية الإحتفاظ بالقوادس العسكرية جاهزة للهجوم تحسبا لكل المفاجآت المسيحية، وبالتالي الاهتمام بنشاط أورش البناء وتجهيز القطع البحرية، مما مكن طرابلس من قوة بحرية هامة بلغ عدد قطعها في أثناء ولاية درغوت حوالي خمسة وثلاثين قادسا^٣، وجعل درغوت يبدو - إلى جانب بيالي باشا - أعظم قائد بحري في عصره، يحظى بالإعجاب والتقدير حتى من قبل خصومه، الذين خلّوه في أدبياتهم، وعلى رأسهم الشاعر الأسباني لورينزو دو سيولفيدا (L.de Sepulveda)، الذي صورته في قصائده بقوله:

" كان يجوب البحار جميعها،

^١ - تشير الوثائق إلى أنه بعد إقصائه عن ولاية طرابلس سنة ١٥٥١م، قام درغوت بعمليات بحرية رفة رياسته على سواحل نابولي وصقلية وكورسيكا، وحاصر عاصمتها باستيا، وأسر منها سبعة آلاف مسيحي تقريبا، كما استولى على سبعة مراكب تابعة للأميرال الإسباني دوريا، قبل أن يتوجه إلى القسطنطينية لتقديم الهدايا إلى السلطان، الذي كافأه على ذلك بتنصيبه باشا على طرابلس. أنظر: برنيا - ص ٦٧، وفيرة - ص ٧٢.

^٢ - سامح - ص ٥٥.

^٣ - جون راينت، تاريخ ليبيا منذ أقدم العصور، ترجمة عبد الحفيظ الميار وأحمد المسازوري، الطبعة الأولى بيروت ١٩٧٢ - ص ٩٤، وبرنيا - ص ٧٢.

ويجعل الملاحة مستحيلة،

فلم ينج من سطوته أمة أو شعب،

في ما عدا الفرنسيين

الذين كانوا في عداد أصدقائه^١.

ولا مرأ أن المؤلفات المتناولة لتاريخ العلاقات المتوسطية قد جعلت طرابلس في قلب الأحداث السياسية، ومركزا بحريا لا يقل شأنه عن بقية القواعد الرئيسة الأخرى، بما كانت سفنها تبثه من رعب وهلع في المياه الإيطالية وفي غيرها، وأصبحت تشكل تراثا في أذهان المسيحيين، حتى أن الإبحار انطلاقا من إيطاليا كان لا يتم إلا مقرونا بتمنى عدم ملاقاته "الشواني الطرابلسية"^٢.

ونتاجا لذلك أصبح لازما على القوات المسيحية مواجهة هذا الإحتمال بصورة مباشرة، دفعت فيليب الثاني بشحن الهمم والعزائم للبحث في سبل التخلص من هذه الأزمة الملازمة للملاحة المسيحية في وسط الحوض المتوسطي، مستغلا في ذلك حماسة قائد منظمي فرسان مالطا جان دو لافاليتا لتحقيق مشروع استعادة طرابلس، وكذا الرغبة العارمة للدوق دو ميدينا دو سيلى نائب الملك على صقلية لإيقاف النزيف الذي تتعرض له المناطق التي يشرف عليها بسبب الضربات المتكررة للسفن الطرابلسية^٣.

لقد وافق فيليب الثاني في شهر يونيو ١٥٥٩م على المشاريع المقدمة من طرف منظمة الفرسان ونائبه على صقلية لغزو طرابلس، حيث أمر دوق

^١ - فيرو - ص ١٤٨

^٢ Braudel - Op. Cit - p 207

^٣ - برنيا - ص ٧٣

فلورانساً بوضع السفن الكافية تحت تصرف الحملة المزمع تنظيمها لهذه الغاية، قائلاً له:

"بما أنه يرضى الإله، فإنه يبدو لجلالتنا التي وقعت السلم أخيراً مع ملك فرنسا المسيحي أنه سيكون في سبيل الإله، ومفيداً للعالم المسيحي ألا تكون السفن التي تحت تصرف إيطاليا معطلة خلال ما تبقى من فصل الصيف هذا، ولكنه يجب أن تستخدم لتدمير سفن القراصنة المسلمين، ولتأمين حرية الملاحة.. ولهذا فإنني قد وافقت على الحملة ضد طرابلس".¹

وينطوي قبول فيليب الثاني لهذا المشروع على خطورة الزج بالإمبراطورية في مواجهة صريحة مع سليمان القانوني، الذي لا يعد درغوت أحد باشواته العاديين فحسب، وإنما أحد كبار القواد المعمول عليهم لإعلاء راية الإمبراطورية العثمانية، مما يفسر الحجم الكبير الذي تشكله خطورة عملياته على مناطق النفوذ الإسبانية المتوسطية، وبالتالي تنفيذ الحملة التي أستهذفت جزيرة جربة كمحاولة أولى لتأمين حرية العمليات العسكرية ضد طرابلس، التي أنهت بالفشل الذريع للقوات الغازية، وزيادة شهرة درغوت وسمعته البحرية، وكان من نتائجها المباشرة تفكير سليمان في اقتلاع الخطر المسيحي من مالطا نفسها.

لقد بينت الحملة الأسبانية الفاشلة عدم قدرة الأسطول الإسباني على تحقيق النصر على جزء بسيط من مكونات الأسطول العثماني الكبير، الشيء الذي شجع الرياس الطرابلسيين على الاستمرار في استنزاف المصالح المسيحية بصورة أكثر قوة، الشيء الذي عبر عنه أمير جنوة في رسالته الموجهة إلى سفيره لدى أسبانيا بقوله:

¹ Braudel – Op. Cit – p 281

"هذا يعود إلى أن هذه البحار أصبحت مفرغة من الشوانى، فلا مركب مسيحي واحد بمقدوره الإبحار فيها".

والنتيجة أن مجرد التفكير في ارتياد مجالات البحر الأبيض المتوسطى كان يبعث على النفور، لاسيما وقد حافظت القواعد البحرية على كفاءتها التجهيزية، ففي سنة ١٥٦٤م بلغت سفن طرابلس ثلاثين قطعة، بمقابل خمسين قطعة للجزائر، وست عشرة قطعة في بونة (تونس)، وأربعة في بادس (المغرب)^١.

وإذا كانت معركة ليبانطو (أكتوبر ١٥٧١م) قد ألحقت خسائر عظيمة بالأسطول العثمانى عامة، وبأجزائه الإقليمية ومن بينها القوة البحرية الطرابلسية التى فقدت ما يربو عن عشرة قطع^٢، دون الحديث عن الأثر النفسى الذى مس مختلف رجال النشاط البحرى، فإنها من ناحية أخرى قد عززت روح الإستقلال الذاتى لدى رياس شمال أفريقيا، ورغبتهم فى العمل لحسابهم الخاص وفقا لخططهم ومبادراتهم بعيدا عن مركزية القرار فى القسطنطينية. ولهذا السبب لم تتأثر طرابلس بحجم الهزيمة، بل ظلت محتقظة على قوتها العملية وعلى جرأة مبادراتها البحرية، حيث كان يلزم لاحتلال طرابلس - حسب المصادر الأوروبية- تجهيز مائة سفينة وعشرين ألف رجل لإنجاح أية حملة^٣.

وهذه الوضعية جعلت باشوات طرابلس - رغم الظروف المعاكسة التى تجتازها سلطاتهم فى ليبيا بفعل الإضطرابات والفوضى الناجمة عن الثورات المحلية - يكرسون جهودهم للحفاظ على ازدهار المواسم البحرية

^١ -Ibid - p 205

^٢ - برنيا - ص ٩١

^٣ - رايت - ص ٩٤

وجباية الأعشار والمغانم والرقيق، سواء في عهد رمضان باشا المضطرب، أو في عهد مصطفى باشا الفاقد لكل سلطة حقيقية^١، ولم تتأثر كفاءة الأسطول الطرابلسي إلا مع توالي أعوام الفتن، واضطرار الباشوات وقواد الإنكشارية إلى تركيز كافة اهتماماتهم على الداخل القاري، لدرء خطر تقويض السلطة التي أضحت محاصرة حتى داخل طرابلس نفسها^٢.

ثانياً: الضغط العسكري الأوروبي:

منذ استقرار العثمانيين فوق الأراضي الليبية واتخاذ طرابلس مركزاً سياسياً وقاعدة بحرية مندمجة في إطار الصراع المتوسطي بين الأتراك والأسبان وحلفائهم، أضحت المنطقة بؤرة توتر بين الخصمين، وزادت من حدة ذلك التقارير الأوروبية عن الوضعية الداخلية للإمبراطورية العثمانية داخل البلاط ذاته، واستنتاجها للتأزم الناجم عن الصراع الدائر بين أبناء السلطان في بداية النصف الثاني للقرن ١٦م^٣، وهذا ما كان يعني شدة إشغال الباب العالي بالأقاليم المرتبطة بالقسطنطينية عن طريق البحر، والمتسمة بموسميّتها تحت تأثير الظروف الطبيعية.

ومنذ سنة ١٥٥١م عرفت طرابلس عدة محاولات أوروبية لاستعادتها سنوات ١٥٥٢م، و ١٥٦٠م، و ١٥٦٦م^٤، حيث بعد تنصيب مراد أغا على رأس باشوية طرابلس حاول فرسان مالطا تعويض فقدانهم للمدينة بالقيام بحملة مفاجئة على ضواحيها، وخاصة على مركز زوارة في الغرب، وقد انطلقت الحملة في ٦ غشت ١٥٥٢م متكونة من ست عشرة قطعة بحرية

^١ - برنيا - ص ٩٤، ٩٦

^٢ - نتيجة لهذا الوضع تراجع الأسطول الليبي إلى أضعف مستوياته، حيث لم يكن عدد السفن المستعملة تتجاوز القطعتين في سنة ١٦١٢م. أنظر: Braudel - Op. Cit - p 207

^٣ Braudel - Op. Cit - p 282

^٤ - رايت - ص ٩٣

وثمانمائة جندي بقيادة الأسقف ليون ستروزي (L. Struzzi)، وبمشاركة جان دو لا فاليتا^١.

وقد تم اختيار زوارة هدفا للحملة اعتقادا من أن نفوذ الوالي الطرابلسي لم يمتد إليها بعد، واستطاع الغزاة الإستيلاء عليها بسهولة بعدما أسروا خمسمائة من سكانها، وأرهبوا نواحيها بممارسة عمليات النهب، في الوقت الذي كانت فيه قوة عسكرية تركية قوامها ستة آلاف إنكشاري تحت إشراف مراد أغا، ومعززة بألفي محارب تونسي تنفذ هجوما مضادا دفعت بفلول المسيحيين إلى الإنسحاب الإضطرابي في فوضى عارمة، الشيء الذي مكن القوة التركية من إلحاق خسائر فادحة بالغزاة، تمثلت في مقتل أزيد من مائتي جندي^٢.

ولهذه النتيجة السلبية ولاستبدال مراد أغا بقائد أكثر حنكة وتجربة في مقارعة المسيحيين، صارت وضعيّة النفوذ الأسباني على السواحل التونسية الشرقية مهددة بشكل مباشر من طرف درغوت باشا، خاصة وأن مشاكل فيليب الثاني المالية والسياسية داخل أوروبا لم تكن تسمح له بتجهيز وتمويل الحاميات الإفريقية، في وقت كان فيه الوضع يتطلب توفير المصاريف المهمة لتدعيم التحصينات والدفاعات في مختلف هذه المراكز، الأمر الذي دفعه إلى تبني خيار الجلاء عن مدينة المهدية بعد تدميرها سنة ١٥٥٣م^٣.

لقد أصبح التوسع العثماني من جراء هذا الوضع يكتسح المناطق المسيحية السابقة انطلاقا من طرابلس باتجاه الغرب، مع ما شكله ذلك من تقويض للنفوذ الإسباني وللمملكة الحفصية على حد سواء، الأمر الذي شجع

^١ - يشير الزاوي إلى أن عدد الجنود المسيحيين كان يصل إلى ألفي مقاتل. أنظر: الزاوي - ص ٣٩٧

^٢ - للوقوف على تفاصيل هذه الحملة ونتائجها، أنظر: برنيا - ص ٦٣ - ٦٧.

^٣ - فيرو - ص ١٢١

عاهلها في أفق الحفاظ على استمرارية نظام الملك التونسي على التعاون مع الوجود الأسباني، مستغلا سلطنه المعنوية التي كانت كبيرة حسب الشهادات الأوروبية المعاصرة، التي تصفها بأنها "تشابه تقريبا سلطة البابا بالنسبة للمسيحيين"^١.

وبناء على ذلك حاول هذا الأخير تسخير نفوذه للتأثير على ساكنة المنطقة وللاستقطاب القبائل البدوية إلى جانب تحالفه مع المسيحيين، لمجابهة أطماع درغوت في التراب التونسي وعلى رأسه جزيرة جربة.

ورغم هذا الإجراء الوقائي الذي حاول الملك الشابي نهجه، فإن درغوت الذي كان يعي الأهمية الإستراتيجية للجزيرة وخشيته من استثمار المسيحيين لها لتهديد سلامة طرابلس ومناطق النفوذ التابعة لها، لقد لجأ في سنة ١٥٥٨م إلى مهاجمة الجزيرة والقضاء على عاملها الشيخ سليمان بمعاونة عرب زوارة والقبائل المجاورة، ونصب عليها شيخا من أهلها: مسعود السمووني^٢، وبالتالي تمكن من تأمين الجبهة الغربية لليبياء، ومن تصعيد تهديده المباشر للممتلكات التونسية.

وببلوغة لجزيرة جربة أصبحت وضعية تونس أكثر عرضة للضغط العثماني، إذ أنضاف ضغط درغوت عليها من جهة الشرق إلى التهديد الجزائري المتواصل عليها من الجهة الغربية، الشيء الذي جعل التقارير الأوروبية تشير إلى خطورة نتائج ذلك على المصالح المسيحية في غرب المتوسط بعد إنهياره شرقا، مشجعا السلطات السياسية الأسبانية على ضرورة الاهتمام بطرابلس وبرجالها، خصوصا وأن مشاكلها الداخلية قد أرقت حديثا

^١ -Braudel - Op. Cit - p 285

^٢ - فيرو - ص ١٢٥

مع بروز الفتن والتمردات التي وضعت درغوت في موقع حصار شديد، فضلا عن إشارتها إلى عدم وجود أسطول تركي هام بمقدوره مساندة طرابلس^١.

وعلى العموم جذب الإهتمام بطرابلس مختلف القوات المسيحية المرتبطة بأسبانيا "بمناقشات عديدة وبمبادرات عملية قليلة" كما يقول بروديل^٢، قل أن تتطور إلى خطة تنفيذية سنة ١٥٦٠م، حيث تشكلت الحملة من خمس وستين كتيبة وست عشرة سرية من أسبانيا، وإيطاليا، وألمانيا، وفرنسا، فضلا عن أربعمئة فارس من منظمة مالطا، وجنود مدفعية بمجموع ينيف عن ثلاثين ألف رجل على متن مائة سفينة من مختلف الأحجام، تحت الإشراف العام للأميرال يوحنا أندريا دوريا، ابن أخ الأميرال الأسباني السابق ومساعدته، كما زودت الحملة بمؤونة تكفي لمدة أربعة أشهر كاملة.

وقد دفعت هذه الاستعدادات درغوت باشا إلى التحصن بطرابلس في انتظار وصول النجدة المركزية، حيث كانت التقارير قد أطلعت القسطنطينية على تركيز السفن المسيحية من أجل مهاجمة ولاية طرابلس، واتخذ الباب العلي قرار بتجهيز المراكب الحربية للدفاع عن نفوذ بليبيا، وفي الوقت ذاته أمر مشايخ وعلماء وأعيان ليبيا بالمساهمة في التعبئة الشاملة لمواجهة المد المسيحي، وبالحنز واليقظة في الأماكن الساحلية^٣.

وقبل أن يصل الدعم العسكري من المركز وصلت القوات الغازية إلى جزيرة جربة واحتلتها في مارس ١٥٦٠م بعد القضاء على المقاومة العنيفة لأهاليها، وحملهم على الإستجابة لطلب الصلح على أساس تسليم القلعة

^١ Braudel – Op.cit- p 285 – 286

^٢ - فيرو - ص ١٢٧ - ١٢٨

^٣ - أنظر نص الرسالة السلطانية المؤرخة في ٥ ربيع الأول ٩٦٧هـ في الملاحق، نقلا عن سامح - ص ٦٨ -

ودفع الجزية إلى الملك الأسباني بنفس مقدار ما كان يدفع للأتراك^١ وفي تلك الأثناء كانت القوات العثمانية تتحرك باتجاه مياه طرابلس متألّفة من ستين سفينة برئاسة القبودان بيالي باشا، وبمساعدة نائبه علوج على الفرطاس.

وقد حاولت الحامية الأسبانية المتمركزة في جربة تدعيم مواقعها دون أن يثنى ذلك الزحف الكبير للقوات التركية التي استقادت من الظروف المناخية التي دفعت بالعديد من السفن المسيحية إلى الجنوح على الشاطئ وإلى سقوط ثلاثة وعشرين مركبا في قبضة الأتراك، وأسر خمسمائة جندي وبعض من الأعيان كأسقف مايورقا، ونائب الملك غاستون دو لا سيردا (G.de la Serda)، في حين تمكن والده من الفرار مع دوريا وبقية ضباطه على متن فرقاطات تاركين حامية جربة لمصيرها المحتوم الذي انتهى باستسلامها في يونيو ١٥٦٠م^٢، بعد ارتفاع فداحة الخسائر المسيحية إلى ثلاثين ألف قتيل تقريبا^٣، التي اعتبرت بمثابة نكسة كارثية للعالم المسيحي، حيث أقيم من رفات القتلى نصب تذكاري قرب قلعة جربة سمي "برج الجماجم"^٤.

إن هذه الهزيمة النكراء لم تثن رغبة أسبانيا ونائبها على صقلية في استئصال الخطر العثماني المهدد لمصالحها في إيطاليا وتونس، بل زاد الاهتمام بطرابلس وبالملاحاة في وسط الحوض المتوسطي، خصوصا وأن درغوت ورياسه قد شجعهم هذا الانتصار على تضيق الخناق على الملاحاة التجارية وعلى شواطئ أوروبا الجنوبية، في وقت كانت فيه التقارير تشير

^١ - فيرو - ص ١٣٥ - ١٣٦

^٢ - أنظر تفاصيل الحملة في برنبا - ص ٧٣ - ٧٦، وفيرو - ص ١٢٧ - ١٤٣

^٣ - سامح - ص ٧٨

^٤ - ظل هذا البرج قائما حتى سنة ١٨٤٨م، أنظر: برنبا - ص ١٤٦

إلى سهولة اختراق حاشيته، ووجود متعاونين ضمن رجاله، زيادة على المعارضة التي كان يؤججها العديد من شيوخ القبائل المحلية سواء في تاجوراء أو في جربة^١.

وقد شكل الأسرى المسيحيين الذين كانوا رهن اعتقاله طابورا خامسا يمد المسيحيين بالمعلومات المتعلقة بالنواحي العسكرية والدفاعية للمدينة، ومن ذلك تقرير القس نيكولو المبعوث إلى نائب الملك على صقلية سنة ١٥٦٢م تحت عنوان "حديث عام عن أوضاع طرابلس" تطرق فيه إلى أوضاع المدينة ترغيبا للقوة المسيحية في إستعادة طرابلس^٢.

لكن الهزيمة السابقة وإحساس القوات المسيحية باستحالة تحقيق نصر حاسم فوق التراب الليبي جعلها تلجأ إلى الوقوف موقفا دفاعيا في مراكزها التونسية، وإلى مجابهة الهجمات البحرية بالمثل، لاسيما وأن أسبانيا قد استعاضت عن فقدانها لجربة باحتلال قلعة بادس على الساحل المغربي، ونجاح فرسان مالطا في تحقيق مغنم على حساب السفن العثمانية، ومنها مهاجمتها لسفن سلطانية محملة بالثمين من البضائع لفائدة الباب العلى^٣.

لقد أثبت هذا الأسلوب انتقال المبادرة العسكرية من يد العثمانيين إلى القوات المسيحية، الأمر الذي دفع بالسلطان إلى الاهتمام بجزيرة مالطا وإلى التفكير في ضرورة اقتلاع المنظمة منها^٤، لاسيما وأن التحالف بينها وبين أسبانيا وجنوة بات يقلق بال القسطنطينية، ولذلك راح خيار منع العالم المسيحي من دور المراقبة الذي كانت تلعبه مالطا سواء لمواجهة تحركات السفن البحرية أو لحماية الطرق التجارية في وسط الحوض المتوسطي ينذر

^١ - Braudel – op.cit- p 285

^٢ - برنبا - ص ٧٨ - ٧٩

^٣ - صادرت سفن منظمة فرسان مالطا الغيرون الكبير المشهور "بيرم أو غلو" المملوك للسلطان، ثم غليون

صهره رستم باشا. أنظر نفسه - ص ٨٢

^٤ - فيرو - ص ٢١٠

بقرب المواجهة الجديدة بن الإمبراطوريتين المتصارعتين، ويقول في ذلك صاحب المنهل العذب:

"وأرسل الوزير إسفندريا أوغلة مصطفى باشا إلى مالطا في الأساطيل، ولقبه بالسردار وأرفقه بالقبودان بباله باشا، فقدموا إلى مالطة، ولحق بهم طرغود باشا، فخرجت العساكر إلى البر وأخذوا في عمل خنادق أمام القلعة، وأقاموا عليها الحصار الشديد إلى أن أثنخوا بها، وأخذوا أسرى كثيرين".^١

وقد تكون الأسطول المهاجم من مائة وثلاث وتسعين قطعة بحرية، يقودها درغوت باشا وحسن بك الجزائر وعلوج على تحت الإشراف المباشر لبيالي باشا، وبمؤونة تكفي لسبعة أشهر. وقد بدأ حصار مالطا في شوال ٩٧٢هـ/ماي ١٥٦٥م، وتمكنت القوات العثمانية من السيطرة على بعض المواقع، إلا أن شدة المقاومة وصمود الفرسان والحاميات المسيحية جعلت خسائر الجيش العثماني ترتفع بقوة، ومن ذلك استشهاد القائد درغوت باشا في يونيو من نفس السنة، الشيء الذي فرض على الأسطول العثماني الانسحاب ورفع الحصار، خاصة وقد كانت مالطا تتلقى الدعم العسكري المتواصل من أسبانيا وإيطاليا.^٢

وقد بقيت العلاقات العثمانية - الأوروبية مشوبة بتوتر شديد، خاصة وأن كلا الطرفين ظل يرغب في توسيع نفوذه على حساب الآخر فوق سواحل شمال أفريقيا، وكان كل تحرك عسكري يجري في إيبيريا أو في تركيا يرى فيه الآخر تهديدا وإستعدادا لحملة جديدة.

^١ - الأتصاري أحمد بك: "المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب" منشورات مكتبة الفرجاني- طرابلس ج ١ - الطبعة الثانية، بدون تاريخ. ص ٢١٠

^٢ - أنظر تفاصيل الحملة على مالطا في برنبا: ص ٨٣ - ٨٨

وأستمرت هذه الوضعية المتأزمة إلى حين قيام التحالف المسيحي (La Liga) في مايو ١٥٧١م بمهمة تدبير الصراع المشترك ضد العثمانيين، بعد توصل أسبانيا وروما البابوية والإمارات الإيطالية ومالطا إلى اكتساب ثقة متبادلة من أجل توطيد مصالحها وأهدافها، وهو تحالف هجومي - دفاعي موجه ضد الأتراك وضد المناطق التابعة لهم، ولاسيما في طرابلس وتونس والجزائر، وكان ذلك تحت الطلب الإستعجالي لفيليب الثاني الراغب في حماية المجال الحيوي المسيحي في مواجهة المد الإسلامي^١.

وقد شكل هذا التحالف استفزازا مباشرا للإمبراطورية العثمانية، سرعان ما ترتب عنه نشوب معركة ليبانطو (Lepante) الشهيرة في ٧ أكتوبر ١٥٧١م، التي ساهمت في أطوارها القوات الطرابلسية مثل غيرها من الولايات العثمانية بالرجال وبالسفن تحت الإشراف المباشر لجعفر باشا، التي كانت نتائجها كارثية على عموم القوة العثمانية، وجعلت "الطرابلسيين طوال أشهر عديدة يكون موتاهم الذين بلغ عددهم ألفي قتيل"^٢.

ونتيجة لهذا النجاح غير المتوقع بادر الأسبان وفيليب الثاني إلى استثمار الوضعية السياسية الملائمة لتعزيز قبضته على تونس، معرضا عن طرابلس التي لم تعد تبدو في نظره تستحق الإهتمام السابق^٣، مستفيداً من الدعم الذي أبداه الملك الحفصى محمد بن الحسن العائد إلى تونس على أكتاف العساكر الإسبانية.

وخشية من امتداد الغزو إلى كافة مقاطعات الشمال الأفريقي وجه السلطان أسطوله العسكري بقيادة سنان باشا وعلوج على لاقتلاع الحضور

^١ Braudel - Op. cit- p 384 - 385

^٢ - برنبا - ص ٩١

^٣ - في ذلك يقول فيليب الثاني سنة ١٥٧٤م: " يجب إعلام أخي بأن شؤون طرابلس وبجاية لا تبدو بالأهمية التي تستوجب جعل الأرمادا في البحر طوال فصل الشتاء ". أنظر: Braudel - Op. cit- p387.

الأسباني على تونس، مشيراً على القوات الطرابلسية بتدعيم الهجوم البحري بقواتهم البرية وبسفنهم، واستطاع الجيش العثماني الزحف على حلق الواد "وحاصر قلج على باشا حلق الوادي، ووالى عليه القتال إلى أن أخذه عنوة، وحكم السيف في أهله.. ثم جرد الوزير سنان باشا عسكرياً لحصار تونس وأوقعوا بها، ففر من بها من الإسبانيول ومعهم محمد بن الحسن الحفصى إلى البستيون، وتملك العسكر العثماني تونس وقصبتها.. لخمس بقين من جمادى الأولى من هذه السنة (٩٨١هـ)".^١

وبهذا النجاح ثار العثمانيون لهزيمة لبيانطو، وتم تثبيت سيطرتهم على تونس والجزائر وطرابلس.

ثالثاً: الدعم المسيحي للتمرد الداخلي:

إلى جانب الصراعات الجزئية الموسمية التي كان الأتراك والمسيحيون ينخرطون فيها في شكل حروب استنزاف بحرية والحروب النظامية حول مراكز النفوذ، كان هاجس القوات المسيحية يتجلى في العمل على إفشال التمرکز التركي فوق الأراضي الليبية، أو على الأقل جعله يعيش نفس الوضعية التي مرت بها الحاميات المسيحية في عهد الإحتلالين الأسباني والمالطي طوال الفترة الممتدة من سنة ١٥١٠ إلى ١٥٥١م.

وعلى هذا كانت أنظار مالطا وبالرمو ومدرید منصبة بدرجة كبيرة على طبيعة الأوضاع الداخلية للولاية العثمانية، ومتتبعة تطور الأوضاع السياسية والعلاقات بين العنصر التركي والأهالي، هذه الأوضاع التي راحت مراكز القرار السياسي الأوروبية تلمس - حسب عيونها المبتوثة وتقارير جواسيسها - تباعد الهوة يوماً بعد يوم بين الحكام والمحكومين.

^١ - الأتصاري - ص ٢١٣ - ٢١٤

وقد سبق أن أشرنا إلى الموقف المحلى من سياسة الباشوات المهتمين بالجباية وبفرض المغارم بمختلف وسائل الإكراه، وهذا ما جعل العلاقة قائمة على الحذر المتبادل، وعلى رغبة الأهالي فى التخلص ممن يرون فيهم مجرد جباة مبتزين لا تختلف سياستهم عن سياسة من سبقهم من الغزاة، وبالتالي كان الهدف يدفع بهم إلى البحث فى كل أشكال الخلاص، ولو بالتقارب مع خصوم الأتراك، وعلى رأسهم فرسان مالطا وغيرهم.

لقد ثبت أن جل الثورات والفتن التى عرفتھا الأقاليم الليبية والجهات التابعة لها فى شرق تونس قد أرتبطت بشكل أو بآخر بدعم فرسان مالطا المادى أحيانا والمعنوي غالبا، خاصة وأن الجهاز الإدارى للباشوية كان يشتمل على عناصر تنتمى لمختلف الأجناس مثل علوج مسلمين أوروبية الأصل، وهو ما كان يجعل وحدة السلطة السياسية سهلة الاختراق. لقد ذكرنا أن حاشية درغوت ضمت من بين رجالها متعاونين مع المسيحيين جرت بينهم وبين الدوق دو مديدينا دو سيللي مشاورات قبل حملة درغوت على جربة، وكان على رأس هؤلاء جعفر كاطانيا (Catania)¹.

وقد حاول فرسان مالطا استغلال التنافر الحاصل بين مكونات المجتمع الليبى، وخصوصا أهالي تاجوراء الذين كانت لهم الريادة فى اندلاع الحركات المناوئة للوجود التركى حتى فى زمن درغوت باشا. وقد راسل هذا الأخير السلطان سليمان القانونى يخبره بنشوب تمردهم اعتمادا على الدعم المقدم من طرف منظمة الفرسان².

وتؤكد رسالة سلطانية موجهة إلى بايلرباى الجزائر سنة ١٥٥٨م هذه الأخبار، بإشارتها إلى إطلاع القسطنطينية على تجمع أسطول بحري بإيطاليا

¹ - Braudel – Op.cit-p285

² - برنبا - ص ٨٩

بغرض مهاجمة طرابلس بناء على تحريض من بعض مشايخ عرب جربة وطرابلس^١، وهو التعاون الذي أسفر عن الحملة الأوروبية الفاشلة على جربة سنة ١٥٦٠م.

لقد أدى التعاون بين المسيحيين ومشايخ بعض القبائل الليبية إلى اهتمام الباشوات بهذه الناحية لإفشال أى تواطؤ مستقبلي مستعملين فى ذلك كافة الأشكال العنيفة للقضاء على تمرد الأهالى، كما حدث سنة ١٥٦٧م، فاعتقاداً من علوج على بتواطئهم مجدداً مع المسيحيين لدى اندلاع تمرد تاجوراء فى تلك السنة، قام بمحاصرتها برا وبحرا، وزحف عليها بما يزيد عن ألف فارس، وشنت شمل سكانها واحتل المدينة وفرض الطاعة على ما تبقى بها من الأهالى^٢.

والواقع أن التدخل المسيحي وتأثيره فى سیرالعلاقات بين الأتراك الليبيين لم يتوقف رغم صدور أمر من القسطنطينية بضرورة وقاية الولاية من الجواسيس، حيث حظر السلطان دخول البلاد على المسيحيين وعلى العلويين لذيوع أخبار تحريض المسيحيين للأهالى على الفتنة، بل كان هؤلاء الجواسيس يتخفون فى زى مسلمين أو شرفاء لإمداد سلطاتهم بالمعلومات القيمة أو لزرع الشقاق^٣.

ورغم أن الوثائق لا تمدنا بمعلومات كافية عن مجهودات أوروبا لعرقلة استقرار السلطة فإننا نجد بصمات رجالها فى مختلف الثورات التى عرفتها ولاية طرابلس، وخاصة ثورة السويدى حيث لجأ هذا الأخير فى أثناء حصاره لطرابلس وفشله فى اقتحام القلعة إلى طلب دعم فرسان مالطا، وهو

^١ - أنظر النص الكامل لهذه الرسالة لدى سامح - ص ٥٧

^٢ - سامح - ص ٨٢

^٣ - سامح - ص ٨٢ - ٨٣

ما كاد أن يستجيب له مرشدھا الأكبر فيردال (Verdalle) لولا عدوله عن ذلك من جراء وصول قوات تركية جديدة، دفعت بالتأثر إلى رفع الحصار^١.

ونفس الشيء نجده في أثناء ثورة نبال الذي بعد قضائه على أعداد هامة من أفراد الإنكشارية، ورغبة منه في تحقيق السيطرة النهائية على المدينة قبل وصول معونات عسكرية عثمانية إلى حاميتها، ربط الإتصال بمنظمة الفرسان، الذين كانوا يتأهبون لتدعيمه لولا أن بطء مبادرتهم زامن وصول الدعم العثماني من القسطنطينية^٢.

وعلى العموم، إذا كانت نهاية القرن ١٦م قد جعلت النفوذ المسيحي ينأى تماما عن الأراضي الليبية، لاسيما مع إندحار القوات الأسبانية في معركة حلق الواد، رغم إستمرار وجود منظمة الفرسان بمالطا كرأس رمح موجه للإستقرار العثماني بطرابلس، فإن الواقع السياسي للمنطقة ورغبة القوى الفاعلة في التحكم فيها كل لمصلحته قد جعل القسطنطينية تعترف بالأمر الواقع، وتقبل ضمنيا الأستقلال الذاتي للولاية لقاء الحفاظ على تبعيتها الاسمية وأداء حقوق هذه التبعية، الشيء الذي سيجعل ولاية طرابلس تعرف منذ مطلع القرن ١٧م نظاما سياسيا أكثر محلية برئاسة الداي، رغم سيطرة عناصر خارجة عن سلطاته على مجريات الأمور.

^١ - فيرو - ص ١٥٨

^٢ - برنبا - ص ٩٩

المصادر والمراجع:

١- ابن غلبون "التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من أخبار" - نشر وتعليق الطاهر الزاوي - المطبعة السلفية - القاهرة ١٣٤٩ هـ

٢- الأنصاري أحمد بك: "المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب" منشورات مكتبة الفرجاني- طرابلس ج ١- الطبعة الثانية، بدون تاريخ

٣- شارل فيرو: "الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي، ترجمة محمد عبد الكريم الوافي، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان- طرابلس ١٩٨٣ م

٤- الطاهر الزاوي: "ولاة طرابلس من بداية الفتح العربي حتى نهاية العهد التركي" الطبعة الأولى دار الفتح للنشر والطباعة - بيروت - سنة ١٩٧٠ م

٥- كوسنانزيو برنيا: "طرابلس من ١٥١٠ إلى ١٨٥٠ م" تعريب خليفة محمد التليسي - دار النشر الفرحاني- طرابلس ١٩٦٩ م.

٦- عزيز سامح: "الأتراك العثمانيون في إفريقيا لشمالية" - ترجمة عبد السلام أدهم - درالبنان - بيروت ١٩٦٩

٧- جون رايت، تاريخ ليبيا منذ أقدم العصور، ترجمة عبد الحفيظ الميار وأحمد المسازوري، الطبعة الأولى بيروت ١٩٧٢

8- Fernand Braudel: " La méditerranée et le monde méditerranéen au temps de philippe II" - T II - 5e ed.- A. Colin - Paris 1982

الاضطرابات الصوتية لدى الطفل الأصم

نحو برنامج تكميلي بديل

مقاربة نفسية لسانية

د/ حميداني عيسى (*)

لا يخفى على أحد أنّ اللغة الانسانية هي أرقى الأنظمة التواصلية التي تعكس إنسانية الانسان مقارنة بمختلف المخلوقات الأخرى التي نَقَلَسَمَ هذا الوجود؛ فهي كهيئة بعقد التواصل، وتحديق التفاهم بين الناطقين بها في مجتمع لغوي معين. لأنها نظام من العلامات تؤدي وظيفة اجتماعية أو بالأحرى هي مؤسسة اجتماعية Institution Social على حد تعبير "دي سوسير" يستطيع بنو البشر التواصل فيما بينهم والتعبير عن متطلّباتهم وأحاسيسهم ومكونات نفوسهم اعتمادا على مجموعة من الأفكار التي يمكن تحليلها إلى وحدات معنوية وصوتية وثل ذلك ما كشف عنه الطبيب ابن سينا في قوله : « لما كانت الطبيعة الإنسانية محتاجة إلى المحاورة لاضطرارها إلى المشاركة و المجاورة ، انبعت إلى اختراع شيء يتوصل به إلى ذلك... فضالت الطبيعة إلى استخدام الصوت ، ووفقت من عند الخالق بآلات تقطيع الحروف وتركيبها معا ، ليبدل بها على ما في

(*) كلية الآداب واللغات - جامعة ابن خلدون - تيارت - الجزائر

النفس من أثر»^١، لذا لا يمكن للإنسان أن يعيش بمعزل عن المجتمع، ولا يمكن عزل اللغة عن اطارها الاجتماعي* به تحيا وبدونه يكون مآلها الاضمحلال والانقراض، كما انقرضت الكثير من اللغات. ولئن كانت الوظيفة التعبيرية هي النواة، فليس معنى ذلك أننا نضرب صفحا عن الوظائف الأخرى، التي تعد- في الحقيقة-وظائف ثانوية إذا ما قيست بالوظيفة المحورية ألا وهي التعبير. يقول "اندري ماريتني (A-Martinet): «إن الوظيفة الأساسية للغة هي التعبير والتواصل، لأنها قادرة على تلبية كل المتطلبات للجماعة المتكلمة بها»^(٢)

بات واضحاً أن ظاهرة التواصل اللغوي عملية ليست بالهينة، إذ تشترك في تجسيدها مختلف الأعضاء المصنوعة (les organes de phonation) على مستوى الجهاز الفيزيولوجي النطقي، فضلاً عن الجهاز اللاقط أو السمعى التي يستقبل الرسالة (Message) هذا من جهة، وبين الدماغ البشري الذي هو خالق بالسيطرة التامة على هاتين العمليتين (النطق، والسمع) من حيث الإدراك، والإرسال، لأنه « قد يصيب بعض أجهزة الإنسان التي لها علاقة باللغة من اضطراب أو تلف أو تشويه يعطله عن تأدية وظيفته في إصدار الكلام أو في استقباله. فقد يولد بعض الأطفال صماً بكماً وقد يولد بعضهم بعيوب لها صلة بأعضاء النطق أو السمع مثل شق في الحلق، أو قصر في اللسان، أو انسداد في الأذن الداخلية أو الوسطى أو غير ذلك، وقد تحدث لهم في أثناء الحياة إصابات تعوقهم عن أداء الكلام صورة طبيعية.»^٣

^١ - مباحث في اللسانيات د/ أحمد حساني، ص ٦٦ - ٦٧.
 "إن هذا المجال الاجرائي هو من اهتمامات اللسانيات الاجتماعية (Sociolinguistique) التي تدرس الظاهرة اللغوية كما هي متداولة في الوسط الاجتماعي، وتعتبر اللسانيات الاجتماعية من أحدث العلوم الحديثة البارزة.

^٢ - André Martinet " éléments de linguistique générale" P 9

^٣ - عاطف مذكور " علم اللغة بين القديم والحديث"، دمشق، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية، ١٩٨٧، ص ٧٨.

لقد أكدت الدراسات الصوتية واللسانية أنّ الطفل السوي يستطيع اكتساب لغته الأم دونما جهد أو صعوبة بالنظر للعوامل الوراثة والنفسية والاجتماعية التي تحيط بهذه العملية المعقدة ؛ فقد بات من المؤكد الآن أن الكلام ظاهرة إنسانية مكتسبة من مصادر متفرعة ، ولم نجبل عليها، وقد أورد الدكتور عبد الجليل مرتاض نصا لـ "شارل جودر C-Goedert" يقول فيه : «عندما نأتي إلى هذا العالم نجد قرب مهدنا اللغة التي تسبقنا وجودا لدى من يحيطون بنا. إنها "تستور" أو "تصب تذكاري محترم Vénérable محفوظ في القواميس والقواعد (...) إنها نظام لا يتغير Immuable وسنخضع له طوعا أو كرها .غير ان هذا النظام كيف شيئا فشيئا من قبل الأجيال المتعاقبة، وإذا كان هذا الأثر محترما ،فلأنه يحمل في طياته شهادة لأروع حركة للفكر الإنساني ،وهو لهذا السبب ليس محرما ،انه تطور ، ويتطور وسيستمر في تطوره.»^(١).

ربما قد يجد الأطفال الصم البكم بعض العوائق في اكتساب اللغة ويتأخر ظهورها لديهم بعض الشيء مقارنة بآثرابهم الأسوياء نظرا لفقدانهم الاتصال بغيرهم ، أو بالأحرى افتقارهم لعوامل سوسولوجية تساعدهم على ذلك ومن الطريف أن نذكر هنا أن الفرق -في ضوء الدراسات العلمية الحديثة- لا يقتصر بين « الطفل الأصم الأبكم ونظيره السوي على مجرد فقدان الأول سمعه ونطقه كما ظن المختصون في السابق ، وإنما هو يتعدى ذلك إلى درجة الأهم فيظهر في التغيرات التي تحصل في عمليات إدراكه

Charles Goedert " guide

^١ - عبد الجليل مرتاض ،م نفسه ،ص٢٠، وينظر
pratique de Grammaire Française " éd du seuil, 1983 ;P13.

الحسي بفعل افتقاره اللغة ، وبعبارة أخرى أن فقدانه الاتصال بالآخرين عن طريق الكلام بفعل فقدانه سماع الكلمات يؤدي حتماً إلى عدم اكتساب جميع انعكاس العوامل البيئية المحيطة انعكاساً موضوعياً في الذهن لفقدانه اللغة المتحدث بها.^١ ومن هنا فإذا كان مهارة السمع بهذه الأهمية فمن باب أولى الاهتمام بالجانب الإدراكي السمعي للأصوات خاصة إذا علمنا أن المتتبع لأهم المؤلفات المهمة بالدراسات الصوتية في العصر الحديث يدرك مدى اهتمامها بالجانب التصويتي ، وأعني بذلك جهاز النطق وإبراز دور الجوانب الفزيولوجية المتعلقة بهذا الجانب دون التركيز أيضاً على العملية الميكانيكية لالتقاط الأصوات ، وهذا من اهتمامات علم الأصوات السمعي (Phonétique Auditive) الذي لا يقل أهمية عن علم الأصوات النطقي (Phonétique Articulatoire) ، وظني بهم أنهم يعدون النطق هو الأولى بالدراسة من غيره ، وفي ذلك يقول "دي سوسير"^٢ : «إنّ الدراسات الصوتية الحديثة وإن كان اهتمامها منصبا على أعضاء النطق وتحديد وظائفها، فلم يكن الحديث عن هذا الجهاز منفصلاً عن جهاز السمع لما له من دور فعال في استقبال الصوت وإدراكه، ولكن الكثير من الدارسين لعلم الأصوات الوظيفي يهتمون بدرجة كبيرة بالجانب التصويتي، أي إنتاج الأصوات من قبل الأعضاء كالحنجرة، الفم...و يهتمون في ذلك الجانب السمعي، وهذه الطريقة ليست صحيحة. لا يخفى على أحد أنّ الصوت مدرك سمعي و الأذن وهي -بمختلف تشكيلاتها العضوية -الجهاز الوحيد للاستقبال الصوتي، وأداة السمع تلتقط الإشارات الصوتية ، وتقوم بتحويلها إلى ردّة فعل تسبر غور الأعصاب في طريقها إلى الجهاز العصبي المركزي^٣ ، لذا فإن حاسة السمع حاسة عظيمة

^١ - عبد السلام المسدي ، " اللسانيات من خلال النصوص " الدار التونسية للنشر ، ط ٢ ، ١٩٨٦ ، ص ٢٢ .

^٢ - F-Sausure 'cours de linguistique GLE 'P63

^٣ - ينظر : عبد الرحمن أيوب ' أصوات اللغة ' ص ٧٨ بتصرف

عجيبة من حيث دورها وتركيبها ،وقد توصل علماء التشريح إلى حقائق مذهلة تخص الأذن ظلت طي الجهل منذ زمن بعيد ،فهذه الأخيرة هي آلة السمع الوحيدة لدى الإنسان والحيوان ،بفضلها نسمع الأصوات فيقوم الدماغ بتحليل هذه الإشارات الصوتية .ثم يصدر الأحكام وردود الأفعال والقرارات بشأنها قبولاً أو رفضاً . وتتشكل الأذن عند الإنسان من عدة « أجهزة دقيقة تعمل على التقاط الموجات الصوتية (...) وحفظ توازن الإنسان من خلال جهاز التوازن الهوائي (...) على الرغم من صغر حجمها »^١

لقد تناول العديد من الأطباء والفلاسفة العرب كابن سينا والفارابي وإخوان الصفا والفخر الرازي وغيرهم جهاز السمع ،وقدّموا الكثير من الآراء العلمية والتفسيرات حول كيفية ادراك الأذن بكل مكوناتها للصوت ؛ يقول ابن سينا : «... ثم ذلك الموج يتأدى إلى الهواء الراكد في الصماخ ، فيموجّه فتحسّ به العمنة المفروشة في سطحه»^٢ لقد تمكن الطبيب ابن سينا أن يقدّم -من منظور علمي- كيفية استقبال الأذن للموجات الصوتية ،حيث تضطلع هذه الأخيرة بتحريك الهواء الراكد في الصماخ* ،وبالتالي نتيجة لهذا الضغط تنتشر الذبذبات على مستوى الأعصاب السمعية ،لتنقل عبرها إلى الدماغ وذلك بفعل الاهتزازات على مستوى غشاء كورتني* حيث تتولد

١ - كريم زكي حسام الدين ،الدلالة الصوتية ص ٤٧.

٢ - ابن سينا "رسالة أسباب حدوث الحروف" تح محمد حسن الطيات ويحي مير علم ،مطبوعات مجمع اللغة العربية ،دمشق ط ١٩٨٢ ص ٥٨

* الصماخ (Meatus) :ويسمى أيضا "الممر السمعي أو قناة الأذن (Canal Auditif) ،وهو شكل اسطواني مفتوح البدياية من جهة الصوان ،مغلق النهاية من جهة الطبلية ،طوله حوالي (٢٥سم) وقطره ما بين (٦ و ٨ ملم) ،وظائفه تنحصر في تضخيم الموجات الصوتية التي تصل إليه من ضعفين إلى أربعة أضعاف ،ويساعد شكله الاسطواني على القيام بدور فراغ زئبان .تنبت في الممر السمعي بعض الشعيرات ،كما تفرز الغدد الموجودة في جداره مادة شمعية تحمي باطن الأذن من الشوائب والمؤثرات من أن تصل إلى الأذن الوسطى ،فضلا عن تضخيم الصوت . ينظر : عصام نور الدين "علم الأصوات اللغوية (الفونتيكا)" ،ص ١٧١

* نسبة إلى العالم الإيطالي الفونسو كورتني (A-corti الذي يعدّ مكتشف هذا العضو ١٩٥١ وهو الذي يقوم بتوصيل المثيرات السمعية إلى الدماغ ،عن طريق العصب السمعي) (الذي يتكون من أعمدة متسلسلة في شكل أقواس) ،وينتشر الشعيرات على جانبي أقواس عضو كورتني ،والتي يبلغ عددها /١٤٠.٠٠٠/ في المليمتر الواحد ،علما أن مساحة هذه القوقعة الداخلية هي /٢٢.٥/ مليمترا مربعا ،أي أن عدد الشعيرات فيها هو : ٢٢.٥ × ١٤٠.٠٠٠ = ٣١٥٠.٠٠٠ شعيرة أو خلية . ينظر : .عصام نور الدين ،المرجع السابق ،ص ١٧٧-١٧٩

شحنات كهربائية تنقلها الألياف العصبية المثبتة في الغشاء القاعدي فيتم حينئذ إرسال إشاراتها عبر العصب السمعي إلى المخ، فيضطلع هذا الأخير بتقديم التفسيرات الكافية للرسالة عن طريق ما يسمى بفك الترميز (Décodage) عن طريق الرد المناسب على الرسالة. كما عالج إخوان الصفا المسألة ذاتها من زاوية علمية أيضا بدليل أن عملية ادراك لأذن للصوت تتم وفق قولهم : «إذا بلغ التّموج الذي جرى في الهواء إلى مسامع الشخص ،وداخل صماخه، وتحرك الهواء المستقر في عمق الأذنين بحسب القوة السامعة بذلك التّموج ، والحركة التي تنتهي إلى مؤخرة الدماغ ثم يقف فلا يكون له مخرج ،فيؤديه إلى الدماغ ثم إلى القلب ،فيفهم القلب من هذه الحاسة ما أدته إليه من ذلك الحادث، فإن كان صوتا مفهوما يدل على معنى تتوجهت المعرفة بذلك ،وإن كان غير مفهوم فإنه لا بد أن يُستدل بصفاء جوهره على ذلك الصوت ،ومن أيّ جوهر حدث ،وعن أيّ حركة عرض ،وهو يستدل على ذلك من ماهية الصوت وكيفية التّموج والقرع والحركة الواصلة إلى حاسة السمع . »^١

فالتّمعن في هذا القول يدرك أنّ إخوان الصفا قد وضّحوا بطريقة علمية كيف تُدرك الأذن الصوت ،وهذا اعتمادا على التّموج الذي ذكره ابن سينا من قبل بالإضافة إلى دور الهواء الراكد في الصماخ ،كل ذلك بتوظيف بعض المصطلحات في مجال السمعيات كالقرع مثلا؛ والتي تحتاج إلى شرح وتقصيل خاصة من الناحية الفيزيائية ،ولعل ذلك من اهتمامات علم الأصوات الفيزيائي* .

١- رسائل إخوان الصفا ،دار صادر للطباعة والنشر ،ببيروت ١٩٥٨-١٠٣/٣
 * علم الأصوات الأكوستيكي أو الفيزيائي يمثل المرحلة الوسطى بين علم الأصوات النطقي وعلم الأصوات السمعي ، ويسمى علم الأصوات الأكوستيكي نسبة إلى (acoustique) وهو فرع من الفيزيائي ،ومن هنا كانت الإشارة إليه أحيانا بالمصطلح الآخر : علم الأصوات الفيزيائي من باب إطلاق العلم وإدارة الخالص . يهتم هذا النوع من علم الأصوات بإدارة الخصائص الفيزيائية لأصوات الكلام ، فالهواء الخارج من الرئتين ،ويُفعل عندئذ أعضاء النطق له بتدافع في شكل موجات صوتية تأخذ في تحريك الهواء خارج الفم ، فهذه الطاقة الحركية هي ترجمة مادية للموجة من حيث هي اصطلاحاً فيزيائي ، ويعتمد هذا العلم اعتمادا كبيرا على نظريات علم الفيزياء وأصطلاحاته ، فوظيفة علم الأصوات الأكوستيكي أو الفيزيائي في دراسة التركيب الطبيعي للأصوات ، فهو يحلل الذبذبات والموجات الصوتية المنتشرة في الهواء بوصفها ناتجة عن ذبذبات ذرات الهواء في الجهاز النطقي المصاحبة لحركة أعضاء هذا الجهاز ، ومعنى هذا أن وظيفته مقصورة على تلك المرحلة الواقعة بين فهم المتكلم وأذن السامع . ينظر في هذا الباب ، مصطفى منصف القماطي " الأصوات اللغوية ووظائفها" ص ٢٤٢٠ و عبد القادر عبد الجليل "الأصوات اللغوية" ص ٩٤ .

لقد أكدت البحوث العلمية والتي تعتمد على علم التشريح (Anatomie) خاصة أن حاسة السمع لدى الإنسان تعدّ من أهم الحواس الخمس في عمليتي الإدراك الذهني للأصوات اللغوية وأنها الحاسة التي لا تتوقف عن العمل حتى في حالة النوم، وتعمل ليلاً ونهاراً، وتسمع الأصوات من على بعد مسافات بعيدة وتستطيع التمييز بين الأصوات على الرغم من كبر السن بخلاف حاسة البصر التي يبدو أنها لا تتمتع بهذه الخاصية: «فلو أسقطنا أمام العين ضوئين أحدهما أحمر والآخر أصفر، فإنهما يمتزجان، فلا ترى العين منهما إلا لونا واحداً مركباً هو اللون البرتقالي. أما إذا أصدرنا صوتاً يردده ٨٠٠ د/ثا، وصوتاً آخر يبلغ ١٢٠٠ د/ثا، فإن الأذن لن تسمع صوتاً واحداً يقع بين بين بل صوتين متميزين. «إذاً الأذن البشرية قادرة على التمييز بين الأصوات ولو كانت متداخلة، فيمكننا مثلاً أن نعرف صديقاً من خلال مكالمته هاتفية حتى ولو كان بعيداً بآلاف الكيلومترات، وهذا ما يُعرف عند علماء الأصوات بالبصمة الصوتية.

إنّ عملية التواصل في نظرنا-ما هي إلا تأثير متبادل بين طرفي الرسالة (المرسل والمرسل إليه) في سياق اجتماعي معين بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، وهذا اعتماداً -كما بيّنا- على جهاز التصويت، والجهاز اللاقط للموجات الصوتية، لكنّ هذه العملية الحيوية معرضة للعديد من الاضطرابات خاصة على مستوى السمع، لأنّه في رأينا محور التواصل بين أفراد الجماعة اللغوية الواحدة، وهو المقدّم عن البصر؛ وبدون سمع لن

^١ - حنفي بن عيسى "محاضرات في علم النفس اللغوي" ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، طه، ٢٠٠٣، ص ٩٩.

يتمكن الانسان من اكتساب الأصوات اللغوية ، ومن المسلمات العلمية أنّ السمع مهارة ضرورية لنمو اللغة ، والطفل الذي لا يسمع اللغة من حوله سيواجه حتماً صعوبات جمّة في تعلّمها بل قد يكون من المستبعد تحصيلها ومن هنا ندرك أنّ من أهم العناصر التي تشكل أساس إنتاج واستقبال اللغة بمفهومها العام ، ومن ثمّ انتقالها إلى المخ هو الجهاز السمعي السليم . وإنّنا متأكدون بحسب ما توصلت إليه الأبحاث الطبيّة المتطورة أنّ الإعاقة السمعية سبب كافٍ لتدهور آليّة النطق ، فكلما ازدادت حدّة الإعاقة السمعية كلما كانت مشكلات النطق المصاحبة أكبر وأعمق والعكس صحيح. إذاً كيف تتأثر آليّة النطق عند الشخص في حالة الإصابة بخلل على المستوى الإصغائي ؟

الاكتساب اللغوي لدى الطفل:

حياة الانسان عبارة عن محطات ، ولكل مرحلة عمرية ما يميّزها عن الأخرى تبدأ بالطفولة التي تعكس البراءة والطهارة وتنتهي بالشيخوخة ، والطفل هو الصغير من كل شيء ، والصبي يدعى طفلاً حين يسقط من بطن أمه إلى أن يحتلم^١ . لذا فإنّ دراسة هذه المرحلة لم تقتصر على اهتمام علم من العلوم الانسانية دون الأخرى فقد باتت من اختصاصات فروع معرفية أخرى كعلم النفس ، وعلم الاجتماع ، وعلم التربية ... الخ .

إنّ ظاهرة اكتساب الطفل للغة ونموها عبر مراحل مختلفة من حياته وخاصة في سنوات عمره الأولى ، منذ الميلاد وحتى الثالثة أو الرابعة تقريباً وهي المرحلة التي تكتمل فيها سيطرته على اللغة ، هذه الظاهرة ليست « مشكلاً لغوياً فحسب ، بل تصحبها عوامل عقلية ونفسية واجتماعية تؤثر بلا شك في عملية النمو اللغوي ، وليس من العلم في شيء تجاهل العوامل أو

^١ ينظر: ابن منظور "لسان العرب" ، مادة (صبا) ٤٤٩/١٤

الغض من شأنها. « وهذا يؤكد بقوة أنه لا يمكن دراسة لغة من اللغات بمعزل عن العلوم الإنسانية الأخرى، التي من شأنها أن تقدم الكثير من الحقائق حول هذا العلم أو ذاك.

اللغة ملكة طبيعية كُرم بها الإنسان دون سواه بالنظر إلى المكونات الفيزيولوجية والمورفولوجية التي لا تتوفر في غيره، وهذا ما ذهب إليه "إلينبرج" (Eric Lennenberg)*، ومن هنا فاللغة الإنسانية «ملكة فطرية لا تكتسب بالمحاكاة وبالسَّمْع ، ولكنها تكتسب بالحدس ، فالسمع ينميها ويطورها بيد أنه لا يصنعها»^٢، ولكن هذا الفعل اللساني بحاجة إلى تعزيز (Renforcement) إسقاطاً على لغة السلوكيين، لأن الدماغ البشري مهياً لاكتساب اللغة ما بين السنتين الثانية والعاشرة وذلك لرخاوة القشرة الدماغية في هذا السن، بالإضافة إلى أن اللغة واكتسابها مرتبط بجوانب أخرى مهمة جداً على المستوى العضوي والنفسي، والمهم من كل ذلك أن العمل الدماغى شبيه بالعملية الشكلية الرياضية في الدماغ الإلكتروني، ولكم أن تتصوروا حجم المعلومات اللغوية المخزنة، وأهمية وعظم هذه المهمة.^٣ ولعل الشيء المؤكد أن الطفل السليم لا يمكن أن يصل إلى مرحلة النمو اللغوي إلا إذا تضافرت عدة عوامل رئيسية وتفاعلت فيما بينها لتصل بالطفل إلى الكلام فيستطيع الحديث بلغة الوسط الذي ولد فيه ينشئ جملاً جديدة لم يسبق أن

١ - حلمي خليل " اللغة والطفل دراسة في ضوء علم اللغة النفسي " دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان (دط) ص ٥٧.

* من أعلام اللسانيات البيولوجية (Biolinguistique)

٢ - نور الهدى لوشن " مباحث في علم اللغة ومناهج البحث اللغوي "، المكتبة الجامعية، الإسكندرية ص ٣٤١

٣ - ينظر ميشال زكريا " قضايا السنية تطبيقية، دراسة لغوية اجتماعية نفسية مع مقارنة تاريخية "، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٩٣ ص ٢٦.

تَكلم بها ويفهم جملاً أخرى ، فكيف له أن يصل إلى هذه العتبة إذا لم يكن لهذا الطفل القدرة التي تمكنه من ذلك ، لأن الطفل لا « يولد ملاكاً رحيماً ، ولا شيطاناً رحيماً ، ولكنه يبرز للحياة بزخم من الإمكانيات لها اتجاهات ونتائج متباينة بفعل الوراثة والحالة الصحية ، والبيئية الاجتماعية ... »^١.

ومما يؤكد هذا المنحى من الناحية العلمية أن عملية النمو الجسماني والعقلي والنفسي والاجتماعي لدى الطفل مرتبطة بالنضج الذي هو مجموع العوامل الوراثية الفطرية من حيث اكتمال بعض الأجهزة العضوية ، ونضج بعض الأنسجة العصبية والعضلية ، فضلاً عن تدريب جوارح النطق لدى اكتمالها عن طريق التعلم ، وهذا مرتبط بطريقة مباشرة وغير مباشرة بالأسرة التي تقدم الدعم الكافي حتى تضمن للطفل التنشئة اللغوية السليمة اعتماداً على هذا الاحتكاك المتواصل وما يتخلله من تكرار وتشجيع ومراقبة وما يصاحب كل ذلك من تقييم وتصحيح لأهم الأخطاء المتعلقة بالجانب الصوتي ، فاللغة بطبيعة الحال (...) ليست هبة يضيفها الإنسان إلى ما يملكه بدون مشقة ولا تكلف جهد (...) فلا بد إذن من التدريب على النطق ، والتعلم لكيفيات التّكلم ، ولابد من مرور وقت ليس بالقصير قبل أن يتوصل الطفل إلى امتلاك طريقة يرضى عنها الناس ويستحسنونها^٢. لأن امتلاك ناصية اللغة بالنسبة للطفل ليست - كما يتوهم البعض - عفوية وتلقائية بل على العكس من ذلك تماماً « فلا بد من أن يتدرب الطفل مدة طويلة حتى يكتسب عاداتها اللفظية ، ويعرف كيف يستعمل الكلمة على الوجه الصحيح ، ويلتزم في سلوكه اللغوي بقواعدها ، وإن الطفل ليقضي ما يربو على الخمس عشرة سنة قبل أن يمتلك زمام اللغة ، وقبل أن يتقنها نطقاً وكتابة أو يصبح لديه

^١ - محمد الناصف " التربية والتعليم " الشركة التونسية لفنون الرسم ، ١٩٩٦ ، ص ١٥-١٦ .

^٢ - ينظر : حنفي بن عيسى ، المرجع نفسه ، ص ١٢٩ بتصرف

رصيد كاف من المفردات ،ويمارس مختلف وجوه الاعراب ،ويدرك ما للقواعد من قيمة وظيفية . «^١ من هنا يكاد يتفق العلماء والباحثون على أن الاكتساب اللغوي يتلخص في مرحلتين هامتين : المرحلة القبلغوية (Pré-linguistique) وهي مرحلة تمهيد واستعداد ،والمرحلة اللغوية والتي نشهد خلالها انبثاق ملكة التكلم وتكاملها.^٢ ولكن هل يمكننا الجزم بأن هاتين المرحلتين -على حد تعبير الدكتور حنفي بن عيسى- تعدان كافيتين ليكتسب أي طفل اللغة ؟

الصمم:

إن أبسط العارفين بالقضايا البيولوجية والفيزيولوجية للإنسان يدركون أن سلامة الأعضاء الفيزيولوجية (نطقا وسمعا) من المباحث الأساسية والمهمة التي يجب أخذها بعين الاعتبار في مسألة تناولنا لظاهرة الاكتساب اللغوي ونموه ، لذا يوصي المهتمون بهذا الجانب بضرورة ملاحظة النمو اللغوي عند الطفل و التأكد من سلامة جهاز السمع لديه لأن الكثير من الأطفال يتأخرون في نطق الأصوات لأسباب عديدة ومتعددة منها اهمال الاولياء ،فضلا عن أسباب اجتماعية ونفسية واقتصادية .ومن جراء ذلك يفقد الطفل مهارة أساسية وهي تقليد (Imitation) الأصوات عند سماعها ،فالطفل يحاكي ما يصل إليه عن طريق السمع ،فمن البديهي أن تتوقف هذه المحاكاة على صحة قدرة السمع لديه ،وأن تتأثر في ارتقائها بما ينال هذه الحاسة من دقة وتهذيب)^٣

^١ - حنفي بن عيسى ،م نفسه ،ص ١٤٥

^٢ - ينظر : حنفي بن عيسى ،م نفسه ،ص ١٣٠

^٣ - ينظر : علي عبد الواحد وافي " نشأة اللغة عند الانسان والطفل " ص ٢٠٠

إذن لقد بدا واضحاً أنّ الإعاقة السمعية فرضت عزلةً موحشة على الطفل في بدايات تعامله مع الكلام، فأصبح حينذاك لا يتواصل مع أقرانه، لا يتمكن من فهم العالم من حوله، يصعب عليه التعبير عن أحاسيسه، وعواطفه وحاجاته العاطفية والبيولوجية؛ فالإعاقة السمعية تؤثر على « لغة الطفل في جميع جوانب النمو اللغوي، فالطفل المعاق سمعياً سيصبح أبكماً إن لم تتوفر لديه فرص التدريب الفعالة، ويرجع ذلك إلى عدم حصوله على تعزيز لغوي كاف من طرف الآخرين »^١، وليس هذا فحسب فالطفل المعوق سمعياً يحس بأنه مختلف عن بقية الأطفال، ولذلك تتعزّر عزلته فيميل إلى الانطوائية، وقد يتفاقم الوضع حتى يصبح هذا الطفل مصاباً بأمراض نفسية خطيرة تهدّد حياته كاملة، ويكون نضجه الاجتماعي بطيئاً مقارنة بأقرانه من السامعين، ويقدر بعض الباحثين ذلك بحدود ١٥-٢٠% من المستوى المتوقع، إذ تكون المشكلات المرتبطة بالاتصال اللفظي في أغلب الأحوال هي السبب في تأخر النضج الاجتماعي^٢ وقد أصبح من الواضح والبدهي أنّ القاموس اللغوي للطفل المعاق سمعياً ضعيف جداً بفعل العزلة المفروضة عليه بالقوة أو التي فرضها على نفسه احساساً وشعوراً، فتظهر جملة مقتضبة مخلة بالمعنى في كثير من الأحيان، يميّزها البطء والتّردّد في أحيان كثيرة يعاني من صعوبات في فهم معاني الكلمات، والربط بين الدالّ ومدلوله لأنّ السمع أهم النوافذ المطلّة على العالم الخارجي، لذا فإن الحرمان منه يؤدي إلى فقدان الكثير من الخبرات التي يتمتع بها السامع، ومن هنا فإن الطفل ذو الإعاقة السمعية تحجبه عن المشاركة الإيجابية الفعالة مع من حوله علاوة عن حرمانه من الخبرات اللازمة لاكتساب اللغة والكلام^٣

^١ - Aimard (Paul) : le langage et l'enfant ; PUF 1981: P16

^٢ - عزيز إبراهيم مجدي "مناهج تعليم ذوي الاحتياجات الخاصة" مكتبة الانجلو-المصرية، القاهرة، ٢٠٠٢، ص ٤٥٥-٤٥٦

^٣ - حلاوة محمد "الرعاية الاجتماعية للطفل الأصم"، المكتب العلمي للنشر والتوزيع ط ١، ١٩٩٥، ص ٣٨٧

يوصي العلماء والقائمون على التنشئة اللغوية السليمة للطفل الأولياء خاصة بضرورة الاعتناء بحاسة السمع عند أطفالهم ووقاية الأذن مما قد يعوقها عن أداء وظيفتها على أكمل وجه فالسمع أبو الملكات اللسانية^١ على حدّ تعبير ابن خلدون؛ فالأذن البشرية -من خلال تشكيلاتها- بإمكانها أن تدرك الصوت مابين (٢٠/٢٠٠٠٠٠ ذبذبة في الثانية) وهناك من يرى أنّ الأصوات التي يبلغ ترددها أقل من ١٦ هرتز (Hertz) هي تحت السمع، و لا يمكن للأذن البشرية التقاط موجاتها نظراً لنسبة التردد التي تقل عن ١٦ أو ٢٠ ذبذبة /ثا) لأنها أصوات تقع دون دائرة السمع، أما التي تفوق (٢٠٠٠٠٠ ذ/ثا) لا تدركها الأذن العادية لأنها فوق دائرة السمع، بل قد يؤدي هذا النوع من الأصوات (الحادة) إلى إتلاف الجهاز السمعي جزئياً أو كلياً^٢؛ لذا ينصح الأطباء المتخصصون في هذا المجال العاملين في أشغال الحفر بواسطة الآلات ذات الصوت القوي إلى ارتداء الخوذة الواقية تقادياً لأي تلف أو مرض قد يصيب الأذن؛ إذ أنّ شدة الصوت الذي يفوق ١٢٠ (db) من الممكن أن يؤثر على خلايا الجسم وعلى الجسم كاملاً، فمثلاً في شدة صوت ٨٥ (db) لمدة ٨ ساعات متواصلة من الممكن أن يؤدي إلى الطرش (surdité)، وشدة صوت ١٢٥ (db) يسبب وجع في الجسم وخصوصاً في الأذنين، وكل شدة صوت تكون أعلى من ١٣٠ (db) تؤثر بشكل خطير على صحة الإنسان عامة وعلى سمعه خاصة، أما التعرض لصوت شدته ١٦٠

١- ابن خلدون "المقدمة" دار الفكر، بيروت، ط ٤، ص ٦٢١

٢- ينظر مكي درار : المقررات الصوتية، ص ٧٠

٣- ترمز إلى الديسيبل نسبة إلى الكسندر جراهام بل (Alexander Graham Bell) مخترع الهاتف. تبدأ هذه الوحدة من الصفر عند ضغط جوي مقداره ٢٠ ميكروبار (20 MPa) وهي أقل شدة صوت يستطيع الإنسان العادي سماعها، كما أن أذن الإنسان العادي تستطيع تحمل صوت يبلغ شدته ١٢٠ ديسيبل ينظر:

- Bruce Robert V. Bell: Alexander Bell and the Conquest of Solitude. Ithaca, New York: Cornell University Press, 1990, P 419

(db) يسبب طرشاً فورياً ويكون الموت حتماً إذا تعرض الانسان لصوت في شدة أعلى من ١٩٠ (db)^١.

يذهب المهتمون بهذا النوع من الإعاقة إلى تعريف الطفل الأصم بأنه الذي حرم حاسة السمع منذ ولادته إلى درجة تجعل الكلام المنطوق مستحيل السمع مع أو بدون المعينات السمعية ، أو هو الذي فقد القدرة السمعية قبل تعلم الكلام أو الذي فقدها بمجرد أن تعلم الكلام لدرجة أن آثار التعلم فقدت بسرعة ، وأن الطفل الأصم هو الذي لا تؤدي عنده حاسة السمع وظيفتها من أجل أغراض الحياة العادية^٢. ومن هنا لا يجب أن نخلط بين الصمم وضعف السمع وكل ذلك اعتماداً على وحدة قياس السمع على جهاز الأديومتر (Audiomètre) وهي الديسيبل (dh). فالأصم يكون فقدان سمعه ٩٢ ديسيبل لدرجة عجزه عن استعمال حاسة السمع لتلبية حاجياته الضرورية للحياة ، بينما يتراوح فقدان السمع عند الطفل الذي يعاني من القصور السمعي ما بين ٢٦-٩٢ ديسيبل؛ ولا بد له من استعمال الأجهزة المساعدة للسمع كالسماعات مثلاً. إذاً الطفل ضعيف السمع ليس هو الأصم كما ينعتة البعض، بل هو الشخص الذي فقد جزءاً من قدرته السمعية بالرغم من أن حاسة السمع لديه تؤدي وظيفتها ولكن بكفاءة أقل ، وتصبح مهارة الاستماع لديه عادية ، وذلك عند استعانة بالأجهزة السمعية الحديثة.

ميّز "موراو" (Morrow) بين ست درجات من الصمم^٣ ، وهي كالآتي^٤ :

أ- الصمم الخفيف : تقدر الخسارة السمعية في هذا المستوى ما بين ٢٦-٤٠ ديسيبل.

^١ - Michel Habib, "Bases neurologiques des comportements", éd Masson, 1998.P113

^٢ - السيد محمد بدوي ، محمد السيد حلاوة ، الرعاية الاجتماعية للطفل الأصم ، الإسكندرية ، المكتب العلمي للكمبيوتر والنشر والتوزيع ١٩٩٥ ، ص ٣٢ .

^٣ - ينظر مقالنا " معوقات التواصل اللغوي الإعاقة السمعية : دراسة تشريحية وظيفية اكلينيكية" مجلة الحضارة ٢٩ جوان ٢٠١٦ ، جامعة وهران ، ص ٦٢٧ وما بعدها.

^٤ - Rondal: Troubles du langage ,diagnostic et rééducation .Mardaga,Bruzelles.P220

- ب- الصمم المعتدل : تقدر الخسارة السمعية في هذا المستوى ما بين ٤١-٥٥ ديسيبل.
- ج- الصمم الشديد نسبياً: تقدر الخسارة السمعية في هذا المستوى ما بين ٥٦-٧٠ ديسيبل.
- د- الصمم الشديد: تقدر الخسارة السمعية في هذا المستوى ما بين ٧١-٩٠ ديسيبل.
- هـ- الصمم العميق : تتجاوز الخسارة السمعية في هذا المستوى عن ٩١ ديسيبل .
- و- الصمم التّام: تفقد حاسة السمع وظيفتها كليةً ، وفيه تتلف آليات القوقعة وأحياناً الممرات السمعية^١
- وذهب بعض الدارسين إلى تصنيف الصمم بحسب المعايير الآتية :
- ١- صمم ما قبل اللغة : ويشمل هذا التصنيف أولئك الذين فقتوا مهارة السمع قبل الاكتساب اللغوي (Acquisition du Langage) ولا يخفى على أحد مدى خطورة الآثار السلبية الناجمة عن ذلك وخاصة في مرحلة التقليد فيكون الطفل حينئذ غير قادر كليّةً على تعلم اللغة .
- ٢- صمم ما بعد اللغة : من حسن حظ هذه الفئة أنّها قد أصابها الصمم بعد فترة الاكتساب اللغوي حيث تكون قد توفرت لديهم مجموعة من المفردات اللغوية وهم يستطيعون المحافظة عليها أو تقويتها إذا توافرت لديهم الرعاية الاجتماعية والتربوية اللازمة^٢

١ - آمال عبد السميع باظة ، سيكولوجية غير العاديين وذوي الاحتياجات الخاصة ، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ٢٠٠٢ ، ص ٥٦

٢ - ماجدة سيد عبيد ، الإعاقة السمعية ، الرياض ، مكتبة الهديان ، ١٩٩٢ ، ص ١٥ .

٣- الصمم اللفظي : نظراً لبعض الصعوبات السمعية التي يعانيها بعض الأشخاص ، فقد يصبح الفرد عاجزاً عن فهم كل ما يسمعه من كلمات بسبب -كما قلنا- صعوبات في جهاز السمع أي في عملية الاستقبال مثل إصابة الأذن الخارجية أو إصابة خلايا المخ في الأذن الداخلية ، كما قد ينتج عن اضطراب في نبذبات الصوت المرسل للأذن بحيث ينتج عن ذلك ما يسمى بالحبسة السمعية^١.

٤- الصمم النفسي : وفيه يفقد الشخص القدرة على السمع مع عدم وجود أي سبب عضوي يدعو لفقد السمع عنده وهو بداية لاضطرابات نفسية يعاني منها المريض^٢.

ويمكن القول -مما سبق - أنّ الفرق بين الأصم وضعيف السمع لا يكمن في الدرجة لأن الأصم هو ذلك الشخص الذي يتعذر عليه أن يستجيب استجابة تدل على فهم الكلام المسموع ، بينما الشخص الذي يشكو « ضعفاً في سمعه يستطيع أن يستجيب للكلام المسموع بشكل يدل على إدراكه لما يدور حوله بشرط أن يقع مصدر الصوت في حدود قدرته السمعية ، ومعنى هذا أن الشخص الأصم يعاني اختلالاً يحول بينه وبين الاستفادة من حاسة السمع ، فهي معطلة لديه وهو لهذا لا يستطيع اكتساب اللغة بالطريقة العادية، في حين أن ضعاف السمع يعانون نقصاً في قدرتهم السمعية ويكون هذا النقص بدرجات متفاوتة غالباً^٣»

طرق علاجية بديلة :

١- التدريب السمعي :

يعدّ من الاتجاهات الحديثة في تعليم الأطفال المعاقين سمعياً والذي يركز على الاستفادة من السمع المتبقي لديهم. ويتمثل هذا النوع من التدريب

^١ - فرج عبد القادر طه ، موسوعة علم النفس والتحليل النفسي ، الكويت ، دار سعاد الصباح ، ١٩٩٣ ، ص ٤٣٩ .

^٢ - فؤاد أحمد البدرى ، أسرار الصمم وعيوب الكلام ، كتاب اليوم الطبي ، ١٩٨٥ ، ص ٦٦ .

^٣ - مصطفى فهمي ، أمراض الكلام ، القاهرة ، مكتبة مصر ، ١٩٧٥ ، ص ١٠٩ .

في تنمية مهارة الاستماع لدى هؤلاء الأطفال من خلال تحسين قدراتهم على التمييز بين الأصوات ^١. ويعتبر الفحص السمعي على درجة كبيرة من الأهمية من خلال القدرة على التمييز السمعي، والقدرة على تذكر المثيرات السمعية، وكذلك الإدراك والفهم السمعي، ومن الضروري أن يتمتع المعلم المعالج لهذا النوع من الإعاقات بمهارة عالية على الاستماع للأطفال ذوي المشكلات دون أن تبدو عليه مظاهر صعوبة قبول هؤلاء الأفراد. مع تشجيع هذه الفئة على المحاورة، وإرشادهم إلى الاستخدام الصحيح للأصوات.

٢- قراءة الشفاه (lecture Labiale)

ونعني بها تنمية مهارة المعاق سمعياً على قراءة الشفاه وفهمها، من خلال التتبع لحركة الفم والشفاه أثناء الكلام من قبل الآخرين، والهدف من هذا المنهج هو تعليم الطفل الأصم الاتصال اللغوي من خلال هذه الاشارات الجسمية المتعارف عليها ^٢، وتتوقف نجاعة هذه الطريقة بشكل واضح على مدى فهم المعاق لهذه الحركات بالإضافة إلى الاشارات المصاحبة لعملية الكلام. ويبدو أن نجاح هذه التقنية متوقف إلى حد كبير على بقايا السمع لدى الطفل الأصم.

٣- الاتصال اليدوي :

ويصطلح على تسميتها بلغة الإشارة (Langage de signes) : تعتمد هذه الطريقة على رموز إيمائية تستعمل بشكل منظم، وعلى حركية اليدين، وملامح الوجه والجسم بشكل عام ^٣ ولا يخفى على أن لغة الإشارة هي

^١ -عزيز إبراهيم مجدي "مناهج تعليم ذوي الاحتياجات الخاصة" مكتبة الانجلو-المصرية، القاهرة، ٢٠٠٢، ص ٥٩

^٢ - ينظر : مازن الوعر " قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث " دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ط ١٢ / ١٩٨٨، ص ٣١٤

^٣ - المرجع نفسه، ص ٤٦٣

لغة قائمة بذاتها مستقلة بخصوصياتها، بل أضحّت نظاماً حسياً بصرياً إذ يعتمد على المزوجة بين الحركات والإيماءات والمعاني التي تدل عليها، وبديلاً في مواقف كثيرة عن الأداء الصوتي وقد اعتبرها الجاحظ ضمن الخمس التي تحقق الدلالة وتضمن الاتصال^١، حيث قال: « والإشارة واللفظ شريكان، ونعم العون هي له، ونعم الترجمان هي عنه. »^٢

انبرى العديد من العلماء الباحثين في مجال اللسانيات البيولوجية إلى اقتراح جملة من الوصفات العلاجية لهؤلاء المرضى، وقد أثبتت البحوث نجاعتها في هذا الميدان نهائياً، أو على الأقل التقليل من خطورة أعراضها على مستوى التواصل اللغوي، الذي يعتبر من أهم الوظائف التي تضطلع بها اللغة الإنسانية لأن « الوظيفة الأساسية للغة هي التعبير والتواصل، لأنها قادرة على تلبية كل المتطلبات للجماعة المتكلمة بها »^٣. إذن ما الفائدة المرجوة من الجانب البيولوجي إذا لم يكن في مقدوره أن يصل إلى تحديد العلاقة بين الجانب الوظيفي للدماغ البشري المسؤول على إنتاج الأصوات اللغوية واستقبالها من جهة والبنية البيولوجية من جهة أخرى، ومن هنا يحاول الباحثون في علم اللسانيات البيولوجي^٤ معرفة مدى تأثير التأثيرات الدماغية على العمليات اللغوية والكلامية، وهذا من خلال دراساتهم المكثفة

^١ - " وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد أولها. اللفظ ثم الإشارة ثم العقد ثم الخط، ثم الحال التي تسمى نصبة" ينظر: الجاحظ "البيان والنبين" تح: عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت، ط ٤، ٧٦/١

^٢ - الجاحظ نفسه، ٧٨/١

^٣ - André Martinet " éléments de linguistique générale" Armond Collin, 4éd 1998 P 9 (Biolinguistique)-

^٤ ترى اللسانيات البيولوجية أن اللغة ما هي إلا تكوين بيولوجي كبقية العمليات البيولوجية الأخرى لدى العنصر البشري، أو بالأحرى يقوم هذا العلم بدراسة اللغة كظاهرة بيولوجية للكائن الحي مع التركيز على الجوانب العصبية والفيزيولوجية والوراثية وغير ذلك. ولعل هذا العلم يركز على العلائق بين الوظائف اللغوية، والوظائف البيولوجية التي يمكن من خلالها استثمار هذه المعطيات لتقديم التفسير العلمي لنواح لسانية خفية، يصعب على الباحث الوصول إلى حقيقتها ولعل ذلك ما ذهب إليه مازن الوعر في قوله: « علم اللسانيات البيولوجي هو وصف وشرح العلائق الرياضية التجريدية القائمة بين الوظائف اللغوية، وبين الوظائف البيولوجية ثم الاستفادة من ذلك في نواح لسانية تطبيقية عديدة... ينظر: - أحمد مختار عمر " محاضرات في علم اللغة الحديث " عالم الكتب، القاهرة، ط ١، ١٩٩٥، ص ٥٤. ومازن الوعر، المرجع نفسه، ص ٤٠٣.

للأطفال المصابين بعاهة الصم أو عاهة العمى منذ ولادتهم. فهم يحاولون تتبع التطور اللغوي في أدمغة هؤلاء الأطفال المصابين. فكما هو معروف فإنّ الطفل الأصم لا يستطيع أن يكتسب اللغة اكتساب الطفل العادي لها وبالمراحل الزمنية نفسها. والحقيقة أنه إذا لم يكن هناك برنامج تعليمي مكثف يهدف إلى توجيه الطفل الأصم وتعليمه فإن ذلك الطفل الأصم سيبقى طوال حياته دون لغة^١.

ينبغي إذاً الاعتماد على برنامج مكثف لتعليم هذا النوع من الأطفال يؤطره مختصون في هذا المجال ولا يمكن أن نعول فقط على الوسائل البديلة والفحوصات الطبية، بل يجب أن نشرك علماء اللسانيات بمختلف فروعها في هذه العملية، ويجب أن نعتمد أيضاً على علماء الأصوات في علاج مثل هذه الحالات خلال عمليات التدريب والتمرين على نطق الأصوات بشكل صحيح وتعزيز المحادثة كل ذلك في ظل التحفيز والتشجيع والاهتمام النفسي من قبل الجانب الاسري والمراكز المتخصصة، وعلى عالم الأصوات أن يوقر المعطيات اللازمة عن الأصوات اللغوية: مخارجها، صفاتها، ودور الأعضاء التي تشترك في عملية النطق، والخصائص الفيزيائية للأصوات، فيكون بهذا الصنيع قد قدّم نموذجاً للأصوات اللغوية للعاديين يستضيء بها معالج عيوب النطق والسمع، كما أن هذه النتائج الصوتية ستساعد حتماً في وضع طريقة ناجعة للعلاج أو التخفيف من وطأة هذه الإصابة على الفرد أولاً وعلى أسرته ثانياً. لأنّ بالرغم من التلف الدماغي الذي يصيب الطفل الأصم فإنه يظل يكتسب اللغة بشكل سهل، وذلك اعتماداً على المناهج التي بسطناها

^١ - مازن الوعر، المرجع نفسه، ص ٣١٤ بتصرف

من قبل ولكن على الرغم من اختلافها إلا أن هدفها واحد وهو تمكين الأطفال ذوي الإعاقة السمعية بمختلف درجاتها وتصنيفاتها من التواصل والاتصال والتبليغ.

إنّ علم الأصوات -في اعتقادي- قادرٌ على تعليم فئة الصم والبكم على نطق الأصوات نطقاً صحيحاً وتعويدهم على قراءة الشفاه ،و علاج الكثير من الاضطرابات النطقية واللغوية والصوتية والسمعية ،حيث أن النطق السليم لا يتطلب أكثر من وضع الأعضاء الصوتية في المواضع التي يتطلبها كل صوت من أصوات اللغة.

المراجع باللغة العربية

١. ابن خلدون "المقدمة" دار الفكر ،بيروت ، ط ٤ .
٢. ابن سينا "رسالة أسباب حدوث الحروف" تح محمد حسن الطيات ويحي مير علم ،مطبوعات مجمع اللغة العربية ،دمشق ،١٩٨٣
٣. ابن منظور "لسان العرب " ،مادة (صبا)
٤. أحمد حساني "مباحث في اللسانيات" ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ١٩٩٩
٥. آمال عبد السميع باظة ، سيكولوجية غير العاديين ونوي الاحتياجات الخاصة ، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ٢٠٠٢ .
٦. الجاحظ "البيان والنبين " تح : عبد السلام هارون ،دار الفكر ،بيروت، ط ٤ .
٧. حلاوة محمد "الرعاية الاجتماعية للطفل الأصم " ،المكتب العلمي للنشر والتوزيع ط ١ ، ١٩٩٥
٨. حلمي خليل " اللغة والطفل دراسة في ضوء علم اللغة النفسي " دار النهضة العربية للطباعة والنشر ،بيروت ،لبنان (دط) ،
٩. حنفي بن عيسى "محاضرات في علم النفس اللغوي " ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، ط ٥ ، ٢٠٠٣
١٠. رسائل إخوان الصفا ،دار صادر للطباعة والنشر ،بيروت ١٩٥٨
١١. عاطف مذكور " علم اللغة بين القديم والحديث " ،دمشق ،مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية ، ١٩٨٧ ، ص ٧٨ .

١٢. عبد الجليل مرتاض في رحاب اللغة العربية (ديوان المطبوعات الجامعية، ٢٠٠٤)،
١٣. عبد السلام المسدي، " اللسانيات من خلال النصوص " الدار التونسية للنشر ، ط٢، ١٩٨٦ ،
١٤. عزيز إبراهيم مجدي"مناهج تعليم ذوي الاحتياجات الخاصة"مكتبة الأنجلو-المصرية، القاهرة، ٢٠٠٢،
١٥. عزيز إبراهيم مجدي"مناهج تعليم ذوي الاحتياجات الخاصة"مكتبة الأنجلو-المصرية، القاهرة، ٢٠٠٢ .
١٦. علي عبد الواحد وافي " نشأة اللغة عند الانسان والطفل "
١٧. فرج عبد القادر طه ، موسوعة علم النفس والتحليل النفسي ، الكويت ، دار سعاد الصباح ، ١٩٩٣ .
١٨. فؤاد أحمد البدري ، أسرار الصم وعيوب الكلام ، كتاب اليوم الطبي ، ١٩٨٥.
١٩. كريم زكي حسام الدين ، الدلالة الصوتية
٢٠. ماجدة سيد عبيد ، الإعاقة السمعية ، الرياض ، مكتبة الهديان، ١٩٩٢.
٢١. مازن الوعر " قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث " دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر ، ط١ / ١٩٨٨ .
٢٢. محمد الناصف "التربية والتعليم" الشركة التونسية لفنون الرسم، ١٩٩٦.
٢٣. مصطفى فهمي ، أمراض الكلام ، القاهرة ، مكتبة مصر ، ١٩٧٥ .
٢٤. مكي درار : "المجمل في المباحث الصوتية من الآثار العربية" ،دار الغريب للنشر والتوزيع ، ط ٢ ، ٢٠٠٦

٢٥. ميشال زكريا "قضايا السنية تطبيقية، دراسة لغوية اجتماعية نفسية مع مقارنة تاريخية"، دار العلم للملايين ببيروت ١٩٩٣.

٢٦. نور الهدى لوشن "مباحث في علم اللغة ومناهج البحث اللغوي"، المكتبة الجامعية، الإسكندرية

المراجع باللغة الأجنبية :

1. Aimard (Paul) :le langage et l'enfant ;PUF 1981
2. ANDRE Martinet ' éléments de linguistique générale"
Armond Collin ,4éd 1998 P 9
3. Bruce Robert V. Bell: Alexander Bell and the
Conquest of Solitude. Ithaca, New York: Cornell
University Press, 1990
4. Charles Goedert " guide pratique de Grammaire
Française " éd du seuil;1983 ;P13.
5. F-Sausure 'cours de linguistique GLE
6. Michel Habib, "Bases neurologiques des
comportements", éd Masson, 1998.
7. Rondal : Troubles du langage, diagnostic et
rééducation .Mardaga, Bruxelles.

ليبيا ولاية عثمانية

د/ محمد الحراري عبد السلام (*)

المقدمة:

وهب إستيلاء العثمانيين على طرابلس حوافز عظيمة للإمبراطور سليمان القانوني للسيطرة على الحوض المتوسطي الغربي، وإدخاله بنفوذه في الحوض الشرقي، نظرا للموقع الإستراتيجي الذي كانت تحظى به ليبيا كونها مركز وسط بين الشطرين المتوسطين، مع ما توفره من قواعد أساسية في الصراع الإسلامي - المسيحي، ولقربها الشديد من سواحل صقلية وإيطاليا، كما ترتقى أهمية ليبيا عموما وطرابلس على وجه الخصوص، لدورها في الربط بين مناطق النفوذ العثماني في شمال أفريقيا (الجزائر والمراكز التونسية) وفي الشرق (مصر)، زيادة عن الرغبة التركية في استثمارها بوصفها منطقة تؤمن لها التحكم في أغذب النهايات التجارية القادمة من السودان.

ولذا، خضعت ليبيا منذ البداية لاهتمام رئيسي من طرف الباب العالي، الذي عمد إلى تثبيت سلطته بها إنطلاقا من طرابلس بواسطة جهاز إداري متمركز بها، ومرتبطة بالقسطنطينية إرتباطا مباشرا، حيث وضعت رهن إشراف بايلرباي شمال أفريقيا ويتوجيه مركزي مباشر لشؤونها

(*) أسانذ الآثارخ الحديث - كلية الآداب - جامعة طرابلس

السياسية والإدارية خلال القرن ١٦م، عن طريق تعيين الباشوات، وبنهج الخيار العسكرى فى المنطقة، وفق ما كانت تقرضه الظروف المحيطة بها.

لقد أسندت لهذا الجهاز الإدارى مهام متعددة ومتصل بعضها ببعض، تحت تأثير رغبة التحكم فى دواخل المنطقة من جهة، وأيضاً لربطها بخدمة مصالح المركز من جهة ثانية، فضلاً عن دورها الإستراتيجى العسكرى فى دعم الأسطول العثمانى فى مواجهته المستمرة مع القوات المسيحية.

وقد كان لزاماً على الباشوات العمل على ترسيخ السلطة فى المواقع العثمانية بليبيا، وعلى تطوير مناطق النفوذ داخلياً، وتوجيه القوات لتحقيق المجابهة مع المسيحيين فى صورة حروب استنزاف منتظمة من خلال الحروب النظامية بانضمام الحامية العثمانية إلى القوات المركزية كلما حتم الأمر ذلك.

لكن هذا الجهاز وتعدد مهامه قد عرض الولاية لصعوبات جمة منها ما هو مرتبط بوضعية الأقاليم العثمانية عموماً، ومنها ما هو ناتج عن ظروف الصراع السياسى العسكرى بين الأهالى من جهة وبين ممثلى الباب العالي من جهة أخرى، ويمكن تلخيص هذه الصعوبات فى النقاط التالية:

• صعوبات مؤسسية:

ارتبطت بالهياكل الإدارية المنفذة للسياسة المركزية المرسومة من القسطنطينية، التى تميزت بالتناقضات الكامنة بين مكونات السلطة المحلية وتداخلات إختصاصاتها، خصوصاً بين النفوذ الإدارى الذى يمثله الباشا بإعتباره الممثل السياسى للسلطان، وبين قواد الإنكشارية بوصفهم مشرفين على المؤسسة العسكرية صاحبة النفوذ الفعلى بإعتبارها الأداة العملية لتنفيذ سياسة المركز.

• مشاكل تمويلية:

تتمثل من جهة فى خصوصيات المنطقة الليبية ضعيفة المردودية إجمالاً - وهو ما عرف من قبل الإحتلالين الأسبانى والمالطى - التى لا تمنح للسلطات المسيرة الموارد المالية الكافية لتثبيت سلطتها، ومن جهة أخرى تضعها فى موقع الولايات غير المنتجة بالنسبة للمركز، اعتباراً لسياسة القسطنطينية القائمة على استبدال المجهود العسكرى والسياسى بالموارد المالية الواجب تدفقها على خزينة السلطان.

• صعوبات تواصلية:

نظراً للبعد الجغرافى بين المركز وباشوية طرابلس وللتأثير السلبى الذى تلعبه الظروف الملاحية بالبحر الأبيض المتوسط فيما بين شهرى نوفمبر ومايو، كان هذا يخلق عزلة موسمية بين مركز القرار وأدواته التنفيذية الإقليمية، بل وأحياناً يخلق متاعب للباشوات فى الحصول على الدعم العسكرى اللازم، لا سيما عند اشتداد حدة الموجهات مع الثورات، وإن كان التعاون يظل قائماً بين مختلف الباشوات فى شمال أفريقيا.

• صعوبات ثقافية:

تتجلى فى العلاقات القائمة بين العناصر الطارئة على ليبيا المتحكمة فى دواليب الحكم، والتميزة بأقليتها الشديدة من جهة، وبين الأهالى - العنصر الأصلى - الغالب فى المنطقة والخاضع لسياسة العنصر الأول، مع ما يمثله ذلك من تباعد إثنوغرافى (أتراك، علوج/أهالى)، ومصلى (جباة/ مؤدون للضرائب)، وهذه العلاقات كانت تعرف اصطداماً كلما اشتدت ضغط الأوائل على الحكوميين، ما كان يجعل المناطق كلما بعدت عن دائرة طرابلس تبنى ردود فعل عنيفة للتخفيف من وطأة القبضة العثمانية.

أولاً: نظام الحكم في الولاية:

كان إشراف ليبيا على سواحل شاسعة في وسط شمال أفريقيا ذا تأثير كبير على دفع القوات العثمانية إلى الاهتمام بها منذ بداية توغل سفنها وأساطيلها في الحوض المتوسطي الغربي، وصراعها ضد القوات المسيحية من أجل جعلها ضمن مناطق النفوذ، وإستغلالها في الإشراف على الممر البحري الرابط بين حوضي البحر الأبيض المتوسط.

ولذلك، بدارت القسطنطينية منذ فتح طرابلس إلى تعيين بايلرباي حاكم لطرابلس^١، مهمته الدفاع عن المنطقة وتدعيم أسطول أميرال البحر بقواته وقواعده.

وإذا كان درغوت باشا حاكم طرابلس قد تميز بكونه أشهر بايلرباي عثماني بعد خير الدين بارباروس، بفعل حنكته الإدارية وشجاعته العسكرية، فإن خلفاءه - الذين لم يرتقوا البتة إلى منصب الباييرباي - لم يتمكنوا من الحفاظ على الشخصية التي تميزت بها طرابلس في عهده، وتقلص دورهم لفائدة كبار الأمراء - نتيجة الظروف المستجدة داخل الولاية، وإنشغالهم بمعالجتها أكثر من قيامهم بمبادرات خارج المجال الليبي.

فخلال أحداث سنة ١٥٨٧ مسيحي نجد الباشا الحاكم في طرابلس يتعرض لوضعية صعبة، تطلبت تدخل أمير البحر حسن باشا في شؤون طرابلس، وإشرافه على لجنة تحقيق لمعرفة أسباب الإضطراب السياسي داخل طرابلس، التي أفضت إلى تجريم محمد باشا الحاكم وتعريضه للعقاب^٢

^١ -Fernand Braudel : La Méditerranée et le monde Méditerranée au temps de Philippe II T2(5ed- Armand Colin-Paris- 1982.t - p 3

^٢ - محمد الأسطي: " ثورة يحيى بن يحيى السويدي أو سويدان " مجلة البحوث التاريخية - مركز دراسات جهاد الليبيين - السنة الرابعة - العدد الأول - يناير ١٩٨٢ - ص ١٤٢ - ١٤٨.

لذلك، نخلص أن البايبراي كان يمثل إلى حد ما سلطة الإشراف على ولاية طرابلس وعلى باشواتها منذ وفاة درغوت وهي سلطة مرتبطة بشكل مباشر بأوامر القسطنطينية، ومنها كانت تتلقى التوجيهات، سواء العسكرية أو المالية أو السياسية، وإليها كانت تبعث بالتقارير عن وضع الولاية، وتنفذ قرارات التعيين أو العزل أو الاعتقال أو الإعدام^١.

وبالتالي ثبت تحكم القسطنطينية خلال القرن ١٦ م في تسيير شؤون الولاية عن طريق الباشوات المعيّنين من قبلها، لما كانوا يحظون به من نفوذ داخل السراي^٢، أو لحنكتهم وتجربتهم العسكرية ونجاحهم في مواجهة العدو المسيحي^٣، أو لما قدموه من هدايا إلى الصدر الأعظم للحصول على الوظيفة^٤.

وللحفاظ على المنصب كان على هؤلاء الباشوات التقيد بتعليمات القسطنطينية، وأساسا العمل على استتباب السلطة في مناطق نفوذهم تحت طائلة العزل عند الفشل^٥، فضلاً عن مشاركتهم في الحملات العسكرية

^١ - (أنظر: عزيز سامح: "الأثراك العثمانيون في إفريقيا لشمالية" - ترجمة عبد السلام أدهم - دار لبنان - بيروت ١٩٦٩ - ص ٩٢ - ٩٣، وأيضاً رسائل سلطانية نقلا عن الوثائق العثمانية لدى الأسطى - نفسه ص ١٤٢ - ١٤٣، و١٤٩ - ١٥٠).

^٢ - عند فتح طرابلس عين مراد أغا واليا عليها الوعد الذي قطع لدرغوت، وتم ذلك بناء على مؤامرة حيكّت في السراي من طرف رئيس الحصيان لصالح مراد أغا، ونتيجة لغيرة قديمة كانت قائمة بين أميرال البحر المشرف على فتح طرابلس سنان باشا وبين درغوت. أنظر: (شارل فيرو: "الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي، ترجمة محمد عبد الكريم الوافي، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان - طرابلس ١٩٨٣م - ص ١١٧).

^٣ - في سنة ١٥٥٣ عين درغوت بايبرايًا لطرابلس بعد نجاحه في تحقيق مغنم كثيرة على المسيحيين، كان قد توجه بها إلى القسطنطينية إهداء للسلطان، وقد كافأه هذا الأخير الذي كان يرى فيه خليفة حقيقي لبارباروس، وعينه في المنصب المذكور. أنظر/ نفسه - ص ١٥٧.

^٤ - وريدرويل بخصوص الصدر الأعظم محمد السوقي - (1567-79) (Sokoli) نقلا عن المؤرخ البندقي المعاصر جيرلاش - (Gerlach)، أنه كان يمتلك ثروة عظيمة من الذهب والأحجار الكريمة، حيث أنه كان على كل من أراد الحصول على منصب أن يقدم له هديه من بضع مئات أو آلاف من الدوكات، أو إهداء أحصنة أو غلمان.

^٥ - في سنة ١٥٨٨ عزل مصطفى باشا من باشوية طرابلس لفشله في القضاء على ثورة يحيى الجبالي. أنظر: كوستانزيو برنيا: "طرابلس من ١٥١٠ إلى ١٨٥٠م" تعريب خليفة محمد التليسي - دار الفرجاني - طرابلس ليبيا - الطبعة الأولى ١٩٦٩م - ص ٩٦ - ٩٧.

المركزية ضد المصالح المسيحية، كما كان الأمر عند مهاجمة مالطا سنة ١٥٦٥م^١، أو عند مشاركة **جعفر باشا** والقوات الطرابلسية في **معركة ليبانطو** (أكتوبر ١٥٧١م) إلى جانب الأسطول المركزي^٢.

وفضلاً عن ذلك، وفي غياب أي دعم مركزي، كان عليهم تجبر أمورهم في مواجهة الوضعية المحلية لتثبيت المناطق الشاسعة التي تحت حوزتهم، نتاج بعدها عن القسطنطينية، وبقيائها معزولة طيلة فصل الشتاء وتعذر إمدادها بالنجادات والأسلحة عن طريق البحر وهذا ما إن يشكل عاملاً سلبياً في تطور السيطرة العثمانية في المناطق البعيدة عن إشعاع طرابلس، مثل منطقتي بنغازي وبرقة^٣ وإضطرار الباشا إلى التحصن بالقلعة أمام ثورة نبال وأتباعه سنة ١٥٨٩م في إنتظار قدوم النجادات من المركز^٤.

وإلى جانب هذه المشاكل المتصلة بالعلاقة بين طرابلس والداخل الليبي من جهة، وبين الباشوية والقسطنطينية من جهة أخرى، كانت سلطات الباشوات تعرف مشاكل هيكلية مرتبطة بالتنافس بينهم وبين باشوات المناطق المجاورة، إما بسعي من طرابلس إلى توسيع نفوذها باتجاه بعض المدن الأفريقية على حساب باشوية تونس، مثلما أقدم عليه **حيدر باشا**^٥، أو لرغبة باشا آخر للسيطرة على طرابلس مثلما قام به **الداي حسن باشا** الجزائر سنة ١٠١٠هـ/١٥٩٩م^٦.

بل وأحياناً تدفع هذه الطموحات بعضهم إلى التحالف مع الثوار المحليين ضد الباشا الطرابلسي، على غرار ما قام به باشا تونس بتحالفه مع

^١ - فيرو - ص ١٤٦

^٢ - برنيا - ص ٩٠

^٣ - محمد مصطفى بازامة " بنغازى عبر التاريخ " - ج١ - دار ليبيا للنشر والتوزيع ١٩٦٨ - ص ٢٥٠.

^٤ - فيرو - ص ٢٥٠.

^٥ - عزيز سامح: " الأتراك العثمانيون في إفريقيا لشمالية " - ترجمة عبد السلام أدهم - درا لبنان - بيروت ١٩٦٩ - ص ٩٢ - ٩٣، وأيضاً رسائل سلطانية نقلا عن الوثائق العثمانية لدى الأسطى - ص ٩٣

^٦ - فيرو - ص ١٥٩ - ١٦٠

النائر الجبالى لتقويض حكم مصطفى باشا، ولن يفلح هذا الأخير فى إفشال هذا التحالف إلا بعد التنازل عن جزيرة جربة لغريمه التونسى سنة ١٥٨٨م، وأحيانا أخرى نجد محاولة باشا تونس الإستفادة من الوضعية الصعبة التى تجتازها السلطة فى طرابلس للإستيلاء عسكريا على مناطق بعيدة عن مركزها وداخله فى مدار نفوذها، وذلك فى مطلع القرن ١٧م^١.

وعلى العموم، إذا كانت الروابط القائمة بين السلطة المركزية وباشوية طرابلس لا تخرج عن التقليد المتبع فى تسيير الأقاليم البعيدة عن القسطنطينية على المستوى السياسى، فإنها على المستوى الإقتصادى اعتمدت على الأسلوب الشائع فى عموم إمبراطوريات القرن ١٦م، التى تجعل مداخل المناطق فى خدمة الخزينة المركزية، خصوصا وأن التيار التجارى كان هو السائد فى مختلف أرجاء العالم المتوسطى، بما تمثله مناطق السيطرة الشمالية من تأثير على غيرها، حيث كانت القسطنطينية - على غرار لشبونة وأشبيلية - مركز استقبال للمنتوجات القادمة من أقاليم ما وراء أوروبا الخاضعة أو المستعمرة.

لقد أصبح الموقع الإقتصادى للإمبراطورية العثمانية يتأثر باشتداد المنافسة البحرية الأوروبية عامة، والإبرية بصورة خاصة بفعل تحكم أساطيلها فى التجارة الملاحية مع الشرق الأقصى عبر المحيط الهندى ومع سواحل غرب أفريقيا فى المحيط الأطلنטיكى وباستغلالها لخيرات العالم الجديد، مما ألحق ضربة قاصمة بمواقع الوساطة التجارية التقليدية التى كان يضطلع بها العالم الإسلامى كل هذا جعل اقتصاد الدولة العثمانية يعرف انكاسة متطورة نحو السلب رغم محاولة السلاطين استثمار سيطرة قواتهم على الحوض المتوسطى^٢.

^١ - أنظر: فيرو - ص ١٦١.

^٢ - Braudel - Op. cit- p 346-347

ولهذا كانت الأقاليم التابعة للقسطنطينية تقترض لا تمويلها للوجود العثماني فوق ترابها فحسب، وإنما أيضاً تصدير أموال وحاجيات مطلوبة من طرف المركز، مع الزيادة في حجم هذا الطلب كلما ارتفعت سلبية الاقتصاد العثماني العام، وأساساً عند ضعف المواسم الزراعية وقلة مردوديتها، وهي أزمات دورية متلاحقة أحياناً (مجاعات ١٥٦٦، و١٥٦٧، و ١٥٦٨ م...)،^١ مما كان له أبلغ الأثر على خزينة الدولة، التي أصبحت "مداخيلها لا تغطي مصاريفه" حسب المؤرخ العثماني المعاصر مصطفى السلاينكي، خصوصاً والإمبراطورية قد اعتمدت نهج سياسة امتيازات واسعة لرجالها ولنخبها^٢.

ورغم ذلك لم تكن القسطنطينية تهتم بالوضع الاقتصادية للأقاليم بقدر ما كانت تهتم بضرورة استمرار ورود الخراج السنوي، بما مثله ذلك من اعتراف بالتبعية والولاء للسلطان من جهة، وبتوفير احتياجات متنوعة يقوم عليها غنى الدولة والسلطان فكان كل باشا يتمتع بالسلطة المطلقة داخل ولايته على أساس تقديم الضريبة السنوية، وإستعداده لتزويد قوات وأساطيل المركز بالرجال والسلاح والمؤن كلما دعت الضرورة إلى ذلك^٣، بل كان على الباشا الإستجابة أيضاً لطلبات نوى النفوذ السياسي أو التأثير الاقتصادي داخل القسطنطينية^٤.

وهكذا عرف الوجود العثماني بطرابلس نهج سياسة ضريبية متشددة منذ عهد درغوت باشا. ولتحقيق الموارد المتلائمة مع الخراج السنوي المفروض من قبل القسطنطينية لم يتورع الباشوات على فتح المناطق المتجة

^١ - Braudel- p 65

^٢ - سامح - ص ٥٨

^٣ - برنيا - ص ٦٩

^٤ - خلال عهد مراد آغا (١٥٥١ - ١٥٥٣ م)، توصل هذا الأخير بمطالب خاصة على يد أحد التجار اليهود، تتمثل في توفير أرقاء مسيحيين مختصين في الحياكة. أنظر: فيرو ص ١٣٣

وإخضاعها لسياسة استنزاف قسرية، مثلما فعل درغوت لدى سيطرته على جبل غريان^١، وكذا محمد باشا عند استيلائه على فزان، التي كان يجبي منها ضريبة مقدارها ألف ومائة وأربعين مثقالاً^٢.

وقد كان من بين نتائج هذه السياسة الضريبية استمرار الربط الاقتصادي بين الولاية الطرابلسية كونها نقطة تصدير، وبين المركز العثماني كونها نقطة استقبال، زيادة عن نتائج جانبية تمثلت في تحكم الباشوات وقواد الإنكشارية في أجزاء هامة من هذه المداخل وإستئثارهم بها، إلى درجة اطلاع القسطنطينية على ذلك ومحاولتها معالجة الأمر عن طريق جعل حسابات الخزائن الإقليمية تحت إشراف مندوبين تابعين للسلطة المركزية مباشرة، أو ببعث لجان لتقصي الحقائق، كما حدث سنة ١٥٨٨م التي أدين فيها محمد باشا لإستحواذه على أموال العامة والخاصة^٣.

وإذا كانت هذه السياسة في صالح القسطنطينية وباشواتها وقوادها العسكريين، فإنها من جهة أخرى قد شكلت لدى الأهالي استبدادا شديدا أدى في بعض الأحيان إلى إفراغ مناطق من ساكنتها، مثلما حدث في سنة ٩٧٦ هـ/١٥٦٨م على عهد جعفر باشا في جربة، التي اضطر أهلها إلى الفرار منها هربا من الإفلاس وأحيانا أخرى إلى قيام ثورات الأهالي ضد الحكم كنتيجة لهذه السياسة، وهو ما تذكره الرسالة السلطانية الموجهة إلى باشا طرابلس عند قيام ثورة يحيى السويدي^٤.

وقد كان على السلطة الطرابلسية مواجهة خطورة سياستها وتسببها في قيام الأهالي حتى نهاية عهد الباشوات، بنهج الخيار العسكري الذي لم

^١ - فيرو - ص ١٢٢

^٢ - سامح - ص ٥٤

^٣ - فيرو - ص ١٤٩ - ١٥٠

^٤ - أنظر رسالة السلطان إلى باشا طرابلس في فاتح محرم ٩٦٦ هـ، لدى فيرو - ص ١٤٢

تكن نتائج حاسمة في استقرار أمن الولاية إلا لفترات متقطعة، مما كان يدفع ببعضهم إلى خلق اجتهدات سلمية، كما فعل جعفر باشا سنة ١٥٧٧م، الذي أقدم على خفض الضرائب إلى النصف على قبائل بني وليد ويفرن، لكن هذه السياسة ستدفع بقبائل أخرى إلى طلب المعاملة بالمثل.

ثانيا: طبيعة النظام الإداري بطرابلس

على غرار باقي الولايات العثمانية ومناطق نفوذها بشمال أفريقيا أسست القسطنطينية بولاية طرابلس نظاما إداريا إقليميا في ظاهره، ومرتبطة في باطنه وعمقه بشكل وثيق بالمركز خلال القرن ١٦م، حيث كانت القسطنطينية تختار باشواتها وتعينهم طبقا لتوجهات أصحاب النفوذ في السراي (رجال الجيش، الباب العالي، السلطان..)

وقد كانت السلطة المخولة لهذا النظام الإداري تكاد تكون مطلقة، لكنها تتجزأ بين مكوناته الرئيسية، حيث أن سلطة الباشا كانت تحد منها السلطة الممنوحة لقائد الإنكشارية، في مقابل استقلال القاضى بالشؤون المتصلة بالعدالة، والمفتى بالقضايا الدينية، وهى كلها مؤسسات تختار وتعين شخصياتها من قبل القسطنطينية^١.

أ- الباييرباي أو الباشا:

حظيت طرابلس باهتمام ظاهر من قبل السلطة المركزية نتيجة وجودها على مقربة من مسرح الصراع الإسلامى - المسيحى بعد تحريرها من الاحتلال، حيث نصبت القسطنطينية أميرا للأمرء "بايلرباي" فى مرتبة أعلى، وهو واحد من العشرين بايلربايا المسيرين للأقاليم العثمانية الرئيسية فى آسيا وأوروبا وشمال أفريقيا^٢

^١ - برنيا - ص ١٠٣

^٢ - Braudel - p36 - 37

وإذا كان بايلرباي طرابلس حتى سنة ١٥٦٥م يتمتع بنفوذ قوى يتعدى حدود الولاية حيث ضاهت مكانته أمير البحر "القبودان باشا" كما كان عليه الشأن أيام درغوت، فإنه منذ وفاة هذا الأخير تضاعل حجم بايلرباي طرابلس لتصبح سلطاته لا تتعدى حدود الإقليم، فضلا عن خضوعه لسلطات القبودان باشا، وأحيانا أخرى لقوة قائد الإنكشارية، وظل هذا النفوذ يتضاعل سريعا لفائدة هذا الأخير حتى مطلع القرن ١٧م، الذى بفعل التطور السياسي فى شمال أفريقيا أصبح هو الحاكم الفعلي تحت لقب "الداي"^١

إن أولى الإشكاليات التى أثارها تتبع تطور منصب الباشا فى ما بين فترتى وولاية مراد أغا (١٥٥١م) وولاية سليمان داي (١٦٠٣م) التى تؤرخ لبداية عهد الدايات، هو تضارب المعطيات حول أعداد الباشوات المتعاقبين على الحكم، حيث تحصرهم المؤلفات المحلية فى ست باشوات، بمقابل ثلاثة عشر باشا فى المؤلفات العثمانية وعشر باشوات فى المؤلفات الأوروبية، وهو تضارب يزيده اختلالا عدم انتظام ترتيب فترات حكم هؤلاء الباشوات، حتى بالنسبة للمتق عليهم فى مختلف المصادر^٢، وإن كنا نعتد على المؤرخ شارل فيرو أكثر من غيره، رغم خروجه عن إجماع باقى التأليفات الأخرى فى ما يخص تاريخ بعض الأحداث الكبرى، وأساسا أحداث فزان^٣.

وعلى العموم كان منصب الباشا يتمتع بصلاحيات إدارية وسياسية كبرى، ولا يسند إلا لشخصيات تحظى بدعم كبار رجال الدولة فى القسطنطينية، أو بدعم مباشر من السلطان^٤.

^١ - نقولا زيادة: "ليبيا فى التاريخ، الجامعة الليبية، كلية الأداب، سنة ١٩٦٨" - ص ٢٥٦

^٢ - (تجمع أغلب المؤلفات أن استيلاء العثمانيون على فزان قد تم فى سنة ١٥٥٧م على عهد محمد باشا، فى حين ينفرد فيرو بجعله فى عهد جعفر باشا. أنظر: فيرو - ص ١٥٠ - ١٥١)

^٣ - فيرو - ص ١١٧

^٤ - نفسه - ص ١٢٠

وكان دوره متوازنا على مستوى تثبيت السلطة داخل البلاد من جهة، وعلى مستوى التصدى للمصالح الأوروبية بالإشراف على المواسم الجهادية أو بالمشاركة فيها، أو بتدعيم حركة الأسطول العثماني عن طريق تجييش الفرق العسكرية، وتجهيز السفن في إطار إسهام الأقاليم في تحقيق نفوذ الإمبراطورية في المناطق التي تنطلق منها تهديدات الأعداء، وغيرها ذات الموقع الإستراتيجي الهام وخصوصاً مواقع وسط وغرب البحر الأبيض المتوسط .

وقد كان على الباشوات الأوائل العمل على تأمين القاعدة الرئيسية طرابلس بترسيم أسوارها، وبالزيادة في تحصيناتها، لا سيما وأن تجربة فرسان مالطا لا زالت ماثلة للعيان، فضلا عما ألحقته معارك الفتح من إضعاف لما تبقى من بنياتها الدفاعية، بل إن دواعي الترميم والتحصين قد زادها قوة تركز القوات المسيحية في مالطا كأقرب نقطة قريبة من الساحل الليبي، وبالتالي محاولاتها المتكررة إعادة نفوذها ولو على جزء من ممتلكاتها السابقة، ويبدو ذلك في هجومها على زوارة على عهد مراد أغا^١، وفي مسعاها للإستيلاء على جربة في عهد درغوت سنة ١٥٦٠م^٢.

وإلى جانب التحصين كان على الباشوات تثبيت النفوذ في المناطق المكتسبة، وتطويره بالتوسع التدريجي في المناطق البعيدة عن طرابلس، سواء على الساحل الشرقي أو نحو الداخل.

فإذا كانت منطقة طرابلس قد أنخرطت تماما في السلطة العثمانية سنة ١٥٥١م، فإن الوثائق تشير إلى محاولة الباشا ببسط نفوذه نحو مناطق فزان منذ عهد مراد أغا^٣، وإن كان التطور الفعلي لن ينطلق عمليا إلا في عهد

^١ - فيرو - ص ١١٨

^٢ - ابن غليون محمد بن خليل: "التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من أخبار"، نشر وتعليق، الطاهر الزاوي. المطبعة السلفية القاهرة ١٩٧٢م. ص ٩٨

^٣ - فيرو - ص ١١٨

درغوت الذى كان حازما تجاه الأهالى، فارضا عليهم ولاء لم يعتادوه من قبل، بفعل حملاته المنظمة على الأقليم فى جبال غريان وترهونة وبنى وليد حتى مصراته سنة ١٥٥٥م^١، بل إن حزمه وحنكته وشهرته بوصفه قائد جهادى جعله يتوجه إلى محاولة إلحاق جربة بولايته^٢، الشيء الذى نجح فيه بدعم من الأسطول المركزى سنة ١٥٦٠م^٣.

وإذا كانت السيطرة الفعلية على فزان لن تتم إلا فى عهد محمد باشا سنة ١٥٧٧م^٤، فإن النفوذ العثمانى على ليبيا فى عهد الباشوات اللاحقين كان ينم عن ضعف سلطانهم وتباين سياساتهم، خاصة على مستوى الإجحاف الضريبى الذى كابده الأهالى لإمداد خزانة القسطنطينية بالخراج السنوى حسب الأمر الصادر عن السلطان إلى باشا طرابلس فى محرم ٩٨٨هـ/مارس ١٥٨٠م، الذى جاء فيه: "تعطى حصّة منها لأمير الأمراء والعساكر، وحصتان للخرينة"^٥.

وقد أحدثت ضرائب أخرى لتغطية علاوات وهدايا الإنكشارية^٦، مما دفع المناطق الليبية إلى القيام بثورات، رد عليها الباشوات بأسلوب الحملات التأديبية، وبالتالي التركيز على قوة جند الإنكشارية وأغواتهم، مما يرفع من شأنهم، ومن اتساع سلطاتهم أمام ضعف سلطة الباشا.

لقد كانت نهاية رمضان باشا على يدهم، وهم الذين نصبوا خلفه مصطفى باشا من بين قوادهم قبل تركيته من طرف القسطنطينية^٧ بل إن

^١ - ابن غليون - ص ٩٨

^٢ - سامح - ص ٥٤

^٣ - محمد مصطفى بازامة "بنغازى عبر التاريخ" - ج ١ - دار ليبيا للنشر والتوزيع ١٩٦٨ - ص ٢٤٧

^٤ - كان درغوت أول من حاول السيطرة عليها، وذلك سنة ١٥٥٨م. أنظر: فيرو - ص ١٢٥.

^٥ - سامح - ص ٧٥ - ٧٦

^٦ - ابن غليون - ص ٩٩ - ١٠٠، والأتصاري - ص ٢١٧ - ٢١٨

^٧ - محمد الأسطى: "ثورة يحيى بن يحيى السويدي أو سويدان" مجلة البحوث التاريخية - مركز دراسات

جهاد الليبيين - السنة الرابعة - العدد الأول - يناير ١٩٨٢ - ص ١٤٩ - ١٥٠

اختصاصات الولاية صارت تمارس من قبلهم، فأصبحوا هم من يحدد قيمة الضرائب وكيفية استخلاصها، وحتى إدارة بيت المال أصبحت تحت إشرافهم الخاص^١، ومن ثم كانت سلطة الباشا تتضاءل تدريجياً منذ استشهاد درغوت. وكان على كل باشا مواجهة ثورات الأقاليم من جهة، والحفاظ على ما تبقى من سلطانه أمام الإنكشارية، وإن لم يساهم بدوره في تأزيم وضعية الجهاز الإداري باقتطاع الأموال لفائده الشخصية مثلاً. قام به جعفر باشا ومحمد باشا^٢، مما جعل السلطة لا تجد بداً من تغيير رأس الجهاز الإداري أو تأمر باعتقاله، دون أن تتجح مع ذلك في إقرار سلطاتها على السلطة الفعلية للجهاز الإداري على مدينة طرابلس ونواحيها، في حين كانت باقي المناطق في عصيان شبه تام ما أن يخدم في إقليم حتى يندلع في الآخر، في الوقت الذي لم تقلح السلطة المركزية فيه في التقليل من تعاضم نفوذ أغوات الإنكشارية ودلائتهم، مما كان يمهد لبداية عهد سياسي جديد.

ب - الإنكشارية

الإنكشارية أو اليكجيرية كلمة محرفة عن لفظة "ينيجيري" التي تعني الجيش الجديد، وهو القوة العسكرية الدائمة التي أنشئت منذ عهد السلطان أورخان^٣. وقد ظهرت نواته الأولى في ليبيا مع تمركز الوجود العثماني في تاجوراء على عهد كرماني ومن بعده مراد أغا، الذي أعتبر بحق المشرف على نشأته الفعلية خاصة بعد فتح طرابلس، ومع إضافته آنذاك لأعداد جديدة من فرق الفتح، مما مكنه تكوين جيش نظامي يدعم سلطة الباشا، ويدافع عن سلامة المدينة وعن مناطق نفوذها^٤.

^١ - الأسطى - ص ١٦٢.

^٢ - توصلت لجنة التحقيق التي بعثها السلطان بقيادة أمير البحر حسن للوقوف على أسباب ثورة يحيى السويدية إلى أن محمد باشا سلب الأموال بالقرة، فأخذ من رئيس الترسانة مصطفى أغا عشرة ألف ذهبية، ومن جعفر ست وعشرين ألف ذهبية، ومن محمد الترجمان وأبنائه عشرة آلاف ذهبية، ومن الكثير غيرهم. أنظر: الأسطى: ص ١٤٨.

^٣ - نفسه - ص ١٤١.

^٤ - فيرو - ص ١١٨.

لقد كان دور جند الإنكشارية رئيساً للسلطات العثمانية، فعلى عاتقهم كانت تقع مسؤولية الدفاع عن حدود الإمبراطورية إزاء احتمال الهجمات المسيحية، وإشرافهم على القواعد البحرية الرئيسية للأسطول العثماني، فضلاً عن اضطلاعهم بمهمة القيام بالعمليات الجهادية البحرية، من خلال المساهمة في المواسم الملاحية تحت إشراف الرياس، كما كان عليهم من جهة أخرى السهر على تنفيذ سياسة المركز في الأقاليم والولايات، وتطوير مجالاتهم باتجاه المناطق الجديدة، مع ما يترتب عن ذلك من الدفاع عن هيبة السلطان وإقرار الأمن وجباية الضرائب، وسحق الثورات والتمردات.

وباعتبارهم أداة تنفيذية، كان الإشراف عليهم نظرياً من مسؤولية الباشا، الممثل الشرعي للسلطان، وكان هذا الأخير يعتمد عليهم بمساعدة ديوان يتكون من كبار دلياتهم وبكواتهم وأغاواتهم^١ الذين كانوا يعينون ويرسلون من القسطنطينية، وبالتالي كانت السلطات العسكرية المباشرة تحت إشرافه^٢.

وقد برز التنظيم النموذجي لجند الإنكشارية - بعد مرحلة الإستقرار في عهد مراد أغا- منذ تولى درغوت باشا إمارة طرابلس بقيادة تراتبية يرأسها "البك" بمهمة القيادة العامة للجيش، وينوب عنه "الكاهية"، رغم أن إشرافه الفعلي كان يقتصر على الحامية والفرق البرية، في الوقت الذي كان فيه "القبودان" أو رياس الرياس هو المسؤول على "طائفة الرياس" وعلى الوحدات البحرية، يساعده في ذلك رئيس الترسانة. وقد كان هؤلاء الضباط هم الذين يؤلفون أعضاء الديوان^٣. ومع توسع النفوذ في المناطق الليبية الأخرى خارج طرابلس أحدث النظام منصب المحافظين في القرى والأرياف

^١ - زيادة - ص ٢٥٦

^٢ - برنيا - ص ٦٩

^٣ - زيادة - ص ٢٥٦

يعينهم الباش سنويا من بين قواد الجيش "الأغوات" بمهمة إقرار الأمن وجباية الضرائب^١.

أما الحامية فقد كانت تتألف إلى جانب الرياس ورجال البحرية من عدة فرق من الإنكشارية من مختلف الأصناف، حسبما توضحه رسالة سلطانية سنة ١٥٨٩م: "ثلاثمائة إنكشاري ومدفعي، ومائة من قاذفي القنابل ومصلحي السفن، مائتين من المدرعين، ومائة وخمسين من الأصناف الأخرى المناسبة للمكان"^٢.

وهذا العدد لم يكن قارا، وإنما كان يختلف بحسب الظروف الإقليمية والدولية، رغم أن البارز هو سعي القسطنطينية إلى إمداد حامية طرابلس منذ سنة ١٥٥١م بالمزيد من الجند، ففي سنة ١٥٥٣م حصل درغوت على قوة عسكرية جديدة مكونة من ألفي إنكشاري للمحافظة على الأمن والنظام في البلد، واستمرت فيما بعد على هذا المنوال^٣، لاسيما وأنهم كانوا مجبرين على المساهمة بأعدادهم في المعارك الكبرى للجيش العثماني، مثل إسهامهم في حصار مالطا (١٥٦٥م) التي قضت على ألف ومائتي رجل من حامية طرابلس^٤، مما جعل القوات المتمركزة في المدينة في حالة ضعف ونقصان في الكفاءة، وكان لذلك أبلغ الأثر على وضعية السلطة الحاكمة بالمنطقة، وشعور القبائل بإمكانية التحرر من ربة السياسة الجبائية للباشا.

ولهذا كانت القسطنطينية تضخ في الحامية الدماء الجديدة، حيث دعمتها غداة نهاية حصار مالطا بأزيد من ألف ومائة فارس فضلا عن بحارة السفن سنة ١٥٦٧م^٥، كما أمد علوج على رمضان باشا بفرقة من الإنكشارية

^١ - سامح - ص ٩٨

^٢ - الأسطى - ص ١٤٩

^٣ - زيادة - ص ٢٥٦

^٤ - برنبا - ص ٩١

^٥ - سامح - ص ٨٢

سنة ١٥٨٢م دون أن يمكن ذلك من سد الحامية لخصاصها البشرى من جراء ما لحقها من استنزاف لدى مواجهتها للثورات المحلية، وخاصة فى فزان التى شهدت إبادة شبه تامة للفرق العسكرية التى كان يقودها مامي أغا سنة ٩٩٠هـ / ١٥٨٢م^١ وحتى فى ضاحية طرابلس خلال ثورة السويدي (٩٩٦هـ/ ١٥٨٨م) وخلفه نبال فى السنة الموالية، التى دفعت الباشا إلى التحصن بالقلعة فى انتظار قدوم النجداث من القسطنطينية، التى بلغت فى نهاية السنة ألفا وخمسين إنكشاريا من مختلف الفرق طبقا لتعليمات القبودان باشا^٢.

وقد كان التضارب بين النفوذ العسكرى للإنكشارية والنفوذ السياسى للباشا أهم مميز للنظام الإدارى بطرابلس، لاسيما وأن تثبيت هذا النفوذ وتطوره كان على كاهل الفرق العسكرية، فضلا عن تلاحم فصائلهم بمقابل فردانية الباشا وانعزاليته، وهو ما جعل قوادهم يشعرون بأهميتهم فى تدبير شؤون السلطة، وأصبحت سلطة كبار قوادهم وعلى رأسهم الدايات تناظر سلطة الباشا منذ نهاية عهد درغوث باشا، بل تفوقها أحيانا، وأصبح تعيين محافظى القرى والأرياف الذى كان من اختصاص الباشا يقوم به قواد الإنكشارية، حسبما تكشفه رسالة سلطانية فى محرم ٩٩٦م/ ١٥٨٧م، التى جاء فيها: "كانت طائفة الإنكشارية منذ أن حررت البلاد لا تتولى المحافظة على القرى والأرياف من تلقاء نفسها.. والآن صارت حامية الإنكشارية تبعث بالمحافظين إلى حيث شاءت"^٣.

وإذا كانت العادة الجارية تقتضى إستبدال محافظى المناطق سنويا بعد جباية الضرائب، فإن رغبة الجند فى الحصول على المزيد من الأموال

^١ - ابن غليون - ص ١٠٠

^٢ - فيرو - ص ١٦٠ - ١٦١

^٣ - الأسطى - ص ١٤٢

جعلهم يستبدلونهم شهرياً، مما كان يلحق الضرر بالخزينة وبالأهالي^١، دون أن يؤدي ذلك إلى توقف الإنكشارية عن تطوير سلطاتهم، حيث أن سيطرتهم على المحافظات كانت نتيجة استيلائهم على واردات المناطق وفرض المزيد من المغارم على الأهالي، وعززوا ذلك بإقصاء ضمنى لمسؤولية "الدفتدار" مدير مالية الولاية، الذي كان تحت إشراف الباشا، وعينوا مكانه أحد أفرادهم، وفق ما تخبر به رسالة من السلطان مراد فى آخر سنة ٩٩٥ هـ/ نوفمبر ١٥٨٧ م، التى جاء فيها:

"منذ أن حررت البلاد وحتى عهد حيدر باشا كان بيت المال تحت إدارة أمير الأمراء، إلا أن مساعد أمير الأمراء السابق أخبرنا بأن طائفة الإنكشارية اتولوا على بيت المال وعينوا شخصا من طرفهم لإدارته"^٢.

إن هذا التحول لا يختص بطرابلس وحدها، إنما هو تقليد اتبع فى مختلف المناطق العثمانية الأخرى، وخاصة فى تونس^٣، ولا يعنى هذا أن تطور نفوذ الإنكشارية كان لغايات مالية فحسب، وإنما أيضاً كان نزاعهم حول النفوذ السياسي مع الباشا قد برز غداة وفاة يحيى باشا سنة ١٥٦٦ م، ورغبة القواد فى تسيير شؤون الولاية مباشرة^٤.

ويقول ابن غلبون بخصوص ذلك:

"تغلب الجند على أمر البلد، ولم يكن لواليتها (مصطفى باشا/ ١٥٦٦ - ٧٤ م) من قبل السلطان تصرف"^٥. وعلى نفس المنوال كان عهد خلفه الذى يصفه صاحب المنهل العذب بقوله: فى هذه السنة (٩٩٠ هـ/ ١٥٨٢ م) ..ولى

^١ - سامح - ص ٩٨

^٢ - الأسطى - ص ١٤٢

^٣ - سامح - ص ٩٣

^٤ - فيرو - ص ١٤٩

^٥ - ابن غلبون - ص ٩٩

جعفر باشا برتبة طرابلس غرب بكربكي، وكان ضعيف الشكيمة، عاجز
الرأى والحيلة، فتغلب عليه الجند^١

وفى مقابل هذه الوضعية سعى الباشوات من جهتهم إلى الدفاع عن
موقعهم السياسي باتباع مختلف الوسائل، حيث حول باشا طرابلس لسنة
١٥٧٠ - ١٥٧١م التصريب بين قواد الإنكشارية عن طريق الدس والفتنة
لتكسير التحامهم^٢، كما لجأ باشا آخر إلى محاولة تكسير شوكتهم ببعث قواتهم
إلى منطقة فزان القصية، بما يسمح له بتحقيق نتيجتين إيجابيتين، تتمثل
أولاهما فى تخليص طرابلس من وطأة الجند^٣، وتتمثل الثانية فى السيطرة
على طرق التجارة القافلية، بل نجد أن محمد باشا (١٥٨٦ - ١٥٨٨م) قد
جابههم بنفس الأسلوب المعتمد من طرفهم، حيث بادر إلى سلب الأموال من
أقربائهم وكبرائهم.

ويبدو أن هذه المحاولات لم تستطع كبح جماح الإنكشارية الذين
صار نفوذهم يتعاظم عبر السنوات، وأصبح الباشا خاضعا لمشيتهم ولا
يستمر فى منصبه إلا بقدر رضائهم عنه. ففى سنة ١٥٨٤م أقدموا على الفتك
برمضان باشا الذى حملوه مسؤولية الحملة الفاشلة ضد تمرد أهالى الجبل
ونصبوا مكانه أحد قوادهم وهو مصطفى باشا^٤.

وقد أصبح هذا النفوذ يشكل تهديدا لإستقرار السلطة العثمانية فى
ليبيا، بما كان ذاك يمثل من عسف ضريبى ومن إثارة للأهالى من جهة،
فضلا عن بروزه كهشاشة للروابط السياسية بين المركز والولاية، وهو ما

١- أحمد بك الأنصاري: "المنهل العذب فى تاريخ طرابلس الغرب" منشورات مكتبة الفرجاني طرابلس- ج ١-
الطبعة الثانية- بدون تاريخ. ص ٢١٨

٢- سامح - ص ٨٦

٣- عبد اللطيف البرغوثى: "تاريخ ليبيا الإسلامى من الفتح الإسلامى حتى بداية العصر العثمانى" منشورات
الجامعة الليبية - دار صادر - بيروت ١٣٩٣ هـ - ١٥٠ - ١٥١

٤- الأسطى - ١٤٨

جعل أمير البحر حسن باشا يتدخل لإخماد ثورة يحيى السويدي (١٥٨٩م)، وللقيام بتحقيق جدي في أسباب عصيان الأهالي وتمردهم ضد السلطة، حيث توصل إلى إقناع الناس بأن الأمن والاستقرار لن يتأتيا إلّا بإخراج الإنكشارية من البلد، طالبا من القسطنطينية بالتعجيل ببعث قوات جديدة مكانها، الشيء الذي استجيب له فيه^١. إلا أن الوافدين الجدد لم يلبثوا أن نهجوا نفس سياسة أسلافهم، محافظين على الوضع السياسي القائم لفائدة الإنكشارية على حساب سلطات الباشا، سواء في ما يخص استئثارهم بمردوديات الضرائب، أو بتعيين المحافظين، أو بتسيير دفة الحكم جنبا إلى جنب مع الباشا^٢، وأصبح الداي منذ سنة ١٠٠٣هـ/١٥٩٤م يقاسم مبعوث القسطنطينية الرسمي السلطة نظريا، ويستأثر بها عمليا نيابة عن الإنكشارية، الذين كانوا يعارضون أحيانا أوامر المركز في ما يخص رفضهم بقبول تنصيب باشا إلا وفقا لإختيارهم^٣، أو بحسب الإستجابة لمطالبهم^٤.

ويظهر أن الجهاز الإداري المولى على طرابلس من طرف القسطنطينية، بدل أن يكون جهاز تنفيذ لسياسة مملكة من المركز تحول إلى مؤسسة ينعم أفرادها بنوع من الإستقلالية التي تتطور تدريجيا لتصبح استقلالا شبه حقيقي منذ مطلع القرن ١٧م، وهي مؤسسة تميزت بطابعها العسكري وسيادة عناصرها الغربية والقليلة العدد على جموع من الأهالي، وعلى مناطق شاسعة يتطلب إمدادها تمويلا مستمرا للفرق العسكرية، فضلا عن توجيه حصة الخراج السنوي إلى الخزينة المركزية التي كانت تمثل رمز الإعتراف بسيادة الدولة العثمانية على الولاية.

^١ - الأسطى - ص ١٤٨

^٢ - سامح - ص ١١٤

^٣ - نفسه - ص ١١٧

^٤ - يقول الأنصاري: "في سنة ١٠١٢هـ (١٦٠٣م) ثار جند البكورية على جعفر باشا، وحاصره في قصر الحكومة، ثم أمنوه على أن يخرج من بينهم فرج". الأنصاري - ص ٢٢٥ - ٢٢٦.

ولذلك كانت اهتمامات هذه المؤسسة في تسيير الولاية مركز بالأساس على ضمان تدفق الموارد المالية واستخلاصها من الأقاليم مع اللجوء كلما زاد الإحتياج إلى فرض ضرائب جديدة على الأهالي "ويسلبونهم تحت شتى المسميات"^١.

لقد كان اللجوء إلى فرق الإنكشارية في المناطق الخاضعة للسلطة العثمانية في طرابلس بغرض استخلاص الضرائب، وبالتالي للتمكن من صرف مرتبات وعطايا الجند الذين لم تكن مستحقاتهم تكفى طموحاتهم، ولذلك كانوا يجدون في الحملات فرصة للحصول على ما يرغبون فيه من أموال، وهو ما تفسره الرسالة السلطانية الموجهة إلى باشا طرابلس في ١٢ محرم ٩٨٨هـ/مارس ١٥٨٠م، التي جاء فيها:

"أعلمتنا بأن بعض الرعايا في الولاية وعربان البادية تمردوا وتعللوا عن دفع الأموال التي عليهم، وأنتك جمعت العساكر وجهزتهم بجميع لوازمهم، فحملوا عليهم، وغاروا على إبلهم وأغنامهم وأمتعتهم، وجأؤوا بها إلى طرابلس، وصاروا يبيعونها للناس كرها بأسعار قدروها بأنفسهم، فقصدوا بعضها بخمس ذهبات وبعضها بخمس عشرة ذهبة أو عشرين ذهبة، ولم يدفعوا شيئاً منها للخزينة، قائلين: أخذناها بسيوفنا"^٢.

وهذه الرغبة في مضاعفة مرتباتهم وأعطياتهم هو ما جعل مساعيهم تتدفع نحو التدخل في تعيين محافظى الأقاليم، واستبدالهم مرة كل شهر، مع ما لذلك من انعكاسات سلبية على مداخل بيت المال، الشيء الذى دفع السلطات المركزية إلى العمل بالنظام المتعارف عليه بالإقتصار على الأجور

^١ - سامح - ص ١١٤.
^٢ - الأسطى - ص ١٤٩-١٥٠.

بالعملة من خزينة الدولة، مع حظر التصرف الذاتي في أمتعة الأهالي وممتلكاتهم وأنعامهم^١.

وقد كان من نتائج تدخلات الإنكشارية في مسألة الجباية اتساع الهوة بين الأهالي وممثلي الإمبراطورية، بما تمثله حملاتهم على المناطق وفرضهم للمغرم الباهظة على السكان من جور وعسف، برزت ردود فعلها لدى الأهالي بسيادة روح العصيان والتدمير منذ عهد مراد أغا، حيث رفضت القبائل الخضوع لنزوات الجند، وقام بعض أحد الشيوخ: **الحاج منصور** برفقة مائة وخمسين من أعيان طرابلس بزيارة مالطا وطلب مساعدتها ضد الأتراك^٢، حتى أن الأهالي لم يتورعوا على التصدي بالقتل لجنود الإنكشارية كلما سنحت لهم الفرصة للتخلص من وطأتهم، بداية في المناطق النائية مثل فزان ويقول ابن غلبون في ذلك:

"ودخلت سنة ٩٩٠هـ (١٥٨٢م) قام أهل البلد على "علي مامي" ومن معه من الجند فقتلوه عن آخرهم، ولم يفلت منهم إلا طائفة من أولاد علوان كانوا عوناً للجند"^٣.

لكنه أمام استفحال ظلمهم وقسوتهم لم يجد الأهالي بدا من إعلان العصيان والثورة، ووجهوا جهودهم للقضاء على الإنكشارية، العمود الفقري للوجود التركي. فقد استطاعت ثورة يحيى السويدي أن تشرذم جموعهم وتبيد الآلاف منهم سنة ٩٩٦ هـ/١٥٨٨م^٤، وبعده بسنة تمكن خلفه نبال عند مهاجمته طرابلس من القضاء على نحو ثلاثة أضعاف هذا العدد تحت شعار "حيثما وطأ التركي بقدمه يموت العشب ويحل الخراب"^٥.

١- سامح - ص ٩٠

٢- فيرو - ص ١١٩

٣- ابن غلبون - ص ١٠٠

٤- نفسه - ص ١٠١

٥- فيرو - ص ١٦٠

لقد كان لهذه الوضعية الأثر الكبير على قوتهم وفوذهم ولو مؤقتاً، وزاد من حدة تخلخل وحدتهم انتشار التوتر في أوساطهم، لاسيما مع بروز مسألة "القولوغلية"، طائفة الإنكشارية المولدين، الذين بدأ تدميرهم من المعاملة الدونية التي دفعتهم إلى إثبات وجودهم، وذلك بالثورة داخل طرابلس نفسها والإستقلال ببعض أحيائها^١، فضلا عن توالي هزائهم.

وقد حتم الوضع على القسطنطينية اتخاذ أمر إستبدال القوات العاملة بليبيا منذ أمد طويل بقوات جديدة سنة ١٥٨٩م، مما كان له أثر هام في إعادة الأمن إلى طرابلس والمناطق الساحلية القريبة، قبل أن تعود الأمور إلى حالة الفوضى على المستوى السياسي بفعل حفاظ الإنكشارية الجدد على النهج الذي سناه سابقوهم، واستمر ذلك إلى حين إنهاء عهد الباشوات بتحكمهم بصورة تامة في نظام الحكم في ليبيا انطلاقا من سنة ١٦٠٣م.

ثالثا: السياسة الداخلية للحكم العثماني بطرابلس

ما أن دخلت طرابلس تحت النفوذ العثماني حتى أرقت إلى مصاف الأقاليم الهامة لما كانت تمثل من موقع استراتيجي هام سواء على مستوى الصراع الإسلامي - المسيحي، أو باعتبارها إحدى النهايات الرئيسية للتجارة القافلية الصحراوية، وهذه الأهمية المزدوجة لطرابلس سرعان ما أهلها لمضاهاة الجزائر، حيث تطورت خلال عهد درغوت باشا (١٥٥٣ - ١٥٦٥م) رغم سلبية اقتصادها المحلي المتسم بالفقر المدقع على مستوى الإنتاج، فضلا عن اشتغالها على مناطق يصعب إخضاعها، وبالتالي الحفاظ على أمن وسلامة الطرق التجارية القادمة من السودان بالتبر وبالعبيد، وهو ما جعل طرابلس خلال عهد الباشوات تسعى للحصول على احتياجاتها من المجال البحري كلما اشتد خصاصها البري^٢.

^١ - فيرو - ص ١٥٤

^٢ Braudel - Op.cit - p 284

أ- السلطة المركزية في طرابلس

بسبب موقعها ونشاطها التجاري المعتمد بدرجة كبيرة على البحر والمواجهة مع القوات المسيحية، أولى الباشوات المتعاقبون على حكم طرابلس اهتماما كبيرا بتدعيمها وتحسينها، مع سعيهم إلى تعميرها لاسيما وأن الأتراك قد استولوا عليها من يد منظمة الفرسان والخراب يعمها من جراء المعارك، وإهمال المحتلين السابقين لشأنها، وهو ما دفع مراد أغا بمجرد توليته (١٥٥١م) إلى ترميم قلعتها التي دمرت بعض أركانها في أثناء الحصار، وكذا إلى إصلاح الأسوار والأبراج وتزويدها بالمدفعية وبالحاميات، خصوصا وأنه كان يستشعر طموح فرسان مالطا في مهاجمتها ثانية^١، وهو ما أسفر عن جهد كبير في مواجهة حملتهم على زوارة في السنة الموالية.

وإلى جانب هذه التحصينات، بادر مراد أغا إلى إعادة الإزدهار إلى المدينة، بعدما لمس تدهورها بفعل تحول التجارة القافلية عنها نحو تونس ومصر خارجيا، ونحو تاجوراء داخليا واهتم بجعلها مركز النشاط الاقتصادي بالمنطقة والنهائية الرئيسة للطرق الرابطة بين السودان ووسط الحوض المتوسطي^٢.

وقد نجح خلال السنتين اللتين قضاها على رأس الولاية في إعادة حيويتها السابقة، مشجعا أهالي الأرياف القريبة على تعميرها وخاصة أتباعه السابقين من سكان تاجوراء، وكذا من الطرابلسيين الأصليين النازحين منها في أثناء الاحتلال، كما شجع السكان على الزراعة والحرف وإنشاء البساتين وإستثمار الأراضي، مستغلا في ذلك توزيع البقع الفلاحية على الفلاحين، بشكل جعل طرابلس تعرف في وقت وجيز حركة بناء ونشاط كبيرين^٣.

^١ - زيادة - ص ٢٥٤

^٢ - نفسه

^٣ - الطاهر الزاوي: "ولاية طرابلس من بداية الفتح العربي حتى نهاية العهد التركي" الطبعة الأولى دار الفتح للنشر والطباعة - بيروت - سنة ١٩٧٠م - ص ٣٣٩ - ٤٠٠

لقد عرفت طرابلس أوجه ازدهارها مع تولى القائد الشهير درغوث باشا (١٥٥٣ - ١٥٦٥م)، الذى لقبته المصادر الأوروبية "ذئب البحر"^١ الذى كانت سلطاته مطلقة، وحدد سياسته فى ثلاثة مجالات رئيسية وهى:

- تقوية تحصينات المدينة
- الإحتفاظ بفعالية الأسطول الجهادى
- بسط سلطانه على المناطق الريفية وعلى النواحي المجاورة لطرابلس^٢.

وقد أولى المهمة الأولى اهتماما كبيرا لما كانت تتطلبه وضعية المدينة من المزيد من الإصلاحات فى منشأتها الدفاعية، سواء فى ما يخص الأسوار أو الأبراج، ودعما لذلك أقدم على إنشاء "دار البارود" بالموقع الجنوبى للقلعة، وسد ثغرات هذه الأخيرة المخلفة عن الإحتلال، زيادة على تحصين بعض أركان المدينة ببرج جديد أصبح يحمل اسمه قصد حماية الميناء^٣.

ورغم إنشاء دار البارود كان النقص فى التجهيزات وفى الذخيرة العسكرية يقلق باله مطالباً القسطنطينية بإمداده باحتياجاته الشيء الذى حصل عليه سنة ١٥٦٠^٤، حيث تراوحت القطع المدفعية حسب تقرير القس نيكولو ماريا كراشيولو (Cracciolo) الأسير بطرابلس، الموجه إلى نائب الملك بصقلية بين سبعين وثمانين قطعة سنة ١٥٦١م، على رأسها مدفع ضخمة وجه خصيصاً لحماية القلعة^٥. ورغبة منه فى حماية المدينة من الوجهتين البرية

^١ - سامح - ص ٥٣ الهامش

^٢ - زيادة - ص ٢٢٥

^٣ - برنبا - ص ٦٩ - ٧٠

^٤ - نفسه - ص ٧٧

^٥ - برنبا - ص ٧٩

والبحرية أخذ درغوت على عاتقه إتمام ما شرع فيه سلفه مراد أغا، بإقامة حصن فوق تل إلى الجانب الغربي لطرابلس عرف بإسم "برج التراب".^١

وإلى جانب اهتمامه بالجوانب الدفاعية توجه درغوت باشا إلى تشجيع الجانب الإقتصادي لطرابلس، سواء على مستوى النشاط الزراعي أو الصناعي أو التجاري، باحثا في سبل توفير كفايتها من اليد العاملة التي أصبحت قليلة من جراء الحروب المتواصلة منذ سنة ١٥١٠م، ممولا ذلك بمداخل المواسم التي "كان يتحصل على مقدار كبير منها"، بل سعى درغوت إلى تحقيق نوع من التوازن بين المناطق الاقتصادية الأساسية التي كانت تحت نفوذه، حاثا بعض الأسر التونسية من مدينة سفاقص (حوالي أربعين أسرة) المشتهرة بدرايتها الصناعية ودربتها على العمل على الاستقرار بطرابلس بإشارة من أهلها.^٢

كما أهتم من جهة أخرى بتأمين سبل الإتصال بمناطق الإنتاج السودانية، حيث عمد إلى إعادة العلاقات التجارية مع مملكة بورنو مستغلا في ذلك نجاحه في إخضاع مناطق الجبال الواقعة جنوب طرابلس، وبالتالي سيطرته على الخطوط التجارية المنتهية إلى المدينة^٣، وهو ما جاهد خلفاؤه من أجل الحفاظ عليه.^٤

لقد أرتقى درغوت بطرابلس وبالنفوذ العثماني بليبيا إلى مصاف المناطق الأكثر أهمية بالبحر الأبيض المتوسط بفعل نجاح غزواته البحرية،

^١ - في رسالة وجهت إلى نائب الملك بصقلية من طرف بعض الجواسيس بتاريخ ١٠ فبراير ١٥٥٣م، جاء فيها: "إنه في ما إذا تم إنجاز هذا التحصين، فإن الأمر يتطلب قوة مسيحية كبيرة للإستيلاء على قلاع طرابلس". نفسه - ص ٨٠ - ٨١.

^٢ - الزاوي - ص ٤٠٠

^٣ - نفسه - ص ٤٠١

^٤ - جوان رايت: "تاريخ ليبيا منذ أقدم العصور" ص ٩٣

^٥ - في سنة ١٥٧٨م بعد وفاة ملك بورنو، مهدي محمد، تجرد تأكيد العلاقات الطيبة بين طرابلس وبيرونو. أنظر: برنبا: ص ٩٣

وتطويره لمركزها وتوسيع لحدود ولايتها، لتمتد من صفاقص حتى نهايات برقة شرقاً، على ساحل بمسافة أكثر من سبعة آلاف وخمسمائة ميل، كما أن حزمه وصرامته تجاه الأهالي قد جعلهم يتلقون نبأ أستشهاده بإرتياح^١.

وتشكل نهاية عهده بداية لمرحلة جديدة فى التاريخ العثمانى بليبيا، حيث لم يخل أى عهد بعده من تمرد وعصيان شعبي عارم فى مختلف المناطق، وعلى رأسها الثورات المندلعة بتاجوراء ومناطق الجبال خلال سنوات ١٥٦٧، و١٥٧١، و١٥٧٨، و١٥٨٠، و١٥٨٨، و١٥٩٠، و١٥٩٢م^٢.

ولا يعنى ذلك أن موقف الأهالي يعود إلى ضعف الباشوات بعده، وإنما لأن العلاقات بين القوات التركية الطارئة على المنطقة والأهالي من جهة أخرى كانت تقتد إلى عنصر الثقة منذ البداية، وحتى خلال عملية تحرير طرابلس من الإحتلال المسمى، إذ لمس الأتراك حياد ولا مبالاة أهالي طرابلس إزاء الحرب الدائرة^٣، بل إن هؤلاء برزت بوادر تمرداتهم الأولى منذ السنة الموالية لتحرير طرابلس تحت تأثير محاولة فرسان مالطا الإستيلاء على زوارة، فبمجرد فشل الحملة لجأ مشايخ طرابلس إلى طلب دعم منظمة الفرسان بإرسال وفد يرأسه الحاج منصور، ويضم مائة وخمسين فرداً من الأعيان إلى مالطا^٤.

وحتى خلال عهد درغوث باشا، مع ما عرف عنه من حزم وبأس ظهرت سنة ١٥٥٩م محاولات عصيان من جراء السياسة الضريبية المتبعة، وواجه درغوث ذلك بأسلوب التهريب والتهديد من جهة، ومنع ضباطه من إساءة معاملة الرعايا من جهة ثانية^٥.

^١ - نفسه: ص ٨٩

^٢ - الأسطى - ص ١٤١

^٣ - فيرو - ص ١١٨

^٤ - نفسه - ص ١١٩

^٥ - برنيا - ص ٧٢

لقد كان الموقف المعادى الذى تبناه الأهالى مرتبطا بهم منذ بداية النفوذ العثمانى بليبيا. وإذا كان مراد أغا ودرغوت باشا قد أفلحا فى إخماده، فإن الباشوات اللاحقين الذين لم تكن لهم نفس مواصفات سابقهم قد اقتصروا على اتباع السياسة الجبائية المفروضة على السكان، وكان عليهم إجبار الأهالى عليها بسياسة الحملات العسكرية، وفى بعض الأحيان بالتخفيض من قيمة تلك الضرائب وأحيانا أخرى باستقطاب عناصر مؤثرة من السكان إلى جانبها للتحكم فى الوضع.

ومن ثم كانت السلطة الفعلية للباشا لا تتعدى فى بعض الأحيان مدينة طرابلس، "ولم يكن فى مقدور رمضان باشا تحصيل الضرائب إلا من سكان المدينة ويهودها، وهو ما لا يكفى بتسديد رواتب الإنكشارية"^١.

وإذا كان على جند الإنكشارية مهمة الحفاظ على السلطة وعلى استقرار الأوضاع بمناطق النفوذ، فإن اضطراب الوضع الإقتصادى قد جعل منهم عنصر إثارة للقلق والفتن بسلوكهم إزاء الأهالى، مثلما بضغوطهم على الباشوات، غالبينهم على الأمر، ومتحكمين فى مصائرهم تنصيبا، أو عزلا، أو نفيا، أو قتلا^٢.

إن هذه الظروف التى كانت السلطة السياسية بطرابلس تعيشها قد مكنت الثورات من البروز بشكل قوى، لاسيما ثورة يحيى السويدى (١٥٨٨ - ١٥٩٠م) بتاجوراء، التى أخذت صفة التمرد العام فى كثير من المناطق حيث أستقطبت زعماء ترهونة وغريان وبنى وليد ومصراتة وتاورغاء، ونجحت فى جعل طرابلس تحت رحمة حصار إقتصادى شديد بشكل كان يهدد باقتلاع الوجود العثمانى لاسيما وأن الثائر قد سعى للفتنة بين باشا

^١ - (١) برنيا - ص ٩٤

^٢ - (١) فى سنة ١٠١٢هـ/ ١٦٠٣م قام الإنكشارية بعصيان ضد الباشا، لم يتوقف إلا بعد إستجابته لمطالبهم، حيث سمح له بمغادرة طرابلس. أنظر: ناجى "طرابلس الغرب" - ص ١٦٨.

طرابلس وباشا تونس المتنافسين على المناطق الحدودية، واستمرت هذه الثورة حتى بعد مقتل زعيمها على يد بعض خصومه من المتمردين^١.

وبالنظر للدور الرئيسى الذي أصبح يلعبه جند الإنكشارية فى الحفاظ على السلطة فى ليبيا بفعل مجهودهم فى القضاء على الفتن ودورهم فى استخلاص الجبايات، زيادة عن علو شأنهم بمقابل تضاول مكانة الباشا، أصبح داياتهم (قواد الإنكشارية) يلمسون فى أنفسهم الشخصية المناسبة لتسيير عموم المنطقة بما يتطلبه ذلك من خبرة وسلطة فعلية على الجنود، وهو ما لم يكن متوفرا لا لشخص الباشا ولا للسلطات المركزية التى تعينه، مما جعل ليبيا فى بداية القرن ١٧م تشهد تحولا فى مشهدها السياسى ب بروز نظام حكم جديد ينزع نحو نوع من الإستقلال الذاتى.

ب- امتداد النفوذ العثماني خارج طرابلس

كان لموقع ليبيا فى وسط شمال أفريقيا على الحدود مع آخر منطقة عثمانية فى شرق البحر الأبيض المتوسط (مصر) وقربها من المناطق الأقصى للوجود العثمانى فى غرب المتوسط (الجزائر) أهمية كبرى للباب العلى، الذى ما أن سيطر على طرابلس بعد تاجوراء حتى حاول باشواته إخضاع كافة القطر لإتمام السيطرة على بقية شمال أفريقيا الإسلامية، وطرد الحاميات المسيحية لمتمركزة فى بعض القواعد الإستراتيجية، خاصة فى تونس.

ولهذا بادر الباشوات إلى توسيع نفوذه انطلاقا من طرابلس، إلا أن ذلك تعرض لعراقيل جلى تمثلت فى صعوبة التضاريس (جبال وعرة وصحارى شاسعة)، وفى رفض الأهالى الخنوع لسلطانهم، وهو ما عبر عنه

^١ - ابن غلبون - ص ١٠١

درغوت عند إجابته عن تساؤلات سليمان القانوني حول كثرة ثورات قبائل ليبيا، قائلاً: "إنه من العسير ياسيدى التغلب على شعب ينتقل بمدينته ويحملها معه"^١.

وإذا كان مراد أغا ودرغوت باشا قد نجحوا إلى حد ما في تطوير سلطاتهما وبسط سلطانيهما على المناطق الموجودة خلف طرابلس شرقاً وجنوباً، وحتى إلى المناطق التونسية الأصل، فإن ذلك لم يكن هيناً، وإنما بعدما جابها عدة محاولات للتخلص من التبعية لمركز طرابلس، ولم يتمكن النفوذ العثماني من المناطق البعيدة عن المركز إلا في عهد خلفائهما، سواء باتجاه فزان أو برقة.

إن سلطة الباشوات لم يكن يعترف بها في الجهات الخاضعة سلفاً، بل كان على هؤلاء الدفاع المستمر على المناطق التابعة لهم وتطوير ذلك بالتوسيع في باقي الجهات الأخرى، بل أحياناً يجد هؤلاء أنفسهم لا يتحكمون إلا في مدينة طرابلس بفعل توالي الثورات وتقدم المتمردين حتى أبواب المدينة^٢.

وعلى العموم يمكن تتبع توسع النفوذ العثماني في المناطق الآتية:-

ج- منطقة ضواحي طرابلس:

كان من الطبيعي أن يرسخ النفوذ العثماني وجوده في هذه المنطقة التي عرف فيها حضوره المبكر بتاجوراء منذ سنة ١٥٣٤م قبل سيطرته على طرابلس، خاصة وأن واجهتها البحرية كانت تشكل مصدر تهديد مسيحي مباشر للمركز من جهة، وخطراً داخلياً قد تلعبه قبائل البدو المتحركة

^١ - (١) برنبا - ص ٧٢

^٢ - فيرو - ص ١٥٣

جنوب هذه المنطقة من جهة ثانية، لذلك نجد مراد أغا قد بسط نفوذه على كل مقاطعات مصراته وزوارة منذ توليه السلطة، مخضعا إياها بقوة السلاح سنة ١٥٥٢م حينما حاولت الخروج عن طاعته^١.

وفي عهد درغوت أخذت السياسة العثمانية شكلا أكثر صرامة في التوسع جنوبا نحو الأقاليم الجبلية بما تشكله من ممر تجارى وسيط بين المركز وبلاد السودان، ولنفور سكانها من التبعية لأي كيان سياسي. وقد باشر درغوت في مطلع عهده تجهيز الحملات العسكرية باتجاه جبل غريان، وتمكن من سحق متمرديه، وأجبرهم على أداء الخراج السنوى والقبول باستقرار حامية تركية في قلعة شيدت عند مدخل الجبل سنة ١٥٥٥م^٢.

وبهذا النجاح واصل سياسته تجاه أهالي جبل ترهونة وبنى وليد، هؤلاء الذين اضطر إلى إرغامهم على الخضوع بعد البطش بقائد قبيلتهم وفرار بعض أفرادهم باتجاه برقة، لاسيما وأنه قد تعقب فلولهم حتى دخل تاورغاء، ومن تم أتسع نفوذه في مناطق شرق طرابلس محافظا على تبعيتها دون مضايقة تذكر^٣، لولا أن أستقرار الوضع الأمنى كان يتطلب من الباشا التصدي بحزم لكل تمرد يقوم به الأهالي، على غرار موقفه سنة ١٥٥٩م من عصيان ساكنة تاجوراء، الذين عاقبهم بتجريدهم من السلاح بعدما نكل بزعمائهم^٤.

وقد كانت وفاة درغوت نهاية للحكم العثمانى الشامل فى ليبيا، وبداية ظهور اضطرابات متعددة أخذت طابع العصيان المدني بقيادة شخصيات من تاجوراء، وطابع الإنتفاضة الجماعية على يد قبائل الجبال، وعلى رأسها

^١ - الزاوي - ص ٣٩٧

^٢ - فيرو - ص ١٢٢

^٣ - برنبا - ص ٧١ - ٧٢

^٤ - نفسه - ص ٧٦ - ٧٧

قبائل جبل غريان، حيث تقلص النفوذ العثماني من جراء ذلك كلما أرتفعت حدة هذه الثورات وضعفت وسائل التصدي، وفرضت على الباشوات المتعاقبين بذل الجهود العظيمة لإعادة السيطرة عليها، وهو ما تكبده علوج على (١٥٦٧م)، وجعفر باشا (١٥٧٧م)، ورمضان باشا (١٥٨٤م)، ومحمد باشا (١٥٨٨ - ١٥٩٠م)^١، حيث نجح بعضهم في القضاء على العصيان، ولم يتمكن البعض الآخر من التحكم إلا في مناطق ضيقة، ومنهم من قضى نحبه في أثناء تصديه للثوار^٢.

د - منطقة فزان:

أكتست المناطق الواقعة خلف الجبال أهمية كبرى في السياسة العثمانية في ليبيا، لما كانت تلعبه من دور في الربط بين الساحل المتوسطي وبلاد السودان، حيث حاول الباشوات جعلها تحت نفوذهم، وتثبيت سلطتهم على فزان ومراكزها، ولكنه ولصعوبة السيطرة على المناطق الواقعة شمالها قصر اهتمامهم على الإستيلاء على فزان فقط، وخاصة مع نجاح جعفر باشا في ضمها سنة ١٥٧٧م، رغم أن بعض المصادر تشير إلى أن أهالي فزان قد قدموا ولاءهم وطاعتهم قبل ذلكم إلى مراد أغا سلما^٣.

لقد استفاد جعفر باشا من الوضعية السياسية المتقبلة التي شهدتها فزان، التي كان لنساء الأمير الفاسي المنتصر بن الناصر بن محمد صاحب فزان يد كبرى فيها، إذ بمجرد توصله بطلب مساعدة من إحدى زوجات الناصر، خودة بن شرومة بن محمد الفاسي سنة ٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م بعث حملة عسكرية إلى فزان سهل مأموريته وفاة حاكمها الناصر، حيث أخضعت

^١ - أنظر ابن غليون - ص ١٠١، وسامح - ص ٨٢، ويرنيا - ص ٩٢، وفيررو - ص ١٥٣

^٢ - يشير عزيز سامح إلى أن الباشا الجديد أحمد باشا قد أستشهد في أثناء مواجهته لثورة يحيى السويدي سنة ٩٩٨ هـ. أنظر: سامح - ص ١٠٧.

^٣ - ناجي - ص ١٦٦

المنطقة بعد القضاء على خودة نفسها حينما حاولت مقاومة زحف القوات التركية، فاستولى العثمانيون على سبها، ومرزق، وباقي مناطق فزان، بعدما فر أبناء الناصر الفاسي إلى خارج ليبيا باتجاه الجنوب^١.

بيد أن السيطرة على فزان لم يتم تثبيتها بصورة فعلية لوجودها في منطقة نائية جدا عن مركز طرابلس، وبالتالي صعوبة إمداد حاميتها باستمرار، مما جعل الأهالي يبادرون إلى العصيان ومهاجمة حاميتها والقائد مامي سنة ٩٩٠هـ / ١٥٨٠م، وإعادة أحد أبناء الناصر على رأس إمارتها بعد القضاء على الوجود التركي.

هـ - مناطق برقة وصحراء سرت:

إن سيطرة العثمانيين على هذه المناطق يكتفه كثير من الغموض وعدم الدقة، فبعض المؤلفات تشير إلى أن السلطة قد امتدت انطلاقا من طرابلس حتى بنغازي في عهد مراد أغا^٢، في حين نجد مؤلفات أخرى تشير إلى أن درغوت باشا قد أمدد بنفوذه على طول الساحل من سفاقص غربا إلى حدود برقة مع مصر شرقا^٣، وبالتالي سيطرته على صحراء سرت والجبل الأخضر، وهو ما لا تعززه مجريات الأحداث في ما بعد.

وإذا كانت برقة نالت اهتماما أكبر من الصحراء الوسطى في خليج سرت لوجودها على مقربة من الولاية المصرية من جهة، فإنها قد دخلت ضمنيا تحت تأثير الإشعاع السياسي العثماني قبل أن تدخلها القوات التركية، وزاد من فعلية وقوعها في دائرة النفوذ سيطرة الباشوات على فزان، مما

^١ - (١) ابن غلبون - ص ٩٩ - ١٠٠

^٢ - (١) عبد اللطيف البرغوثي: "تاريخ ليبيا الإسلامي من الفتح الإسلامي حتى بداية العصر العثماني" منشورات الجامعة الليبية - دار صادر - بيروت ١٣٩٣ هـ - ص ٤٨٢ - ٤٨٣

^٣ - (١) ناجي - ص ١٦٦

جعلها تبدو محاصرة من الجهات الأربع، على أن السيطرة الميدانية سوف تتأخر إلى القرن الموالي^١.

إن ما ينطبق على برقة يتنطبق أيضا على صحراء سرت وحدودها مع المنطقة المذكورة، ذلك أن وجودها وسط البلاد وبظروف اقتصادية سلبية باعتبارها صحراء قاحلة جعل الاهتمام بها ثانويا رغم الإستثناء الذي تلعبه مدينة بنغازي في الحياة التجارية باعتبارها آخر نقطة نهايات القوافل السودانية العابرة لواحات أو جلة وفزان معا.

ولا نتيح لنا المؤلفات أية معلومات عن توجه الأتراك لإخضاع هذه المدينة إلا سنة ١٥٧٨م، حيث ينقل محمد بازامة عن بعض المصادر الإيطالية نبأ احتلال قوات عثمانية لمرسي بنغازي، خلال فترة شهدت فيها هذه المدينة صراعا أهليا بين طوائفها، رغم أنه يشك في صحة هذه الأحداث لعدم كفاية أدلتها. وعلى كل حال فإن هذا الإحتلال لم يكن إلا مؤقتا في أحسن الأحوال^٢ ولم يستطع الأتراك السيطرة على المنطقة - على غرار برقة- إلا في القرن الموالي.

^١ - الزاوي - ص ٤٠٢

^٢ - بازامة - ص ٢٤٨ - ٤٤٩.

المصادر والمراجع:

١- ابن غليون محمد بن خليل: "التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من أخبار"، نشر وتعليق، الطاهر الزاوي. المطبعة السلفية القاهرة ١٩٧٢م

٢- أحمد بك الأنصاري: "المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب" منشورات مكتبة الفرجاني طرابلس- ج١- الطبعة الثانية- بدون تاريخ

٣- محمد الأسطى: " ثورة يحيى بن يحيى السويدي أو سويدان" مجلة البحوث التاريخية - مركز دراسات جهاد الليبيين - السنة الرابعة - العدد الأول - يناير ١٩٨٢

٤- عزيز سامح: "الأتراك العثمانيون في إفريقيا لشمالية"- ترجمة عبد السلام أدهم - دار لبنان - بيروت ١٩٦٩-

٥- كوستانزيو برنينا: "طرابلس من ١٥١٠ إلى ١٨٥٠م" تعريب خليفة محمد التليسي - دار الفرجاني- طرابلس ليبيا- الطبعة الأولى ١٩٦٩م.

٦- محمد مصطفى بازامة "بنغازي عبر التاريخ"-ج ١ - دار ليبيا للنشر والتوزيع ١٩٦٨

٧- عزيز سامح: "الأتراك العثمانيون في أفريقيا لشمالية"- ترجمة عبد السلام أدهم - دار لبنان - بيروت ١٩٦٩

٨- عبد اللطيف البرغوثي: "تاريخ ليبيا الإسلامى من الفتح الإسلامى حتى بداية العصر العثمانى" منشورات الجامعة الليبية - دار صادر - بيروت ١٣٩٣ هـ

٩- الطاهر الزاوي: "ولاة طرابلس من بداية الفتح العربي حتى نهاية العهد التركي" الطبعة الأولى دار الفتح للنشر والطباعة - بيروت - سنة ١٩٧٠م

١٠- جوان رايت: "تاريخ ليبيا منذ أقدم العصور"

١١- نقولا زيادة: "ليبيا في التاريخ، الجامعة الليبية، كلية الآداب، سنة ١٩٦٨"

12- Fernand Braudel: La Méditerranée et le monde Méditerranée au temps de Philippe II T2(5ed- Armand Colin-Paris- 1982.

التشريح النفسي لمحاولي الانتحار بغزة (دراسة إكلينيكية تحليلية)

د/ جميل حسن عطية الطهراوي (*)

إلهام حمزة الخواجة (**)

ملخص الدراسة:

هدفت الدراسة لتشريح مُحاولي الانتحار تشريحاً نفسياً، من أجل الكشف عن المشكلات النفسية والأسرية والاجتماعية والاقتصادية التي أدت لمحاولات الانتحار، والتعرف إلى الدلالة النفسية التي أدت للجوء إلى محاولة الانتحار، وكذلك الكشف عن مستوى التدين لديهم.

إجراءات الدراسة: استخدمت الباحثة المنهج الاكلينيكي على عينة قوامها ثلاث حالات من عيادة غرب غزة للصحة النفسية، مُطبقة الأدوات التالية: المقابلة المنظمة من إعداد الباحثة، دراسة الحالة، الزيارات المنزلية، ومجموعة من الاختبارات والمقاييس وهي: (قائمة مراجعة الأعراض (SCL 90) تقنين إبراهيم حماد (٢٠١٥)، اختبار اضطرابات الشخصية لغانم وآخرين (٢٠٠٧)، اختبار بيك القائمة الثانية للاكتئاب (١٩٩٦) تقنين بشير معمرية (٢٠١٠)، اختبار التوافق الزواجي لأبي موسى (٢٠٠٨)، اختبار التدين للبحار ورضوان (٢٠٠٨)، اختبار الاتجاه نحو تعاطي المخدرات لمرسي (١٩٩٨)، واختبار روتر لتكملة الجمل تقنين صفاء الأعسر).

(*) أستاذة للصحة النفسية المشارك-قسم الإرشاد النفسي-كلية التربية-الجامعة الإسلامية
(**) ماجستير صحة نفسية مجتمعية-إحصائية اجتماعية-الإدارة العامة للصحة النفسية

أهم نتائج الدراسة: توصلت هذه الدراسة إلى مجموعة نتائج أهمها:

١- تتسم التنشئة الاجتماعية لمحاولات الانتحار بالتذبذب ما بين الافراط والتفريط، كما أن هناك مجموعة من العوامل التي ساهمت بلجوء الحالات لمحاولات الانتحار وهي العوامل النفسية والتي أبرزها (الحرمان العاطفي، تحمل المسؤولية مبكراً بما يفوق الاحتمال، التقدير السلبي للذات، القلق من المستقبل، الشعور بالاضطهاد، الحساسية الزائدة، الشعور بالاغتراب والعدوانية تجاه الآخرين، الضغوط النفسية والحزن، وكثرة الشكوى) وأما العوامل الاجتماعية فأبرزها (تدني المستوى التعليمي، الاعتداء الجنسي والتعرض له، تدخلات أهل الزوج، التعرض للعنف والتهديد والانتقادات، الطلاق، الخلافات مع أحد الوالدين أو كليهما، والحاجة للمساندة) وهناك عدة عوامل أسرية أبرزها (الشعور بعدم الرضا عن الزوج وضعف شخصيته، وعدم وجود مشاركة أسرية فاعلة)، كما أن المستوى الاقتصادي غير كافٍ لتلبية احتياجات الحالات.

٢- هدفت تلك المحاولات لاستعطاف الآخرين ومساندتهم، الحاجة للتقدير والاهتمام وإثبات الذات، لفت انتباه المحيط، والهروب من المشكلات والتي أبرزها الصراعات.

٣- انخفاض مستوى التدين لأفراد العينة، حيث كان مستوى التدين لديهم متوسط فأقل.

الإطار العام للدراسة:

المقدمة:

الحياة والروح هبة من الله عزّ وجل وهي أمانة غالية ودعانا الله للحفاظ عليها، كما أن الاحساس بقيمة الحياة يختلف من شخصٍ لآخر بحسب الشخصية والبيئة التي نشأ بها وكذلك نظرته وآراؤه وقناعاته بصفة عامة، إن كل شخص في هذه الحياة يمرّ بعدة ضغوطات، وإزاء ذلك تختلف تصرفات البشر في التعامل معها، فهناك من يتصرف بحكمة لوحده وهناك من يستعين بالآخرين، وهناك من تصاب قدراته بالشلل تجاه تلك المواقف، وهناك من يهرب منها باللجوء للأفكار السلبية ومن بينها اللجوء إلى الانتحار.

تعددت أسباب اللجوء إلى الانتحار، فقد أشارت دراسة (مسيلي، ٢٠١٣م)، و(أبو ركاب، ٢٠١٠م) بأن اليأس والضغوط لها دور في زيادة احتمالية الانتحار.

بينما أشارت دراسة كوريهارا وآخرون (Kurihara et al., 2009) إلى أن هناك نسبة (80%) من المُقبلين على الانتحار تمّ تشخيصهم باضطراب نفسي، وأشارت دراسة وونج وآخرون (Wong et al., 2008) بأن هناك اضطراباً نفسياً واحداً على الأقل لدى الفئة العمرية (٣٠ - ٤٩) من المُقبلين على الانتحار.

بينما أشارت دراسات كل من ايروغلو، كراكوس، وتمام (Eroglu, Karakus G. and Tamam, M. Z., 2013) وروبنغورن وآخرون (Ruengorn C. et al., 2012)، وشابساندني وهيسويك (Shahpesandy

فكر وإبداع

and Heeswijk، 2012)، على أن هناك علاقة ما بين الانتحار والاضطرابات النفسية.

وبحسب علم الباحثة أنه من المرجح أن تكون أول دراسة استخدمت التشريح النفسي هي دراسة زيلبورغ (Zilboorg G) التي تحرى فيها (93) حالة انتحار متتابعة في مدينة نيويورك بين عامي (1934) و(1940)، (No Date،www.deathreference.com).

وارتأت الباحثة استخدام طريقة التشريح النفسي مع محاولي الانتحار، لمعرفة الأسباب من وجهة نظرهم وطبيعة المواقف التي مروا بها وأثرت عليهم، متسلحة بالاختبارات النفسية؛ للتأكد من بعض البيانات ولتدعيم النتائج، فالتشريح النفسي يتميز بتعمق أكثر لطبيعة الحالة من خلال التعمق بالوضع النفسي، الاجتماعي، والبيئي، حتى نستطع الوصول لفهم أكثر لطبيعة الحالة وما دفعها إلى محاولة الانتحار.

مشكلة الدراسة:

مع تراكم أزمات غزة واحدة تلو الأخرى، حصار فحروب، فبطالة وانقطاع للكهرباء، فمشكلات أسرية، ففناذ الصبر وغيرها، ابتداءً بعض من فئات الشعب الغزي يُفكر بكيفية الهروب من تلك المشكلات، ومن بين تلك الحلول مجموعة من الأفكار السلبية، والتي تُدعم الميول لتنفيذ الأفكار الانتحارية، وخاصة بعد العدوان الأخير على غزة (٢٠١٤م)؛ حيث تم ملاحظة الزيادة الواضحة في إعداد محاولي الانتحار المترددين على مركز التأهيل النفسي المجتمعي والعيادات النفسية التابعة له، ومن هنا ظهرت فكرة الدراسة والشعور بأهميتها حيث تحاول هذه الدراسة الإجابة على التساؤلات التالية:

التشريح النفسي لمحاولي الانتحار بغزة

فكر وإبداع

(دراسة إكلينيكية تحليلية)

١- ما ملامح التشريح النفسي التي تدل على نمو السلوك الانتحاري؟
وينبثق من هذا التساؤل الرئيس عدة تساؤلات تتمثل في:

أ- ما ملامح التنشئة الاجتماعية المميزة لمحاولي الانتحار بغزة؟
ب- ما الأسباب والعوامل النفسية التي ساهمت في اللجوء لمحاولات الانتحار بغزة؟

ج- ما ملامح العوامل الاجتماعية المميزة لمُحاولي الانتحار بغزة؟
د- ما ملامح العوامل أسرية التي ساهمت باللجوء للانتحار بغزة؟
هـ- ملامح الوضع الاقتصادي لمحاولي الانتحار بغزة؟

٢- ما هي الدلالات النفسية لمحاولات الانتحار؟

٣- ما مدى الالتزام الديني لمُحاولي الانتحار بغزة؟

أهداف الدراسة:

تسعى هذه الدراسة إلى محاولة التشريح النفسي لمحاولي الانتحار تشريحاً نفسياً معمقاً بالكشف عن العوامل التي ساهمت في لجوء البعض إلى الانتحار ومنها: (التنشئة الاجتماعية، العوامل النفسية، العوامل الاجتماعية، العوامل الأسرية، الوضع الاقتصادي) كما تهدف للتعرف إلى الدلالات النفسية لمحاولات الانتحار، ومدى التزامهم الديني.

أهمية الدراسة:

تتمثل أهمية هذه الدراسة في تناولها فئة يصعب دراستها والوصول إليها في المجتمع الغزي المحافظ، وأنها من الممكن أن تشكل إضافة للدراسات الاكلينيكية النادرة فيه، كما أنها قد تفيد المهتمين والعاملين بالمجال

النفسي والاجتماعي لفهم سيكولوجية محاولي الانتحار للوصول لسبل الوقاية والعلاج وتنمية مهارات مواجهة الحياة لديهم.

المفاهيم والمصطلحات:

١ - التشريح النفسي Psychological autopsy:

يعرفه الباحثان اجرائياً: دراسة كافة الظروف والعوامل النفسية والأسرية والاجتماعية والاقتصادية، ومدى الالتزام الديني لمن حاول الانتحار، وكيفية تفاعلها لإيصال الفرد للقيام بمحاولة انهاء حياته.

٢ - محاولة الانتحار Suicide attempt:

ويُقصد بها العملية التي يؤدي بها الفرد للمخاطرة بحياته طوعاً بقصد قتل النفس والتي تنتهي بالنجاة (حلوان، ٢٠٠٨م: ص ١٦).

٣ - مُحاولو الانتحار Suicide attempters:

يُعرفهم الباحثان إجرائياً: على أنهم الحالات التي يتم تسجيلها من قبل الشرطة أثناء تواجدها بالمشفى العام إثر إنقاذها من محاولتها للانتحار، ومن ثم يتم تحويلها للعيادة النفسية، أو تلك الحالات التي يتم تحويلها للعيادة النفسية من قبل الأهل مباشرة إثر مُحاولتها للانتحار.

الإطار النظري والدراسات السابقة:

انتشر الانتحار انتشاراً واسعاً على المستوى العالمي، وأصبح موضوعاً شغل بال الكثيرين خاصة المتخصصين في علم النفس وعلم الاجتماع، كونها تمثل مشكلة نفسية واجتماعية في آن واحد (حميمي، ٢٠١٢م، ص ١٨٩)، فمن المؤكد أن الانتحار قد بات قضية تؤرق العالم، حتى إن منظمة الصحة العالمية خصصت العاشر من سبتمبر من كل عام؛

ليكون اليوم العالمي لمنع الانتحار، كما يُسجل المتوسط (300) حالة انتحار يومياً،(ثابت، 2012م، ص38).

يُعد الانتحار مشكلة نفسية كونها تؤكد حدوث خلل على مستوى توافق الفرد وهشاشة الشخصية التي لا تستطيع مواصلة التعامل مع المشاكل الصعبة والضاغطة؛ ، فالشخصية المقيدة على الانتحار تدل على أنها في الغالب شخصية منسحبة وتعاني من اضطراب شديد على مستوى الصحة النفسية، كما وأن وجود الانتحار يدل على وجود خلل في العلاقات الاجتماعية، كما ويعد مشكلة بيولوجية لما يرتبط بتغيرات وتبدلات بالبنية العضوية للفرد (حميمي، ٢٠١٢م، ص١٩٠).

لقد كان الانتحار - ولا زال - مثيراً للجدل والمناقشات، فقد يعد هروباً من مرض عضال أو الفقر المدقع أو العار المشين أو الحب الفاشل، وقيل بأن الإنسان يقتل نفسه هروباً من منازعات عائلية أو عقاباً ذاتياً على شعور عنيف بالإثم، أو في سبيل تضحية شخصية، أو بسبب فقدان روابط عائلية أو فقدان ثروة، كما قيل: إن الجهد المضني والأعمال الشاقة تدفع الإنسان إلى التخلص من حياته (مهدي، ١٩٠٠م، ص٢٣٥)

العوامل والأسباب الدافعة للانتحار:

الانتحار كبقية المظاهر الإنسانية، تتداخل فيه مناحي الحياة المختلفة، فهناك عوامل شتى قد تؤثر بطريقة أو بأخرى في الأشخاص المجاولين للانتحار، ومنها:

١ - العوامل الدينية Religious Factors:

الدين لا يجيز للإنسان قتل نفسه، ويرى محمود (٢٠٠٨م، ص17) أن الجهل بأحكام الشريعة الإسلامية من أهم العوامل المؤثرة في ذلك، فقد لا

يدرك الشخص عظم جريمة قتل النفس، والبعد عن المنهج الإلهي واتباع الهوى ووساوس الشيطان.

٢- العوامل الطب نفسية **Psychiatric Problems**:

يحدث السلوك الانتحاري في العديد من الاضطرابات النفسية ومن أشهرها اضطراب ثنائي القطب، اضطراب الاكتئاب الجسيم، الفصام العقلي، اضطرابات القلق، اضطرابات تعاطي العقاقير خاصة الكحول، اضطراب الشخصية الحدية، اضطراب الشخصية المعادية للمجتمع، اضطرابات الأكل، واضطرابات التكيف (DSM5)، 2013، P.803.

٣- العوامل النفسية **Psychological Factors**:

كالشعور القهري بالعزلة والاعتزال عن المجتمع، واللاتكيف المؤدي للضغط والقلق، ومن ثم اللجوء للانتحار (العزة، ٢٠٠٤م، ص273)، كذلك الديناميات والدوافع الفردية للشخص القلق والمعادى للمجتمع، وعدم تحمل الفشل والإحباط والصراع، وفقدان شخص عزيز والصراعات الداخلية التي لا علاقة لها بالظروف الحالية ولا ترتبط بها بشكل مباشر (ليتل وبيركلتر، ٢٠٠٨م/ ٢٠٠٩م، ص123)

٤- العوامل الأسرية **Family Factors**:

اتضح في الكثير من حالات الانتحار وجود تاريخ لسلوك الانتحار في الأسرة خاصة في حالة كون أحد الوالدين يعاني من الاضطرابات السيكيوباتولوجية، كذلك المشاكل الأسرية كالطلاق أو عصيان أحد الوالدين (استيتية وسرحان، 2012م، ص89)، وأيضاً الفشل بالعلاقة بين الأزواج وفقدان المشاعر والحب بينهما وانعدام الأمان يؤدي للتفكير بالانتحار، الانتقاد

اللاذع للأبناء يجعلهم يتجهون للتفكير بالانتحار هرباً من الانتقادات التي بمثابة عار لهم من والديهم. (العزة، ٢٠٠٤م، ص 276).

٥- العوامل البيئية والاجتماعية: Environmental and social factors:

كسوء الوضع الاجتماعي أو الاقتصادي، الغياب عن المدرسة، الانحراف، التوحد الجنسي، والمثلية الجنسية (استيتية وسرحان، 2012م، ص 89-91)، التعرض لأزمات مالية أو الإفلاس سواء أكان بسبب التجارة أم اللعب كالقمار، الفقر فالعجز عن إشباع الحاجات الأساسية سيؤدي للتفكير بالانتحار (العزة، ٢٠٠٤م، ص 275)، وقد يكون وسيلة أخيرة للفت إنتباه المحيط في حال فشل الوسائل الأخرى قد تكون وسيلة ذكية لمعالجة شخص آخر لكنها تحتاج للبراعة وذلك بتهديده بالانتحار (الزيود، ٢٠٠٧م، ص 161).

النظريات التي حاولت تفسير الانتحار:

١- التفسير النفسي:-

بدايةً كان هناك تفسير للانتحار معتمداً على الأساطير والخرافات والجن، ولم يكن وجود لأي تفسير علمي إلى أن تم عقد مؤتمر الانتحار في فيينا، والذي قدم مساهمات من قبل المهتمين وعلماء التحليل النفسي كزيبورك وفرويد، ثم أتبعه بعد ذلك الكثير من الدراسات النفسية للانتحار، وأصبح هناك تيار ينطلق من رؤية فرويد، وآخر يمثل الحقل الاجتماعي.

أ. التفسيرات ذات الاتجاه التحليلي:

التي يمكن ايجازها بأن الفرد لم تتبلور عنده مشاعر ومحاولة الانتحار مرة واحدة، بل بدأت بالحب والكره مشبعة بدوافع عدوانية تبحث

عن القتل أو الموت معبرةً عن الاضطراب المزاجي الذي يعكس سوء توافق الفرد مع النشاط الجنسي الذي يتحول إلى عقدة أوديب أو العلاقة المثلية - مع الجنس نفسه (وازي، 2012م، ص72).

ب- التفسيرات النفسية ذات الاتجاه غير التحليلي:

تميّزت عن التفسيرات التحليلية في تأكيدها على وجود مظاهر نفسية تبدو ضرورية لوقوع حدث الانتحار، وليست مبنية على ديناميات أو سيناريو نفسي لا شعوري كما في التفسيرات التحليلية، وتتمثل المظاهر النفسية اللا تحليلية فيما يلي:

١- التشوش الحاد Acute Perturbation: وهي عبارة عن زيادة حالة الاستياء العامة لدى الفرد.

٢- العدائية المفرطة وزيادة في إنكار الذات ولومها، مع الإحساس بالذنب والشعور بالعار.

٣- الزيادة الحادة والفجائية بانخفاض التركيز العقلي والتقليل من عملية التفكير، (استيتية وسرحان، 2012م، ص95).

٢- التفسير الاجتماعي:

ورائده دوركايم Durkheim حيث إنه قام بتقسيم الانتحار لثلاثة أنماط أساسية وهي:

أولاً- الانتحار الغيري الإيثاري **Ahrism Suicide**: وتقوم فكرته على أن الفرد يتبع الجماعة، فمن يقوم بالانتحار يحاول الحفاظ على النظام الجمعي، فذلك له علاقة بالأخلاق.

ثانياً- الانتحار الأناني Egoism Suicide: وهو على النقيض من النوع الأول، حيث يبرز هنا حب الفرد لذاته، وتكون الكرامة هي الغاية القصوى، (دوركايم، ١٩٨٧م/ ٢٠١٠م، ص 473 - ص 474).

ثالثاً- الانتحار الفوضوي Anomie Suicide: وهو يكون في حالة انهيار قوة النظام بالمجتمع، سواء في حالة ازدهار ورواج الاقتصاد أو في حالة كساد.

(الجوهري وزيدان وبدران، 2011م، ص 152 - ص 154).

٣- التفسير السلوكي:

حين يكون تصور أو توقع لفقدان معزز إيجابي ذي قيمة عالية كالأصدقاء أو الوظيفة... إلخ، مضافاً لذلك التوقع بالحصول على تعزيزات إيجابية إضافية، فيكون قرار الانتحار هنا لجعل الأشخاص الذين تركوهم يفقدونهم ويؤنبوا ضميرهم لأجلهم، فالانتحار مكسب لجلب الانتباه والثناء والشفقة والانتقام (الزعبي، 2013م، ص 131 - ص 132).

٤- التفسير الإنساني:

يكون السلوك الانتحاري هنا نتيجة عائق أمام تحقيق الذات، أو ليحصل على التقدير والاعتبار من ذوي الأهمية (رشود، 2006م، ص 101).

٥- التفسير المعرفي:

فإن الانتحار يُفسر بوجود عدة مشكلات وآلام نفسية غير محتملة، فيحدث التفكير اللا منطقي ومن ثم الانتحار (رشود، 2006م، ص 101)، حيث تشير الدراسات الحديثة بأن المشاحنات السلبية وأحداث الحياة

الضاغطة تؤدي لليأس الذي يؤدي إلى الانتحار، (راسع وآخرون، ٢٠١٤م، ص ١٠٧).

٦- تفسير نظرية الضبط الاجتماعي:

بحيث تركز هذه النظرية على العوامل الاجتماعية التي تفسر الانحراف أو الجريمة ويرى هيرشي Hirschi بأن الضبط الاجتماعي يعتمد على عدة عناصر وهي: قوة الارتباط بين الشخص والمقربين، مدى الاندماج، الالتزام، والتقيّد بنظم وقيم المجتمع، (الكحلوت، ٢٠١٦م، ص ٦٩).

إجراءات الدراسة:

يعرض الباحثان كلّ ما تم اتباعه منذ البداية حتى الخروج بالصورة النهائية لهذه الدراسة، من حيث المنهج المتبع، مجتمع الدراسة والعينة التي تم اختيارها لتطبيق الدراسة عليها، والأدوات المستخدمة لإنجاز هذه الدراسة وطريقة تطبيقها وتصحيحها وتحليل بياناتها.

أولاً- منهج الدراسة: اتبع الباحثان المنهج الإكلينيكي وهو "الخطوات العلمية المنظمة المتبعة للدراسة المنظمة لحالات فردية، أي الدراسة المتعمقة للشخصية في بيئاتها وأحوالها العديدة بطرائق كثيرة"، (باطه، ١٩٩٨م، ص ١٠) ..

ثانياً- عينة الدراسة: وقد قام الباحثان باستخدام أسلوب العينة القصدية العمدية، والتي يتم اختيارها على أساس حرّ، من قبل الباحث، وحسب طبيعة بحثه، بحيث يحقق الاختبار هدف الدراسة أو أهداف الدراسة المطلوبة (زايدة، ٢٠١٢م، ص ١٦٤).

التشريح النفسي لمحاولي الانتحار بغزة

فكر وإبداع

(دراسة إكلينيكية تحليلية)

حيث تم اختيار ثلاث حالات من محاولي الانتحار بغزة، المتابعين بعيادة غرب غزة للصحة النفسية التابعة لمركز التأهيل النفسي المجتمعي - الطب النفسي سابقاً - التابع لوزارة الصحة، وتم اختيارهم جميعاً من فئة الإناث، بحيث تكون عدد محاولات الانتحار اثنتين فأكثر، ويكون آخرها خلال (٢٠١٤م - ٢٠١٥م).

ثالثاً- أدوات الدراسة:

١-دراسة الحالة: وقد قام الباحثان باستخدام نموذج دراسة الحالة المستخدم في مركز الإرشاد النفسي بالجامعة الإسلامية ويحتوي على المعلومات التالية: ملخص الحالة، المعلومات الشخصية، الشكوى الرئيسة، التاريخ الحالي، التاريخ السابق، التاريخ العائلي، التاريخ الاجتماعي، فحص الحالة العقلية، التشخيص التفريقي، التشخيص على المحاور الخمسة، الأداء الوظيفي والإعاقة، مقاييس التشخيص والأعراض.

٢-المقابلة: استخدمت المقابلة المنظمة وهي عبارة عن مجموعة من الأسئلة الموجهة بحيث يتم سؤال المقابل مجموعة من الأسئلة المعدة مسبقاً، التي سبق وأن حددت إجاباتها وبها قدر قليل من التنوع، وكانت مدة المقابلة تتراوح ما بين (٤٥ - ٦٠) دقيقة، وتم لقاء كل حالة عشر مرات، كما واستخدمت الباحثة الملاحظة البسيطة أثناء المقابلات.

٣-الزيارة المنزلية: تم اجراء سبع زيارات منزلية بغرض زيادة الثقة مع الحالة واستكمال بقية المقابلات لكل من الحالتين الثانية والثالثة، علماً أنها لم تقم بزيارة الحالة الأولى لعدم توفر مناخ أسري مناسب.

٤ - المقاييس والاختبارات:

تم استخدام المقاييس التالية:

١.٤. مقياس قائمة مراجعة الأعراض (SCL 90): قام الباحثان

باستخدام قائمة الأعراض المعدلة-Symptom Checklist

90- R (SCL - 90- Revised)، وذلك بهدف معرفة أبرز

الأعراض التي تعاني منها الحالة.

وهو من إعداد "ديروجيتس ولييمان وكوفي Lipman، Derogatis

& Covi" (1976)، وترجمة البحيري (٢٠٠٥): وتتكون القائمة من (٩٠)

عبارة في صورة تقرير ذاتي خاص بالأعراض النفسية والعقلية. وقد قام حماد

بقياس صدق المقياس في البيئة الغزية حيث وكانت جميع البنود دالة وقيمة

معامل ارتباطها بالمجموع، عند (٠.٠٥) مما يؤكد وجود صدق الاتساق

الداخلي، وكان الصدق الذاتي (٠.٩٧)، أما بالنسبة للثبات فقد بلغ معامل ألفا

كرونباخ (٠.٩٦) وهو يشير إلى ثبات مرتفع. (العبادة وآخرون،

٢٠١٥م).

٢.٤. اختبار اضطراب الشخصية لغانم وآخرون (٢٠٠٧): قام

الباحثان باستخدام اختبار اضطرابات الشخصية، بهدف الكشف

الأولي إن كان هناك أعراض اضطرابات الشخصية لدى

الحالة أم لا، وأعده كل من محمد غانم، عادل الدمرداش،

ومجدي زينة، ويتكون من ١٢٠ فقرة موزعة بالتساوي على

مجموعة أبعاد كما يلي:

التشريح النفسي لمحاولي الانتحار بغزة

فكر وإبداع

(دراسة إكلينيكية تحليلية)

الشخصية البارانويدية، الشخصية الفصامية النوعية، الشخصية شبه الفصامية، الشخصية المضادة للمجتمع، الشخصية البينية، الشخصية الهستيرية، الشخصية النرجسية، الشخصية الوسواسية القهرية، الشخصية المتجنبة، الشخصية المعتمدة على غيرها، الشخصية السلبية العدوانية، الشخصية المكتئبة، الشخصية الهازمة للذات، الشخصية السادية، الشخصية المازوخية.

- صدق الاختبار: تم حساب صدق الاختبار بعدة طرق منها:

أ- الصدق الظاهري: عُرِض الاختبار على عدد من المحكمين (ن = ٥)، ولم يتم استبعاد أي عبارة.

ب- الاتساق الداخلي: تراوح معامل الارتباط ما بين (٠.٣٣ - ٠.٦٦).

ثبات الاختبار: تم حساب الثبات بطريقة الإعادة بفواصل زمني قدره خمسة عشر يوماً وقد انحصرت قيم ثبات الإعادة ما بين (٠.٦٧ - ٠.٩٤)، وهي قيم ثبات جيدة، (غانم وآخرون، ٢٠٠٧).

٣.٤ اختبار التوجه نحو التدين: استخدم الباحثان هذا الاختبار

بغرض الإجابة عن تساؤل الدراسة عن مستوى التدين لدى

الحالات.

- وصف الاختبار: قام بإعداده بشير الحجار وعبد الكريم رضوان

٢٠٠٥، كما ويتكون هذا الاختبار من (٢٧) فقرة، موزعة على

مجالين أحدهما جوهري (١٣) فقرة، وثانيهما ظاهري (١٤) فقرة،

وقد تأكد الباحثان من صدق الاختبار عن طريق صدق المحكمين

وصدق الاتساق الداخلي أما عن الثبات فكانت قيمة معاملاته تتراوح

ما بين (٠.٨٤٨) و(٠.٨٦٧) وهذا يعني بأن الاختبار يتمتع بدرجة

عالية من الثبات (الحجار ورضوان، ٢٠٠٥م، ص ٢٨٠).

٤.٤. استبانة التوافق الزوجي: من إعداد (سمية أبو موسى، ٢٠٠٨)، وتكونت من (٤١) عبارة موزعة على ثلاثة أبعاد وهي: المحبة والرحمة، والرضا والسعادة الزوجية والقدرة على حل الخلافات الزوجية، وقد تأكدت الباحثة من الصدق عن طريق صدق المحكمين وصدق الاتساق الداخلي الذي كان متوسطه للأبعاد ٠,٦٠٥، تم حساب ثبات الاستبانة باحتساب معامل ألفا كرونبا: حيث كان (٠.٨٣٣) والتجزئة النصفية: حيث كان ومعامل الارتباط المعدل (٠.٨٦٤)، (أبو موسى، ٢٠٠٨م، ص ١٨٦ - ص ١٨٨).

٥.٤. قائمة بيك الثانية للاكتئاب B. D. I - II:

- وصف المقياس: يُعتبر آ. ت. بيك الطبيب النفسي وزملاؤه هم أول من قام ببناء قائمة لقياس الاكتئاب، وقد خرجت النسخة الثانية للاختبار عام ١٩٩٦م، وتتكون القائمة من (٢١) مجموعة من العبارات بحيث تحتوي كل مجموعة على أربع عبارات تم ترتيبها من انعدام الاكتئاب للأكثر شدة، ووفقاً لدرجات تتراوح من صفر - ٣، بحيث تقيس القائمة أعراض الاكتئاب التالية: (الحزن، التشاؤم من المستقبل، الفشل السابق، فقدان الاستمتاع، مشاعر الإثم، مشاعر العقاب، عدم حب الذات، نقد الذات، الأفكار الانتحارية، البكاء، التهيج والاستثارة، فقدان الاهتمام أو الانسحاب الاجتماعي، التردد في اتخاذ القرارات، إنعدام القيمة، فقدان الطاقة، تغيرات في نمط النوم، التعب والقابلية للغضب أو الانزعاج، تغيرات في الشهية، صعوبة التركيز، الإرهاق أو الإجهاد، فقدان الاهتمام بالجنس).

تم تقنيته على البيئة الجزائرية من قبل بشير معمريّة على (٩٩٨) فرداً (٤٧٣) ذكوراً و(٥٢٥) إناثاً تتراوح أعمارهم ما بين (١٨ - ٤٩) عاماً، من كليات جامعة الحاج لخضر، بحيث شملت الطلبة والموظفين والأساتذة، ما بين ١١ أكتوبر ٢٠٠٩ - ١٥ يناير ٢٠١٠.

- **صدق الاختبار:** قام مُقنن الاختبار باحتساب الصدق التمييزي وكانت قيمة T لعينة الذكور (٢٠٠.٤٨)، ولعينة الإناث (٢٤.٤٨) عند مستوى دلالة 0.001).

- **ثبات الاختبار:** قام معمريّة باستخدام طريقة إعادة الاختبار وكان معامل ألفا كرونباخ للذكور (٠.٨٣٩)، وللإناث (٠.٨٣١)، (معمريّة، ٢٠١٠م، ص ١٠٠).

٦.٤ اختبار روتر لتكملة الجملة: The Rotter Incomplete

Sentence Blank .L.S.B.R.: لجأ الباحثان لاستخدام هذا الاختبار لمعرفة الإجابات اللاشعورية للمشكلات التي تُعاني منها الحالة.

- **وصف الاختبار:** يعرف اختبار روتر ورافرتي باسم اختبار روتر لتكملة الجمل الناقصة، ويقوم المفحوص بتكملة الجمل الناقصة التي يتكون منها الاختبار وعددها (٤٠) جملة. (العرقان، ب.ت، ص ٢).

- **صدق الاختبار:** تم احتساب صدق المحك مع اختبار بل للتوافق، وكان الارتباط (٠.٧٣) ومع اختبار كاتل للقلق هو (٠.٧٩) وكان الارتباط دالاً مع الاختبارين، مما يؤكد صدق الاختبار.

- **ثبات الاختبار:** قدمت صفاء الأعسر تقنياً لهذا الاختبار على البيئة المصرية، فقامت بحساب الثبات بطريقتين:

فكر وإبداع

أ- حساب معامل الثبات بطريقة إعادة الاختبار على عينة من (٢٠) طالبة من كلية البنات على مدى شهرين وكان معامل الارتباط بين الإجراءين (٠.٨٣).

ب- حساب معامل الارتباط بين نتيجة تصحيح الباحثة وتصحيح أخصائي نفسي مدرب في المجال الإكلينيكي لأربع عشرة حالة بعد تقديم أسس التصنيف، وكان معامل الارتباط بين المصححين (٠.٨٦) (العرفان، ب.ت، ص٧).

عرض النتائج وتفسيرها وتحليلها:

سيتم عرض ملخص حول وضع الحالة، ومن ثم سيتم العرض للنتائج التي تم التوصل إليها حول الحالة، ومن ثم سيتم عرض تعقيب عام على الحالات الثلاث.

- الحالة الأولى:

عرض الحالة:

أنثى تبلغ من العمر (٣٣) عاماً، نشأت في أسرة مكونة من الأب والأم و(٧) أشقاء وشقيقات، وقد توفى والدها وعمرها (١٠) سنوات، وبقيت مع والدتها وإخوتها، حيث نشأت بأسرة متشددة من ناحية القوانين الصارمة كضربها من قبل الأم والأخ المتدين لمنعها من الخروج للعب مع صديقاتها. عاشت طفولتها بحياة يملؤها الحرمان العاطفي والاقتصادي، والشعور بالنبذ والاضطهاد من قبل الآخرين وبخاصة زميلاتها ومدرساتها والمديرة بحسب ادعاؤها، كذلك كانت تشعر بالنقص عند مقارنتها بالآخرين كونها لم تكن ترتدي مثلهم أو تأكل وتشرب مثلهم.

انسحبت من المدرسة قبل أن تنتهي من دراسة الصف الثامن، وذلك لسوء مستواها الدراسي علماً أنه تبع تلك الفترة علاقة عاطفية مع أحد الأقارب وتم كتب كتابه عليها، تصف خطوبتها بالجيدة في البداية إلا أنها قد انفصلت عنه بسبب محاولته الاعتداء عليها، ولكن تم رجوعها له تحت ضغوطات الأهل وتم الزواج.

ابتدأت حياتها الزوجية بمشكلات منذ اليوم الأول، حياة خالية من الحب والأمان والمشاعر من قبل زوجها الذي لا يهتم سوى إشباع رغباته الجنسية، إضافة لضغوطات وتدخلات الأهل الزائدة فوق احتمالها واكتشافها لإدمان زوجها وعائلته، وقد رجعت لبيت أهلها أكثر من مرة، ولكن في كل مرة تعود لبيت زوجها تحت تأثير الضغوطات إضافة إلى أن أبناءها لا يوجد من يهتم بهم سواها، ولم تجد مسكناً للضغوطات سوى إدمان الأترامادول الذي حاولت تركه ولم تستطيع.

وقد تعرفت منذ بضع سنوات على سائق حاول إغواءها وقد نجح في ذلك، حيث عوضها بالبداية بما ينقصها من مشاعر ومادة وأغرقها بالهدايا والرحلات؛ وتطورت علاقته بها لعلاقة غير شرعية استمرت ما يقارب الثلاث سنوات، تعرضت خلالها - ولا زالت - لشكوك ومراقبة وضغوطات أهل الزوج عليها بسبب شكوكهم بها من خلال تغير الوضع الاقتصادي المفاجيء وطريقة وصول الهدايا ولكن لم يجدوا دليلاً.

حاليا تعيش حياة ملؤها الضغوطات مع محاولاتها المتكررة للانتحار؛ التي باءت جميعها بالفشل، علماً بأنها تقسو حالياً على أبنائها وتكلفهم بمهام كبيرة رغم صغر سنهم، وقد انتهت بها المطاف إلى زيادة إدمان الأترامادول منذ فشل أول محاولات للانتحار، بحيث أصبحت تشعر بصداق ودوخة، ويتميل بجسدها.

ومن خلال استخدام أدوات الدراسة مع الحالة الأولى تم التوصل لما يلي:

نشأت الحالة تنشئة اجتماعية سلبية من حيث عدم إشباع الحب من قبل الأهل، كما يحاسبانها على كل خطأ مهما صغر، وفي الوقت نفسه الأخ الأصغر والأب كانا يُعانيان من الإدمان، إضافة لمُحاولة الأخ الإعتداء عليها، إضافة لنشأتها بعيداً عن والدها بسبب وفاته.

كما وتعاني الحالة من مجموعة أعراض نفسية كالشعور بالاضطهاد، الشعور بالدونية، عدم تقدير الذات، الاكتئاب، الشعور بالإهانة، الحاجة للإحساس وتقدير مشاعرها من قبل الآخرين، الشعور بالغيرة، الإحساس بالنقص، الإدمان على الأترمال والحشيش والاسيفال، الشعور بالاضطهاد، حب الانتقام، الحقد والكراهية للآخرين، كراهية الذات وعدم تقديرها لذاتها، الشعور بالضيق والضجر في حال لم تلتفت نظر الآخرين لها، عدم مصارحة الذات، العدوان تجاه الأبناء والآخرين، الهروب من الواقع، الشعور بالاغتراب، الإحساس بالظلم، الصراع النفسي بالاختيار ما بين البقاء مع زوجها أو الطلاق والذهاب مع صديقها، البحث عن تعويض ما ينقصها سواء من مشاعر أو مادة بالطرائق السلبية، الصراع ما بين رغباتها وحاجاتها، وبين التزامها بدورها كزوجة وأم، كما أن هناك سمات شخصية تميزها أبرزها التوتر والخوف، الإحساس بالفشل، الشك، القلق، عدم إحساس بقيمة الذات، كثرة الشكوى، والقسوة تجاه الذات.

وعلى صعيد الوضع الاجتماعي فالحالة تعاني من علاقة سطحية مع الأهل، كما وتزوجت من مُدمن السطحية مع الأهل، الزواج بشخص مدمن، الحاجة للاهتمام والحب من قبل المحيط، العُنف المدرسي، عانت من العنف

الأسري، التعرض لمحاولات اغتصاب من قبل الأخ والزوج قبل الزواج، وسلفها بعد الزواج وتعرضها لمحاولات تحرش من قبل والد زوجها، اتهامها من قبل العائلة بفعل أشياء لم يكن لها يد بها، ليس لها سند يدافع عنها عند الوقوع بمشكلات، تعرضت للسرقه والاختلاس، تعرضت للعنف اللفظي واللا لفظي، الشعور بفرق المعاملة بينها وبين سلفتها لصالح سلفتها، هذا بدوره أدى إلى الانحراف وإقامة علاقة لا شرعية، عدم وجود أخت أو صديقة مقربة، الاختلاط بأفراد من الجنس الآخر، الانحراف، التعرض للنقد اللاذع من قبل المحيط والجيران.

والعوامل الأسرية التي تميزها: الشعور بالإهمال وعدم الاستقرار ببيت الأهل، إجبارها على الزواج بمن لا ترغب رغم طلبها للانفصال منذ الخطوبة، الزواج المبكر، الشعور بالغصة والفقر لعدم عمل مراسم الزواج لها، التعرض للخداع من قبل الزوج وعائلته، العلاقة الفاترة مع زوجها، عدم الشعور بالأمان مع الزوج، الحاجة لسماع كلمات الحب والمدح من قبل الزوج، اقتصار العلاقة بينها وبين زوجها على إشباع الرغبة الجنسية، التعرض للعنف اللفظي والجسدي من قبل الزوج، الخوف من أن يكتشف زوجها أمرها، القلق على مصير أبنائها، فراقها عن أبنائها كونهم مقيمين بإحدى المؤسسات، تدخلات أهل الزوج بها وبزوجها، الاحساس بالخضوع والفقر للزوج وعائلته، الخلافات العائلية المتكررة سواء مع الزوج أو مع أهله، والشعور بالإرهاق داخل المنزل.

وعلى صعيد الوضع الاقتصادي يتسم بالتدني سواء على صعيد سوء السكن، أو بسبب عدم كفاية العائد المالي للعائلة بسبب صرف الاموال على المخدرات، كما أن الأوضاع والظروف المعيشية سيئة للحالة.

فكر وإبداع

كذلك من خلال تحليل الباحثة لما تم بالمقابلات يتضح أن الحالة قد قامت بست محاولات انتحارية من خلال اتباع الطرائق والوسائل التالية: ابتلاع الحبوب، الطعن بالسكين، محاولة السقوط من علو، محاولة السقوط من أعلى الدرج.

أما عن الدلالة النفسية لتلك الإجراءات التي أدت للمحاولة الانتحارية فبتحليل الباحثة لإجابات الحالة وبناءً على ما تم استنتاجه من المقابلات التي تمت، يظهر أن المحاولة الأولى كانت إثر الشعور بالظلم، حيث إن الجميع ضدها، فيكون الدلالة هنا الاستعطاف، أما المحاولة الثانية فكانت إثر رفض الزوج لطلبها، فهنا يكون دليلاً للحاجة للتقدير والاهتمام والاستماع، وفي المحاولة الثالثة بعد خلافها مع زوجها، فهنا تكون محاولات الانتحار للهروب من المشكلات، والمحاولة الرابعة إثر شعورها بالظلم، فهنا يكون دليل حاجتها للمساندة، وفي المحاولة الخامسة إثر خلافها مع زوجها وتعرضها للضرب فتكون المحاولة هنا للهروب من المشكلات، وبالمحاولة الأخيرة إثر تضيق أهلها بالسؤال، فهنا يكون دليل حاجتها لإزاحة الستار عن المشكلة الأساسية - سؤالهم كيف تقضي الوقت خارج البيت؟ - وجذب الانتباه لها بمعنى كتبرير لتصرفاتها.

كما تبين أن الحالة لديها مستوى تدين متدنٍ وهذا يتماشى مع تصرفاتها وعاداتها، كذلك سبب كراهية الحياة والشعور بالضيق هو بعدها عن الله عزوجل.

الحالة الثانية:

عرض الحالة:

أنثى تبلغ من العمر (٣٢) عاماً، نشأت في كنف والديها مع (٦) أخوة ذكور، نشأت نشأة جيدة، أما حالياً فهي مُطلقة وليس لديها أبناء، تعيش مع أهلها ولها غرفتها المستقلة بها.

عاشت طفولة جيدة خالية من المشكلات، وكان النمو طبيعياً لديها، فقد كانت مجتهدة في دراستها، وتساعد الأم ببعض أعمال المنزل، كذلك علاقتها جيدة مع الجميع وتحب الاختلاط بالآخرين.

وأما في مرحلة المراهقة فقد تدنى مستواها الدراسي، وأصبحت تحصل على درجات متوسطة، ثم بدأت الخلافات تظهر بينها وبين عائلتها إثر علاقة عاطفية ورفض الأهل تزويجها من الشاب على الرغم من محاولاته لخطبتها، وابتدى لديها الشعور بعدم الأمان والضياح ولا تعي ما يجب عليها القيام به، وبدأ لديها الشعور بكراهية الحياة.

خُطبت لشاب يكبرها ببضع سنوات وتُصف فترة خطوبتها بأنها جيدة، ولكن بعد الزواج اكتشفت أنها خُدعت بشخصيته، فلم يكن أهلاً للزواج، وكان لا يملك القدرة على البت بأي قرار، فقد كان يرجع الأمور كلها لأمه، وكانت أم زوجها وأخواتها يُملين عليها القرارات والأوامر، حتى نفذت قدرتها على التحمل، وذهبت لأهلها وطلبت الطلاق، وتم الطلاق.

وإثر الطلاق بدأ لديها الشعور بالعصبية والاختناق، والهروب من المنزل حتى أصبحت تشعر بأن الجميع بما فيهم عائلتها يتحدثون عنها، وبعد سنة من الطلاق تقدم لخطبتها رجل آخر، أرمل ويكبرها بسنوات كثيرة حيث

فكر وإبداع

وجدت معه الحب الحنان والعطف الذي كانت تفقده وحقق لها السعادة وعوضها عن الحرمان، إلا أن أبنائه لم يبادلوها الاحترام وكانوا جميعاً ضدها وضد فكرة زواج والدتهم، وكانوا دائمي التهديد لها، ورغم أن زوجها كان يُنصفها إلا أنهم استطاعوا تحريضه ضدها إلى أن طلقها.

وإثر الطلاق الثاني شعرت بأن الجميع ينظر لها نظرات سلبية خاصة أنها لم تتجح في الزواج مرتين، وبدأ لديها حب الخروج من المنزل كثيراً، وطلب الأموال من أهلها وانفاقها بسرعة على أشياء ليست بالمهمة، وبدأ لديها حب الماكياج الصارخ، وعدوانيتها على الأطفال الذكور خاصة، كما وأصبحت مقطعة لصلاتها.

لديها أربع محاولات انتحار كانت جميعها بسبب الخلافات بينها وبين الأهل منذ فشل علاقتها العاطفية الأولى إلى طلاقها الأخير، ولا زالت تحلم بمن يفهمها ويستوعبها ويعوضها عن الحرمان والحنان الذي افتقدته.

وبعد استخدام أدوات الدراسة مع الحالة الثانية تبين ما يلي:

نشأت الحالة نشأة اجتماعية متذبذبة ما بين الدلال الزائد والتشدد، فقد كانت مدللة من ناحية توفير كافة طلباتها ولا تحرم من أي شيء، مقابل التشدد في العادات والتقاليد، وعدم الأخذ برأيها بما يخص حياتها ومستقبلها.

تعرضت الحالة لعوامل نفسية مميزة كالفشل العاطفي بسبب تشدد والدها، عدم تحملها أو استيعابها لرفض والدها لمن كانت تحبه، فقدان الشعور بالأمان، الشعور بالضيق، الشعور بالوحدة، فقدان الثقة بالصدقات، وشعورها بالاضطهاد من قبل الجميع، حاجتها للاحتواء، الحاجة لتفهم مشاعرها، الغيرة من صديقاتها المتزوجات واللاتي أصبحن أمهات وهي لا

تزال كما هي بلا أبناء، الشعور بالضييق والاختناق، الصدمة النفسية بسبب التعرض لتجربة الطلاق مرة أخرى، الإحساس بالانهيار، محاولة للفت انتباه الآخرين للإحساس بوجودها، التقلبات المزاجية وذلك بسبب طبيعة مرضها اضطراب ثنائي القطب، فقدان المفاجيء للحب والحنان والأمان بعد أن وصلت للإشباع مع طليقها الثاني وذلك بسبب الطلاق، الشك بالآخرين، عدم القدرة على كبح رغبتها بالخروج من المنزل، كراهيتها للحياة، العدوانية تجاه الأطفال والذكور خاصة، الحيرة والشعور وكأنها داخل متاهة، التقدير السلبي للذات، القلق والخوف من المستقبل، الإحساس بالفراغ، الحنين إلى الماضي، الإحباط، الحزن، الاغتراب، إضافة للسمات الشخصية المميزة للحالة المتمثلة بكثرة الشكوى، الحسرة على عدم إكمال التعليم، الاغتراب، والشعور بالضياع.

وأما عن الأسباب الاجتماعية فتتمثل بالإحاطة برفاق السوء وهي في مرحلة المراهقة، الانصياع لأوامر صديقاتها المتمثلة بالتمرد على الأهل والخروج من المنزل، تعرضها للعنف الجسدي من إحدى المدرسات، مشاكلها مع زوجة أخيها بسبب مهام المنزل، كرهها للتردد على المعلمين التقليديين، عصبية والدها تجاهها، التذبذب في علاقاتها الاجتماعية بحسب نوبتها ففي حالة نوبة الهوس تصبح اجتماعية، وفي نوبة الاكتئاب تحب الاعتزال، العلاقة المتوترة مع الأب، مشكلة عدم قدرتها على الإنجاب فلا يوجد لها أبناء تستطيع تقضية وقت فراغها معهم، الحاجة لشريك بالحياة، الشعور بالذنب تجاه الأم.

وأما العوامل الأسرية التي تميزها: الانخداع بطليقها الأول وبأسرته فلم يكن هو فارس الأحلام المنتظر، ضعف شخصية طليقها، وعدم قدرته

فكر وإبداع

على حمايتها وخضوعه لأهله، تحكم والدته طليقها بها والشجارات الدائمة بينهم، استغلالها من قبل أهل طليقها الأول بمهام تنظيف البيت، فشل تجربة الزواج الأولى والتي كُلت بالطلاق بعد أربعة أشهر، التعرض للطلاق مرة أخرى، التعرض للعنف اللفظي والتهديد من قبل أبناء طليقها الثاني، افتقارها للدعم والمساندة من قبل الأب والخلافات الدائمة معه.

وعلى صعيد الوضع الاقتصادي للحالة فيتسم بالمتوسط، ولكن ليس بكاف لتلبية رغبات الحالة من أزياء وأدوات التجميل.

كذلك من خلال المقابلة اتضح تنوع الوسائل لدى الحالة في مُحاولاتها الانتحارية الأربع تمثلت في استخدام السكين لجرح الوريد، مُحاوله السقوط من علو، مُحاوله إلقاء نفسها أسفل إحدى السيارات، وأما عن الدلالات النفسية خلف تلك المُحاولات، ففي المُحاوله الأولى كانت إثر رفض والدها ارتباطها بمن تُحب، فهنا تكون المُحاوله الانتحارية بمثابة تمرد ورفض الانصياع لأوامر، وفي المُحاوله الثانية كانت إثر مُحاولتها فض خلاف بين والدها وأخيها وكانت ردة فعل الأب عنيفة تجاهها، وتمثل المُحاوله هنا إثبات الذات، وفي المُحاوله الثالثة إثر خلافها مع زوجة أخيها فكانت المُحاوله هنا بمثابة هروب من المشاكل، وفي المُحاوله الأخيرة كانت إثر رفض الانصياع لتنفيذ أوامر أحد المشايخ فهنا المُحاوله تكون لرفض الرأي والعناد.

كما اتضح أن الحالة لا تستطيع التمسك بالدين بوقت النوبة، وكذلك انقطاعها عن العبادة خاصة الصلاة، عدم الرضا بالقضاء والقدر بشكل كاف، ونديها لحياتها، هذا بدوره ساهم في خلق الفراغ الروحاني، وبالتالي التفكير بالانتحار، ومن ثم مُحاوله الانتحار.

الحالة الثالثة:

عرض الحالة:

أنثى تبلغ من العمر (٣٢) عاماً، نشأت بأسرة مكونة من الأب والأم و(٤) أخوة ذكور، وهي الأنثى الوحيدة بينهم، تزوجت ولديها (٣) أبناء ذكور وإناث، ولكنها حالياً شبه منفصلة عن زوجها أي مُعلقة، وتقيم عند أهلها منذ سنوات.

عاشت فترة الطفولة ونصف فترة المراهقة بشكل جيد بلا مشاكل، بل وكانت المُدلة بين الأخوة كونها الأنثى الوحيدة، إلا أنها تعرضت لمحاولة اغتصاب وهي في المرحلة الابتدائية من قبل أحد أقاربها، لكنها استطاعت حماية نفسها، عاشت حياتها المدرسية بشكل جيد، حيث كانت تملك أصدقاء ومستواها الدراسي جيد.

أنهت تعليمها حينما وصلت إلى الصف الأول الثانوي بسبب خطوبتها لأحد الأقارب، وتصف ذاتها بأنها لم تعيش المراهقة كبقية من هم بسنها، تزوجت وسكنت في غرفة بمنزل العائلة، وبحسب قولها فهي لم تكن تشعر بالارتياح بسبب تدخلات أهل الزوج غير المرغوب بها، رغم أن زوجها كان جيداً معها لكنه لا يملك القرار، فما استطاعت الاستمرار معه سوى (٩) سنوات.

كما وأنها تعرضت لمحاولة إغواء من قبل أحد أقارب الزوج، لكنها استطاعت حماية ذاتها من خلال الاستعانة بالعائلة، إلا أن تلك التجربة جعلتها تهرب من المنزل لأهلها، إلى أن وصل بها المطاف لعدم التحمل، فتنازلت عن كافة حقوقها حتى يتم طلاقها وقد تم الطلاق، إلا أنه ومع محاولات الأهل لإرجاعها عادت إلى زوجها مرة أخرى، لكنها لم تتحمل

سوى (١٥) يوماً، وعادت لأهلها طالبة الطلاق، لكن زوجها رفض ذلك ويشترط عليها التنازل عن حقوقها ليُطلقها مرة أخرى، وهي لا تريد التنازل. ومنذ ما يقارب الست سنوات حتى الآن وهي مقيمة عند أهلها، ولا ترى أبناءها سوى عدة ساعات أسبوعياً، كما وأنها تعاني - إثر ذلك كله - من عدة أعراض ك فقدان الشهية واكتئابها بشرب المنبهات كالقهوة بما يُعادل (٥) أكواب كبيرة يومياً، إضافة للشاي، مع قضاء أغلب وقتها في النوم، ولا تحب سماع أي صوت، كما لا تحب الاختلاط أو الخروج من المنزل. وإضافة لما سبق فهي دائمة السرحان، وأحياناً تضحك بلا سبب، كما ويغمر عليها مرة شهرياً، كما وتعاني من خمول وكسل، وتقضي أغلب وقتها في غرفتها، وأصبحت مهملة بوظائف المنزل، وتقطع بالصلاة، وازداد لديها التعلق بالانترنت.

وبعد استخدام أدوات الدراسة مع الحالة الثالثة تم التوصل لما يلي:

نشأت الحالة تنشئة اجتماعية متذبذبة ما بين التدليل الزائد من ناحية توفير المتطلبات، والتشدد من ناحية فرض القرارات، فكّون الحالة الأنثى الوحيدة بين إخوتها الذكور كان سبباً لتدليل أهلها لها من خلال توفير احتياجاتها، مُقابل ذلك، فالأسرة لم تتخلّ عن طباعها الشرقية عند تزويج الحالة، فقاموا بفرض أحد أقاربها عليها، علماً أنها كانت تود الارتباط ب قريب آخر.

كما وتعرضت لعدة عوامل نفسية كالحرمان العاطفي، تحمل المسؤولية مبكراً، التقدير السلبي للذات، عدم الاحساس بالمرور بتجربة مرحلة المراهقة، بمعنى هناك مرحلة عمرية ناقصة، عدم قدرة على تحمل

الصعاب، عدم القدرة على اتخاذ القرارات، القلق والخوف حول مصيرها المستقبلي، الحساسية الزائدة، الشعور بالقهر والغصة بسبب عدم عمل حفل الزفاف، الانهيار العصبي، العصبية الزائدة، رفضها لمسمى مريضة نفسياً، سهولة الاستثارة والاستفزاز، الشعور بالاعتراب عن الآخرين، قضاء معظم اليوم بالنوم، الإفراط في تناول المنبهات، الضغوط النفسية، الاكتئاب، ضعف القدرة على التحمل، مرورها بفترة لم تتقبل بها أبناءها ولم يتقبلوها، الغياب عن الواقع والاندماج بالعالم الافتراضي مواقع التواصل الاجتماعي، الحزن، التعاسة، الفشل، كما أن الحالة لديها سمات شخصية تتمثل بالعاطفة الزائدة والقلق، عدم الانسجام بالحياة، الفشل، التظاهر بالقوة بوجود الآخرين والعكس صحيح، الشك.

وعلى صعيد الوضع الاجتماعي فالحالة تعاني من عدم إكمال التعليم، التعرض لمحاولة اغتصاب في مرحلة الطفولة، التدخلات التطفلية من قبل أهل الزوج، التعرض لمحاولة إغواء من قبل أحد الأقارب، سوء العلاقات الاجتماعية الواقعية والاندماج بعلاقات التواصل الاجتماعي، الحالة الاجتماعية التي تعيشها لا هي المتزوجة ولا المطلقة، ابتعادها عن أبنائها، رفضها للقيود المفروضة عليها من قبل والدها والتي تتمثل بالعادات والتقاليد، العنف اللفظي والانتقادات اللاذعة من قبل المدرسات، تشدد والدها ومنعها من زيارة صديقاتها منذ الطفولة حتى الآن، والسماح لها باستقبالهم فقط، التعرض للتهديد من قبل أحد أقارب الزوج، حرمانها من حقها بالذهب لأجل بناء منزل لسلفها، اتهامها بأفعال لم يكن لها يد بها، الخلافات مع الوالدين، بسبب اختلاف أفكار الأجيال، عدم تقبلها لفكرة العلاج عند المشايخ، التعرض للانتقاد اللاذع من قبل أخوات الزوج، التنازل عن الحقوق في الطلقة الأولى،

تدني عدد الأصدقاء بالواقع، تدخلات وتدخلات الآخرين، حاجة للحب والمساندة، الندم على الماضي.

وأما العوامل الأسرية التي أثرت بها: الانخداع بشخصية الزوج، الشعور بعدم الرضا عن الزواج، إجبارها على الزواج بمن لا ترغب به، ضعف شخصية زوجها مقارنة بإخوته، خضوع زوجها لقرارات أهله، عدم وجود مشاركة باتخاذ القرارات، عدم وجود نقاش في الأمور التي تهم البيت، عدم وجود زيارات أو خروجات مشتركة بينها وبين زوجها، فلما يلزم المنزل أو كل يخرج على حدة في أغلب الوقت، عدم تقبلها لفكرة الرجوع لزوجها، أو تنازلها عن حقها لأجل الطلاق، كذلك تشعر بالاختناق وعدم انسجام بالأسرة.

وعلى صعيد المستوى الاقتصادي للأسرة دخلها متوسط، ولكن علاج الحالة خاصة كونها أنثى بحسب قول الأهل فلم يقصروا في عرض حالتها على أكثر من طبيب نفسي، فتكاليف العلاج وطلباتها تؤثر على الوضع الاقتصادي للأسرة.

كذلك من خلال المقابلات تبين أنه قد تعددت الوسائل التي استخدمتها الحالة للجوء للانتحار كان أبرزها سفرات حلاقة، الزجاج، محاولة طعن نفسها بالسكين، تناول الحبوب، وأما الدلالة النفسية وراء ذلك فتضيف الباحثة بأن المحاولة الأولى كانت إثر شعورها بالاختناق وهي جالسة وحيدة، فهذا دليل على محاولتها لإزاحة الألم الداخلي لألم خارجي وللفت انتباه المحيط للاهتمام بها، في المحاولة الثانية كانت إثر رفضها العلاج لدى طبيب نفسي، وهذا دليل على التمرد على القرارات التي يتخذها المحيط تجاهها، وفي

المحاولة الثالثة كانت إثر رفضها لنصيحة سلفتها بالذهاب لطبيب نفسي، فهذا دليل على رفض تدخلات الآخرين في حياتها ورفض نصيحتهم، وفي المحاولة الرابعة كانت إثر خلافها مع والدها إثر تأخرها واحضارهم شيخاً للبيت لعلاجها، فهنا دلالة للدفاع عن حريتها، وفي المحاولة الخامسة إثر إحضار شيخ للمنزل فهنا دلالة لرفض ما يفرضه الآخرون عليها، وفي المحاولة السادسة إثر مُعاقبة أخوات زوجها لها ومُحاولة الاستهزاء بوضعها فكانت بمثابة دليل على رفض نظرة الآخرين لها، وأما المحاولة السابعة فكانت إثر عدم تحملها خلاف مع صديقتها فكان بمثابة لفت الانتباه، وفي المحاولة الأخيرة كانت إثر خلافها مع والدتها بخصوص العودة لزوجها فكانت بمثابة دليل على رفض التدخل بما يخص حياتها.

كما تبين أنه بحال ازدياد الأعراض المرضية للحالة تقطع الصلاة، وبالتالي يتدنّى مستوى الصبر وتشعر بالاختناق ومن ثم تلجأ لمحاولات الانتحار، لكن مع استقرار وضعها وتحسن الظروف تعود للالتزام.

- لتعقيب على نتائج مجموعة البحث:

أولاً- ملخص المقابلات التي أُجريت مع الحالات:

الحالة الأولى تُعاني من شعور بكرهية الحياة وكراهية الناس لها، كما أنها تشعر بتدنّي تقدير الذات وهذا ما يدفعها للجوء لمحاولات الانتحار، وبحسب ادعائها ففي فترة حياتها المدرسية كانت مضطهدة من قبل المدرسات ودائماً ما يهملونها ويوكلون لها أعمال النظافة، كما أن إحداهن قد حرمتها من ممارسة هوايتها في كرة الطائرة على حد تعبيرها، كما أن لديها غيرة ممن كنّ زميلات لها في فترة الدراسة وخاصةً أنهن الآن في مراكز مرموقة وهي لا.

ترعرعت في بيئة غير سوية حيث إن والدها يعمل في تجارة المخدرات، ولها أخ وأخت يُعانون من الإدمان مع العلم أن أباها حاول اغتصابها، مُقابل أخ لها مُتدين وأم متمسكة بالعادات والتقاليد كانوا متشددين تجاهها، مما يعني أن تنشئتها متذبذبة ما بين الانحراف والتمسك بالعادات والتقاليد.

تزوجت بأحد الأقرباء وتخلل هذا الزواج طلقتان، وذلك إثر مشكلات عديدة سواء إيمانه أم مشكلات مع عائلته، إلى أن انتهى بها المطاف للإدمان كوسيلة للنسيان، ومع تزايد تلك المشكلات الأسرية والاجتماعية استسلمت بدورها لرجل آخر حاول تعويضها ما ينقصها سواء من مشاعر أم مادة، ووصل الأمر إلى العلاقة غير الشرعية.

حاولت الانتحار ست مرات كان آخرها ب ٢٠١٥ علماً أن مُحاولاتها الانتحارية كانت تعقب حدوث المشاكل بينها وبين زوجها وأسرته وأسرته، وكأنها تتبغى وراء ذلك استعطافهم أو إنهاء الخلافات والهروب من المشاكل، وإثر فشل مُحاولاتها تشعر بالندم كونها لم تتجح بالانتحار.

وتصف علاقاتها بالعادية ولا أحد يقوم بزيارتها، كذلك تتساعل: لِمَ جميع من تتعرف عليهن من بني جنسها لا يُكملون علاقتهم بها وينهون العلاقة فوراً رغم أن علاقتها تكون جيدة بهم؟، وأما عن أحلامها فأغلبها نابعة من واقع مشاكلها كمحاولات الأقارب باغتصابها، أو الشجار مع سلفتها، أو الغرق ببحر، أو رؤية قطرة سوداء، وكأغلب الحالات ذهبت لأحد المشايخ، ولكن هنا يختلف الأمر ليس لعلاج مرضها، بل كي تقوم بعمل سحر لزوجها بمرافقة من قامت ببناء علاقة معه كي يُطلقها وتتزوج منه،

ولكنها لم تفعل لعدم ثقتها به، كما أنها تعترف بكونها لا تؤدي الفرائض الدينية، وحالياً أمنيته أن تحل خلافاتها مع زوجها وتجد منزلاً أكثر أمنياً بعيداً عن مشكلات عائلته.

وأما الحالة الثانية فهي تشعر بالوحدة، ولا زالت مُستغربة من طلاقها من زوجها الثاني، وتحلم باكمال تعليمها الذي انسحبت منه إثر خلافها مع والدها بسبب رفضه زواجها ممن كانت تحب أثناء فترة مراهقتها.

نشأت بأسرة شرقية مُلتزمة بالعادات والتقاليد وكان هذا هو السبب لرفض والدها لمن تقدّم لخطبتها، وبحسب قولها فقد بدأت تفقد الثقة بالآخرين، ابتدأت منذ مراهقتها إثر خلافات مع زميلاتها، تزوجت مرتين وكُلّت كلاهما بالطلاق بسبب خلافات أسرية، وحالياً تشعر بالغيرة من صديقاتها المتزوجات وخاصة أن لديهن أبناء وهي لم تستطيع الإنجاب.

حاولت الانتحار أربع مرات، وذلك إثر مشكلات وخلافات أسرية وعاطفية، وكانت مُحاولاتها كردة فعل لتهميشها أو لإنهاء خلافات قائمة، وتشعر بالندم إزاء تلك المحاولات خاصة أنها لم تحقّق رغباتها بعد فشل المُحاولة، كما وأنها تُصر على تكرار تلك المحاولات في حال قام أحد من أسرتها باستقراؤها.

علاقتها جيدة مع والدتها، وعلى عكس ذلك فهي سلبية مع والدها، وذلك بسبب وقوفه في طريق سعادتها بحسب قولها، كما أن ليس لديها سوى صديقة واحدة لا تزال على اتصال معها حتى الآن، وأغلب أحلامها تتوافق مع أمنياتها بأنها ترتدي المجوهرات والفستان، أو ما يتوافق مع تفكيرها بالانتحار أنها تعرضت للدهس، وأخرى تتوافق مع خيالاتها بأنها تتعرض للاعتداء، وأخرى مع الهلوس التي تُراودها برؤية حية.

فكر وإبداع

تصف نفسها بالتدين المتوسط، وتحلم بأن تجد الشخص الذي يقبل الزواج منها وتُنجب الأبناء، كذلك أن تجد من يفهمها وتقهمه.

وبالنسبة للحالة الثالثة فهي تشكو من كثرة التفكير والبكاء، كذلك لديها حيرة ما بين الطلاق أم الرجوع، وتُعاني من قلق المستقبل في حال طلاقها كيف سيكون حال أبنائها؟ وهل سيقبل شخص آخر الزواج بها أم لا؟. نشأت تنشئة اجتماعية متذبذبة ما بين التدليل من ناحية تلبية كافة حاجاتها وما بين الشدة بالقييد عليها بمنعها من زيارة صديقاتها وفرض زوجها عليها.

تعرضت في حياتها لعدة مشكلات أبرزها محاولة الاعتداء عليها من قبل الأقارب، كذلك تشعر بنقص مرحلة المراهقة، وأنها لم تكن جزءاً من حياتها بسبب عدم ممارستها لأعمال المراهقين كالحب ونيل الإعجاب من قبل الشباب سوى أحد الأقرباء الذين لم يكن لها نصيب بالزواج منه وتزوجت بآخر.

حياتها الزوجية ليست مُستقرة بسبب المشكلات من قبل أسرة زوجها وذويه، وبسبب ضعف شخصية زوجها، حالياً هي مُقيمة عند أهلها منذ ست سنوات، وبعيدة عن أبنائها، وبهذه الفترة تعرفت إلى شخص من خلال مواقع التواصل الاجتماعي، ولكن عند اكتشاف أهل ذلك قاموا بإنهاء المشكلة.

لديها عدة محاولات انتحارية وكان أغلبها إثر مشكلات أسرية أو خلافات عائلية، وكانت المحاولات بمثابة تمرد على تدخلات الآخرين في خصوصياتها وفرض الآراء عليها والحد من حريتها، وتُصف شعورها إثر تلك المحاولات بالضيق بسبب فشلها.

تصف علاقتها بالمحيط بالعادية، ولديها صديقتان فقط إحداهما تعرفت إليها عبر مواقع التواصل الاجتماعي والأخرى من خلال العلاقات الواقعية، وأما أحلامها فأغلبها من واقع حياتها وتكمن بالمشاكل مع زوجها، والحلم بوجه مُخيف.

رفضت العلاج لدى المُعالجين التقليديين أو المختصين، ولكن في النهاية انتهت باقتناعها باللجوء لطبيب نفسي لحل مشكلاتها، وترى نفسها غير متدنية.

تحلم بحياة إيجابية تقوم بها بفعل كل ما تريد بحسب قرارها وليس بحسب قرارات الآخرين، كما وتود السفر والخروج من غزة.

ثانياً: ملخص نتائج الاختبارات والمقاييس:

١- قائمة مراجعة الأعراض SCL - 90: اتفقت الحالات الثلاث بوجود أعراض شديدة بكل من الاكتئاب والعداوة، وباقي الأعراض تتفاوت درجاتها بينهم، فالشعور بالاكتئاب كان كنتيجة طبيعية لما آلت به ظروفهم، ونظراً لكثرة الضغوط المتراكمة عليهم يقمن بتوجيه تلك الضغوطات بشكل عدائي تجاه الآخرين، وهذا ما يؤكد نظرية فرويد من أن العدوان تجاه الآخرين يتحول لعدوان تجاه الذات، ومن ثم محاولة الانتحار.

٢- اختبار اضطراب الشخصية لغانم: حصلت الحالات الثلاث على تقديرات مُتفاوتة في أعراض اضطرابات الشخصية، ولكن أغلب تلك الأعراض هي سلوكيات نابعة من مواقف بحياتهن ومن المُحتمل أن تزول بحال تغير ظروف الحياة التي يعشنها، حيث إنه وبحسب الدليل التشخيصي الخامس DSM - 5 فإنه لا يمكن تشخيص

فكر وإبداع

اضطراب الشخصية أنه اضطراب إلا بحال بدأه بمرحلة البلوغ عدا اضطراب الشخصية البارانودية يبدأ منذ (١٥) عاماً، وعليه تصبح تلك الأعراض اضطرابات سلوكية، وبناءً على ما سبق فإن الحالة الأولى والثانية لا تُعاني من أي اضطرابٍ بالشخصية، بينما الحالة الثالثة اضطراب الشخصية البينية.

٣- اختبار التدين: حصلت الحالة الأولى على درجة متدنية بمقياس التدين، وهذا ما يتوافق مع سلوكياتها، بينما الحالة الثانية والثالثة فقد حصلت على تقدير فوق المتوسط، وذلك بحسب التربية التي تلقوها بالبيئة.

٤- مقياس التوافق الزوجي: حصلت الحالة الأولى على تقدير متوسط بالتوافق الزوجي، وهذا يؤكد انسجامها بشكل متوسط مع زوجها فهي تتفق معه بالعادات والتقاليد والسلوكيات، وتختلف من ناحية شعورها بالحرمان العاطفي، بينما لم يُطبق اختبار التوافق الزوجي على الحالة الثانية لكونها مُطلقة، فيما حصلت الحالة الثالثة على تقدير دون المتوسط، وهذا ما يُفسر إقامتها عند أهلها منذ ست سنوات.

٥- مقياس تعاطي المخدرات: قامت الباحثة بقياسه على الحالة الأولى فقط نظراً لكونها الوحيدة التي تتعاطى المخدرات، واتضح من خلال المقياس بأن الحالة لديها اتجاه شديد نحو التعاطي.

٦- مقياس بيك للاكتئاب: حصلت الحالات الثلاث على تقدير شديد بالاكتئاب، وهذا يتفق مع نتيجة قائمة مُراجعة الأعراض SCL-90

بأن الاكتئاب شديد لدى ثلاث حالات، وهذا ما يؤكد ما ذكرته الباحثة في الاطار النظري أن الاكتئاب هو الاضطراب الأول الدافع لمحاولات الانتحار.

٧- اختبار روتر للتوافق: تعاني الحالات الثلاث من سوء توافق بأكثر من مجال فردي، اجتماعي، أسري، عدم شعور بالرضا، ووجود مشكلات واضحة، فلو لم يكن الأمر كذلك لما لجأن للانتحار، وهذا ما يؤكد النظريات المُفسرة للانتحار كنظرية الضغط الاجتماعي التي رأت أن التعرض للضغوطات المُتعددة يسهم باللجوء للانتحار.

وبعد هذا العرض للحالات الثلاث يمكن للباحثة أن تُجمل نتائج الدراسة فيما يلي: توصلت هذه الدراسة إلى أن التنشئة الاجتماعية المميزة للعينة التي طُبِّقَت عليها تتميز بالتذبذب، سواء بين التشدد والانفلات كما في الحالة الأولى، أو الدلال والسلطة بفرض القرارات كما في الحالة الثانية، مما يعني أن الحالات قد نشأت منذ الصغر نشأة سلبية، وهذا ما توصل إليه نعيمة (٢٠١٢) في دراسته أن المعاملة القاسية للمراهقين سبب في لجوء الحالات للانتحار، كذلك توصلت هذه الدراسة إلى أن الحالات الثلاث أُجبرن على الزواج بمن لا يردن كما في الحالة الأولى حينما أُجبروها على العودة لخطيبها بعد فترة انفصالها عنه، والحالة الثالثة التي فرضوا عليها أحد الأقرباء وكانت تود الارتباط بآخر، أو عدم الزواج بمن تريد كما حدث مع الحالة الثانية وهو أحد الأسباب التي أدت لمحاولات الانتحار.

كما وتوصلت الدراسة إلى أن هناك مجموعة من العوامل النفسية التي ساهمت في لجوء الحالات للانتحار وهي: الحرمان العاطفي، تحمل المسؤولية مبكراً، التقدير السلبي للذات وهذا ما توصلت إليه دراسات كل من

أبو صفا (٢٠١٤)، الغديان (٢٠١١)، تفاع (٢٠١٠)، وكريم (٢٠٠٣) بأن النظرة السلبية للذات أحد أسباب اللجوء للانتحار، كذلك اتفقت الحالات الثلاث في عدم قدرتها على تحمل الصعاب والقلق والخوف حول مصيرها المستقبلي، وهذا ما توصلت له حميمي (٢٠١٢) من أن القلق حول المصير المستقبلي وعدم القدرة على التحمل كان له دور باللجوء للانتحار، واشتركت الحالة الأولى والثانية بالشعور بالاضطهاد، وهذا ما توصلت إليه دراسة الشهري (٢٠١٠) من أن الشعور بالاضطهاد أحد العوامل التي ساهمت في اللجوء للانتحار، واتفقت الحالات الثلاث بالحساسية الزائدة تجاه الآخرين وسهولة الاستثارة والاستفزاز، وقد توصلت دراسة نوك وكيسلر (٢٠٠٦) إلى أن العدوانية تجاه الغير أحد أسباب اللجوء للانتحار، كما كان للضغوط النفسية دور في لجوء الحالات الثلاث للانتحار وهذا ما توصلت إليه دراسات كل من الشهري (٢٠١٠) وخضر (٢٠٠٨) وستيفانييلو وآخرين (٢٠٠٧) وبيوتريز (٢٠٠٣) من أن الضغوط النفسية ساهمت في لجوء الحالات للانتحار، وأيضاً اتفقت الحالات الثلاث بوجود زملة من أعراض الاكتئاب النفسي كانت سبباً في لجوئهن للانتحار، وهذا ما توصلت إليه عدة دراسات من بينها دراسة كل من بيللا (٢٠١٢) فروتشن وآخرين (٢٠١٣) ولارج وآخرين (٢٠١١) .

وأما العوامل الاجتماعية التي أدت للجوء الحالات الثلاث للانتحار فكانت للأسباب التالية: تدني مستواهم التعليمي، وهذا ما توصلت إليه دراسة مورالز ومارتينز (٢٠١٠) من أن تدني مستوى التعليم دون (١١) سنة كان أحد العوامل المتسببة باللجوء للانتحار، كما وتوصلت دراسة خضر (٢٠٠٨)

إلى وجود علاقة عكسية بين التعلم والانتحار، بينما توصلت دراسة جولانت وآخرون (٢٠٠٥) إلى أن التعليم ليس له علاقة باللجوء للانتحار، التعرض لمحاولة اغتصاب أو أكثر، التدخلات التطفلية من أهل الزوج، كما كان للطلاق دور في لجوء الحالات للانتحار فالحالة الأولى طُلقَت مرتين وبقي لها طُلقة واحدة، والحالة الثانية تزوجت مرتين وطُلقَت منهما، وأما الحالة الثالثة فقط طُلقَت طُلقة واحدة، وهذا ما توصلت إليه دراسة زهير (٢٠٠٨) بأن الطلاق أحد العوامل التي تؤدي للجوء للانتحار، كما أن الابتعاد عن الأبناء كما في الحاليتين الأولى والثالثة له دور في اللجوء للانتحار، كما كان لرفض للقيود المفروضة من قبل الأهل والتي تتمثل بالعادات والتقاليد دور في اللجوء للانتحار، وهذا ما توصلت إليه دراسة ميموني (٢٠٠٨) بأن القوانين الصارمة من قبل الآباء على الأبناء تسهم في لجوء الأفراد للانتحار.

كما وهناك عدة عوامل أسرية ساهمت في دفع الحالات لمحاولات الانتحار أبرزها الانخداغ بشخصية الزوج، الشعور بعدم الرضا عن الزواج، ضعف شخصية الزوج مقارنة بإخوته، خضوع الزوج لقرارات أهله، عدم وجود مشاركة باتخاذ القرارات، عدم وجود نقاش بالأمور التي تهم البيت وهذا ما توصلت إليه دراسة الغديان (٢٠١١) بأن المشكلات الأسرية تؤدي للجوء للانتحار، ودراسة زهير (٢٠٠٨) التي توصلت إلى أن المشكلات الأسرية تسهم باللجوء للانتحار، ودراسة كريم (٢٠٠٣) التي خرجت بأن المشاكل مع الزوج تسهم باللجوء للانتحار.

كما ولجأت الحالات لعدة طرائق بمحاولاتها للانتحار تتمثل ب محاولة طعن ذاتها بالسكين، محاولة السقوط من علو، فقد توصلت دراسة

فكر وإبداع

الزعبي (٢٠١٣) بأن القفز من علو كان وسيلة اللجوء للانتحار، جرح الوريد إما بالزجاج أو شفرات الحلاقة، التسمم بابتلاع الأدوية، وهذا ما توصلت إليه دراسة ديسور وآخرون (٢٠١١) ودراسة رابيلي وبوتيجا (٢٠٠٥)، محاولة السقوط أسفل السيارات.

أما عن الدلالة النفسية لمحاولات الانتحار، فقد توصلت هذه الدراسة إلى أن الغاية من تلك المحاولات تتمثل بالحاجة للاستعطاف والمساندة، والحاجة للتقدير والاهتمام وإثبات الذات، وهذا ما توصلت إليه دراسة لمين من (٢٠١٠) أن الغاية من محاولة الانتحار كانت بهدف جذب انتباه المحيط، والهروب من المشكلات، وهذا ما توصلت إليه دراسة لمين (٢٠١٠) التي وضحت أن اللجوء للانتحار كان بسبب إنهاء حالة الضيق والصراع، مع تبرير التصرفات السلبية، ورفض الانصياع للأوامر، والعناد وفرض الرأي ورفض قرارات الآخرين أو نصائحهم، والدفاع عن الحرية الشخصية ورفض نظرة الآخرين لها.

وتبين أن الحالة الأولى لديها مستوى متدنٍ من التدين، بينما الحالتان الثانية والثالثة فلهيما مستوى متوسط من التدين، مما يعني أن انخفاض درجة التدين له دور في اللجوء للانتحار، وهذا ما توصلت إليه دراسات كل من خضر (٢٠٠٨) أن تنني مستوى التدين في حال الضغوط الحياتية يؤدي إلى اللجوء للانتحار، وتوصلت دراسة كل من الزعبي (٢٠١٣) والبرزيخي (٢٠٠٩) وكويهارا (٢٠٠٩) إلى أن ضعف الوازع الديني يؤدي للجوء للانتحار.

وتؤكد الباحثة أنه وبعد التشريح النفسي للحالات تبين أن هناك مشكلات عدة ساهمت بدفع هذه الحالات إلى الانتحار وتكاد تتمثل بالتنشئة

التشريح النفسي لمحاولي الانتحار بغزة فكر وإبداع (دراسة إكلينيكية تحليلية)

الاجتماعية المتذبذبة إضافة لعدة مشكلات نفسية سواء على الصعيد طبيعتها الشخصية أم ما اكتسبته بسبب الظروف المحيطة، واجتماعية بفعل المحيط المتمثل بالجوار أو العائلة، وأسرية تتمثل بالخلافات مع الأزواج، واقتصادية بعدم كفاية المال لتلبية الاحتياجات.

وأما عن الوسائل والطرائق المستخدمة فتتوعدت بين محاولة الطعن، محاولة السقوط من علو، محاولة السقوط أسفل السيارة، وجرح الوريد، وإبتلاع الأدوية، وذلك بهدف لفت انتباه المحيط وإثبات الذات، ورفض الانصياع لأوامر وتدخلات الآخرين، كما وتراوح مستوى التدين لدى مُحاولات الانتحار ما بين المتوسط والمتدني.

وبناءً على كل ما سبق يرى الباحثان بأن هذه الدراسة قد تكون بمثابة اللبنة الأولى لدراسات لاحقة، حيث إنها ساهمت ببناء الأسس لدراسة مُحاولي الانتحار وهذا هو هدف الدراسات النوعية الاستكشافية، كما أنها ساهمت في تكوين إطار نظري لفهم الانتحار ومُحاولاته من الجوانب كافة، بحيث قامت هذه الدراسة بتشريح مُحاولات الانتحار تشريحاً نفسياً، مع التطرق للجوانب الاجتماعية والأسرية والاقتصادية والدينية لإثراء الدراسة ولمُحاولة فهم الحالة من الجوانب كافة، مما قد يسهم في فهم أسباب اللجوء للانتحار، وعليه بناء البرامج العلاجية التي تُساهم في لجوء الحالات لطرائق أكثر إيجابية للتأقلم مع الحياة بدلاً من الهروب منها، وترى الباحثة بأن ثقافة المجتمع الفلسطيني نابعة من ثقافة البيئة العربية إلا أن هناك اختلافات من حيث التعرض للحروب المُتتالية عبر مختلف الأجيال، ولا زال المجتمع الفلسطيني حالياً تحت الحصار، مما يعني أن هناك اختلافات لصالح المجتمع الفلسطيني في بعض الجوانب.

توصيات الدراسة: من خلال ما سبق يوصي الباحثان بما يلي:

١- عقد دورات تدريبية وورشات العمل حول الانتحار وتوضيح طرائق الوقاية والعلاج.

٢- إبتعاث مختصين من الإدارة العامة للصحة النفسية، لتلقي تدريبات حول آلية التعامل مع محاولي الانتحار.

٣- توعية الرأي العام بظاهرة الانتحار من خلال وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة.

المصادر والمراجع

أولاً- المراجع العربية:

١. إستيتية، دلال ملحس، سرحان، عمر موسى. (٢٠١٢م). المشكلات الاجتماعية. عمان: دار وائل للنشر.
٢. باظة، آمال عبد السميع. (١٩٩٨م). المنهج الاكلينيكي. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.
٣. البرزيخي، دنيا طيب. (٢٠٠٩م). الانتحار أسبابه - وسائله - دراسة ميدانية. مجلة كلية الآداب جامعة بغداد العراق، ع(٨٨)، ٥٤٣ - ٥٦٧.
٤. تفاع، جمال السيد. (٢٠١٠م). السلوك الانتحاري دراسة تشخيصية علاجية. المجلة العلمية، ع(١)، ٢٨٠ - ٣٢٤.
٥. ثابت، ياسر. (٢٠١٢م). شهقة اليائسين الانتحار في العالم العربي. بيروت: التوزيع للطباعة والنشر.
٦. الجوهري، محمد محمود؛ وزيدان، أحمد؛ وبدران، محمود (٢٠١١م). تاريخ التفكير الاجتماعي (الرواد). عمان: دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة.
٧. الحجار، بشير إبراهيم، ورضوان، عبد الكريم. (٢٠٠٦م). التوجه نحو الدين لدى طلبة الجامعة الإسلامية بغزة. مجلة الجامعة الإسلامية (سلسلة الدراسات الإنسانية)، ع(١)، ٢٦٩ - ٢٨٩.
٨. حلوان، زينة. (٢٠٠٨م). التوظيف النفسي لدى الراشدين الذين قاموا في محاولة الانتحار وابتلاع مواد محرقة دراسة عيادية لتسع حالات (رسالة ماجستير غير منشورة)، جامعة الجزائر، الجزائر.

فكر وإبداع

٩. حميمي، عتاب. (٢٠١٢م). إدراك القلق الشديد وعلاقته بالاكنتاب ومشاعر اليأس لدى شريحة من مُحاولي الانتحار. مجلة معارف، ع(١٢)، ١٨٩ - ١٩٩.
١٠. خضر، فوزة (٢٠٠٨م). بعض العوامل الدافعة لانتحار الإناث في مدينة الرياض (رسالة ماجستير غير منشورة)، جامعة الملك سعود. الرياض: السعودية.
١١. دوركايم، إ. (٢٠١٠م). الانتحار، (ترجمة حسن عودة). دمشق: منشورات الهيئة العامة السورية وزارة الثقافة. (العمل الأصلي نُشر في عام ١٨٩٧م).
١٢. راصع، إشراق أحمد يحيى؛ وفرج، صفوت أرنست؛ ويونس، فيصل عبد القادر؛ وعبد الله، معتز سيد. (٢٠١٤م). الضغوط والاكنتاب كمتغيرين منبئين بالتفكير الانتحاري. دراسات عربية في علم النفس، ١٣(١)، ٩٩ - ١٣٢.
١٣. الرشود، عبد الله بن سعد. (٢٠٠٦م). الانتحار التشخيص والعلاج. الرياض: مركز الدراسات والبحوث بجامعة نايف العربية للعلوم الأمنية.
١٤. أبو ركاب، إسماعيل. (٢٠١٠م). العوامل المهيئة للانتحار وعلاقتها ببعض المتغيرات. برنامج البحث العلمي والتدريب. جمعية الوداد للتأهيل المجتمعي، غزة.
١٥. أبو زائدة، حاتم. (٢٠١٢م). مناهج البحث العلمي. غزة: مركز أبحاث المستقبل.

التشريح النفسي لمحاولي الانتحار بغزة فكر وإبداع (دراسة إكلينيكية تحليلية)

١٦. الزعبي، إبراهيم أحمد. (٢٠١٣م). مشكلة الانتحار في الأردن من وجهة نظر إسلامية ونفسية " دراسة ميدانية ". مؤتة للبحوث والدراسات، سلسلة العلوم الاجتماعية، ٢٨ (٥)، ١٢١ - ١٤٤.
١٧. زهير، بوسنة عبد الوافي. (٢٠٠٨م). التصور الاجتماعي لظاهرة الانتحار لدى الطالب الجامعي - دراسة ميدانية بجامعة بسكرة - (رسالة دكتوراة غير منشورة)، جامعة منتوري قسطنطينة، الجزائر.
١٨. الزبود، نادر فهمي. (٢٠٠٧م). الدليل العملي للمرشدين النفسيين والتربويين. عمان: دار الفكر.
١٩. الشهري، محمد بن صالح. (٢٠١٠م). ضعف التدين والقلق والاكتئاب والشعور بالوحدة النفسية منبئات للميول الانتحارية (رسالة دكتوراة غير منشورة)، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، السعودية.
٢٠. العبادسة؛ أنور، وحماة؛ إبراهيم، وأبو يوسف؛ محمد. (٢٠١٥م). نمو ما بعد الصدمة وأعراض الاضطراب النفسي لدى النازحين في مراكز الإيواء في محافظة خانونس. كلية التربية، الجامعة الإسلامية.
٢١. العرقان، محمد. (ب. ت). اختبار روتر لتكملة الجملة. جامعة عين شمس، كلية الآداب.
٢٢. العزة، سعيد. (٢٠٠٤م). تمييز الصحة النفسية. عمان: مكتبة دار الثقافة للنشر والتوزيع.
٢٣. غانم؛ محمد، ودمرداش؛ عادل، وزينة، مجدي. (٢٠٠٧م). اختبار اضطرابات الشخصية.
٢٤. الغديان، سليمان بن عبد الرازق. (٢٠١١م). السلوك المنحرف ودوره بالتفكير بالانتحار لدى الأحداث المنحرفين. دراسات عربية في علم النفس، ١٠ (٢)، ٣٩١ - ٤٢٨.

٢٥. الكحلوت، محمد رفيق. (٢٠١٦م). المساندة الاجتماعية وعلاقتها بالعزو السببي لدى محاولي الانتحار في قطاع غزة (رسالة ماجستير غير منشورة). الجامعة الإسلامية. غزة.
٢٦. كريم، ريزان حمه رشيد. (٢٠٠٣م). دراسة إحصائية لأهم العوامل المؤثرة على ظاهرة الانتحار (رسالة ماجستير غير منشورة). جامعة السليمانية. اقليم كردستان/ العراق.
٢٧. لمين، كوروغلي محمد. (٢٠١٠م). مساهمة في دراسة محاولة الانتحار عند المراهق بعد تعرضه لصدمة فشل الأسباب واستراتيجيات التكفل النفسي (رسالة ماجستير غير منشورة)، جامعة منتوري قسنطينة، الجزائر.
٢٨. ليتل، إ، وبيركلتر، ت. (٢٠٠٩م). حديثي مع الآباء دليل إرشاد للمشكلات التي تؤرق الآباء والمراهقين، (إعداد قسم الترجمة بدار الفاروق). الدقي: دار الفاروق للاستثمارات الثقافية. (العمل الأصلي نُشر بتاريخ ٢٠٠٨م).
٢٩. محمود، أيمن. (٢٠٠٨م). مشاهير المنتحرين. الجيزة: دار الفاروق للاستثمارات الثقافية.
٣٠. مسيلي، رشيد. (٢٠١٣م). الضغوط النفسية المدركة وعلاقتها بمعاودة المحاولة الانتحارية دراسة مقارنة بين أساليب التعامل ومستوى الشعور بالاكئاب واليأس. مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، ع(١٣)، ٣٠٥ - ٣٣١.
٣١. معمرية، بشير. (٢٠١٠م). تقنين قائمة أرون بيك الثانية للاكتئاب. مجلة شبكة العلوم النفسية العربية، ع(٢٥، ٢٦)، ٩٢ - ١٠٥.

التشريح النفسي لمحاولي الانتحار بغزة

فكر وإبداع

(دراسة إكلينيكية تحليلية)

٣٢. مهدي، عباس. (١٩٠٠م). الشخصية بين النجاح والفشل. بيروت: دار المناهل للنشر والتوزيع.

٣٣. أبو موسى، سمية محمد جمعة. (٢٠٠٨م). التوافق الزوجي وعلاقته ببعض سمات الشخصية لدى المعاقين (رسالة ماجستير غير منشورة)، الجامعة الإسلامية، غزة.

٣٤. ميموني، مصطفى. (٢٠٠٨م). محاولات الانتحار بين فرض الكيان والهروب من الواقع. إنسانيات. ع(٤١)، ٥١-٦٢.

٣٥. نعيمة، غازلي. (٢٠١٢م). النسق الأسري وعلاقته بظهور المحاولة الانتحارية لدى المراهق ١٤ - ١٧ سنة دراسة مقارنة ل ٢٠ حالة (رسالة ماجستير غير منشورة)، جامعة مولود معمري، الجزائر.

٣٦. وازي، طالس. (٢٠١٢م). ظاهرة الانتحار بين التفسير الاجتماعي والتشخيص النفسي. دراسات تربوية ونفسية، ع(٨)، ٦٢ - ٧٦.

ثانياً- المراجع الأجنبية:

1. American Psychiatric Association. (2013). *Diagnostic and Statistical Manual of Disorders (5th ed)*. American Psychiatric Publishing: Washington, DC.
2. Beautrais, A. (2003). Suicide and serious suicide attempts in youth: A multiple-group comparison study. *The American Journal of Psychiatry*, 160(6), 1093.
3. Bella, M. E. (2012). Comportamientos de riesgo para la salud en niños y adolescentes con intentos de suicidio y en sus familiares [Risk behaviors to health in children and adolescents with suicide attempts and their families]. *Rev Med Chile*, 140, 1417-1424.

4. Dessauer, B. V., Ortiz, P. F., Hinostroza, T. C., Bataszew, A. V., Velasquez, A. D., Correa, M. P., Caceres, J. M. & Mulet, A. B. (2011). Intento de Suicidio Vía Ingesta de Fármacos en Niños [Suicide attempts secondary to self-inflicted drug poisoning]. *Revista Chilena de Pediatría*, 82(1), 42-48.
5. *Encyclopedia of Death and Dying. Autopsy*, psychologicalRetrived November 28, 2015 from <http://www.deathreference.com/A-Bi/Autopsy-Psychological.html>.
6. Eroglu, M. Z., Karakus, G. & Tamam, L. (2013). Bipolar disorder and suicide. *The Journal of Psychiatry and Neurological Sciences*, 26(2), 139-147.
7. Freuchen, A., Kjelsberg, E., Lundervold, A. J. & Groh, B. (2012). Differences between children and adolescents who commit suicide and their peers: A psychological autopsy of suicide victims compared to accident victims and a community sample. *Child and Adolescent Psychiatry and Mental Health*, 6(1), Retrived October 4, 2015 from <http://www.capmh.com/content/6/1/1>.
8. Jollant, F., Bellivier, F., Leboyer, M. & Courtet, P. (2005). Impaired decision making in suicide attempters. *The American Journal of Psychiatry*, 162, 304-310.
9. Kurihara, T., Kato, M., Reverger, R. & Tirta, I. G. R. (2009). Risk factors for suicide in Bali: a psychological autopsy study. *BMC Public Health*, 9(327), Retrived September 18, 2015 from <http://www.biomedcentral.com/1471-2458/9/327>.

10. Large, M., Sharma, S., Cannon, E., Ryan, C. & Nielssen, O. (2011). Risk factors for suicide within a year of discharge from psychiatric hospital: A systematic meta-analysis. *Australian and New Zealand Journal of Psychiatry*, 45, 619-628.
11. Morales, E. J. M. & Martinez, M. I. G. (2010). Factores de riesgo asociados al suicidio en Nariño (Colombia): estudio de casos y controles [Risk Factors for Suicide in Nariño, Colombia: A Matched Case-Control Study], *Revista Colombiana de Psiquiatria*, 39(2), 291-312.
12. Nock, M. K. & Kessler, R. C. (2006). Prevalence of and risk factors for suicide attempts versus suicide gestures: Analysis of the national comorbidity survey. *Journal of Abnormal Psychology*, 115(3), 616-623.
13. Rapeli, C. B. & Botega, N. J. (2005). Clinical profiles of serious suicide attempters consecutively admitted to a university-based hospital: a cluster analysis study]. *Revista Brasileira de Psiquiatria*, 27(4), 285-289. Retrieved December 25, 2015, from http://www.scielo.br/scielo.php?script=sci_arttext&pid=S1516-44462005000400006&lng=en&tlng=en.
14. Ruengorn, C., Sanichwankul, K., Niwatananun, W., Mahatnirunkul, S., Pumpaisalchai, W. & Patumanond, J. (2012). Factors related to suicide attempts among individuals with major depressive disorder. *International Journal of General Medicine*, 5, 323-330.
15. Abu Safa, E. (2014). *Palestinian women attempted suicide, risks beyond the experience. A descriptive phenomenological* (study Masters Thesis), Palestine: Al Najah National University.

16. Shahpesandy, H. & Heeswijk, A. V. (2012). Suicide on the Isle of Wight: A Case-study of 35 Suicides among Mental Health Service Users Between 2006 and 2008. *Irish Journal of Psychological Medicine*, 29(2), 80-84.
17. Stefanello, S., Cais, C. F., Mauro, M. L., Freitas, G. V. & Botega, N. J. (2008). Diferenças entre os sexos nas tentativas de suicídio: resultados iniciais do estudo multicêntrico de intervenção no comportamento suicida (SUPRE-MISS) obtidos em Campinas, Brasil [Gender differences in suicide attempts: preliminary results of the multisite intervention study on suicidal behavior (SUPRE-MISS) from Campinas, Brazil]. *Revista Brasileira de Psiquiatria [online]*, 30(2), 139-143.
18. Wong, P. W., Chan, W. C., Chen, E. Y., Chan, S. S., Law, Y. & Yip, P. S. (2008). Suicide among adults aged 30–49: A psychological autopsy study in Hong Kong. *BMC Public Health*, 8(147), Retrived October 20, 2015 from <http://www.biomedcentral.com/1471-2458/8/147>.

أثر رأس المال الفكري على الأداء التنظيمي بالجامعات الليبية دراسة ميدانية

فوزي عبد الكريم مفتاح الصادق (*)

المستخلص:

هدفت الدراسة للتعرف على أثر رأس المال الفكري على الأداء التنظيمي بالجامعات الليبية، واعتمدت الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي لتحليل العلاقة الارتباطية بين متغيرات الدراسة، شملت الدراسة أعضاء هيئة التدريس بالجامعات الليبية، وتم استخدام أساليب العينة العشوائية في اختيار العينة المبحوثة، وطُبقت الدراسة على عينة عددها (٣١٩) من أصل العدد الإجمالي للعينة (٣٦٩) عضو هيئة تدريس بمختلف مسمياتهم الوظيفية (أستاذ، أستاذ مشارك، أستاذ مساعد، محاضر، مساعد محاضر)، ثم تم تحليل البيانات المتحصل عليها ببرنامج (spss).

توصلت الدراسة إلى عدة نتائج أهمها، قصور دور إدارة الجامعات في توفير فرص التطور والتسمية المهنية ومتطلبات القيام بالأبحاث العلمية، قصور بإدارة الجامعات في تمكين المبحوثين حرية اتخاذ القرارات المتعلقة بأعمالهم اليومية، لا تقدم إدارة الجامعات الخبرة التي يحتاجها المجتمع، توصي الدراسة بتفويض بعض الصلاحيات المبحوثين لتنفيذ أعمالهم بكفاءة

(*) جامعة صبراتة - كلية الاقتصاد صرمان

وفاعلية، أقامة العلاقة بين الجامعة والمجتمع لمساهمة في خدمته وتنميته، تسهيل مهمة إعداد البحوث للمبحوثين من قبل إدارة الجامعة والتعاون معهم عند إجراءاتهم لبحوثهم، تفعيل وتطوير أنظمة الحوافز والمكافأة وزيادة الاهتمام بالمبحوثين من خلال تشجيعهم وتحفيزهم، العمل على تعميق مفهوم رأس المال الفكري من حيث إدارته والمحافظة عليه باعتباره الثروة الحقيقية التي تضمن للجامعات القدرة على التكيف مع التغيير وتحقيق الأداء المطلوب.

Abstract

The study aimed to know the impact of intellectual capital upon the organizational performance at the Libyan universities .The study adopted the descriptive analytical method in analyzing the correlative relation between the study variables, the study included the teaching staff of the Libyan universities. The random sample style was used in selecting the researched sample.

The study applied on (319) samples from a total of (369) numbers of staff in their different functional names (professor, associated professor, assistant professor, lecturer, assistant lecturer).The data was analyzed by (spss).

The results of the study: the deficiency of the role of the universities in conserving opportunities of progress and professional development and the requirements of the scientific researches, deficiency in the universities administration in empowering researched with the freedom of decision making of decisions related to their daily works. The universities administration didn't give the experience needed by the society.

The study recommended: delegating some power to researched for implementing their works with efficiency and

effectiveness. Establishing relations between the universities and the community so as to contribute in serving and developing it. Facilitate the mission of preparing the researches for the researched by the universities administration and cooperate with them during their researches.

Activation and development of incentive systems and compensations, more care for the researched through the encouragement and the inventiveness. Deepening the concept of the intellectual capital from its control and conserve it as a real wealth that grantee the adaptation of the universities with the change and the achievement of the required performance.

أثر رأس المال الفكري على الأداء التنظيمي بالجامعات الليبية دراسة ميدانية

المقدمة:

يعد رأس المال الفكري أصل من الأصول غير الملموسة تسعى الجامعات للحصول عليه واكتسابه ونشره والاستفادة منه في ظروف تؤمن للجامعة فرص النجاح والاستمرار و لزيادة أدائها، وعدم استثمار رأس المال الفكري بسبب الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية السائدة في الدولة لذلك اعتمد الباحث هذا السبب من ضمن المتغيرات التنظيمية المؤثرة على رأس المال الفكري والأداء التنظيمي في الجامعات الليبية .

أولاً: مشكلة الدراسة:

تواجه الجامعات الليبية مجموعة من المشاكل المرتبطة بالتنوع في التركيبة السكانية نظراً للتوزيع الجغرافي للمدن والقرى ولكبر مساحة الدولة الليبية وعلاقة سكانها مع سكان الدول المجاورة التي أفرزت ثقافات في المجتمع وأثرت في البيئة المحلية الذي ينعكس على رأس المال الفكري العامل بهذه الجامعات والذي له أثره على الأداء التنظيمي والاتجاهات والقيمة والتوقعات التي تمثل أبرز التحديات أمام هذه الجامعات في إدارة رأس مالها الفكري وأدائها التنظيمي .

أن السؤال الرئيسي لهذه الدراسة: "أثر رأس المال الفكري على

الأداء التنظيمي" ؟

ويتفرع من هذا السؤال:

- ما طبيعة العلاقة بين رأس المال الفكري والأداء التنظيمي بالجامعات الليبية محل الدراسة ؟
- ما طبيعة العلاقة بين أبعاد رأس المال الفكري وأبعاد الأداء التنظيمي بالجامعات الليبية محل الدراسة ؟

ثانياً: أهداف الدراسة:

١- التعرف على العلاقة بين رأس المال الفكري محل الدراسة بوصفه متغير مستقل والأداء التنظيمي بوصفه متغير تابع بالجامعات الليبية محل الدراسة.

٢- التعرف على العلاقة بين أبعاد رأس المال الفكري وأبعاد الأداء التنظيمي بالجامعات الليبية محل الدراسة .

٣- تشخيص طبيعة العلاقة التي تربط بين رأس المال الفكري بعناصره المختلفة وبين الأداء التنظيمي بمؤشراته المختلفة بالجامعات الليبية محل الدراسة .

ثالثاً: أهمية الدراسة:

تعد هذه الدراسة امتداداً للدراسات السابقة ذات الصلة بموضوعات رأس المال الفكري والأداء التنظيمي في اختبار أبعاد الأداء التنظيمي ورأس المال الفكري من أعضاء هيئة التدريس بالجامعات الليبية وذلك من خلال التطبيق الميداني للدارسة .

رابعاً: فروض الدراسة:

في ضوء مشكلة الدراسة تصاغ الفرضية التالية: "توجد علاقة ارتباط ذات دلالة إحصائية بين رأس المال الفكري والأداء التنظيمي بالجامعات الليبية" ويتفرع منها:

١- توجد علاقة ارتباط ذات دلالة إحصائية بين رأس المال الفكري والأداء التنظيمي (رأس المال النفسي).

٢- توجد علاقة ارتباط ذات دلالة إحصائية بين رأس المال الفكري والأداء التنظيمي (رأس المال الاجتماعي).

خامساً: منهجية البحث:

يعتمد الباحث على المنهج الوصفي التحليلي والدراسات النظرية المكتبة من خلال الاطلاع المتاح من المراجع والكتب العلمية ووقائع المؤتمرات والندوات والدراسات والبحوث العملية المنشورة وغير المنشورة والمقالات .

سادساً: حدود البحث:

الحدود المكانية: تتم الدراسة الميدانية عن أعضاء هيئة التدريس بالجامعات الليبية .

سابعاً: الدراسات السابقة:

١- دراسة (بلوناس - ٢٠٠٨): تهدف الدراسة إلى تفسير علاقة الارتباط بين رأس المال الفكري والميزة التنافسية للمنظمة، نتج عنها أن رأس المال الحقيقي الذي تملكه المنظمات هو رأس المال الفكري يتمثل في المعرفة التي يمكن تحويلها إلى قيمة، توصي الدراسة على المنظمات المعاصرة أن تحاول رسم الاستراتيجيات ووضع الخطط والبرامج لتنمية واستثمار رأس المال الفكري في إبداع حلول مبتكرة ومنتجات جديدة وخدمات متميزة تحقق مزايا تنافسية أعلى ووصولاً أسرع إلى المستهلكين بمختلف أنواعهم .

٢- دراسة (Vergauwen - 2007): تهدف الدراسة إلى اكتشاف رأس المال الفكري من خلال الأهمية النسبية لعناصر الأصول الغير ملموسة وأثر ذلك على المنظمة، وتوصلت الدراسة إلى وجود علاقة إيجابية قوية بين رأس المال الهيكلي والإفصاح عن رأس المال الفكري في

الشركات محل الدراسة، أوصت الدراسة بإزالة العوائق التي تحول دون إدراج الشركات لرأس المال الفكري ومكوناته في تقاريرها السنوية عندما تكون تلك الأصول أقل أهمية بالنسبة لتلك الشركات .

٣- دراسة (Webster- 2005) : تهدف الدراسة إلى التعرف على مدى إدراك القيادات لمفاهيم رأس المال الفكري، على العوامل المؤثرة في رأس المال الفكري وفاعلية تحفيزه، توصلت الدراسة إلى أن لكل مدير مجموعة واسعة من الاستراتيجيات للحصول على رأس المال الفكري يتحقق من خلال الأداء المتميز، أوصت بضرورة الاهتمام برأس المال الفكري وزيادة في استخدام الاستراتيجيات في التحفيز والمشاركة لدى العاملين.

٤- دراسة (Green- 2004): تهدف الدراسة إلى التعرف على متطلبات الإدارة الفعالة لرأس المال الفكري، توصلت الدراسة إلى أن الممارسات الأكثر توافقاً مع معطيات عصر المعرفة تتمثل في التركيز على النظم اللامركزية المعتمدة على انتشار المعرفة وتدفعها في جميع المستويات الإدارية، توصي الدراسة بوجود زيادة المعرفة لدى العاملين في جميع المستويات الإدارية من خلال الدورات التدريبية لنقل المعرفة التراكمية بين العاملين لزيادة ادئهم الوظيفي وتحقيق أهداف الإدارة .

ثامنا: رأس المال الفكري:

يعرفه (Stewart: 1998 p11)، (Edvinsson: 2014.P1)، (Ghasmpour:2014.P1)، (Leaniz:2013.P266)، (نجم: ٢٠٠٨، ص ٢٨٧)، (المفرحي: ٢٠٠٣، ص ١٨)، (الشعباني: ٢٠١١، ص ٣٧٨) بأنه: مجموعة من القدرات المعرفية والتنظيمية التي يتمتع بها العاملون ويمكن وضعها في الاستخدام لتتسبب الثروة لتحقيق التميز والتفوق التنافسي للمنظمة،

هو مجموعة من المهارات التي تجعل المنظمة عالمية من خلال الاستجابة لمتطلبات العملاء، والقدرات والصفات والهيكل التنظيمية، والإجراءات والعمليات التي تؤدي إلى المعرفة، وتحويلها إلى أرباح في المستقبل وتضم الموارد مثل الأفكار والاختراعات والتقنيات والعمليات والبرامج المعلوماتية تسمح للمنظمة بتوسيع حصتها السوقية وتعظيم نقاط قوتها وزيادة الحصة السوقية لها.

تاسعاً: مكونات رأس المال الفكري:

اختلفت وجهات نظر الباحثين بشأن تحديد مكونات رأس المال الفكري، من خلال الدراسات التي اطلع عليه الباحث، ولاحظ عدم إجماع الباحثين على مكونات رأس المال الفكري، كما استنتج الباحث أن رأس المال الفكري له أنواع ومستويات وفئات وخصائص مختلفة باختلاف المنظمات (ياسين: ٢٠٠٧، ص ٥٨)، يرى (العنزي: ٢٠١٣، ص ٢٠٣) أن رأس المال الفكري لأي منظمة هو نتيجة للترابط بين مكوناته الثلاثة معاً، (رأس المال البشري، رأس المال الهيكلي، رأس المال العلاقات) .

عاشراً: خصائص رأس المال الفكري:

يرى مجموعة من الباحثين هذه الخصائص كل حسب اهتماماته وهم، (Honey: 2011.P3)، (Choong:2013.P266)، (Zhou and Mo) : 2003 . PP.197-210 ، (Webster:2000.P125) على النحو التالي:

- ١- صعوبة قياس وتقييم العديد من الأصول الفكرية .
- ٢- يعد رأس المال الفكري أصول غير ملموسة، يتسم بدرجة عالية من عدم التأكد.

٣- صعوبة وضع بعض الأصول الفكرية تحت سيطرة منظمات الأعمال .

٤- كلما زاد استخدم العنصر البشري تزايدت قيمة رأس المال الفكري نتيجة لتراكم الخبرة والمهارة والمعرفة الخاصة بالعاملين .

الحادي عشر: أهمية رأس المال الفكري:

تعد أهمية رأس المال الفكري في خلق القيمة وإعطاء التفوق لمنظمات (السعيد: ٢٠٠٨، ص ٢٣) وتكمن أهمية رأس المال على النحو التالي:

١- يسهم في الحفاظ على التميز التنافسي لمنظمات الأعمال وتعظيم الفكر الابتكاري والاستفادة منه واستخدام المعرفة في حل المشكلات التنظيمية، (Bont:1996.PP50-51) .

٢- يعد رأس المال الفكري سلاحاً تنافسياً وقوة فاعلة ومورداً استراتيجياً في هذا العصر ووقود للعمليات والتطوير والإنتاج في شتى مجالات الأداء بالمنظمات والمصدر الرئيسي للثروة والازدهار لها (العنزي: ٢٠٠٩، ص ١٧٥) .

٣- يعد مصدراً لتأسيس المنظمات المتعلمة التي تتكيف مع ظروف التغيير وتستجيب للتهديدات والفرص وتتعلم بشكل مستمر من خبراتها ومن الآخرين (باسرده: ٢٠١١، ص- ص ١٢، ١٣) .

٤- يعد مجال مهم للاستثمارات وتحقيق الأرباح العالية للمنظمات (حمزاوي: ٢٠٠٧، ص ٣)

٥- تنمية الذكاء العاطفي الجماعي الذي يعني القدرة على فهم انفعالات ومشاعر الفرد ذاته وكذلك تلك المتعلقة بالآخرين، والقدرة على

التواصل معهم وتكيف السلوك ولتعامل مع هذه المشاعر باعتبارها جزءاً من طاقة البشر النفسية (رأس المال النفسي) التي لا يجب إهمالها (المفرحي: ٢٠٠٨، ص ٣).

٦- يُعد رأس المال الفكري السلاح الأساس للمنظمة في عالم اليوم، لأن الموجودات الفكرية تمثل القوة الخفية التي تضمن البقاء للمنظمة (طالب، العبادي: ٢٠٠٦، ص ٢٣).

الثاني عشر: الأداء التنظيمي:

يرى كل من: (قصراوي: ٢٠١٦، ص ٣٤٨)، kotler: 2003. (P17)، (Arnold & Publick: 2003 . PP 56-62)، (العلاقي: ١٩٩٦، ص ٢٠)، (أحمد: ٢٠٠٤، ص ٣١٧)، Hanna: 1998 (P3)، (زائد: ٢٠٠٢، ص ١)، (البغدادي: ٢٠٠٧، ص ١٥٩)، (Lusthaus:2002.P21)، (الدواوي: ٢٠١٠، ص ٢١٧) : على أنه المؤشر الذي يقيس نجاح المنظمة وحجم التأثير الإيجابي للأفراد تجاه أعمالهم بها، وهو العامل الأكثر إسهاماً في تحقيق أهدافها المحددة في إستراتيجيتها لبقاء والاستمرارية من خلال تخصيص قدر مناسب من الموارد البشرية والمادية والمالية والمعلوماتية لبلوغ المنظمة للأهداف المخططة لها بكفاءة وفعالية .

الثالث عشر: أهمية الأداء التنظيمي:

يوضحه في الآتي: (Wheelen& Hunger:2004.P21)

١- تحديد موقع المنظمة وإمكانيتها مقارنة بالمنظمات الأخرى المنافسة في مجال العمل ذاته .

٢- التعرف على قابلية المنظمة في إيجاد النتائج ، مدى ملائمة الخطة للمحددات المطلوبة .

٣- التعرف على مدى ملائمة الإجراءات الاستراتيجية للأهداف والموارد.

٤- التأكد من خبرة المعنيين بتنفيذ الخطة ومدى مستوى التنسيق بين الأعمال والسياسات .

٥- إسهام عملية تقييم الأداء في تمكين المنظمة من الوقوف على نقاط القوة والضعف وانعكاساتها السلبية والإيجابية على إنتاجية الفرد وفاعلية المنظمة .

الرابع عشر: أهداف الأداء التنظيمي :

يحددها (الجزولي: ٢٠٠٤، ص٥٥) في الآتي :

١- التحقق من مدى تطابق نتائج الأداء الفعلي مع النتائج المطلوب التوصل إليها .

٢- متابعة عملية التنفيذ للوصول إلى الأهداف .

٣- القدرة على تقويم النتائج النهائية للأداء.

٤- مساعدة الإدارة من خلال تزويدها بالبيانات والمعلومات .

٥- تحديد الأعمال والمهام، تطوير عملية الإشراف الإداري .

الخامس عشر: الدراسة الميدانية:

تتمثل في أسلوب جمع البيانات ومعالجتها إحصائياً وتفسيرها، وإجراء اختبارات الثبات والصدق للتأكد من صلاحيتها بالإضافة إلى وصف لمجتمع وعينة الدراسة والأساليب الإحصائية التي تم بموجبها تحليل البيانات واختبار فروض الدراسة وذلك على النحو التالي:

١- مجتمع وعينة الدراسة:

اشتمل مجتمع الدراسة على أعضاء هيئة التدريس بالجامعات الليبية في جامعة (طرابلس، الجبل الغربي، الزاوية، المرقب، الزيتونة)، البالغ

أثر رأس المال الفكري على الأداء التنظيمي بالجامعات الليبية دراسة ميدانية

فكر وإبداع

عدهم (٩١٨٢) عضواً، حيث تم استخدام أسلوب العينة العشوائية في اختيار أعضاء هيئة التدريس المعينين كل الوقت بالجامعة (القارين) وشملت كل المستويات الوظيفية (أستاذ، أستاذ مشارك، أستاذ مساعد، محاضر، مساعد محاضر)، وتم الاعتماد على أسلوب العينة حيث تم تقدير حجم العينة من مجتمع الدراسة الموضح في الفقرة السابقة باستخدام معادلة ريتشارد وبتطبيقها يكون لدينا حجم العينة يساوي (٣٦٩) مفردة تم توزيعها على أفراد عينة الدراسة وتم استرجاع (٣١٩) استمارة بنسبة استرجاع بلغت (٨٦.٤) % .

٢- خصائص عينة الدراسة:

من خلال البيانات العامة التي تم جمعها عن المبحوثين بواسطة استمارة البحث، وباستخدام التكرارات الإحصائية تم تحديد خصائص عينة الدراسة، وفيما يلي توزيع عينة الدراسة تبعاً للمتغيرات الشخصية .

جدول (١/١) خصائص أفراد عينة الموظفين .

١/ النوع	ذكر	٢٥٢	٧٩%	أثنى	٦٧	٢١%
٢/ العمر	أقل من ٣٠ سنة	١٥	٤.7%	٣٠ إلى ٤٠ سنة	١١٨	37%
	٤٠ إلى ٥٠ سنة	١١٦	36.4%	٥٠ إلى ٦٠ سنة	٥٠	15.7%
	٦٠ سنة فأكثر	٢٠	6.3%			
٣/ المؤهل العلمي	ماجستير	١٢٨	40.1%	دكتوراه	١٩١	59.9%
	مساعد محاضر	١٠٧	33.5%	محاضر	٩٧	30.4%
	أستاذ مساعد	٥٤	16.9%	أستاذ مشارك	٤٥	14.1%
٤/ الوظيفة	أستاذ-بروفيسور	١٦	5%			
	أقل من ٥ سنوات	١٠٢	32%	٥ - ١٠ سنة	٩٢	28.8%
	١٠-١٥ سنة	٦٣	19.7%	١٥ سنة فأكثر	٦٢	19.3%

يتضح من الجدول (١/١) ما يلي:

١. النوع: أن غالبية أفراد العينة من الذكور حيث بلغت نسبتهم (79) % بينما بلغت نسبة الإناث في العينة (21) % .

٢. العمر: النسبة الكبرى من أفراد العينة للفئة العمرية ما بين (٣٠-٤٠) سنة وبلغت نسبتهم (٣٧) %، ثم في المرتبة الثانية أفراد العينة للفئة العمرية ما بين (٤٠-٥٠ سنة) بنسبة ٣٦.٤ %، ثم في المرتبة الثالثة الفئة العمرية ما بين (٥٠-٦٠) سنة بنسبة (١٥.٧) % ثم في المرتبة الأخيرة أفراد العينة الذين تتراوح أعمارهم ما بين (أقل من ٣٠ سنة) بنسبة (٤.٧) % .

٣. المؤهل العلمي: يتضح من الجدول أن غالبية أفراد العينة من المستوى حملة الدكتوراه وبلغت نسبتهم (٥٩.٩) % بينما بلغت نسبة حملة الماجستير في العينة (٤٠.١) %، مما يدل على جودة التأهيل العلمي لأفراد العينة وبالتالي قدرتهم على فهم عبارات الاستبانة بشكل جيد والإجابة عليها بدقة.

٤. الوظيفة: يتضح من الجدول أن غالبية أفراد العينة من المحاضرين ومساعدتي المحاضرين وبلغت نسبتهم (٦٣.٩) % بينما بلغت نسبة الأساتذة (المساعدين والمشاركين والبروفسور) (٣٦.١) %.

٥. سنوات الخبرة: أن الغالبية من أفراد العينة (أقل من ٥ سنوات) من الخبرة في العمل وبلغت نسبتهم (٣٢) % ثم في المرتبة الثانية أفراد الذين تتراوح سنوات خبرتهم ما بين (٥-١٠) سنة بنسبة (٢٨.٨) % ثم المرتبة الثالثة أفراد العينة الذين تتراوح سنوات خبرتهم ما بين (١٠-١٥ سنة) بنسبة (١٩.٧) % وأخيراً الذين تتراوح سنوات خبرتهم ما بين (١٥ سنة فأكثر) بنسبة (١٩.٣) %.

٣- وصف أداة الدراسة:

تتمثل أداة جمع البيانات التي اعتمد عليها الباحث في الحصول على البيانات الأولية اللازمة للدراسة في قائمة الاستقصاء تم إعدادها وتطويرها بناء على الاستعانة بالمقاييس التي وضعها الباحثون لقياس أثر رأس المال الفكري على الأداء التنظيمي

١. تم تصميم الاستبانة في صورتها الأولية: وتتكون الاستبانة من قسمين:

أ- **القسم الأول:** يشمل على البيانات الخاصة بأفراد عينة الدراسة: وهي البيانات الشخصية المتعلقة بوصف عينة الدراسة وهي: (العمر، المؤهل العلمي، الحالة الاجتماعية، المؤهل العلمي، سنوات الخبرة) .

ب- **القسم الثاني:** شمل عبارات الدراسة الأساسية: هي المحاور التي من خلالها يتم التعرف على متغيرات الدراسة على النحو التالي:

المتغير المستقل: رأس المال الفكري: يشمل هذا المتغير على ثلاثة محاور وعدد (١٥) عبارة وفقاً لما يلي: المحور الأول: يقيس (رأس المال البشري) وتم قياسه بعدد (٥) عبارات.

المحور الثاني: يقيس (رأس المال الهيكلي) وتم قياسه بعدد (٥) عبارات.

المحور الثالث: يقيس (رأس مال العلاقات) وتم قياسه بعدد (٥) عبارات.

المتغير التابع: الأداء التنظيمي: يشتمل هذا المتغير على محورين وعدد (١٠) عبارات.

المحور الأول: يقيس (رأس المال النفسي) وتم قياسه بعدد (٥) عبارات.

المحور الثاني: يقيس (رأس المال الاجتماعي) وتم قياسه بعدد (٥) عبارات.

٤- مقياس الدراسة:

تم قياس درجة الاستجابات المحتملة على الفقرات إلى تدرج خماسي حسب مقياس ليكرت الخماسي (Likart Scale)، كما هو موضح في الجدول التالي:

جدول (٢/١) مقياس درجة الموافقة

أوافق بشدة	٥	٨٠% فأكثر	درجة موافقة عالية جداً
أوافق	٤	٧٠-٧٩%	درجة موافقة عالية
محايد	٣	٥٠-٦٩%	درجة موافقة متوسطة
لأوافق	٢	٢٠-٤٩%	درجة موافقة منخفضة
لأوافق بشدة	١	أقل من ٢٠%	درجة موافقة منعدمة

عليه فإن الوسط الفرضي للدراسة كالآتي:

الدرجة الكلية للمقياس هي مجموع الأوزان على عددها $(١+٢+٣+٤+٥) / (٥/١٥) = ٣$ ، ويمثل الوسط الفرضي للدراسة، عليه كلما زاد متوسط العبارة عن الوسط الفرضي (٣) دل ذلك على موافقة أفراد العينة على العبارة، أما إذا انخفض متوسط العبارة عن الوسط الفرضي (٣) دل ذلك على عدم موافقة أفراد العينة على العبارة.

٦- اختبار الصدق والثبات لأداة الدراسة:

للتأكد من صلاحية أداة الدراسة تم استخدام كل من اختبارات الصدق والثبات وذلك على النحو التالي:

١/ صدق أداة الدراسة: هو قدرة الأداء على قياس ما صممت من أجله وبناء على نظرية القياس الصحيح تعنى الصلاحية التامة خلو الأداة من أخطاء القياس سواء كانت عشوائية أو منتظمة، وقد اعتمدت الدراسة في قياس صدق أداة الدراسة على كل من:

(أ) اختبار صدق محتوى المقياس:

تم عرض أداة الدراسة على مجموعة من المحكمين والخبراء المختصين بلغ عددهم (٤) من المحكمين في مجال موضوع الدراسة، وقد طلب من المحكمين إبداء آرائهم حول أداة الدراسة ومدى صلاحية الفقرات وشموليبتها وتنوع محتواها، وبعد أن تم استرجاع الاستبيان من جميع الخبراء تم تحليل استجاباتهم والأخذ بملاحظاتهم وإجراء التعديلات التي اقترحت عليه، وقد اعتبر الباحث الأخذ بملاحظات المحكمين وإجراء التعديلات المشار إليها بمثابة الصدق الظاهري، وصدق المحتوى للأداة واعتبر الباحث أن الأداة صالحة لقياس ما وضعت له، وبذلك تمّ تصميم الاستبانة في صورتها النهائية.

ب/ الاتساق الداخلي: يقصد بصدق الاتساق الداخلي مدى اتساق كل فقرة من فقرات الاستبانة مع المجال الذي تنتمي إليه هذه الفقرة، وقد قام الباحث بحساب الاتساق الداخلي للاستبانة وذلك من خلال حساب معاملات الارتباط بين كل فقرة من فقرات الاستبانة والدرجة الكلية للمجال نفسه.

المحور الأول: رأس المال الفكري:

جدول (٣/١) نتائج اختبار الصدق لمحور رأس المال الفكري

١/ رأس المال البشري	0.63
٢/ رأس المال الهيكلي	0.69
٣/ رأس المال العلاقات	0.69

يوضح جدول (٣/١) معامل الارتباط بين كل فقرة من فقرات محور والدرجة الكلية للمجال، الذي يبين أن معاملات الارتباط المبينة دالة عند مستوى معنوية (٠.٠٥) وبذلك يعد المحور صادق لما وضع لقياسه.

المحور الثاني: الأداء التنظيمي:

جدول (٤/١) نتائج اختبار الصدق لمحور الأداء التنظيمي .

١/ رأس المال النفسي	0.65
٢/ رأس المال الاجتماعي	0.70

يوضح جدول (٤/١) معامل الارتباط بين كل فقرة من فقرات محور والدرجة الكلية للمجال، الذي يبين أن معاملات الارتباط المبينة دالة عند مستوى معنوية (٠.٠٥) وبذلك يعتبر المحور صادق لما وضع لقياسه.

٧- أساليب التحليل الإحصائي المستخدم في الدراسة:

لتحليل البيانات واختبار فروض الدراسة، تمّ استخدام الأدوات الإحصائية التالية:

١- إجراء اختبار الثبات (Reliability Test) لأسئلة الاستبانة وذلك باستخدام كل من:

أ- اختبار الصدق الظاهري.

ب- اختبارات الصدق والثبات.

٢- أساليب الإحصاء الوصفي: لوصف خصائص مفردات عينة الدراسة من خلال الآتي:

أ- التوزيع التكراري لعبارات فقرات الاستبانة للتعرف على التوزيع التكراري لإجابات أفراد العينة على عبارات فروض الدراسة.

ب- الوسط الحسابي الموزون: تم اعتماد هذا الأسلوب الإحصائي لوصف آراء أفراد العينة حول متغيرات الدراسة باعتباره أحد مقاييس النزعة المركزية، ويعد حالة خاصة من الوسط الحسابي المرجح عندما ينظر إلى كافة المفردات بنفس الأهمية (الوزن).

ج- الانحراف المعياري: تم استخدام هذا المقياس لمعرفة مدى التشتت في آراء المستجيبين قياساً بالوسط الحسابي المرجح .

٣- اختبار (T) للعينة الواحدة (one samplr T- test) ووفقاً لهذا الاختبار يتم مقارنة القيمة الاحتمالية (Prob) للفقرة مع مستوى الدلالة المعنوية (٥%) فإذا كانت القيمة الاحتمالية اكبر من (٠.٠٥) يتم قبول فرض العدم ويدل ذلك على (عدم وجود فروق ذات دلالة معنوية) وتكون الفقرة سلبية، إما إذا كانت القيمة الاحتمالية أقل من (٠.٠٥) يتم رفض فرض العدم وقبول الفرض البديل ويدل ذلك على (وجود فروق ذات دلالة معنوية) وتكون الفقرة ايجابية.

٨- عرض وتحليل نتائج الدراسة:

يهدف الباحث من تحليل البيانات الأساسية تقديم إحصاء وصفيًا للبيانات الأساسية ليعكس الأهمية النسبية لعبارات الدراسة واستخدام أسلوب الانحدار لمناقشة فروض الدراسة وذلك على النحو التالي:

المحور الأول: رأس المال الفكري: الجدول (٥/١) يوضح المتوسط والانحراف المعياري والأهمية النسبية للعبارات التي تقيس متغيرات رأس المال الفكري وترتيبها وفقاً لإجابات المستقصى منهم، وذلك على النحو التالي:

(١)/رأس المال البشري:

جدول (٥/١) الإحصاء الوصفي لعبارات متغير رأس المال البشري

١/ تمتلك الجامعة طاقم من الموارد البشرية ذو الكفاءات والمهارات المتميزة القادرة على التعامل بكفاءة وفاعلية داخل إدارات وأقسام الجامعة	1.10	3.33	٦٦.٦ %	متوسط	1
٢/ تقوم الجامعة بتوفير فرص التطوير والتنمية المهنية ومستلزمات القيام بالأبحاث العلمية .	0.985	2.67	% ٥٣.٤	متوسط	5
٣/ مؤهلات الموظفين في الجامعة تتناسب مع الوظائف المناطة بهم	1.04	2.77	% ٥٥.٤	متوسط	4
٤/ يكفل نظام العمل استمرار العمل حتى وإن ترك احد العاملين الجامعة .	1.05	3.08	% ٦١.٦	متوسط	2
٥/ لدى العاملين القدرة على ابتكار أفكار وأساليب جديدة للعمل .	1.01	3.07	% ٦١.٤	متوسط	3
الإجمالي	1.03	2.98	59.6 %	متوسط	

يتضح من الجدول (٥/١) ما يلي:

١- أن جميع العبارات التي تعبر عن محور رأس المال البشري يزيد متوسطها عن الوسط الفرضي (3) ماعدا العبارات (الثانية والثالثة) حيث يقل متوسطهما عن الوسط الفرضي وهذه النتيجة تدل على موافقة أفراد العينة على جميع العبارات التي تقيس مستوى رأس المال البشري في المجتمع موضع الدراسة بمستوى استجابة متوسطة حيث حققت جميع العبارات متوسطاً عام مقداره (٢.٩٨) وبانحراف معياري (١.٠٣) وأهمية نسبية (٥٩.٦) % .

٢- يلاحظ من الجدول أن العبارة (تمتلك الجامعة طاقم من الموارد البشرية ذو الكفاءات والمهارات المتميزة القادرة على التعامل بكفاءة وفاعلية داخل إدارات وأقسام الجامعة) جاءت في المرتبة الأولى من حيث درجة الاستجابة حيث بلغ متوسط إجابات أفراد العينة على العبارة (٣.٣٣) بانحراف معياري (١.١٠) بأهمية نسبية متوسطة بلغت (٦٦.٦) %، تليها في المرتبة الثانية العبارة (يكفل نظام العمل استمرار العمل حتى وإن ترك أحد العاملين الجامعة) بمتوسط حسابي (٣.٠٨) وانحراف معياري (١.٠٥) وبأهمية نسبية (٦١.٦) % .

٣/ أما المرتبة الأخيرة فقد جاءت العبارة (تقوم الجامعة بتوفير فرص التطوير والتنمية المهنية ومستلزمات القيام بالأبحاث العلمية) حيث بلغ متوسطها (٢.٦٧) وبانحراف معياري (٠.٩٨٥) وأهمية نسبية بلغت (٥٣.٤) % .

(٢) /رأس المال الهيكلي:

جدول (٦/١) الإحصاء الوصفي لعبارات متغير رأس المال الهيكلي

2	متوسطة	٦٤.٢ %	3.21	١.٠٩	١/تعد القوانين واللوائح الموجودة في الجامعة كافية لسد الغرض الذي وجدت من أجله.
1	متوسطة	% ٦٤.٤	3.22	1.04	٢/يسمح الهيكل التنظيمي لموظفي الجامعة بأداء وظائفهم والقيام بمسؤوليتهم كاملة .
3	متوسطة	٦٢.٠ %	3.10	1.07	٣/تمتلك الجامعة هيئة لضبط الجودة والاعتمادية خاصة في تحكيم الأبحاث العلمية الكفيلة بحل مشاكل المجتمع المحلي وتتميته
4	متوسطة	% ٥٨.٠	2.90	1.02	٤/تمتلك الجامعة هيكل تنظيمي مرن .
5	متوسطة	٥٧.٢ %	2.86	0.957	٥/تعمل إدارة الجامعة على تمكين العاملين وتفوضهم في الكثير من السلطات .
	متوسطة	61%	3.05	1.03	الإجمالي

يتضح من الجدول (٦/١) ما يلي:

- ١- أن جميع العبارات التي تعبر عن محور رأس المال الهيكلي يزيد متوسطها عن الوسط الفرضي (3) ماعدا العبارات (الرابعة والخامسة) حيث يقل متوسطهما عن الوسط الفرضي وهذه النتيجة تدل على موافقة أفراد العينة على جميع العبارات التي تقيس مستوى رأس المال الهيكلي في المجتمع موضع الدراسة بمستوى استجابة متوسطة حيث حققت جميع العبارات متوسطاً عام مقداره (٣.٠٥) وبانحراف معياري (١.٠٣) وأهمية نسبية (٦١) % .

٢- كما جاءت في المرتبة الأولى من حيث درجة الاستجابة حيث بلغ متوسط إجابات أفراد العينة على العبارة (٣.٢٢) بانحراف معياري (١.٠٤) بأهمية نسبية متوسطة بلغت (٦٤.٤) %، تليها في المرتبة الثانية العبارة (تعد القوانين واللوائح الموجودة في الجامعة كافية لسد الغرض الذي وجدت من أجله) بمتوسط حسابي (٣.٢١) وانحراف معياري (١.٠٩) وبأهمية نسبية (٦٤.٢) % .

٣- أما المرتبة الأخيرة فقد جاءت العبارة (تعمل إدارة الجامعة على تمكين العاملين وتقوضهم في الكثير من السلطات) حيث بلغ متوسطها (٢.٨٦) وبانحراف معياري (٠.٩٥٧) وأهمية نسبية بلغت (٥٧.٢) % .

٣- رأس مال العلاقات:

جدول (٧/١) الإحصاء الوصفي لعبارات متغير رأس مال العلاقات

١/ تسعى الجامعة باستمرار بإقامة علاقات تعاون مع مؤسسات محلية وعربية ودولية لتطوير معارف موظفيها وقدراتهم.	١.١١	٢.٧٨	٥٥.٦%	متوسطة	٤
٢/ تحرص الجامعة على الاحتفاظ بعملائها وتحقيق رضائهم وولائهم.	١.٠٢	٢.٨٢	٥٦.٤%	متوسطة	٣
٣/ تستقطب الجامعة أعضاء هيئة التدريس من ذوي الخبرات العالية .	١.١١	٢.٨٨	٥٧.٦%	متوسطة	١

٥	متوسطة	٥٥.٤%	٢.٧٧	٠.٩٦ ٤	٤/ تقدم الجامعة الخبرة التي يحتاجها أصحاب المصلحة الخارجيين
٢	متوسطة	٥٧.٤%	٢.٨٧	١.٠١	٥/ تسعى الجامعة للحصول على عضوية العديد من الجمعيات المهنية والعلمية
	متوسطة	٥٦.٤%	٢.٨٢	١.٠٤	الإجمالي

يتضح من الجدول رقم (٧/١) ما يلي:

١- أن جميع العبارات التي تعبر عن محور رأس مال العلاقات يقل متوسطها عن الوسط الفرضي (3) وهذه النتيجة تدل على موافقة أفراد العينة على جميع العبارات التي تقيس مستوى رأس مال العلاقات في المجتمع موضع الدراسة بمستوى استجابة متوسطة حيث حققت جميع العبارات متوسطاً عام مقداره (٢.٨٢) وبانحراف معياري (١.٠٤) وأهمية نسبية (٥٦.٤) % .

٢- يلاحظ من الجدول أن العبارة (تستقطب الجامعة أعضاء هيئة التدريس من ذوي الخبرات العالية) جاءت في المرتبة الأولى من حيث درجة الاستجابة حيث بلغ متوسط إجابات أفراد العينة على العبارة (٢.٨٨) بانحراف معياري (١.١١) بأهمية نسبية متوسطة بلغت (٥٧.٦) %، تليها في المرتبة الثانية العبارة (تسعى الجامعة للحصول على عضوية العديد من الجمعيات المهنية والعلمية) بمتوسط حسابي (٢.٨٧) وانحراف معياري (١.٠١) وبأهمية نسبية (٥٧.٤) % .

٣- أما المرتبة الأخيرة فقد جاءت العبارة (تقدم الجامعة الخبرة التي يحتاجها أصحاب المصلحة الخارجيين) حيث بلغ متوسطها (٢.٧٧) وبانحراف معياري (٠.٩٦٤) وأهمية نسبية بلغت (٥٥.٤) % .

أثر رأس المال الفكري على الأداء التنظيمي

فكر وإبداع

بالجامعات الليبية دراسة ميدانية

المحور الثاني: الأداء التنظيمي:

فيما يلي جدول يوضح المتوسط والانحراف المعياري والأهمية النسبية للعبارات التي تقيس متغيرات الأداء التنظيمي وترتيبها وفقاً لإجابات المستقصى منهم، وذلك على النحو التالي:

١- رأس المال النفسي:

جدول (٨/١) الإحصاء الوصفي لعبارات متغير رأس المال النفسي

الترتيب	العبارة	المتوسط	الانحراف المعياري	الأهمية النسبية
3	١/ تشعرك برامج التطوير والتحسين المستمر في الجامعة بالرضا لمساهمتها في تعزيز قدرتك التخصصية والإدارية	٥٨.٢%	2.91	١.٠٦
2	٢/ أشعرك المناخ التنظيمي السائد في الجامعة بالالتزام في تعزيز قدرتك على الانخراط في العمل ضمن الفريق .	٥٧.٤%	2.87	1.03
5	٣/ لديك إدراك عميق بحرص الجامعة على تجنبك مشاعر الإحباط والاعتراب التنظيمي وإمكانية ترك العمل .	٥٥.٦%	2.78	1.06
4	٤/ أشعرك تقييم الأداء الوظيفي بالعدالة التنظيمية وغياب أي درجة من الانحياز الشخصي .	٥٦.٠%	2.80	0.995
1	٥/ أنت مقتنع بان هناك علاقة وثيقة	٧١.٢%	3.56	1.13

					بين راحتك النفسية مع زملائك وبين رضاك الوظيفي بالجامعة .
	متوسطة	59.6%	2.98	1.06	الإجمالي

يتضح من الجدول (٨/١) ما يلي:

١- أن جميع العبارات التي تعبر عن محور رأس المال النفسي يقل متوسطها عن الوسط الفرضي (3) ماعدا لعبارة (الخامسة) حيث يزيد متوسطها عن الوسط الفرضي وهذه النتيجة تدل على موافقة أفراد العينة على جميع العبارات التي تقيس مستوى رأس المال النفسي في المجتمع موضع الدراسة بمستوى استجابة متوسطة حيث حققت جميع العبارات متوسطاً عام مقداره (٢.٩٨) وبانحراف معياري (١.٠٦) وأهمية نسبية (٥٩.٦) % .

٢- يلاحظ من الجدول أن العبارة (أنت مقتنع بأن هناك علاقة وثيقة بين راحتك النفسية مع زملائك وبين رضاك الوظيفي بالجامعة) جاءت في المرتبة الأولى من حيث درجة الاستجابة حيث بلغ متوسط إجابات أفراد العينة على العبارة (٣.٥٦) بانحراف معياري (١.١٣) بأهمية نسبية مرتفعة بلغت (٧١.٢) %، تليها في المرتبة الثانية العبارة (أشعر كالمناخ التنظيمي السائد في الجامعة بالالتزام في تعزيز قدرتك على الانخراط في العمل ضمن الفريق) بمتوسط حسابي (٢.٨٧) وانحراف معياري (١.٠٣) وبأهمية نسبية (٥٧.٤) % .

٣- أما المرتبة الأخيرة فقد جاءت العبارة (لديك إدراك عميق بحرص الجامعة على تجنبك مشاعر الإحباط والاعترا ب التنظيمي وإمكانية

ترك العمل) حيث بلغ متوسطها (٢.٧٨) وبانحراف معياري (١.٠٦) وأهمية نسبية بلغت (٥٥.٦) % .

٢- رأس المال الاجتماعي:

جدول (٩/١) الإحصاء الوصفي لعبارات متغير رأس المال الاجتماعي

١	متوسطة	% ٦٧.٦	3.38	١.١٣	١/ لديك قناعة بأن اللقاءات والارتباطات الاجتماعية التي تنظمها الجامعة تساهم في تبادل المعلومات وحل المشاكل والتعاون بين الموظفين .
3	متوسطة	% ٦١.٢	3.06	1.08	٢/ لديك ثقة بنجاح الجامعة في تحقيق مسؤوليتها الاجتماعية.
2	متوسطة	% ٦٢.٠	3.10	1.05	٣/ تشعرك بالمشاركة في الفعاليات الاجتماعية التي تنظمها الجامعة بالارتياح وتسهم بدور هام في نجاح المنظمة .
4	متوسطة	% ٥٩.٤	2.97	1.06	٤/تسعي الجامعة إلى ترسيخ مفهوم العائلة الواحدة لدي العاملين
5	متوسطة	% ٥٨.٤	2.92	1.04	٥/ تتبنى إدارة الجامعة قيماً وممارسات تعزز فلسفة العمل الجماعي.
	متوسطة	61.8%	3.09	1.07	الإجمالي

يتضح من الجدول (٩/١) ما يلي:

١- أن جميع العبارات التي تعبر عن محور رأس المال الاجتماعي يزيد متوسطها عن الوسط الفرضي (3) ماعدا العبارات الرابعة والخامسة حيث يقل متوسطهما عن الوسط الفرضي وهذه النتيجة تدل على موافقة أفراد العينة على جميع العبارات التي تقيس مستوى رأس المال الاجتماعي في المجتمع موضع الدراسة بمستوى استجابة متوسطة حيث حققت جميع العبارات متوسطاً عام مقداره (٣.٠٩) وانحراف معياري (١.٠٧) وأهمية نسبية (٦١.٨) % .

٢- يلاحظ من الجدول أن العبارة (لديك قناعة بأن اللقاءات والارتباطات الاجتماعية التي تنظمها الجامعة تساهم في تبادل المعلومات وحل المشاكل والتعاون بين الموظفين) جاءت في المرتبة الأولى من حيث درجة الاستجابة حيث بلغ متوسط إجابات أفراد العينة على العبارة (٣.٣٨) وانحراف معياري (١.١٣) بأهمية نسبية متوسطة بلغت (٦٧.٦) %، تليها في المرتبة الثانية العبارة (تشعرك بالمشاركة في الفعاليات الاجتماعية التي تنظمها الجامعة بالارتياح و تسهم بدور هام في نجاح المنظمة) بمتوسط حسابي (٣.١٠) وانحراف معياري (١.٠٥) وبأهمية نسبية (٥٩.٤) % .

٣- أما المرتبة الأخيرة فقد جاءت العبارة (تتبنى إدارة الجامعة قيماً وممارسات تعزز فلسفة العمل الجماعي) حيث بلغ متوسطها (٢.٩٢) وانحراف معياري (١.٠٤) وأهمية نسبية بلغت (٥٨.٤) % .

ب - مناقشة فروض الدراسة:

الفرضية الفرعية الأولى: توجد علاقة ارتباط ذات دلالة إحصائية

أثر رأس المال الفكري على الأداء التنظيمي

فكر وإبداع

بالجامعات الليبية دراسة ميدانية

بين رأس المال الفكري والأداء التنظيمي (رأس المال النفسي).

ولإثبات هذه الفرضية استخدم الباحث تحليل الانحدار المتعدد لتحديد العلاقة السببية بين المتغير المستقل الذي يمثل رأس المال الفكري (رأس المال البشري، رأس المال الهيكلي، رأس مال العلاقات) والمتغير التابع ويمثله الأداء التنظيمي (رأس المال النفسي).

وفيما يلي نتائج التقدير:

جدول (١ / ١٠) نتائج تحليل الانحدار المتعدد للعلاقة بين رأس المال الفكري ورأس المال النفسي

0.000	٦٨.١	٠.٧٥	٠.٨٧	0.000	٨.٢٥	٠.٩٧	١ / رأس المال البشري
0.000	٣٥.٧	٠.٦١	٠.٧٨	0.000	٥.٩٧	٠.٨٣	٢ / رأس المال الهيكلي
0.000	٣١.٠ ٥	٠.٥٧	٠.٧٦	0.001	٥.٥٧	٠.٨٤	٣ / رأس مال العلاقات

١ - تشير معاملات الانحدار إلى ما يلي:

- معامل انحدار متغير رأس المال البشري (٠.٩٧) وهذا يعني أن هنالك علاقة طردية بين رأس المال البشري ورأس المال النفسي، وعليه فإن إحداث تغيير في رأس المال البشري بنسبة ١٠% يعمل على تغير أداء رأس المال النفسي بنسبة ٩.٧% مع ثبات كافة المتغيرات الأخرى.

• معامل انحدار متغير رأس المال الهيكلي (٠.٨٣) وهذا يعني أن هنالك علاقة طردية بين رأس المال الهيكلي ورأس المال النفسي، وعليه فإن إحداث تغيير في رأس المال الهيكلي بنسبة ١٠% يعمل على تغير أداء رأس المال النفسي بنسبة ٨.٣% مع ثبات كافة المتغيرات الأخرى .

• معامل انحدار متغير رأس مال العلاقات (٠.٨٤) وهذا يعني أن هنالك علاقة طردية بين رأس مال العلاقات ورأس المال النفسي، وعليه فإن إحداث تغيير في رأس مال العلاقات بنسبة ١٠% يعمل على تغير أداء رأس المال النفسي بنسبة ٨.٤% مع ثبات كافة المتغيرات الأخرى.

٢- كما تشير النتائج الواردة بالجدول رقم (١٠/١) إلى وجود تأثير للمتغير المستقل (الثقافة رأس المال الفكري) على المتغير التابع (رأس المال النفسي) حيث بلغ معامل التحديد للعلاقة بين رأس المال البشري ورأس المال النفسي (٧٥%)، (٦١%) للعلاقة بين رأس المال الهيكلي ورأس المال النفسي، (٥٧%) للعلاقة بين رأس مال العلاقات ورأس المال النفسي وهذه النتيجة تدل على أن رأس المال الفكري يؤثر في رأس المال النفسي.

٣- كما يتضح من نتائج التحليل وجود علاقة ذات دلالة معنوية بين المتغير التابع (رأس المال النفسي) والمتغيرات المستقلة (رأس المال الفكري) وفقاً لاختبار (t) عند مستوى معنوية (5%) حيث نجد أن قيم مستوى المعنوية لجميع متغيرات رأس المال الفكري أقل من مستوى المعنوية (5%)، مما يعني ذلك رفض فرض العدم وقبول الفرض البديل الذي يشير إلى وجود علاقة ذات دلالة معنوية بين متغيرات (رأس المال الفكري) ورأس المال النفسي .

أثر رأس المال الفكري على الأداء التنظيمي

فكر وإبداع

بالجامعات الليبية دراسة ميدانية

وفيما يلي ملخص للعلاقة بين رأس المال الفكري ورأس المال النفسي:

**جدول (١١/١) نتائج تحليل الانحدار للعلاقة
بين (رأس المال الفكري ورأس المال النفسي)**

١/ العلاقة بين رأس المال البشري ورأس المال النفسي	دعمت
٢/ العلاقة بين رأس المال الهيكلي ورأس المال النفسي	دعمت
٣/ العلاقة بين رأس مال العلاقات ورأس المال النفسي	دعمت

مما تقدم نستنتج أن فرضية الدراسة الفرعية الأولى (هنالك علاقة ذات دلالة إحصائية بين رأس المال الفكري ورأس المال النفسي) يعتبر فرض صحيح لجميع متغيرات رأس المال الفكري.

الفرضية الفرعية الثانية: توجد ذات دلالة إحصائية بين رأس المال الفكري ورأس المال الاجتماعي في الجامعات الليبية. وفيما يلي نتائج التقدير.

**جدول (١٢ / ١) نتائج تحليل الانحدار المتعدد للعلاقة
بين رأس المال الفكري ورأس المال الاجتماعي**

١/ رأس المال البشري	١٠.٠٥	١٣.٢	0.000	٠.٩٤	٠.٨٨	١٧.٤	0.000
٢/ رأس المال الهيكلي	٠.٧٣	٤.٤٥	0.000	٠.٦٨	٠.٤٦	١٩.٨	0.000
٣/ رأس مال العلاقات	٠.٩٢	٧.٢٨	٠.٠٠٠	٠.٨٤	٠.٧٠	٥٣.١	0.000

١- تشير معاملات الانحدار إلى ما يلي:

- معامل انحدار متغير رأس المال البشري (١.٠٥) وهذا يعني أن هنالك علاقة طردية بين رأس المال البشري ورأس المال الاجتماعي، وعليه فإن إحداث تغيير في رأس المال البشري بنسبة ١٠% يعمل على تغير أداء رأس المال الاجتماعي بنسبة ١٠.٥% مع ثبات كافة المتغيرات الأخرى.

- معامل انحدار متغير رأس المال الهيكلي (٠.٧٣) وهذا يعني أن هنالك علاقة طردية بين رأس المال الهيكلي ورأس المال الاجتماعي، وعليه فإن إحداث تغيير في رأس المال الهيكلي بنسبة ١٠% يعمل على تغير أداء رأس المال الاجتماعي بنسبة ٧.٣% مع ثبات كافة المتغيرات الأخرى.

- معامل انحدار متغير رأس مال العلاقات (٠.٩٢) وهذا يعني أن هنالك علاقة طردية بين رأس مال العلاقات ورأس المال الاجتماعي، وعليه فإن إحداث تغيير في رأس مال العلاقات بنسبة ١٠% يعمل على تغير أداء رأس المال الاجتماعي بنسبة ٩.٢% مع ثبات كافة المتغيرات الأخرى.

٢- كما تشير النتائج الواردة بالجدول رقم (/) إلى وجود تأثير للمتغير المستقل (الثقافة رأس المال الفكري) على المتغير التابع (رأس المال الاجتماعي) حيث بلغ معامل التحديد للعلاقة بين رأس المال البشري ورأس المال النفسي (٨٨%)، (٤٦%) للعلاقة بين رأس المال الهيكلي ورأس المال النفسي و(٧٠%) للعلاقة بين رأس مال العلاقات ورأس المال النفسي وهذه النتيجة تدل على أن رأس المال الفكري يؤثر في رأس المال الاجتماعي.

٣- كما يتضح من نتائج التحليل وجود علاقة ذات دلالة معنوية بين المتغير التابع (رأس المال الاجتماعي) والمتغيرات المستقلة (رأس المال الفكري) وفقاً لاختبار (t) عند مستوى معنوية (5%) حيث نجد أن قيم مستوى المعنوية لجميع متغيرات رأس المال الفكري أقل من مستوى المعنوية 5%، مما يعنى ذلك رفض فرض العدم وقبول الفرض البديل الذي يشير إلى وجود علاقة ذات دلالة معنوية بين متغيرات (رأس المال الفكري) ورأس المال الاجتماعي .

وفيما يلي ملخص للعلاقة بين رأس المال الفكري ورأس المال الاجتماعي:

جدول (١ / ١٣) نتائج تحليل الانحدار للعلاقة

بين (رأس المال الفكري ورأس المال الاجتماعي)

دعمت	١/ العلاقة بين رأس المال البشرى ورأس المال الاجتماعي
دعمت	٢/ العلاقة بين رأس المال الهيكلي ورأس المال الاجتماعي
دعمت	٣/ العلاقة بين رأس مال العلاقات ورأس المال الاجتماعي

مما تقدم نستنتج أن فرضية الدراسة الفرعية الثانية (هنالك علاقة ذات دلالة إحصائية بين رأس المال الفكري ورأس المال الاجتماعي) يعد فرض صحيح لجميع متغيرات رأس المال الفكري.

وفيما يلي ملخص لنتائج فرضية الدراسة الرئيسية الثانية:

جدول (١ / ١٤) نتائج تحليل الانحدار للعلاقة

بين (رأس المال الفكري والأداء التنظيمي)

دعمت	١/ توجد علاقة بين رأس المال البشرى ورأس المال النفسي
دعمت	٢/ توجد علاقة بين رأس المال الهيكلي ورأس المال النفسي

دعمت	٣/ توجد علاقة بين رأس مال العلاقات ورأس المال النفسي
دعمت	٤/ توجد علاقة بين رأس المال البشري ورأس المال الاجتماعي
دعمت	٥/ توجد علاقة بين رأس المال الهيكلي ورأس المال الاجتماعي
دعمت	٦/ توجد علاقة بين رأس مال العلاقات ورأس المال الاجتماعي

النتائج والتوصيات:

أولاً: النتائج:

- قصور دور إدارة الجامعة في توفير فرص التطور والتنمية المهنية ومتطلبات القيام بالأبحاث العلمية .
- قصور بإدارة الجامعة في تمكين المبحوثين حرية اتخاذ القرارات المتعلقة بأعمالهم اليومية وتقوضهم في الكثير من السلطات .
- وضع منهج استراتيجي لتطوير المبحوثين فيما يتعلق بمهاراتهم ومعارفهم وعلاقاتهم الإنسانية وبشكل دوري ومستمر .
- لا تقدم إدارة الجامعة الخبرة التي يحتاجها أصحاب المصلحة الخارجيين .
- ضعف بإدارة الجامعة على تجنيد المبحوثين مشاعر الإحباط والاعتراب التنظيمي وإمكانية ترك العمل .
- عدم تنبني إدارة الجامعة قيماً وممارسات تعزز فلسفة العمل الجماعي .

ثانياً: التوصيات:

- العمل على تفويض بعض الصلاحيات للعاملين حسب مجال عملهم في إدارة الجامعة .
- الاهتمام بعدم البيروقراطية في القرارات الإدارية التي يتم اتخاذها من قبل الإدارة العليا للجامعة
- نوصي بتدريب المبحوثين على أحدث وسائل التكنولوجيا التي تساهم في رفع مستوى أدائهم وتساهم في زيادة رأس المال الفكري .

- نوصي بتسهيل مهمة الباحثين من قبل إدارة الجامعة والتعاون معهم عند إجراءاتهم لبحوثهم .
- تفعيل تطوير أنظمة الحوافز والمكافأة وزيادة الاهتمام بالعاملين من خلال تشجيعهم وتحفيزهم .
- العمل على الاهتمام بتنمية رأس المال الفكري وتحليله لأنه الدعامّة الأساسية المستقبلية لتطوير الجامعات .
- العمل على بناء قدرات المبحوثين من خلال التدريب والتطوير المتواصل لهم .
- العمل على تعميق مفهوم رأس المال الفكري من حيث إدارته والمحافظة عليه باعتباره الثروة الحقيقية التي تضمن للجامعات القدرة على التكيف مع التغيير وتحقيق الأداء المطلوب .

المراجع:

أولاً: المرجع العربية:

١. الزيايدي، صباح حسين، رشيد، صالح عبد الرضاء: "دور رأس المال الفكري في تحقيق الأداء الجامعي المتميز دراسة تحليلية لآراء القيادات الجامعية بكليات جامعة الموصل"، بحث ماجستير منشور في مجلة القادسية للعلوم الإدارية والاقتصادية، المجلد السادس عشر، العدد الثالث، (٢٠١٤) .

٢. الصرايرة، خالد أحمد، السعود، راتب: "النماثل التنظيمي لدى أعضاء الهيئات التدريسية في الجامعات الأردنية الرسمية وعلاقته بأدائهم الوظيفي"، مجلة دراسات العلوم التربوية، المجلد السادس والثلاثون، الأردن، (٢٠٠٩) .

٣. بلوناس، عبد الله، قدايفة، أمينة: "دور رأس المال الفكري في تحقيق الميزة التنافسية لمنظمات الأعمال " مجلة القادسية للعلوم الإدارية والاقتصادية"، المجلد العاشر، العدد الأول، كلية العلوم الاقتصادية وعلوم التسيير والعلوم التجارية - جامعة بومرداس - الجزائر، (٢٠٠٨) .

٤. يوسف، عبد الستار حسين يوسف : "دراسة وتقييم رأس المال الفكري في شركات الأعمال"، كلية الاقتصاد والعلوم الإدارية جامعة الزيتونة الأردنية، عمان، الأردن، (٢٠٠٥) .

٥. نجم، عبود نجم: "إدارة المعرفة المفاهيم والإستراتيجيات والعمليات"، الورق للنشر والتوزيع، الأردن، الطبعة الثانية، (٢٠٠٨).

٦. المفرجي، عادل حروحوش، صالح، أحمد علي: "رأس المال الفكري طرق قياسه وأساليب المحافظة عليه، المنظمة العربية للتنمية الإدارية"، مصر، الطبعة الأولى، (٢٠٠٣) .
٧. الشعباني، صالح إبراهيم يونس: "أثر رأس المال الفكري على الإلتقان التكنولوجي وانعكاساته على خفض التكلفة بالتطبيق على الشركة الوطنية لصناعات الأثاث"، مجلة جامعة الأنبار للعلوم الاقتصادية والإدارية، المجلد الرابع، العدد السابع، (٢٠١١) .
٨. مخلوف، أحمد: "مدى تأثير رأس المال الفكري على استمرارية منظمات الأعمال"، ورقة بحثية مقدمة إلى الملتقى الدولي حول رأس المال الفكري في منظمات الأعمال العربية في الاقتصاديات الحديثة، جامعة الشلف، الجزائر، (٢٠١١) .
٩. ياسين، سعد غالب: "تظم إدارة المعرفة ورأس المال الفكر العربي"، مجلة دراسات إستراتيجية، الإمارات، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية، العدد مائة وأربعة وعشرون، (٢٠٠٧) .
١٠. العنزي، سعد علي: "إداعات الأعمال: قراءات في التميز الإداري والتفوق التنظيمي"، عمان مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، (٢٠١٣) .
١١. السعيد، هاني محمد: "رأس المال الفكري انطلاقة إدارية معاصرة"، دار السحاب للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، (٢٠٠٨) .
١٢. العنزي، سعد علي، صالح، أحمد علي: "إدارة رأس المال الفكري في منظمات الأعمال"، دار اليازوري للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، (٢٠٠٩) .
١٣. بأسرده، توفيق سريع: "دور ثقافة إدارة المعرفة في إيجاد منظمة متعلمة"، عدن، جامعة عدن، كلية العلوم الإدارية، مجلة العلوم الإدارية، العدد الثالث، (٢٠١١) .

١٤. حمزاوي، شريف: "ثقافة التوجه نحو سوق الموارد غير المنظورة والأداء المتميز"، ورقة عمل مقدمة إلي الملتقي الوطني الثاني حول تسيير المؤسسات، المؤسسة الاقتصادية الجزائرية والتميز"، جامعة قالما، الجزائر، (٢٠٠٧) .

١٥. المفرجي، عادل جرحوش، علي، أحمد صالح: "رأس المال الفكري طرق قياسه وأساليب المحافظة عليه"، المنظمة العربية للتنمية الإدارية للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، القاهرة، (٢٠٠٨) .

١٦. طالب، علاء فرحات، العبادي، هاشم فوزي: "العلاقة التفاعلية بين إدارة المعرفة ورأس المال الفكري"، بحث مقدم إلى المؤتمر العلمي الأول، كلية الاقتصاد، جامعة كربلاء، (٢٠٠٦) .

١٧. الدواوي، الشيخ: "تحليل الأسس النظرية لمفهوم الأداء"، مجلة الباحث، الجزائر، العدد السابع، (٢٠١٠)

١٨. شلاللي، عبد القادر: " أثر القيم التنظيمية على الأداء الكلي للمؤسسة الاقتصادية من منظور أخلاقي، كلية العلوم الاقتصادية والتجارية وعلوم التسيير، جامعة مجلة معارف، "أكلي محند أولحاج" بالبويرة .

١٩. شادي طارق قصراوي، وآخرون: " أثر الأولويات التنافسية في الأداء المنظمي لاختبار الدور الوسيط لاستخدام نظم تخطيط موارد المنظمة وتبني الأعمال الإلكترونية فروع البنك العربي في مدينة عمان"، المجلة الأردنية في إدارة الأعمال، المجلد الثاني عشر، العدد الثاني، (2016) .

٢٠. العلاقي، بشير: "المعجم الشامل لمصطلحات العلوم الإدارية والمحاسبة والتمويل والمصارف"، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلام، مصراتة، (١٩٩٦).

٢١. أحمد، سيد مصطفى: "أدارة الموارد البشرية، الإدارة العصرية، القاهرة، (٢٠٠٤).

٢٢. زائد، عادل محمد: "الأداء التنظيمي المميز الطريق إلى منظمة المستقبل"، المنظمة العربية للتنمية الإدارية، القاهرة، (٢٠٠٢).

٢٣. البغدادي، عادل علي: "علاقة وتأثير الذاكرة التنظيمية في الأداء التنظيمي"، دراسة تطبيقية في عينة من الشركات الصناعية العامة في العراق، مجلة الإدارة والاقتصاد، العدد الخامس والستون، العراق، (٢٠٠٧).

٢٤. الجزولي، عبد الحفيظ عبد الحبيب: "تقويم وتقييم أداء أعضاء هيئة التدريس في ضوء أهداف المؤسسة الجامعية، ندوة هيئة التدريس في مؤسسات التعليم العالي (التحديات والتطوير)، جامعة الملك سعود، (١٤٢٥ هـ).

ثانياً المراجع الأجنبية:

25. Arnold، E& Public، M. C (2003). Managing Effectively in the Downsized Organization، Health Care Manager 22، (1): 56-62،

26. Brennan، J. (2002)، Intellectual Capital: Current and Policy Implication Capital، Information Systems and Operations Research، V. 39، N. 5.

- 27.Elizabeth Webster، " The Growth of Enterprise Intangible Investment in Australia"، Information Economics and Policy، (Vo1.12،No.1،2000)
- 28.Ghasmpour، A، Yusof، M، (2014): "Quality of Intellectual Capital and Human Resources Discloure on the Firm Valuation" Universiti Utara Malaysia Sintok، Malaysia .
29. Green: Effectively Managing Intellectual Capital ؛ Critical Challenge for Human Resources، (2004) .
- 30.Hanna، D، Designing Organization for High Performance، England، Addison Wesley Publishing Company، (1988) .
- 31.John P. T. Mo .and Mingwiv Zhou، " TOOIS and Methods for Managing Intangible Assests of Virtual Enterprise' '،Computer in Industry، (Vo1.51،No.2،2003) .
- 32.kotler،Philip،(2003)،"marketing management"،person education international،new jersey.
33. Kwee Keong Choong، "Inhellectual Capital: Definitions، Categorization and Reporting Models، " Journal of Intellectual Capital،(Vo1.9،No.4،2008) .
- 34.L.Edvinsson، and N. Dragonetti، Intelleatual capital: Navigating in the new Business landscape، New York University Press 1998.

35. Leaniz, M. b psque,r (2013): " Intellectual capital and relational capital: The role sustainability in developing corporate reputaion Patricia" , OmniaScince, spain.
36. Lusthaus, C. et.al. (2002). "Organizational Assess Ment: AFramework for Improving performance". washiagton. D.C. Inter–American Development Bank & Ottawa. Canada. International Development Research center.
37. N . Bontis Intellectual Capital: An exploratory study that develops measures and models Working parpos, 96- 11, Richard tvey school of Business Canada, (1996)
38. Rasha Mohammed Samir Hosney, "The Effeet of Managing Intellectual Capital on The Companies' Performance in The Egyptian Telecommunication", (Master Thesis Cairo University: Faculty of Commerce, 2011) .
39. Thomas Stewart, Intellectual Capital: The Wealth of Organizations, Doubleday, New York, (1998) .
40. Vergauwen, p., Bollan, L. and oirbans, E. (2007). "Intellectual Captial disclosure and intangiblie value drivers an empirical study, Management Decision, vol .45 Iss.

41. Webster،A.‘،،Transformation Leaderships Through Intellectual Capital:Three Case Studies of Elementary School Principles،“ph. D، University of Colorado، (2005) .
- 42.Wheelen،T،& Hunger،D.،Strategic Management and Business Policy، London Addison Wesley Publishing Co.،9th ed.،(2004) .

المادة غير العربية

❖ البحث

❖ المقال النقدي



Grace Paley: A Contemporary Minimalist Writer

Dr. Sherin Abdel Ghaffar Mohammed Ahmed (*)

Abstract:

Minimalism refers to a style in literature that is characterized by simplicity. Minimalism as a literary technique has attracted the attention of writers in the 1970s and 1980s. Since then, minimalism has become very popular in American literature. Among the most important minimalist writers are: Raymond Carver, Ann Beattie, Ernest Hemingway, Amy Hempell, Grace Paley, Tobias Wolff, Frederick Barthelme, and Cormac McCarthy. This paper traces the meaning and development of minimalism in literature as well as its common characteristics. It also examines how Grace Paley employs the minimalist technique in her work. The stories analyzed in this paper are: "Wants," "Mother," and "A Conversation with My Father."

(*) Lecturer of English Literature, Department of English, Assiut University

Keywords: minimalism – technique – characteristics –
contemporary minimalist writers

Introduction:

The term "minimal" means something that is very small in amount or size. Minimalism refers to "a style or technique (as in music, literature, or design) that is characterized by extreme sparseness and simplicity" (Merriam-Webster, 2006, p.674).

The term "minimalism" was first applied in American literature in the 1960s. However, a number of prominent writers had already employed minimalist techniques in their works. Such prominent writers included Edgar Allan Poe, Anton Chekhov, James Joyce, Samuel Beckett, and Ernest Hemingway "—all of whose conscious codes of omission were designed to make an audience feel more than they understood" (Hallett, 2000, p.12). Cynthia Hallett adds,

Poe's notion of unity and singleness of effect;
Chekhov's maxim that he must focus on the end
of a short story and 'artfully' concentrate there
an impression of total work; Joyce's minimal
dependence on the traditional notion of plot,
renouncing highly plotted stories in favor of
seemingly static episodes and 'slices' of reality;

Beckett's efforts 'to present the ultimate distillation of his inimitable world-view... to compress and edulcorate [purify] traditional genres' (Hutchings 86); and Hemingway's method of communicating complex emotional states by seemingly simple patterning of concrete detail, what he called the 'tip of the iceberg' effect.

(2000, p.12)

In *Death in the Afternoon*, Hemingway describes his "iceberg theory" or "theory of omission":

If a writer of prose knows enough about what he is writing about he may omit things that he knows and the reader, if the writer is writing truly enough, will have a feeling of those things as strongly as though the writer had stated them. The dignity of movement of the iceberg is due to only one-eighth of it being above water. The writer who omits things because he does not know them only makes hollow places in his writing. (2002, pp.153-4)

Emphasizing the significance of omission, Amy Hempel, a contemporary minimalist short story writer, writes: "A lot of times what's not reported in your work is more important than what actually appears on the page.

Frequently the emotional focus of the story is some underlying event that may not be described or even referred to in the story" (qtd. in Obendorf, 2009, p.52). Furthermore, in an interview with Conway et al., Grace Paley, another contemporary minimalist author, states, "because the world is a lot smaller, we don't have to do so much explaining. We can assume certain knowledge." (qtd. in Bach and Hall, 1997, p.6).

Writers in the 1970s and 1980s became more interested in minimalism as a literary technique. Since then, minimalism has become very important to writers of American literature. Among the most important minimalist writers are: Raymond Carver, Ann Beattie, Bret Easton Ellis, Ernest Hemingway, Amy Hempel, Bobbie Ann Mason, Tobias Wolff, Grace Paley, Mary Robison, Frederick Barthelme, and Cormac McCarthy.

As a literary style, minimalism is the same as the short story: "Both are compact, condensed, and contracted in design; both are especially dependent on figurative language and symbolic associations as channels for expanded meaning" (Hallett, 2000, p.4). However, there are certain characteristics common to minimalist fiction. Jermy

R. Bailey highlights what may be considered to be the most important elements of contemporary minimalist fiction:

- a) Simple, unadorned prose
- b) Heavy dialogue with little to no exposition
- c) First (sometimes second) person narration
- d) Ambiguous (sometimes unreliable) narration
- e) Present tense narration
- f) Repetition of words, phrases or ideas
- g) Informal, relatable and familiar tone
- h) Generally domestic and “safe” setting
- i) Stories generally include one or two simple, middle-class characters
- j) Stories are contemporary and realistic, often dealing with common place subject matter
- k) Textual omissions/gaps are used to highlight main ideas and also to create ambiguity
- l) Silence used as a form of communication
- m) Minimal action and plot
- n) Stylistically sparse (punctuation, speaker tags, personal identifiers, etc. are often limited or omitted)

- o) Important action often takes place outside the story, or just prior to the beginning of the story
- p) Open-ended conclusions.

(Bailey, 2010, pp.2-3).

In minimalist fiction, the reader plays an active role. Barthleme, emphasizing the importance of the reader, states,

Tell them that you prefer to think you're leaving room for the readers, at least for the ones who like to use their imaginations; that you hope those readers hear the whispers, catch the feints and shadows, gather the traces, sense the pressures, and that meanwhile the prose tricks them into the drama, and the drama breaks their hearts. (qtd. in Obendorf, 2009, p.54)

Kim Herzinger explains, "The reader of minimalist fiction is being asked to face the characters in the story the way we face people in the world, people who do not—[. . .] declare their personal histories, political and moral attitudes, or psychological conditions" (1985, p.17). Thus, through using omission, readers are invited to use their own understanding and experience to fill in the blanks

Minimalist writers tend to focus only on the most important ideas expressed in the story, leaving out any

unnecessary details. According to Hallett, "the tendency in literature is to evoke within a minimal frame some larger issue by means of figurative associations" (2000, p.1).

This paper examines how Grace Paley chooses to employ the technique of minimalism in her work. Grace Paley (1922-2007) is an American author classified as a minimalist short story writer. She argues, "the short-story form is marvelous and can do anything. It can be one page long, it can be forty pages" (qtd. in Bach and Hall, 1997, p.22).

In an interview, Paley explains her view regarding 'Plot':

Ever since then, everybody says I have no plot, which gets me really mad. Plot is nothing; plot is simply time, a timeline. All our stories have timelines. One thing happens, then another thing happens. What I was really talking about in that story was having a plot settled in your mind: this is the way the story's going to go. In the next thirty pages or so, this will happen, this will happen, this will happen. That's what I meant. (Dee n.p.)

In another interview with Joan Lidoff, Paley asserts, "A story is for me . . . the word 'conflict' is often used, and I

don't really like that word; [. . .]. I think it's just a more simple dialectic than that. I think it's two events or two characters or two winds or two different ideas or whatever, bumping into each other, and what you hear, that's the story" (qtd. in Bach and Hall, 1997, p.85).

Paley was one of the first women in America to write stories dealing with the ordinariness of lives of women. She dealt with important topics such as love, children, family life, divorce, and friendship. Most of her stories include one or two female characters who struggle to cope with the emotional pain caused by an action that happened before the story begins. Paley's first collection of stories, *The Little Disturbances*, appeared in 1959. This collection includes such stories as "Goodbye and Good Luck," "The Contest," "An Interest in Life," "A Woman Young and Old," and "The Used-Boy Raisers." The second collection, *Enormous Changes at the Last Minute*, was published in 1974. This second collection includes some of the most important stories of Paley: "Wants," "Debts," "Faith in a tree," "Samuel" and "A Conversation with My Father." Paley's third collection, *Later the Same Day*, appeared in 1985. Among the most important stories in this collection are:

"Mother," "Dreamer in a Dead Language," "Love," "Friends," "Anxiety," and "This is a story about my Friend, George, the Toy Inventor."

In this paper, the researcher chooses the three stories, "Wants," "Mother," and "A Conversation with My Father", as archetypes of Paley's minimalist style.

The story "Wants" is narrated, in first person, by a nameless, female character, who, at the beginning of the story, is returning two library books which are overdue for eighteen years. At the library, she meets her ex-husband.

In this story, Paley employs a minimalist setting in the story as the story takes place in a simple locale: a library. The story, consisting of only 794 words, includes only three characters: the narrator, her ex-husband, and the librarian. In this story, Grace Paley deals with a contemporary, realistic issue: divorce. The action of divorce between the narrator and her ex-husband took place before the story begins.

Throughout the story, the narrator uses the pronoun "I" to reveal that the issue of her divorce from her ex-husband weighs heavily on her mind. The use of the pronoun "I" is used to reveal certain details related to her

personality which might have been the reason behind the failure of her marriage. At the beginning of the story, the narrator declares: "I don't argue when there's real disagreement" (Paley, 1974, p.3). In the next paragraphs, the narrator continues to deliver bits of information regarding her past life. Then she confesses to the reader that she wishes she has been married to one person only: either her ex-husband or her present one. It is at this point that the narrator begins to reveal the reasons why her previous marriage failed:

In many ways, he said, as I look back, I attribute the dissolution of our marriage to the fact that you never invited the Bertrams to dinner.

That's possible, I said. But really, if you remember: first, my father was sick that Friday, then the children were born, then I had those Tuesday-night meetings, then the war began. Then we didn't seem to know them any more. But you're right. I should have had them to dinner. (Paley, 1974, p.3-4)

It is clear that the narrator has not been able to cope with the emotional pain caused by her divorce during the last 18 years. She has refused to acknowledge the fact that

she got divorced from her first husband and is now married to another person. It is only this morning when she decides to return the books she has checked out 18 years ago that she realizes that time has passed: "Just this morning I looked out the window to watch the street for a while and saw that the little sycamores the city had dreamily planted a couple of years before the kids were born had come that day to the prime of their lives" (Paley, 1974, p.5-6). The growth of the sycamore tree symbolizes the passage of time. The tree may also suggest that the woman is now fully grown and has to begin a new chapter in her life.

In most minimalist works, the title of the story is important and carefully chosen. The word "wants" means "to feel the need of; to desire earnestly" (Merriam-Webster, 2006, p.1173). In this story, the narrator has a desire to be a different person; she notes, "I want, for instance, to be a different person. I want to be the woman who brings these two books back in two weeks. I want to be the effective citizen who changes the school system and addresses the Board of Estimate on the troubles of this dear urban center" (Paley, 1974, p.5).

Grace Paley uses simple, declarative sentences in her stories. This is evident in the following exchange:

I saw my ex-husband in the street. I was sitting
on the steps of the new library.

Hello, my life, I said. We had once been
married for twenty-seven years, so I felt
justified.

He said, What? What life? No life of mine.

I said, O.K. I don't argue when there's real
disagreement. (Paley, 1974, p.3)

As shown in the above exchange, the conversations between the narrator and her ex-husband are short and to the point, direct, and often vague or understated. Ironically, the characters have much to say to each other, but communication between them turns out to be unproductive since they are different from each other.

Paley omits punctuation in her works. Take, for instance, the following conversation between the narrator and her ex-husband:

That was when we were poor, I said.

When were we ever rich? he asked.

Oh, as time went on, as our responsibilities
increased, we didn't go in need. You took
adequate financial care, I reminded him.

(Paley, 1974, p.4)

This exchange is an example of the minimalist style used throughout the story, where Paley intentionally omits

conventional quotation marks that would suggest that a conversation is taking place between the characters.

In the long sentences, Paley uses connecting words like “and” and “or” in place of punctuation marks to keep the action moving. Examples include: "I got up and went into the library to see how much I owed them" (Paley, 1974, p.3); "Just this morning I looked out the window to watch the street for a while and saw that the little sycamores the city had dreamily planted a couple of years before the kids were born had come that day to the prime of their lives" (Paley, 1974, p.5-6). Thus, the omission of commas, quotation marks and other forms of punctuation reflects the minimalist style that Paley employs in her works.

The word "want" is repeated several times throughout the story. But it has different connotations for the narrator and her ex-husband. While the wife wants her life back ("Hello my life"), the man wants to move on ("What? What life? No life of mine."). It is clear that they have different personalities, needs, and interests. The differences between these two characters are best illustrated in the following exchange:

The children went to camp four weeks a year and in decent ponchos with sleeping bags and boots, just like everyone else. They looked very nice. Our place was warm in winter, and we had nice red pillows and things. I wanted a sailboat, he said. But you didn't want anything.

(Paley, 1974, p.4-5)

As shown in the above extract, the husband is a materialistic person. On the other hand, the woman needs nothing more than to lead a normal, settled life.

Like "Wants", the story "Mother" is narrated, in the first person, by a female character. The story has only three characters: the narrator, her mother, and father. The setting of the story is very domestic: the kitchen, the bedroom, and the living room.

The story consists of just 420 words. It revolves around a woman who seems to be longing for her mother, who died prior to the beginning of the story. The narrator begins the story saying: "One day I was listening to the AM radio. I heard a song: "Oh, I Long to See My Mother in the Doorway." By God! I said, I understand that song. I have often longed to see my mother in the doorway" (Paley, 1994, p.325).

The title "Mother" suggests that there is a close relationship between the daughter and the mother. However, throughout the story, it is obvious that there has been a lack of closeness between them. The identity of the narrator as well as the mother is vague. The narrator refers to herself as "I" while she refers to her mother as "she" or "her". Their names are never mentioned.

Throughout the story, certain words are repeated several times. Some of these words include: "longed", "doorway", and "talk". The word "longed" means "to feel a strong desire or wish" (Merriam-Webster, 2006, p.628). Thus, in this story, the repetition of the word "longed" implies that either the narrator truly misses her mother or there is a distance between the narrator and her mother.

The word "doorway" means "a means of access" or "the opening that a door closes" (Merriam-Webster, 2006, p.320). The fact that the mother always stands in the doorway of her daughter's room implies that she does not have the access to enter her daughter's room. This emphasizes the idea that there is a distance between the daughter and her mother. The same thing applies to the relationship between the mother and father. She always

stood on the doorway of the living room. In other words, the woman is not permitted to enter the lives of either her daughter or husband. Thus, she is not appreciated either as a mother or as a wife.

The word "talk" carries different connotations for the mother and father. For the mother, talking is a sign of communication, but for the father, talking is a burden.

Minimalist writers often use short, fragmented sentences in their works to focus only on the main ideas expressed by the narrator and characters. The first three paragraphs are followed by a line break in the text. This technique, commonly used by minimalist writers, represents a passing of time. Immediately following the textual break, the narration continues, and then ends with another line break, suggesting the passage of time.

The simple sentence "Then she died" constitutes a whole paragraph. It evokes no emotion. It is not clear whether the narrator is sad or indifferent regarding the death of her mother. It seems confusing as though we can feel from the tone that the narrator misses her mother; however, all the memories suggest that they were detached from each other. On one occasion, the narrator remembers,

She stood one day, just so, at the front door, the darkness of the hallway behind her. It was New Year's Day. She said sadly, If you come home at 4 a.m. when you're seventeen, what time will you come home when you're twenty? She asked this question without humor or meanness. (Paley, 1994, p.325).

On another occasion, the narrator mentions,

Another time she stood in the doorway of my room. I had just issued a political manifesto attacking the family's position on the Soviet Union. She said, Go to sleep for godsakes, you damn fool, you and your Communist ideas. We saw them already, Papa and me, in 1905. We guessed it all. (Paley, 1994, p.325).

The final paragraphs show that there is a lack of compassion between the parents. They have different interests. The narrator says,

She stood there a minute. Then she sat beside him. They owned an expensive record player. They were listening to Bach. She said to him, Talk to me a little. We don't talk so much anymore.

I'm tired, he said. Can't you see? I saw maybe thirty people today. All sick, all talk talk talk

talk. Listen to the music, he said. I believe you
once had perfect pitch. I'm tired, he said.

(Paley, 1994, p.326)

Information is repeated, but little information is revealed. Paley ends the story without providing the reasons the narrator and her mother are not close to each other. This leaves the reader with more questions than answers, thus leaving all options possible.

In "A Conversation with My Father," Grace Paley discusses fiction and offers her opinions regarding plot. In this story, Paley rebels against the inevitability of plot. Paley believes that a story should not be limited to a predetermined end. On the contrary, the story should be open-ended, full of possibilities. The story revolves around two characters only: the narrator and her father. They discuss the narrative style of the narrator's writing.

The narrator's father asks her to write a simple, plain story: "I would like you to write a simple story just once more, [. . .], the kind you used to write. "Just recognizable people and then write down what happened to them next" (Paley, 1994, p.232). On the other hand, the narrator refuses to write such a conventional story with an end; she believes that putting an end to her story just "takes all hope away."

She adds, "Everyone, real or invented, deserves the open destiny of life" (Paley, 1994, p.232).

In an attempt to please her father, the narrator attempts to write a very short story with no action or ending. The story involves a mother and her drug-addict son. However, the narrator's father is not pleased as this is not what he means. He feels his daughter has left out important details:

You know there's a lot more. You know that.
You left everything out. [. . .]. There are in fact
Russian writers you never heard of, you don't
have an inkling of, as good as anyone, who
can write a plain ordinary story, who would
not leave out what you have left out. I object
not to facts but to people sitting in trees talking
senselessly, voices from who knows where . . .
. (Paley, 1994, p.233)

Thus, the narrator agrees to attempt a second version to the story, in which she attempts to fill in the details which her father believes are important. In this second story, the mother becomes a drug-addict herself in order to bond with her son. However, her son deserts her, and she is left alone.

This time the story is longer, and has an ending. Though she inserts more details in this version of the story,

she intends to leave out the most important information. Still, her father is not pleased as he feels his daughter has left the heroine alone. He believes that it is a pity to end the life of a person in such a way: "what a tragedy. The end of a person" (Paley, 1994, p.237). The father knows that life is a tragedy, that's why he is interested more in details of life than in the end of the story: "I suppose that means she was alone, she was left like that, his mother. Alone. Probably sick?" (Paley, 1994, p.236).

At this point, the narrator tries to explain the reason why she meant in the first version to leave out specific details in the story: "It doesn't have to be. She's only about forty. She could be a hundred different things in this world as time goes on. [. . .]. She could change" (Paley, 1994, p.237). Thus, instead of putting an end to her story, the writer prefers to leave all options open. The writer refuses to leave her protagonist like that: "I'm sorry for her. I'm not going to leave her there in that house crying. [. . .]. Therefore: She did change. Of course her son never came home again. But right now, she's the receptionist in a storefront community clinic in the East Village" (Paley, 1994, p.237).

Like any minimalist story, the narrator rarely says all what she wants to say, but meaning is always waiting to be found just below the surface. This proves that if the reader is willing to exert the necessary effort to find the deep meaning in a work, the writer does not need to provide all the details to write a successful story.

Conclusion:

Grace Paley employs many of the characteristics of minimalism in her work. Her stories are short. They are usually narrated, in first person, by a female protagonist, who has suffered an emotional pain prior to the beginning of the story. Paley tends to leave out important details in her stories, a technique which invites the reader to participate in the story. Thus, Paley's stories are open-ended, leaving all options possible.

Works Cited

- Bach, Gerhard and Hall, Blaine. (1997). *Conversations with Grace Paley*. The University Press of Mississippi, 1997.
- Bailey, Jeremy Robert. (2010). *Mining for Meaning: A Study of Minimalism in American Literature*. Texas Tech University.
- Dee, Jonathan; Jones, Barbara; MacFarquhar Larissa. Grace Paley, The Art of Fiction No. 131. *The Paris Review*. Accessed 24 February 2012.
- Hallett, Cynthia Whitney. (2000). *Minimalism and the Short Story-Raymond Carver, Amy Hempel, and Mary Robison*. Lewiston: Edwin Mellen P.
- Hemingway, Ernest. (2002). *Death in the Afternoon*. New York: Scribner.
- Hempel, Amy and Sapp, Jo.(1993). An Interview with Amy Hempel. *The Missouri Review* 16(1), 75-96. University of Missouri. Retrieved January 26, 2013, from Project MUSE database.
- Herzinger, Kim A. (1985). "Introduction: On the New Fiction." *Mississippi Review*, 40/41, 7-22. *Merriam Webster's Dictionary and Thesaurus*. (2206) USA: Merriam-Webster, Incorporated.

Grace Paley: Fikr Wa Ibda'
A Contemporary Minimalist Writer

Obendorf, Hartmut. (2009). *Minimalism: Designing Simplicity*. London: Springer Science & Business Media.

Paley, Grace (1974). Wants. *Enormous Changes at the Last Minute* (pp.1-6). New York: Farrar, Straus and Guiroux.

Paley, Grace. (1974). A Conversation with My Father. In Grace Paley (1994), *The Collected Stories* (pp.232-7). New York: Farrar, Straus and Guiroux.

Paley, Grace. (1985). Mother. In Grace Paley (1994), *The Collected Stories* (pp.325-6). New York: Farrar, Straus and Guiroux.

غريس بالي:

كاتبة اختزالية معاصرة

د/ شيرين عبد الغفار محمد (*)

مستخلص:

يشير مصطلح الاختزال إلى أسلوب أدبي يتميز بالبساطة. وقد اجتذب الاختزال كُتُوب أدبي لفت انتباه الكُتُوب في فترتي سبعينات وثمانينات القرن الماضي. ومنذ ذلك الحين، انتشر أسلوب الاختزال بصورة كبيرة في الأدب الأمريكي. ومن أشهر الكُتُوب الاختزاليين: ريموند كارفر، آن بّي، إرنست همنغواي، ميللر، آمي همبل، غريس بالي، طوبيلس وولف، فريدري بارثلم، وكورماك مكارثي.

يتتبع معنى الاختزال وتطوره في الألب علاوة أهم سماته كما ينظر ملياً في كيفية توظيفه من قبل غريس بالي لقن الاختزال في أعمالها القصصية. ومن القصص تم تناولها من خلال هذه التقنية: "الاحتياجات"، و"أم"، و"حديث مع أبي".

الكلمات المفتاحية: التبسط - أسلوب - خصائص - كاتب متبسط معاصر

¹ مدرس الأدب الإنجليزي بقسم اللغة الإنجليزية - كلية الآداب - جامعة أسيوط

ويطلب من :

مكتبة الآداب
٤٢ ميدان الأوبرا – القاهرة
ت: ٢٣٩٠٠٨٦٨

مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ ش محمد فريد ، القاهرة
ت: ٢٣٩١٤٣٧٧

مكتبة دار العلم
الفيوم – حي الدامعة
ت: ٣٤٥٨١٣

FIKR WA IBDH'

❖ Grace Paley: A Contemporary Minimalist Writer

No. 117

November, 2017

